ياروسلاف هاشيك

الجندي الطيب شفيك

وما جرى له في الحرب العالمية

الجزء الثاني



ترجمة: توفيق الأسدي

روايات عالمية «١٧»

الإشراف الفني : زهير الحمو

الجنــدي الطيب شفيك

الجــزء الثــاني

روايات عالمية «١٧٠»

ياروسلاف هاشيك

الجندي الطيب شفيك

وما جرى له في الحرب العالمية

الجزء الثاني

ترجمة
توفيق الأسدي

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق
١٩٨٦

العنوان الاصلي للكتاب :

JAROSLAV HAŠEK

THE GOOD SOLDIER ŠVEJK

جندي الطيب شفيك = The Good Soldier
Svejk : وماجرى له في الحرب العالمية / تأليف
ياروسلاف هاشيك ؛ ترجمة توفيق الأسدي. - ط ١. -
دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٨٦. - ج٢ (٤٦٤ص) ؛
٢٥سم. - (روايات عالمية ؛ ١٧).

١-٨٩١٫٨٣ ها ش ج ٢-العنوان ٣-هاشيك
٤-الأسدي ٥-السلسلة

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع - ٨٩١ / ١٠ / ١٩٨٦

الكتاب الثالث

الهزيمة المجيدة



الفصل الأوّل

عبقهنغاريا

وأخيراً جاءت اللحظة التي حشروا فيها ضمن العربات بنسبة (٤٢) رجلاً لكل عربة جنود و (٨) جياد لكل عربة جياد وكانت الجياد تسافر على نحو أكثر راحة من الرجال طبعاً فهي تستطيع أن تنام واقفة ، ولكن ما الفرق ؟ ها هو القطار العسكري يحمل إلى غاليسيا مرة أخرى قطيعاً آخر من الرجال الذين يقتادون إلى المسلخ .

ولكن هذا جلب على المخاوقات بعض الراحة على أية حال ، فحين تحرك القطار أخيراً أصبح أمامهم شيء محدد على الأقل ، بينما لم يكن أمامهم سابقاً سوى المجهول غير المريح والذعر من أن القطار سينطلق هذا اليوم أو غداً أو بعد غد . كان البعض يشعرون وكأن عقوبة الاعدام قد صدرت عليهم وكانوا ينتظرون ، مرتجفين خائفين ، تلك اللحظة التي يصل فيها الجلاد . ثم ساد الاستسلام الهادىء : سرعان ما سينتهي كل شيء .

لذلك صاح أحد الجنود من العربة كالمجنون :

— لقد انطلقنا . لقد انطلقنا !

كان رقيب أول الامدادات فانييك على حق تماماً حين قال لشفيك انه لا داعي للعجلة . قبل أن تصل لحظة ركوبهم العربات مرّت أيام عديدة . وطوال ذلك الوقت كانت هناك اشاعات مستمرة حول الغولاش المعلّب . وقد صرّح فانييك صاحب الخبرة أن ذلك عبارة عن خيال فقط . كيف يمكن وجود غولاش معلب ؟ ربما سيكون هناك قداس ميداني حيث أقيم قداس للسرية المتقدمة السابقة . حين يكون هناك غولاش معلب فهذا يعني الغاء القداس الميداني . والعكس صحيح : حين لا يكون هناك غولاش معلب سيكون القداس الميداني بدلا عنه .

وهكذا بدلا عن الغولاش المعلّب ظهر كبير القساوسة «إيبل» وقتل ثلاثة عصافير بحجر واحد . فقد أقام القداس الميداني لثلاث سرايا متقدمة دفعة واحدة . وقد بارك اثنتين من تلك السرايا وكانتا متوجهتين إلى الصرب أما الثالثة فإلى روسيا .

وفي هذه المناسبة خطب خطبة ملهمة وكان من الملحوظ أنه قد اقتبس مادتها من التقويم العسكري (الروزنامة) . وكان خطابه مؤثراً إلى حد أن الجنود حين اتجهوا لاحقاً إلى «موشون» ، تذكر شفيك ، الذي كان يسافر مع فانييك في ديوان مرتجل في احدى العربات ، الخطبة وقال له :

ـ ألن يكون رائعاً ، كما قال القسيس ، أن ينتهي النهار ، وتغرب الشمس بأشعتها الذهبية خلف الجبال ، وأن نسمع على أرض المعركة ، كما قال لنا ، آخر أنفاس المحتضرين ، وحشرجة الجياد التي سقطت ، وأنات الجرحى وعويل السكان المحليين وأكواخهم تحترق فوق رؤوسهم ؟ أحب الخطابات المليئة بالهراء .

أومأ فانيك برأسه موافقاً :

– كانت تلك حكاية مؤثرة لعينة .

قال شفيك :

– كانت جميلة جداً وتثقيفية . لقد حفظتها تماماً وحين أعود من الحرب سأرويها في حانة « كأس القربان » . حين كان القسيس يخطب هناك كانت ساقاه متباعدتين إلى حد أني خشيت أن تزل احداهما فيسقط فوق المذبح الميداني ويكسر جوزة هنده على وعاء القربان المقدس. وقد أعطانا مثلا رائعاً من تاريخ جيشنا في ذلك الزمن الذي كان « راديتسكي » لا يزال يخدم فيه ، وكانت الحظائر على أرض المعركة تحترق فيختلط لهيب النيران مع وهج أشعة الشمس . لكأنه شاهد على مثل ذلك بأم عينيه .

وفي اليوم نفسه كان كبير القساوسة قد عاد إلى فيينا ليحكي لكتيبة متقدمة أخرى الحكاية المؤثرة التي أشار اليها شفيك والتي كان يحبها كثيراً إلى حد أنه دعاها « خطبة مليئة بالهراء » .

خطب كبير القساوسة قائلا :

– أيها الرجال الأعزاء تخيلوا أنكم في عام (١٨٤٨) وأن معركة كوستوتسا » (١) قد انتهت بالانتصار . فبعد معركة رهيبة استمرت عشر ساعات اضطر الملك ألبرت الايطالي إلى التخلي عن ساحة المعركة المغطاة بالدماء إلى أبينا الحربي المارشال راديتسكي الذي كسب وهو في

---

(١) في عام (١٨٤٨) هزم النمساويون بقيادة المارشال رادتسكي جيش الملك تشارلز البرت ملك سردينيا الذي اضطر إلى إخلاء «لومبارديا» (سيسيل بارو ت المترجم عن التشيكية إلى الانكليزية)

عامه الربع والثمانين نصراً مجيداً كذلك . وياعجباً يارجالي الأعزاء ، فقد توقف المارشال المخضرم على الجبل أمام كوستوتسا المغلوبة! ومن حوله قادته المخلصون . وكانت دائرة القادة كلها مسحورة بجلال اللحظة ، حيث أنه إلى القرب من المارشال مباشرة ، يارجالي الأعزاء ، كان ممكناً رؤية محارب يصارع الموت . ورغم أن أوصاله كانت مبعثرة على ساحة المجد ، الا أن حامل الراية الجريح ، «هرت» ، كان يحس بعيني المارشال مسلطتين عليه.وفي نوبة تشنجية من الحماسة كان الجريح حامل الراية المقدام قابضاً على وسامه الذهبي بقوة في يده اليمنى . ولدى رؤيته للمارشال النبيل تسارعت نبضات قلبه ، وانتشر آخر ما تبقى فيه من قوة في جسده المشلول فناضل في لحظات موته وحاول ، وهو يبذل جهداً فوق مستوى البشر ، أن يزحف نحو مارشاله . خاطبه المارشال قائلا : « وفّرْ على نفسك هذه الآلام يامحاربي الشجاع ! » وقد قال ذلك وهو يترجّل عن جواده ويمد يده ليصافحه . فقال له المحارب المحتضر : « لا فائدة ياسيدي . كلا ذراعيّ مقطوعتان . ولكن هناك شيء واحد أطلبه منك . قل لي الحقيقة الكاملة : هل هو نصر شامل ؟ » أجابه المارشال بلطف : « شامل ياولدي العزيز . من المؤسف أن تشوه جروحك فرحتك » قال المحارب بلهجة كئيبة وهو يبتسم بعذوبة : «طبعاً ياسيدي النبيل ، لأ شك أن نهايتي قد اقتربت . »

فسأله راديتسكي :

« هل أنت ظمآن ؟ » فأجابه : « لقد كان هذا اليوم شديد الحرارة ياسيدي . كانت الحرارة أعلى من ثلاثين درجة . » عندها أخذ راديتسكي مطرة مساعده وقدمها إلى الرجل المحتضر الذي عبّ منها جرعة قوية ثم

صاح وهو يجاهد ليقبل يد قائده: «فليجزك الرب بألف ضعف ياسيدي!» سأله القائد: « كم مضى عليك في الخدمة ؟ » فأجابه: «أكثر من أربعين سنة ياسيدي . في آسبرن (١) منحت الوسام الذهبي » . وكنت في « لايبتسيغ »(٢) أيضاً . كما أني أحمل «صليب المدفعية » أيضاً . لقد أصبت بجراح مميتة خمس مرات والآن انتهى أمري . أوه ، ولكن يالها من فرحة وبركة إلهية أني عشت لأرى هذا اليوم . ما الـذي يهمني من أمر الموت طالما أننا كسبنا نصراً مجيداً وتمت استعادة أراضي الامبراطور ! » في تلك اللحظةأيها الرجال الاعزاء صدحت من المعسكر موسيقى نشيدنا الوطني «صان الله امبراطورنا» بألحانها القوية النبيلة من المعسكر ، وانطلقت نحو ساحة المعركة . فحاول المحارب المحتضر ، الذي كان يودّع الحياة،أن يستجمع قواه مرة أخرى . صاح بحماسة «عاشت النمسا ! عاشت النمسا ! فلتعش في هذه الأغنية الجوهرة ! المجد لمارشالنا! عاش الجيش ! » وانحنى الرجل المحتضر مرة أخرى نحو اليد اليمنى للمارشال وقبلها، ثم تهاوى وزفر تنهيدة أخيرة خرجت روحه معها . وظل المارشال واقفاً هناك برأس حاسرة أمام جسد واحدمن أشجع محاربيه . قال المارشال متأثراً وهو يمسك برأسه بعد أن طأطأها: « أحسده على هذا الميتة الجميلة . يارجالي الأعزاء، دعوني أتمنى لكم جميعاً مثل هذه الميتة الجميلة .»

كان بامكان شفيك ، وهو يتذكر خطبة كبير القساوسة أن يسميّه على نحو مبرّر ، ودون أية اساءة له : « هاذراً بخطبة مليئة بالهراء . »

---

(١) رد نابليون على اعقابه من قبل الجيش النمساوي عام (١٨٠٩) في معركة «اسبرن» وذلك حين حاول عبور الدانوب والسير نحو فيينا . (س . ب)

(٢) هزم نابليون في معركة « لا يبتسيغ » عام (١٨١٣) (س . ب)

بعد ذلك بدأ شفيك يتحدث عن الأوامر الشهيرة التي تليت عليهم قبل ركوبهم القطار . كان أحدها هو الأمر العسكري الذي وقعه «فرانتس يوسيف » نفسه ، وآخر من الأرشدوق يوسيف فرديناند القائد الأعلى للجيش الشرقي والمجموعة الشرقية . وكان كلا الأمرين يتعلقان بحوادث « ممر دوكلا » في الثالث من نيسان (ابريل» من عام (١٩١٥) ، حين انضمت كتيبتان من الفوج الثامن والعشرين بضباطهما إلى الروس على ايقاع الموسيقى الخاصة بفوجهما .

وقد تمت تلاوة كلا الأمرين بصوت مرتعش وكانت ترجمتهما إلى التشيكية تفيد بما يلي :

« الأمر العسكري تاريخ ١٧ نيسان (ابريل) من عام (١٩١٥) »

«بقلب يفيض بالحزن أصدر أمراً بفصل الفوج الامبراطوري والملكي مشاة رقم ٢٨ من جيشي بسبب جبنه وخيانته . هذا وسيتم سحب راية الفوج من هذا الفوج الذي ألحق بنفسه العار وتسلم إلى المتحف الحربي. هذا اليوم هو يوم نهاية وجود فوج تم تسميمه أخلاقياً من قبل الجوّ السائد في الوطن فذهب إلى ساحة المعارك لارتكاب الخيانة .»

« فرانتس يوسيف الأول»

«أمر الأرشدوق فرديناند يوسيف »

« خلال الحملة على أرض المعركة فشلت القوات التشيكية في انجاز المطلوب منها في المعارك الأخيرة ، وعلى نحو خاص حين كانت تدافع عن مواقع كانت متمركزة فيها لفترة طويلة. وقد استغل العدو هذا للاتصال بعناصر حقيرة من هذه القوات واقامة ارتباطات معها .

وقد قام العدو بمساعدة هذه العناصر بتوجيه هجماته ضد تلك المفارز في الجبهة المؤلفة من عناصر كتلك .

وغالبا ما كان العدو ناجحاً في مفاجأة وحداتنا وقادراً بالتالي على التغلغل في مواقعنا دون مقاومة وأسر عدد كبير من قواتنا الدفاعية .

العار والشنار والاحتقار ألف مرة على هؤلاء الاخساء الحقيرين الذين ارتكبوا الخيانة ضد امبراطورهم ووطنهم ، ولطخوا ليس شرف الرايات المجيدة لجيشنا الشجاع النبيل بل شرف الأمة التي يدعون الانتماء اليها .

وعاجلا أم آجلا سيموتون بالرصاص أو بحبل الجلاد .

إن من واجب كل جندي تشيكي يحمل أي ذرة من الشرف أن يبلغ قائده عن أي وغد أو محرض أو خائن كهذا .

وكل من يتوانى عن ذلك يعتبر هو نفسه خائنا ووغداً من النوع نفسه

فليتلى هذا الأمر على رجال الأفواج التشيكية كافة .

بأمر من ملكتنا فان الفوج الامبراطوري والملكي رقم (٢٨) قد شطب من سجل الجيش . وكل الفارين من هذا الفوج سيدفعون ثمن غلطتهم الرهيبة من دمهم حين يتم القبض عليهم . »

« الأرشدوق يوسيف فرديناند »

قال شفيك لفانيك :

ـ لقد تلوهما علينا بعد فوات الاوان بقليل. يدهشني كثيراً أنهم لم

يتلوهما علينا حتى الآن ، مع أن صاحب الجلالة الامبراطورية أصدر الأمر منذ ١٧ نيسان (ابريل) . ويبدو أنهم لسبب ما لم يرغبوا في تلاوتها علينا فوراً . لو كنت صاحب الجلالة الامبراطورية لما سمحت لنفسي أن أهمل هكذا . لو أصدرت أمراً في ١٧ نيسان فلابد من أن يتلى في ١٧ نيسان بالذات على كل الأفواج ، حتى لو سقطت السماء على الأرض .

كان الطباخ عالم القوى الخفية الذي يعمل في مطعم الضباط جالساً قبالة فانيك في الطرف الآخر من العربة وهو يكتب . وقد جلس خلفه وصيف الملازم الأول لوكاش ، العملاق الملتحي بالون ، وخودونسكي الذي عين في السرية الحادية عشرة كعامل على الهاتف . كان بالون يمضغ قطعة من الخبز العسكري ويشرح لخودونسكي مرتجفاً من الخوف أنه هو الذي ارتكب الغلطة ولم يستطع في الهرج والمرج اللذين حصلا خلال الصعود إلى القطار أن يصل إلى عربه الضباط حيث كان ملازمه الأول .

وقد أخافه خودونسكي بأن قال إن المرخ قد انتهى وانه سينال رصاصة جزاء فعلته .

أنّ بالون قائلا :

— لو أن هناك نهاية لكل هذا البؤس ! لقد كدت أقتل في المناورات قرب «فوتيتسه» فهناك كنا نسير ، جوعى وظمآنين ، وحين اقترب مساعد الكتيبة منا صحت فيه : « أعطنا بعض الماء والخبز . » فأدار جواده باتجاهي وقال لو أن ذلك حدث في الحرب لكنت سأقتل ولكان هو الذي سيطلق عليّ النار ، الا أنه سيضعني في سجن الحامية طالما أنها ليست الحرب . ولكنني كنت محظوظاً جداً حين ذهب ليقدم تقريراً

عني إلى القيادة ، فقد جفل جواده على الطريق فوقع وكسر عنقه والحمد لله .

تنهد بالون تنهيدة حرّى فشرق بقطعة الخبز . وحين تغلّب على ذلك نظر بنهم إلى حقيبتي الملازم الأول لوكاش ، اللتين كانتا في استلامه .

ثم قال بصوت كئيب :

— لقد استلم الضباط تعييناتهم من فطيرة الكبد والسلامي الهنغاري لو أن لي بقطعة منهما !

في هـذه الأثناء كـان ينظر إلى حقيبتي ملازمـه بتوق كلب نبذه الجميع فأقعى جائعاً كذئب عند باب دكان لبيع لذائذ الطعام وراح يتشمم رائحة المأكولات اللذيذة خلال طبخها .

قال خودونسكي :

— لن يضيرنا لو أنهم استقبلونا في مكان ما بغداء جيد . حين ذهبنا إلى الصرب في بداية الحرب كنا نملأ بطوننا في كل لحظة لأنهم كانوا يعطوننا شيئاً ما في كل مكان . كنا نأخذ افخاذ الأوز ونقتطع مكعبات صغيرة من أفضل اللحم الذي يعطوننا اياه ونلعب بها الداما على ألواح الشوكولاته . في « أوسيك » في كراوتيا جلب شخصان من جمعية المحاربين القدماء قدراً كبيراً من الأرانب المشوية إلى عربتنا ولم نستطع أن نتمالك أنفسنا فصببناه فوق رأسيهما . أني ذهبنا لم نكن نفعل أي شيء سوى التقيؤ خارج القطار . لقد حشا العريف ماتييكا ، وكان في عربتنا ، نفسه بالطعام حتّى اضطررنا إلى أن نضع لوحاً خشبياً على بطنه ونقفز فوقه ، كما تفعل حين تدوس على الكرنب للمخمرّ . وكان ذلك هو الشيء

الوحيد الذي يمكن أن يريحه وقد خرج ذاك الطعام منه من الاعلى والاسفل
وحين عبرنا هنغاريا رموا إلى عرباتنا بالدجاج المشوي في كل محطة .
وكنّا لا نأكل سوى المخ . في كابوسفالفا رمى الهنغاريون إلى عرباتنا
بقطع كاملة من لحم الخنزير المحمص وقد أصيب أحد الرجال بضربة
على رأسه من رأس خنزير محمص كامل كانت هائلة إلى حد أنه طارد
صاحب الهدية عبر ثلاثة خطوط للسكة الحديدية وهو يحمل حزامه بيده .
وفي البوسنة من ناحية أخرى بخلوا علينا حتّى بالماء . ولكننا على الطريق إلى
هناك حصلنا ، رغم أن ذلك كان ممنوعاً ، على مختلف أنواع
المشروبات الروحية ومحيطات بحالها من النبيذ ، ممّا جعلنا راضين جدا .
أستطيع أن أتذكر كيف أنه في احدى المحطات قامت بعض السيدات
والآنسات الشابات بتقديم الجعة لنا وقد تبولنا في أباريق جعتهن . كان
عليك أن ترى كيف فررن من العربة ! كنا جميعاً ثملين تماماً طوال
الرحلة فلم أكن قادراً حتّى على تمييز « آس الكبه » . لم نكن قد أنهينا
لعبتنا حين صدر أمر فجأة يقضي بأن نخرج من العربات فوراً . وقد
صاح أحد العرفاء ، الذي لا أتذكر اسمه ، طالباً من الجنود الغناء
بالألمانية : « على الصربيين كافة أن يروا أننا نحن النمساويين منتصرون ،
منتصرون ! » ولكن شخصاً ما رفسه من الخلف فسقط على قضبان
السكة . وبعد ذلك صرح أحدهم بأنه يجب تجميع البنادق في كومة على
شكل هرم ، وأن على القطار أن يعود فارغاً . ولكنك تعرف ما يحدث
إذا ما حلّ الهرج والمرج ! لقد حمل القطار معه كل مؤونتنا عن يومين .
ثم بدأت الشظايا تتطاير من حولنا ولم تكن تسقط أبعد من ذلك الأشجار
التي هناك . وقد جاء قائد الكتيبة على جواده من الطرف الآخر ونادى
على ضباطه أن يجتمعوا به للتشاور . ثم جاء ملازمنا الأول «ماتسيك» ،

وكان هذا تشيكياً حقيقياً ولكنه يتحدث بالألمانية . كان لونه أبيض كالطباشير وأخبرنا أننا لا نستطيع التقدم أكثر من ذلك فقد تم تفجير السكة الحديدية ، كما عبر الصربيون النهر في الليل وأصبحوا الآن على جناحنا الأيسر ، الا أنهم كانوا لا يزالون بعيدين عنّا . كان يتوجب أن نحصل على تعزيزات ، كما قال ، وعندها سنمزّقهم إلى أشلاء . ولو حدث مهما حدث فلا يجب أن نستسلم ، فالصربيون يقطعون آذان وأنوف الأسرى ويفقؤون أعينهم . كانت الشظايا تتطاير بالقرب منا ولكننا ما كنا لنكترث بها . فقد كانت هذه مدفعيتنا وقد أخذت تحكم مدى الرمي ، كما قال ، وفجأة ومن مكان ما خلف الجبل سمعنا فجأة صوت اطلاق نار . فقال الملازم الأول إن تلك هي مدافعنا الرشاشة تحكم مدى الرمي . وبعد ذلك كان ممكناً سماع رشق بالمدافع من جهة اليسار ، وكانت تلك أول مرة نسمع فيها مثل هذا الرشق العنيف فتمدّدنا فوراً على بطوننا . وقد طارت بضع قذائف من فوقنا وأحرقت المحطة . ثم بدأ الرصاص يصفّر قادماً من الجانب الأيمن ماراً فوق رؤوسنا ، وكان يمكنك سماع الصليات وطلقات البنادق . هذا وقد أمر الملازم الأول بأن يتم توزيع أكوام البنادق ليتم تعبئتها بالذخيرة . وقد وصل الضابط المناوب اليه وقال إن ذلك غير ممكن لأنه لم تكن لدينا ذخيرة وأنه يعرف تماماً أنه من المفروض أن نستلم الذخيرة عند آخر مرحلة من مراحل السفر قبل التمركز في مواقعنا المخصصة لنا . كان قطار الذخيرة قد سبقنا وهو الآن بين أيدي الصربيين حتماً .

وقف الملازم الأول ماتسيك للحظة وكأنه قد قتل في مكانه ، ثم أصدر أمره قائلا : « ثبتوا الحراب ! » ثم وقفنا ثانية وقفة الاستعداد

لفترة طويلة ، وبعد ذلك تمددنا ثانية عند عوارض السكة الحديدية فقد ظهرت طائرة وهدر الضباط : «اختبئوا ، احتموا جميعاً ! » ثم تبيّن أنها من طائراتنا وأن مدفعيتنا قد أسقطتها خطأ . وبعد ذلك نهضنا ثانية ، ولكن دون نظام ، الجميع في حال «استرح !» وقد اقترب منا فارس مسرع وصاح قبل أن يصل الينا : « أين قيادة الكتيبة ؟» فأسرع قائد الكتيبة على جواده . وقد سلّمه الفارس وثيقة ثم ابتعد متجها إلى اليمين . قرأ قائد الكتيبة الوثيقة وهو يتقدم نحونا . وفجأة استل سيفه كمن أصابه مسّ . وأتى يطير باتجاهنا . وقد هدر صائحاً في الضباط :
« انسحاب شامل ! انسحاب شامل ! إلى الحفر ! رتلا أحاديا ! »
وهكذا بدأ كل شيء . لقد بدؤوا يطلقون علينا النار من كل الجوانب وكأنهم كانوا ينتظرون تلك اللحظة بالذات . في الجانب الأيسر كان هناك حقل ذرة وكان ذاك جحيماً . تركنا حقائب الظهر على تلك العوارض اللعينة ، وزحفنا على أطرافنا الأربعة إلى الوادي . وقبل أن نعي ما حدث كان الملازم الأول ماتسيك قد أصيب برأسه من الجانب . وحين بلغنا الوادي كانت هناك أكوام من القتلى والجرحى . وقد تركناهم هناك وانطلقنا نعدو حتى المساء،ولم يكن هناك رجل واحد من رجالنا في المنطقة . لقد هرب الجميع حتى قبل أن نصل . والشيء الوحيد الذي رأيناه كان قطار تموين مسلوباً . وفي النهاية وصلنا إلى المحطة حيث استلمنا أوامر جديدة بركوب القطار والعودة إلى القيادة . ولم نستطع أن نفعل ذلك لأن القيادة كلها كانت قد أسرت في اليوم السابق ولكننا لم نعلم بذلك حتى صباح اليوم التالي .

وبعد ذلك كنا كالأيتام . لم يكن هناك من له علاقة بنا ، ولكنهم ألحقونا بعد ذلك بالفوج الثالث والسبعين حتى نستطيع الانسحاب معهم .

وطبعاً كنا سعيدين بالانسحاب ، ولكن كان علينا أولاً أن نسير إلى الأمام لمدة يوم أو نحوه قبل الوصول إلى مواقع الفوج الثالث والسبعين . وبعد ذلك . . .

لم يكن هناك من يصغي إليه الآن لأن شفيك وفانيك كانا يلعبان «المارياش» الثنائي . استمر الطباخ عالم القوى الخفية من مطعم الضباط في كتابة رسالة هائلة الحجم إلى زوجته ، التي كانت قد بدأت خلال غيابه تنشر مجلة ثيوصوفية جديدة . كان «بالون» نائماً على المقعد ، وهكذا لم يستطع عامل الهاتف سوى أن يكرر : « أجل،لن أنسى ما حدث . . . . »

ثم نهض وبدأ يتطفل على لاعبي المارياش .

قال شفيك بلهجة ودّية مخاطباً خودونسكي :

— يمكنك على الأقل أن تشعل لي غليوني حيث أنك قادم لتتطفل علينا . إن المارياش الثنائي أهم من هذه الحرب كلها ومغامرتك اللعينة تلك على الحدود الصربية . . . أوه ، ياالهي ! لكم أنا أحمق لعين ! يجب أن أرفس نفسي . لماذا لم انتظر قليلا قبل أن أرمي ذلك «الختيار»؟ ها قد جاء «الشاب» الآن . أنا أحمق بالفعل .

خلال هذه الأثناء كان الطباخ عالم القوى الخفية قد انهى رسالته وكان يقرأها لنفسه ، ويبدو عليه بوضوح أنه راض عن نفسه فقد انجز عملا جيداً أمام الرقابة العسكرية .

(زوجتي الحبيبة :

حين تصلك هذه الأسطر سأكون قد قضيت أياماً في القطار ، لأننا

متجهون إلى الجبهة.لست مسروراً بذلك لأني مضطر للتكاسل في القطار دون أن أكون ذا نفع . كما ترين ، لا يوجد طبخ في مطعم الضباط الآن ونحن نحصل على الطعام في مختلف المحطات . كنت أود لو أطبخ «الغولاش » من نوع «تسيغيد» لضباطنا خلال الرحلة عبر هنغاريا ولكننا لا نعمل شيئاً . ربما حين نصل إلى غاليسيا ستتاح لي فرصة صنع «شوليت» غاليسي حقيقي وأوزة مطهوة بالشعير أو بالأرز . صدقيني ياحبيبتي هيلينكا ، أنا أبذل قصارى جهدي لجعل الحياة أكثر قبولا لضباطنا ومساعدتهم على التغلب على مشاكلهم وتوترهم . لقد تم نقلي من الفوج إلى الكتيبة المتقدمة وكانت تلك هي أشد رغباتي حرارة ، لأني أردت ضمن الوسائل المتواضعة التي تحت تصرفي أن أضع المطبخ الميداني في الجبهة في أحسن حالة . تذكرين ياعزيزتي هيلينكا أنه حين استدعيت إلى الفوج تمنيت أن يكون لي رؤساء طيبون . وقد تحققت أمنيتك . فبالاضافة إلى أني لا أشكو من أي شيء، فاني صديق لكل الضباط بل هم بالنسبة لي بمثابة الآباء . وما أن أعرف الرقم البريدي الميداني لوحدتنا . . . »

كان لابد من كتابة هذه الرسالة بسبب الظروف التالية : لقد دخل الطباخ عالم القوى الخفية في سجلات العقيد شرودر المخصصة للشريرين إلى الأبد . لقد حماه العقيد فترة طويلة ولكنه بسبب صدفة سيئة الحظ فشل ثانية في الحصول على حصته من خاصرة العجل المشوية في حفلة الوداع التي أقيمت لضباط الكتيبة المتقدمة . وهكذا أرسله مع السرية المتقدمة إلى الجبهة وأوكل مطبخ ضباط الفوج إلى معلم سيء الحظ من «معهد المكفوفين » في « كلاروف » .

قرأ الطباخ عالم القوى الخفية مرة أخرى ما كتبه وظن أنه قد صيغ بدبلوماسية معقولة بحيث يبعده عن ساحة المعركة ، فأنت مسموح لك بأن تقول ما تحب ، وحتى في الجبهة فان هناك فرصا لحياة أكثر رخاء.

ولم يتأثر هذا طبعاً بحقيقة أنه خلال حياته المدنية ، حين كان يعمل كمحرر وصاحب صحيفة تعالج مواضيع القوى الخفية ومكرسة للمعرفة الخاصة بما وراء القبر ، فقد كتب مقالة طويلة تفيد بأنه لا يتوجب على أحد أن يخاف من الموت ، ومقالة أخرى حول تقمص الأرواح .

وها هو قد بدأ الآن يتطفل على ورق اللعب . في تلك اللحظة لم يكن هناك فرق في الرتبة بين اللاعبين : شفيك وفانييك . ما عادا يلعبان الآن الماريباش الثنائي بل الثلاثي مع خودونسكي .

كان جندي الارتباط شفيك يشتم رقيب أول الامدادات فانييك كما يشتم الفرسان بعضهم :

— كيف يمكنك أن تكون أحمق لعينا إلى هذا الحد ؟ أنت تدرك ، أليس كذلك ، أنه يلعب «البتل » ؟ (١) ليس معي أية ورقة «ديناري » وأنت ترمي بعيداً كالأحمق اللعين بـ « شاب الاسباتي » وتجعل ذلك النغل يكسب اللعبة وذلك بدلاً عن أن تلعب ورقة الثمانية الديناري .

— لماذا كل هذه الضجة اللعينة على « بتل» خاسر واحد ؟ عجبا انت نفسك تلعب كأحمق لعين . هل تتوقع مني أن أحسب ورقة الثمانية الديناري من قبعتي وليس معي أية ورقة ديناري ؟ ليس معي سوى

---

(١) بتل : تعني أن اللاعب يجب أن يخسر كل مجموعات أوراق اللعب في لعبة ليست فيها أوراق ارابحة . (س . ب)

«الختيار » و«البنت»و«الشاب» و كلها من البستوني والاسباتي ،أيها الاحمق الزاني .

قال شفيك بابتسامة :

— اذن ، كان عليك أن تلعب «الدورتش » (١) أيها العبقري اللعين . هذا أشبه بما حدث مرة في مطعم « أوفالشو» . كان هناك أحمق برخصة يحمل أوراق « دورتش » ولكنه لم يلعبها . وبدلا عن ذلك كان يرمي في كل مرة بأخفض أوراقه ويجعل كل شخص يلعب «البتل». ويالها من أوراق تلك التي كانت تأتيه ! في كل «فتة» كانت معه دائماً أعلى الأوراق ، و كما أني لن أكسب شيئاً منك الآن لو أنك لعبت «دورتش» كذلك لم أستطع في ذلك الحين أن أكسب أي شيء ولا أحد غيري أيضاً . ولو استمرت اللعبة لكنا سندفع له باستمرار . وأخيراً قلت له : «ياسيد هيرولد ، أرجو منك أن تلعب «دورتش» ولا تكن أحمق لعينا» . ولكنه غضب مني وقال إنه يلعب ما يريد وأن عليّ أن أبقي فمي مغلقاً طالما أنه من خريجي الجامعة . ولكنه دفع غالياً ثمن ذلك . كان صاحب المطعم صديقاً لنا وما كان للنادلة أن تكون أكثر إلفة ممّا كانت عليه معنا ، ولذا استطعنا أن نشرح للدورية الشرطة أن كل شيء على ما يرام . قلنا أولا إنها حيلة قذرة منه أن يعكّر هدوء الليل بمناداته للدورية الشرطة لمجرد أنه تزحلق على الجليد بالقرب من الحانة فسقط على أنفه وكسره . لم نفعل له شيئاً حين غشّ في «المارياش» ، ولكن حين اكتشفنا أمره اندفع هو إلى الخارج بسرعة كبيرة فسقط على

(١) دورتش : (مثل الفوز الساحق) ويعني أن اللاعب يجب أن يكسب كل دورة . (س . ب)

طوله على الأرض . ولقد أكّد صاحب المطعم والنادلة أننا كنا نعامله بأدب زائد عن الحد . لقد استحق ما ناله إذ كان قد جلس منذ السابعة مساء حتى منتصف الليل ، ولم يطلب سوى كأس واحدة من الجعة وأخرى من ماء الصودا ، وكان يدعي طوال الوقت أنه جنتلمان لأنه خريج جامعة. ولكنه كان يفهم في الماريياش بقدر ما تفهم عنزة بالبقدونس حسنا ، دور من في التوزيع الآن ؟

اقترح الطباخ عالم القوى الخفية قائلا :

— فلنلعب الكاوفزيك (١) . اثنان وعشرون هلرا .

قال فانييك :

— من الأفضل أن تحكي لنا شيئاً عن تقمص الأرواح كما حكيت للسيدة الشابة في الكانتين حين خرجت بأنف دام في النهاية.

قال شفيك :

— لقد سمعت شيئاً ما عن تقمص الأرواح أنا أيضاً ، فقد قررت منذ أعوام خلت أن أثقّف نفسي ، إذا سمحتم لي بهذا التعبير ، لأني لم أكن راغباً في أن أكون متخلفاً عن غيري . وهكذا ذهبت إلى غرفة المطالعة الخاصة بنقابة الصناعيين في براغ . ولكني لم أنجح في تثقيف نفسي وذلك بسبب ملابسي الرثة ولأنّ النور كان ينفذ من خلال الثقوب في مقعد بنطالي . اذن ، رفضوا ادخالي وأشاروا إلى الباب ، فقد ظنّوا أني حضرت لأسرق المعاطف . وهكذا ارتديت أفضل بذلاتي وذهبت في أحد الايام إلى «مكتبة المتحف» واستعرت مع صديق لي كتاباً حول

(١) الكاوفزيك : كانت هذه لعبة ورق حظرت ممارستها السلطات النمساوية . (س . ب)

تقمص الأرواح . وقد قرأت فيه عن امبراطور هندي تحوّل إلى قرد بعد موته ثم إلى كلب من نوع «الدشهند» ثم إلى وزير . ولاحقاً حين كنت في الجيش اعتقدت بصحة هذا الأمر ، لأن كل من كانت له نجمة أعتاد أن يسمي الجنود بالخنازير أو باسم حيوان ما . ومن ذلك يمكنكم أن تستنتجوا أنه منذ ألف عام خلت كان هؤلاء الجنود العاديون جنرالات مشهورين . ولكن حين تكون هناك حرب دائرة فان تقمص الأرواح من هذا النوع أمر شديد السخف . الله وحده يعلم كم مرة يتغير فيها الانسان قبل أن يصبح عامل هاتف أو طباخاً أو جندي مشاة مثلاً . وفجأة يتمزق إلى أشلاء بفعل قنبلة وتذهب روحه إلى حصان في سلاح المدفعية ، وحين تتحرك البطارية كلها إلى مركز ما في مكان ما ، تنفجر قذيفة جديدة تقتل الحصان الذي تقمص فيه المرحوم . ثم تنتقل هذه الروح فوراً إلى بقرة في قافلة التموين فيصنعون منها الغولاش للجنود . ومن البقرة تنتقل الروح إلى عامل الهاتف ومن عامل هاتف إلى . . .

قال خودونسكي الذي أحس بالاهانة دون شك :

ـ أود أن أعرف حقاً لماذا أكون من بين كل الناس موضوعاً لنكاتك ؟

سأله شفيك ببراءة :

ـ قل لي ، هل لك علاقة بالمناسبة بذلك الشخص من آل خودونسكي الذي فتح مكتب تحريات خاصاً وله عين كالثالوث المقدس ؟ أحب كثيراً رجال التحرّي الخصوصيين . لقد خدمت مرة لسنوات عدة في الجيش مع تحر خصوصي ، وهو شخص يدعى « شتندلر » ، وكانت له رأس موزوبة إلى حد أن الرقيب الأول كان يقول باستمرار إنه

رأى الكثير من الرؤوس المورو بة خلال فترة الاثنتي عشرة سنة التي قضاها في الخدمة ، ولكنه لم يكن يتخيل حتى أن يرى في أكثر أحلامه شططا مثل تلك الرأس الموروبة . كان يقول دائماً : « اسمع يا شتندلر ، إذا لم تجر مناورات في هذا العام ، فان رأسك الموروبة لن تكون صالحة للخدمة العسكرية ، ولكن والحال على ما هي عليه ، فانه يمكن للمدفعية على الأقل أن تحكم مدى رمي المدافع بواسطتها حين تصل إلى موقع لا توجد فيه نقاط علام أفضل منها . » وكان عليه أن يصبر على الكثير من المزاح من هذا النوع مما يصبه عليه الرقيب الأول . في بعض الأحيان وخلال المسير كان الرقيب الأول يرسل شتندلر مسافة خمسمئة خطوة نحو الأمام ثم يعطي الأمر التالي : « الاتجاه : الرأس الموروبة » . ولكن حتى السيد شتندلر كان يعاني من الحظ السيء كتحر خصوصي . كان غالباً ما يقول لنا في الكافتريا إنه كان يعاني كثيراً . كانت تأتيه مهمات كهذه مثلا : أن يكتشف إن كانت زوجة أحد زبائن مكتبه ، الذي جاء اليه في حالة من الغضب الجنوني ، تقيم علاقة مع رجل آخر ، وإن كانت لها مثل هذه العلاقة ، فمع من كانت تلك العلاقة وأين وكيف ؟ أو العكس مثلا : امرأة شديدة الغيرة أرادت أن تعرف إن كانت لزوجها علاقة مع امرأة أخرى حتى تنتقم منه في البيت. كان السيد شتندلر رجلا مثقفاً ويتحدث على نحو شديد الحساسية عن الخيانة الزوجية ، وكان دائماً على وشك البكاء حين يحكي لنا عن كل أولئك الزبائن الذين يريدون منه أن يمسك بها أو به بالجرم المشهود. كان يمكن لرجل آخر أن يبتهج لو أمسك برجل أو امرأة بالجرم المشهود ، وكانت عيناه ستجحظان من محجريهما . ولكن السيد شتندلر ، كما أفادنا بنفسه ، كان غير سعيد بذلك . لقد قال لنا بكل عقلانية انه لم يعد

يستطيع أن ينظر إلى أعمال الفسوق الخليعة تلك ، وحين حكى لنا عن تلك الأوضاع المختلفة التي وجد فيها أولئك الرجال والنساء ، كانت أفواهنا تتحلّب ، كما يحدث للكلب حين يمرون به حاملين فخذ خنزير مسلوق . وحين كنا نحرم من الخروج من الثكنة كان يرسم لنا تلك الأوضاع ، فيقول مثلا : « هكذا رأيت السيدة فلانة الفلانية مع السيد فلان الفلاني . . . » بل كان يعطينا عناوينهم . وقد كان شديد التعاسة بهذه التفاصيل . كان يقول دائماً : « لو تعرفون الصفعات التي كنت أتلقاها من كلا الطرفين ! ولكن ذلك ما كان ليزعجني بقدر ما كانت تزعجني حقيقة أني اضطررت إلى التنازل إلى حد قبض الرشاوي . ولن أنسى ما حييت إحدى الرشاوي . كان الرجل عاريا والمرأة عارية أيضاً . جرى ذلك في فندق ، ولم يكونا قد أوصدا الباب من الداخل فيالهما من أحمقين ! هذا كما أنهما لم يقدرا أن يتضاجعا على الأريكة حيث كانا كلاهما بدينين جدا ، وهكذا مارسا الحب فوق السجادة كهرّين صغيرّين . كانت السجادة مهترئة من كثرة الدوس ومليئة بالغبار وعليها أعقاب لفافات . وحين دخلت قفزا كلاهما واقفين . كان واقفاً قبالتي وقد مد يده أمامه كأنها ورقة تين . كما أنها أدارت ظهرها الي فرأيت نموذج الزخرفة التي على السجادة منطبعة على بشرتها وقد التصق عقب لفافة بعمودها الفقري . قلت : « اعذرني ياسيد ريميك . أنا التحرّي الخصوصي شتندلر من وكالة خودونسكي . ومن واجبي الرسمي أن أمسك بك بالجرم المشهود بناء على تعليمات السيدة حرمكم . إن السيدة التي معك هنا الآن تمارس علاقة غير شرعية . واسمها السيدة غروتوفا . » ولم أر في حياتي مثل هذا المواطن الهادىء الاعصاب . قال وكأنها مسألة اعتيادية تماماً : « اعذرني ياسيدي ، سأرتدي ملابسي ، إن زوجتي

هي المسؤولة الوحيدة عن هذا . إنها تقودني إلى هذه العلاقة غير الشرعية بسبب غيرتها التي لا مبرّر ولا أساس لها . وها هي دون أي دافع سوى الشك المجرّد تهين زوجها بالتوبيخ وانعدام الثقة على نحو خسيس . لا شك أن هذه الفضيحة ما عاد ممكنا منعها من الانتشار . . . أين بنطالي ؟ هذا ما سألني اياه بهدوء فأجبته : «على السرير هناك . » وبينما كان يرتدي بنطاله استمر يشرح لي : « إذا لم يكن ممكناً منع الفضيحة من الانتشار سيقول الناس : فليكن الطلاق ، ولكن حتى في مثل هذه الحالة فان رائحة الفضيحة لا يمكن كبحها . الطلاق أمر خطر دائماً في أي حال من الأحوال » . هذا ما كان يقوله وهو يكمل ارتداء ملابسه . ثم قال : « أفضل شيء للزوجة هو أن تسلّح نفسها بالصبر وألاّ تفعل ما يثير فضيحة مدوّية . ولكن يمكنك أن تفعل ما تريد . سأتركك مع السيدة هنا. في هذه الأثناء كانت السيدة غروتوفا قد صعدت إلى السرير . وهكذا صافحني السيد زيميك وغادر الغرفة».لا أستطيع أن أتذكر الآن كيف شرح شتندلر كل شيء وما الذي قاله بعد ذلك ، لأنه تحادث مع السيدة في السرير بطريقة عقلانية جدا . لقد قال لها أن الزواج لم ينشأ كمؤسسة يجد الجميع فيها السعادة فوراً ، وانه لمن واجبنا في الزواج أن نكبح الشهوة وأن نطهرّ الجانب الجسدي ونتسامى به . وقد استأنف السيد شتندلر قائلا : « وبينما كنت أقول ذلك بدأت أخلع ملابسي بالتدريج ، وحين أصبحت عارياً تماماً وفي حالة من الانشداه والاثارة كذكر الأيّل في فصل الدورة التزوية ، دخل السيد « ستاخ » الذي أعرفه جيداً إلى الغرفة . كان هذا أيضاً تحرياً خصوصياً من الوكالة المنافسة لوكالتنا ، وكالة السيد «شترن» ، الذي طلب منه السيد «غروت» المساعدة فيما يخص زوجته التي ادعى أن لها عشيقاً . لم يقل «ستاخ » شيئاً آخر سوى « آه ،

ياسيد شتندلر ، بالجرم المشهود مع السيدة غروتوفا ! تهانينا ! » ثم أغلق الباب مرة بهدوء وهو يغادر الغرفة . قالت السيدة غروتوفا : «لا ضرورة لارتدائك الملابس بهذه السرعة . لا فرق الآن . لك مكان إلى جانبي هنا . »قلت لها وأنا لا أعرف عما أتحدث عنه . «ياسيدتي الطيبة ، إنما يقلقني بالضبط هو مكاني بالذات . » وأستطيع أن أتذكر أني قلت إنه في حال وجود خلافات بين الزوج والزوجة ، فان تربية الأطفال ستتأثر بذلك . وبعد ذلك حكى لنا كيف أنه ارتدى ملابسه بسرعة وهرب وقرر أن يحكي كل شيء لرئيسه السيد خودونسكي ، ولكنه مرّ أولا على الحانة ليشرب شيئاً ينعشه . الا أن النار كانت قد شبّت قبل أن يعود إلى المكتب فقد كان السيد ستاخ قد وصل وفق أوامر من رئيسه شترن إلى مكتب السيد خودونسكي ليصدمه بإعلامه عن نوع الموظف الذي يستخدمه في وكالته للتحريات الخاصة . لم يكن السيد خودونسكي قادراً على التفكير بأي شيء آخر سوى أن يبعث وراء السيدة شتندلر كي تستطيع أن تتعامل بالذات مع زوجها الذي أرسل في مهمة رسمية وأمسك به بالجرم المشهود من قبل وكالة منافسة . هذا وقد اعتاد السيد شتندلر أن يقول كلما طرق هذا الموضوع : « ومنذ ذلك الحين فان رأسي أصبح أشد وربأ من السابق . » والآن هيا نستمر في لعب «الخمسة عشر » .

وهذا ما فعلوه .

* * *

توقف القطار عند المحطة في « موشون » . كان المساء قد حل فلم يسمح لأحد بالخروج من العربات .

وحين انطلق القطار مجدداً كان ممكناً سماع صوت قوي صادر

عن أحدى العربات . كان الأمر أشبه بمحاولة شخص ما أن يغرق صوت القطار . فضمن الجو القدسي للمساء كان أحد الجنود الألمان من «كاشبر بسكه هوري» يصيح بمواء قططي نزويّ مخيف مطرياً على الليل الصامت الهابط على السهول الهنغارية :

« ليلتك طيّبة ! ليلتكم طيبة !

يافترة الراحة المرهقة ..

مع انتهاء النهار المقموع

ترتاح اليد المشغولة

حتّى يطل نور الفجر .

ليلتك طيبة ! ليلتك طيبة ! »

صاح أحدهم مقاطعاً المغني الحزين :

— أغلق شدقيك أيها اللعين !

فكان أن صمت هذا . ثم جروه بعيداً عن النافذة .

لكن الأيدي المشغولة لم تهدأ حتّى الصباح . ففي كل مكان من القطار كان الجنود يلعبون الورق على ضوء الشموع ، وقد تابع شفيك والآخرون لعب «الكاوفزيك» على ضوء مصباح كازي صغير معلّق على الجدار . وكلما انفجر أحدهم لدى شراء ورقة ، كان شفيك يقول إن « الكاوفزيك» هي أعدل لعبة في الورق ، لأن أي لاعب يستطيع أن يقايض بأي عدد بريده من الأوراق .

أكّد شفيك قائلا :

— في لعبة الكاوفزيك ورقتا الآس والسبعة هما فقط اللتان تضطر إلى شرائهما ، وبعد ذلك تستطيع أن ترمي بأوراقك . ليس عليك أن تشتري الأوراق الأخرى . فأنت تفعل ذلك مخاطراً عندئذ .

اقترح فانييك:

— فلنلعب «المباركة» (١) .

فوافقه الجميع .

قال شفيك وهو يقطع الورق :

— سبعة الكبّه . فليراهن كل واحد بخمسة هلرات وليأخذ أربع ورقات . لا تضيعوا الوقت حتى نلعب «دقاً» جيداً .

وقد بدت السعادة على وجوههم ، كأنه لم تكن هناك حرب دائرة ولا يحزنون ، ولا كانوا جالسين في قطار يقودهم إلى مواقع في خضم المعارك والمذابح الهائلة والدموية ، بل إلى طاولات لعب الورق في مقهى من مقاهي براغ .

قال شفيك بعد «دق» واحد :

— لم أتخيل أبداً حين لم يكن في يدي أي شيء وقايضت على أوراقي الأربع أني سأسحب آساً . ما الذي كنتم تظنون أنكم ستفعلونه بي بورقة « الختيار » تلك ؟ سأحطم « ختياركم » قبل أن تعرفوا أين أنتم .

وبينما كانوا يحطمون الختيار » (أو الملك) بالآس ، كان الملوك في الجبهة يحطمون واحدهم الآخر بواسطة عبيدهم .

* * *

---

(١) نوع من أنواع لعبة الكاوفزيك ، ولكن المراهنات تكون أعلى . (س . ب .)

في حافلة الضباط حيث كان ضباط الكتيبـــة المتقدمـــة جالسين ، ساد صمت غريب منذ بداية الرحلة . كان معظم الضبّاط منهمكين في كتيب مجلّد بالقماش عنوانه «خطايا الآباء» ، وهو عبارة عن رواية قصيرة للكاتب «لودفيغ غانغهوفر» ، وكان الجميع مشغولين في وقت واحد في قراءة الصفحة (١٦١) ، وكان النقيب ساغنر ، قائد الكتيبة ، يقف عند النافذة ويمسك بهذا الكتاب نفسه وقد فتح أيضاً على الصفحة (١٦١) .

كان يتفرّج على المناظر الطبيعية ويفكر في طريقة يشرح فيها لكل شخص بأوضح أسلوب ممكن ما الذي عليه أن يفعله بالكتيب . وكان في الواقع سريّاً للغاية .

في هذه الأثناء كان الضباط يفكرون في أن العقيد شرودر قد جن جنونه دون شك وإلى الأبد ، فقد كان مخبلا منذ فترة طويلة ، ولكن لم يكن متوقعاً له أن يجنّ هكذا كل هذا الجنون . قبل مغادرة القطار استدعى الضباط إلى «اجتماع» أخير وأعلمهم أن كل واحد منهم سيحصل على نسخة من كتاب «خطايا الآباء» لمؤلفه «لودفيغ غانغهوفر» وقد أرسلت النسخ إلى ديوان الكتيبة .

قال بتعبير غامض على نحو رهيب :

— أيها السادة ، لا تنسوا أبداً الصفحة (١٦١) !

وها هم منهمكون الآن في هذه الصفحة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يفقهوا شيئاً منها . فهذه الصفحة تحكي عن امرأة اسمها «مارتا» ، وهذه المرأة تأتي لتجلس إلى طاولة الكتابة ، وتخرج مخطوطة وتفكر بصوت عال بأن على الجمهور أن يشعر بالشفقة على بطل المسرحية . ثم وعلى الصفحة نفسها

يظهر أيضاً شخص يدعى «ألبرت» ويحاول أن ينكّت طوال الوقت . وهذا المشهد الذي لا علاقة له اطلاقاً بما سبقه بدا تافها جداً حتى أن الملازم الأول لوكاش عضّ حامل لفافته غيظاً .

فكّروا جميعهم في أن العجوز قد جنّ لا ريب . لقد انتهى أمره . سينقل دون شك إلى وزارة الحربية .

نهض النقيب ساغنر من مكانه قرب النافذة بعد أن رتّب كل شيء في ذهنه حسب ما يرضيه ، لم يكن موهوباً جداً في التدريس ، لذا فقد فكر فترة طويلة قبل أن يضع في رأسه الخطة الكاملة للمحاضرة الخاصة بموضوع الصفحة (١٦١) .

وقبل أن يبدأ الشرح خاطبهم بعبارة «أيها السادة » كما اعتاد العقيد العجوز المصاب بالرعشة أن يفعل حين يخاطبهم ، رغم أنه خاطبهم قبل أن يركبوا القطار بعبارة : « أعزائي » .

ـ حسنا أيها السادة . . .

ثم بدأ يشرح لهم كيف أنه استلم في المساء السابق تعليمات من العقيد حول الصفحة (١٦١) في كتاب «خطايا الآباء» من تأليف «لودفيغ غانغهوفر» .

ثم أستأنف برزانة :

ـ حسنا أيها السادة ، معلومات سرية جداً حول النظام الجديد لحلّ شيفرة البرقيات في الميدان .

أخرج المرشح بيلغر دفتر ملاحظات وقلم رصاص وقال بلهجة حماسية جداً :

— أنا جاهز ياسيدي .

نظر الجميع إلى ذلك الغبي ، الذي كانت حماسته في مدرسة المتطوّعين تقترب من حدود الحماقة . لقـــد تطوع في الجيش وحين كان قائد مدرسة المتطوعين ينظر في الشؤون الخاصة للطلاب ، فقد اغتنم هذا الفرصة ليعلمه أن أجداده كانوا يسمون في الأصل « بوغلر فون لويتهولد » ويحملون كشعار خاص بالنبالة جناح لقلق مع ذيل سمكة .

ومن ذلك الحين سمّي باسم شعار النبالة الخاصة بأجداده : وأصبح «جناح لقلق مع ذيل سمكة » مضطهداً على نحو لا هوادة فيه وأصبح مكروها من الجميع فوراً ، لأن ذلك لم يكن ملائماً على الاطلاق لمهنة أبيه المحترمة حيث كان هذا تاجر أرانب . ولكن هذا الشاب الرومانسي المتحمس كافح بكل قوة ليلتهم العلوم العسكرية كلها ، ولم يبرع في الاجتهاد ومعرفة كل شيء يتاقّنه فحسب ، بل قام وحشر في رأسه المزيد ثم المزيد من المعلومات عن العلوم العسكرية وتاريخ الحروب ، والتي حاول باستمرار أن يتكلم عنها ، وحتى تم انتقاده على نحو مدمرّ وتحطيمه تماماً . وفي دوائر الضباط كان يعتبر نفسه على درجة واحدة مع الرتب العليا .

قال النقيب ساغنر :

— أنت أيها المرشح هناك ، لا تتكلم إذا لم أسمح لك بذلك . لم يطلب منك أحد أن تبدي رأيك . ولكنك عسكري لامع لعين رغم ذلك . أنا أعطيك معلومات سرية للغاية وتقوم بتدوينها في دفترك . لو أضعت دفترك فعليك أن تتوقع المثول أمام محكمة ميدانية عسكرية .

فوق كل شيء آخر كان من عادة المرشح بيغلر أن يحاول دائماً أن يقنع الجميع بحسن نواياه .

أجاب :

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أنني حتى لو أضعت دفتري فلن يستطيع أحد أن يفك الرموز التي كتبتها ، لأنني أستعمل الاختزال ولا يستطيع أي شخص أن يقرأ الرموز التي استعملها . أنا أستعمل النظام الانكليزي .

جمّده الجميع بنظرة احتقار . كما رفض النقيب ساغنر ملاحظته تلك بتلويحه من يده وتابع محاضرته .

– لقد سبق لي وأشرت إلى النظام الجديد في فك رموز الشيفرة في ميدان المعركة ، وإذا لم يكن واضحاً لكم السبب في دعوتكم إلى قراءة الصفحة (١٦١) من رواية لودفيغ غرانغهوفر . «خطايا الآباء » ، فأستطيع أن أقول لكم أيها السادة انها مفتاح فكّ نظام الشيفرة الجديد ، والذي أصبح ساري المفعول الآن على أساس التوجيهات الجديدة الصادرة عن رئاسة أركان الجيش الذي ننتمي اليه . وكما ستدركون فان هناك هناك أنظمة كثيرة لفك الرسائل الهامة في الميدان . وآخرها ، أي هذا النظام الذي نستعمله الآن، هو طريقة الرقم المتمّم . وهذا يبطل رموز الشيفرة وتوجيهات الفك التي أعطيت لكم في الأسبوع الماضي من قبل أركان الفوج .

همهم المرشح بيغلر المجتهد لنفسه قائلا : « نظام الأرشيدوق ألبرت : ٨٩٢٢=ر والمقتبس عن نظام غرونفيلد » .

رنّ صوت النقيب في أنحاء العربة :

– النظام الجديد بسيط للغاية . وقد حصلت شخصياً من العقيد على الكتاب رقم (٢) والمعلومات . فمثلا لو أردنا الحصول على الأمر القائل : « في النقطة ٢٢٨ وجه نيران المدافع الرشاشة إلى اليسار » ، سنستلم أيها السادة البرقية التالية : « شيء – مع – نا – أن – نحنا – ننظر في –ال– موعود– اا – مارتا– أنت – ذلك – تواق – ثم – نحن – مارتا نحن – هو – نحن – شكرا – حسنا – لجنة القيادة – نهاية – نحن موعود نحن – حسن – موعود – فعلا – يفكر – فكرة – تماماً – انظمة – انظمة – صوت – أخير .» كما ترون فان هذا بسيط إلى حد مخيف وليست فيه أية مجموعات غير ضرورية . من الأركان بالهاتف إلى الكتيبة ومن الكتيبة بالهاتف إلى السرايا . بعد أن يستلم هذه البرقية بالشيفرة يقوم القائد بحلها بالطريقة التالية : يأخذ «خطايا الآباء » ويفتحه على الصفحة (١٦١) ويبدأ من اعلاها وينظر إلى كلمة « شيء» على الصفحة المقابلة أي (١٦٠) . حسنا أيها السادة . في أول مرة ترد فيها كلمة « شيء» في ص (١٦٠) تكون هي الكلمة الثانية والخمسون في هذه الصفحة ، ولذا ينظر القائد إلى الحرف الثاني والخمسين من أعلى الصفحة الصفحة المقابلة رقم (١٦١) . أرجو أن تلاحظوا أن الحرف هو «ف» . الكلمة الثانية من البرقية هي « مع » أي، وأرجو أن تنتهبوا إليّ جيداً. الآن أيها السادة : إن الكلمة رقم (٨٨) من ص (١٦٠) تتطابق مع الحرف الثامن والثمانين من الصفحة المقابلة رقم (١٦١) أي حرف «ي» والآن نكون قد فككنا رمزي كلمة « في» . ثم نستمر بهذا الاسلوب حتى نفهم محتوى الأمر ، أي : « في النقطة ٢٢٨ وجه نيران المدافع الرشاشة إلى اليسار . » انجاز صادق أيها السادة ، بسيط ومستحيل فكه

دون المفتاح المطلوب : أي الصفحة (١٦١) من كتاب «خطايا الآباء» تأليف لودفيغ غانغهوفر .

حدق الجميع في صمت إلى الصفحتين التعيسيتين وفكروا فيهما. وساد الهدوء لحظة حتى صاح المرشح بيغلر فجأة بصوت مشوب بالقلق :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أنه غير صحيح وحق المسيح ومريم !

وقد كان النظام الجديد غامضاً إلى أقصى حد. فمهما بذلوا من جهد، لم يستطع أي ضابط عدا النقيب ساغنر أن يجد الكلمات التي على الصفحة (١٦٠) والأحرف المطابقة لها على الصفحة (١٦١) والتي يبدأ بها مفتاح الحل .

قال النقيب ساغنر متلعثما حين أدرك أن صرخة المرشح بيغلر كانت صادقة :

— أيها السادة ، ما الذي حدث ؟ هل هي موجودة في نسختي من كتاب «خطايا الآباء» لمؤلفـــه غانغهوفر وليست موجودة في نسخكم ؟

قال المرشح بيغلر :

— اسمح لي ياسيدي أن ألفت انتباهكم إلى حقيقة أن رواية لودفيغ غانغهوفر مؤلفة من جزئين . ويمكنك أن تتحقق من ذلك بالنظر إلى صفحة العنوان الأولى التي تقول : «رواية في جزئين». لدينا «الجزء الأول» ولديك «الجزء الثاني» . لذا فانه واضح وضوح الشمس في النهار أن أن الصفحتين(١٦٠)و(١٦١) في نسخنا لا تتطابق مع الصفحتين اللتين هما

في نسختك . لدينا شيء مختلف تماماً . فوفقاً لنسختك تكون الكلمة الأولى من البرقية المرمزة هي « في » ولكن كلمتنا هي تكون «هو » .

والآن اتضح أن بيغلر لم يكن أحمق إلى ذلك الحد .

قال النقيب ساغنر :

— لدي « الجزء الثاني » وقد حصلت عليه من أركان اللواء ، ومن الواضح إنها مسألة خطأ . لقد أمر العقيد بتوزيع « الجزء الأول » عليكم .

ثم استأنف وكأنه كان واضحاً كضوء النهار أنه يعرف منذ البدء ما حدث وحتى قبل أن يلقي محاضرته عليهم حول النظام البسيط لفك الرموز :

— لقد حدثت لخبطة دون شك في قيادة أركان اللواء . وهم لم يعلموا الفوج بأن الموضوع يتعلق بالجزء الثاني وحدث ما حدث بهذه الطريقة .

في هذه الأثناء كان المرشح بيغلر ينظر بانتصار إلى كل شخص من الموجودين.وهمس الملازم الأول «دوب» في أذن الملازم الأول لوكاش بأن «جناح اللقلق مع ذيل السمكة » قد سجّل واحدة على النقيب ساغنر وأنه يستحقها فعلا .

قال النقيب ساغنر مرة أخرى وكأنه يريد أن يبدأ حواراً لأن الصمت كان مربكا جداً :

— يالها من حالة عجيبة أيها السادة ! العاملون في ديوان اللواء ليسوا لامعي الذكاء على ما يبدو !

كرر المرشح بيغلر الذي لا يعرف الكلل وهو يريد أن يستعرض معرفته مرة أخرى أمام الموجودين :

— اسمح لي أن أضيف أن المسائل من هذا النوع والتي لها خاصية السرية ، بل السرية للغاية ، لا يتوجب أن تأتي من الفرقة عبر ديوان اللواء . إن مسألة تخص أهم القضايا السرية للجيش يجب أن تنتقل بواسطة نشرة سرية للغاية إلى قادة الفرق والالوية والأفواج فقط . أعرف أنظمة الشيفرة المستعملة في حربي ساردينيا وسافوي ، وفي الحملة الانكليزية — الفرنسية على سيباستيبول ، وخلال « ثورة البوكسر » في الصين وفي الحرب الروسية — اليابانية الأخيرة . وقد كانت هذه الأنظمة تنقل . . .

قال النقيب ساغنر بتعبير ملؤه الاحتقار والانزعاج :

— لا يهمنا اطلاقاً أمر ذلك يامرشح بيغلر . لا شك أن النظام المعني والذي شرحته لكم ليس أفضل ما لدينا فحسب بل هو لا يضارع أيضاً . تستطيع الآن كل ادارات مكافحة التجسس الموجودة في قيادات أركان العدو أن تحزم حوائجها . وحتى لو انفجر الاعداء غيظاً فلن يستطيعوا أن يفكوا هذه الشيفرة . انها شيء جديد تماماً . هذه الرموز لا سابق لها .

وقد سعل المرشح المواظب بيغلر سعلة العارف ، ثم قال :

— هل لي أن ألفت انتباهكم ياسيدي إلى كتاب « كريكهوف» المتعلق بالشيفرة العسكرية . يمكن لأي شخص أن يشتري هذا الكتاب من ناشري «دائرة معارف العلوم العسكرية » ، وهناك ستجد ياسيدي بالتفصيل الطريقة التي سبق لك وشرحتها لنا للتو . إن مخترعها هو العقيد «كيرخر» الذي خدم في الجيش الساكسوني في زمن نابليون . إنه نظام

كيرخر الذي يعتمد على الكلمات ياسيدي . كل كلمة من البرقية تفسر على الصفحة المقابلة بواسطة مفتاح . وقد حسن الملازم الأول « فلايسنر » هذه الطريقة في كتابه « دليل الشيفرة العسكرية » ، والذي يمكن لأي شخص أن يشتريه من ناشري «الأكاديمية العسكرية » في «فينر نويشتات». اسمح لي ياسيدي . . .

ثم دسّ الموشح بيلغر يده في حقيبته وأخرج الكتاب الذي كان يشير اليه واستأنف قائلا :

– ان فلايسنر يعطينا هذا المثال بعينه . وقد ترغبون جميعاً في التأكد من ذلك بأنفسكم . انه المثال نفسه بالضبط الذي سمعناه للتو :

« برقية : في النقطة ٢٢٨ وجه نيران المدافع الرشاشة إلى اليسار .

المفتاح : لودفيغ غانغهوفر : «خطايا الآباء « الجزء الثاني »

كما تجدون أيضاً ما يلي : (الرموز : شيء – مع نا – أن – نحن ثم – نحن – ننظر – في – الـ – موعود – الـ – مارتا – . . . »

وهكذا دواليك . كما سمعنا للتو تماماً .

لم يكن هناك جواب على هذا . كان الغرّ « جناح اللقلق مع ذيل السمكة » على حق تماماً .

لقد توصل أحد جنرالات هيئة أركان الجيش الى حيلة تنقذه من بذل الجهد إذ اكتشف كتاب «فلايسنر » حول الشيفرة العسكرية وكان ما كان.

خلال هذا الوقت كله بدا على الملازم الأول لوكاش أنه كان يحاول التغلب على توتّر داخلي غريب . كان يعضّ على شفته ويبدو وكأنه

يريد أن يقول شيئا ما ، إلاّ انه راح في النهاية يتكلّم حول شيء يختلف عمّا أراد في الأصل أن يقوله .

— لا حاجة إلى النظر إلى هذه المسألة بكل هذه المأساوية . حين كنا في المعسكر في «بروك أن ديرلايتا »، تم تغيير أنظمة الشيفرة عدة مرات. قبل أن نصل إلى الجبهة سيتم تبنيّ أنظمة جديدة للشيفرة وعلى أية حال لن يكون هناك وقت كاف لفك رموز مثل هذه البرقية في الميدان . فقبل أن يكون لدى أي منّا الوقت لفك رموز برقية كتلك التي وردت في المثل إياه ، تكون السرية والكتيبة واللواء في خبر كان . ليس لهذا كله أية أهمية عملية .

أومأ النقيب ساغنر برأسه على نحو شديد التردّد ، ثم قال :

— عمليّاً ، ومن خلال تجاربي الشخصية في معارك الصرب ، لا وقت هناك لدى أي ضابط لفك رموز البرقيات . لا أعني أنه لن تكون للشيفرة أهميتها في حالة المكوث الطويل في الخنادق حين نتحصن وننتظر . وصحيح أيضاً أن الشيفرات تتغير .

كان النقيب ساغنر يتراجع على طول الخط :

— ان قياداتنا تقللّ من استعمال الشيفرة حين تتصل مع القوات التي في المواقع ، ويقع جزء كبير من اللوم على عدم دقة هواتفنا الميدانية وعدم امكانية الاعتماد عليها . وخاصة خلال تبادل نيران المدفعية حين لا يلفظون المقاطع الفردية بوضوح . فأنت لا تستطيع أن تسمع شيئاً على الاطلاق ويسبّب ذلك في المزيد من الفوضى .

ثم أضاف بلهجة تنبؤية :

– الفوضى أسوأ شيء ممكن أن يحدث في ميدان المعركة أيها السادة .

ثم صمت .

استأنف قائلا بعد أن نظر إلى خارج النافذة :

– خلال لحظة سنكون في «راب» . هناك سيحصل الجنود أيها السادة على خمسة عشر «ديكا» من السلامي الهنغاري . وستكون هناك فترة للاستراحة مدتها نصف ساعة .

ثم نظر إلى البرنامج وقال :

– في الساعة ٤و١٢ نغادر . في ٣,٥٨ يجب أن يكون كل شيء ضمن العربات . سنغادر القطار وفق ترتيب السرايا . السرية الحادية عشرة أولا وهكذا دواليك . كل فصيلة على حدة . الاتجاه : المستودع رقم (٦) . المشرف على التوزيع : المرشح بيغلر .

نظر الجميع إلى المرشح بيلغر نظرة تقول : « ستكون نزهتك ممتعة أيها المخنّث . »

ولكن المرشح المواظب بيغلر كان قد سبق له وأخرج من حقيبته ورقة ومسطرة ورسم خطوطاً على الورقة وقسمها وفقاً للسرايا المتقدمة وراح يسأل قادة مختلف السرايا عن عدد رجالهم . لم يكن أي منهم يعرف ارتجالا عدد جنوده ولم يستطيعوا أن يعطوه الارقام المطلوبة الا من خلال ملاحظات مبهمة مدونة على دفاترهم .

في هذه الأثناء كان النقيب ساغنر يقرأ يائساً في كتاب « خطايا الآباء» التعيس،وحين توقف القطار في المحطة في «راب»، أغلقه وقال :

— ليست كتابة لودفيغ غانغهوفر سيئة أبداً .

كان الملازم الأول لوكاش أول من اندفع خارج حافلة الضباط وذهب إلى العربة بحثا عن شفيك .

* * *

كان شفيك والآخرون قد توقفوا عن لعب الورق منذ زمن وكان وصيف الملازم الأول لوكاش ، بالون ، قد سبق له وأحس بالجوع بحيث بدأ بالتمرد ضد السلطات العسكرية وراح يقول للاخرين انه يعرف بالضبط كيف يحشو أولئك السادة الضباط بطونهم . الأمر أسوأ في هذه الايام مما كان خلال فترة القنانة.لم تكن الأمور هكذا في الجيش في العهود السابقة . لقد كان جده ، وهو متقاعد الآن ، يقول دائماً إن الضباط في حرب عام (١٨٦٦) اعتادوا أن يشاركوا الجنود في الفراريج والخبز المخصص لهم . لم تكن هناك نهاية لحفلات عويله حتى وجد شفيك في النهاية أنه من الواجب أن يدافع عن الحياة العسكرية في الحرب العالمية فقال بودّ حين وصلوا إلى «راب» :

— لا شك وأن جدك لا يزال شابا بعد إن كان لا يستطيع أن يتذكر سوى حرب عام (١٨٦٦) . أعرف رجلا يدعى «رونوفسكي» ، وله جد كان في ايطاليا أيام القنانة ، وقد خدم اثني عشر عاماً هناك وعاد إلى البيت برتبـــة عريف . وبما أن الجد كان عاطلا مـــن العمل فقد استضافه في بيته ليعمل لحسابه . ومرة ذهبا ليؤديا أعمال السخرة المفروضة عليهما من قبل الإقطاعي ، وكانت مهمتهما هي نقل جذوع الشجر بالعربة . وكان أحد الجذوع ، كما أخبرنا الجد الذي يعمل لحساب الأب ، ضخماً جداً ولم يستطيعا تحريكه . وهكذا قال : « فلنترك هذه

الآفة هنا . من سيتعب بها ؟ » وقد راح أحد حراس الصيد الذي سمع هذا الكلام بالصراخ عليه ،ورفع عصاه وقال أن عليه إن يحمل ذلك الجذع ، حسنا ، لم يقل جد السيد رونوفسكي شيئاً سوى : « أيها الساذج الأخرق أنا من المحاربين القدماء ». ولكنه استدعي لاحقاً للخدمة في ايطاليا مرة أخرى . وقد بقي هناك عشر سنوات أخرى وكتب رسائل إلى البيت تفيد بأنه حين يعود إلى الوطن سيضرب حارس الصيد بفأس على رأسه . وكان من حظ حارس الصيد أنه مات قبل ذلك .

في تلك اللحظة ظهر لوكاش في باب العربة وقال :

— ياشفيك ، تعال إلى هنا ، توقّف عن سرد حكاياتك السخيفة وتعال واشرح لي مسألة معينة .

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أني في خدمتكم .

أخذ الملازم الأول لوكاش شفيك جانباً وكانت النظرة التي رمقه بها وهو يتابعه بعينيه ، مليئة بالشك .

خلال محاضرة النقيب ساغنر التي انتهت بالفشل التام ، راح الملازم الأول يشحذ موهبته الخاصة في أعمال التحري وإن كانت القضية لا تحتاج إلى كثير من التمحيص الدقيق.ففي اليوم السابق على المغادرة أبلغه شفيك بما يلي : «سيدي ، هناك بعض الكتب في ديوان الكتيبة يتوجّب توزيعها على السادة الملازمين ، ولقد أحضرتها من ديوان الفوج .»

ولذا فانهم حين عبروا الخط الثاني من القضبان وأصبحوا خلف قاطرة مهجورة ، كانت تنتظر منذ اسبوع قافلة الذخيرة ، سأله الملازم الأول لوكاش مباشرة :

— قل لي ياشفيك ماذا حدث لتلك الكتب التي أخبرتني عنها ؟

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أنها حكاية طويلة وأنت تتفضل فتغضب بسرعة حين أغرق في التفاصيل ، كتلك المرة التي أردتَ فيها أن تضربني على حنكي حين مزقتَ تلك الوثيقة الخاصة بالقرض الحربي وقلتُ لك إني قرأت مرة في أحد الكتب أنه في الايام الغابرة وحين كانت تشن الحروب كان على الناس أن يدفعوا لقاء نوافذهم عشرين هلرا عن كل نافذة والمبلغ نفسه عن أوزانهم . . .

قال الملازم الأول لوكاش وهو يتابع التحقيق الذي قرّر خلاله أن ما هو سري للغاية ينبغي أن يبقى بالطبع مكتوماً تماماً ليمنع ذلك النغل شفيك من استغلاله مرة أخرى :

– على هذا المنوال لن ننتهي أبداً ياشفيك. هل تعرف «غانغهوفر» ؟

سأله شفيك باهتمام :

– ومن يجب أن يكون هذا ؟

– إنه كاتب الماني أيها النغل الغبي .

قال شفيك بتعبير أشبه بتعبير الشهداء :

– أقسم بشرفي ياسيدي أني لا أعرف أي كاتب ألماني معرفة شخصية ، ولكني عرفت مرة كاتباً تشيكيا معرفة شخصية ، واسمه «لاديسلاف هاييك» من « دوما جليتسه » . وقد كان محرراً لمجلة «عالم الحيوان» ، وقد بعته مرة هجيناً على أساس أنه كلب أصيل من نوع «بوم». كان رجلا مرحاً ولطيفاً . وقد أعتاد أن يرتاد احدى الحانات وكان يقرأ لنا قصصه هناك وكانت قصصاً حزينة جداً إلى حد أن كل الموجودين كانوا يقهقهون لدى سماعها . وفيما بعد كان يبكي ويدفع

حساب كل الموجودين في الحانة ، وكنا نغنّي له : « باب دوما جليتسه في حالـة جميلة . بفضل فنّ القلب العاشق لفنان عرفتـه ، كـانت الفتيات تلاحقـه ولا نستطيع أن نعرف مكانـه الآن حيث أنـه تحت الأرض . . . »

صاح الملازم الأول في ذعر حين بدأ شفيك يغني هذه الجملة الأخيرة :

— لست على المسرح ، ألا تدرك ذلك ؟ أنت تصرخ كمغنيّ أوبرا ياشفيك . لم أسالك عن هذا الموضوع ، بل أردت أن أعرف إن كنت قد لاحظت أن تلك الكتب الذي ذكرتها لي هي من تأليف «غانغهوفر » . ما الذي حدث لتلك الكتب اذن ؟

وهنا انفجر غاضباً .

سأله شفيك :

— هل تعني تلك التي أحضرتها من ديوان الفوج وحملتها حتى الكتيبه ؟ أجل ، كانت من تأليف ذلك الرجل الذي سألتني إن كنت أعرفه ياسيدي . لقد وصلتني برقية هاتفية من ديوان الفوج وكانوا يريدون ارسال تلك الكتب إلى ديوان الكتيبة، ولكن لم يكن هناك أحد. كانوا جميعاً غائبين وحتى ضابط الصف المناوب ، لأنهم اضطروا إلى الذهاب إلى الندوة حيث كانوا سيغادرون إلى الجبهة ولا يعرفون إن كان سيتاح لهم الجلوس مرة أخرى فيها . إذاً، كانوا هناك ياسيدي. كانوا هناك وكانوا يشربون . ما كان ممكناً الاتصال بأي شخص بالهاتف ولا حتى أي شخص من أية سرية أخرى من السرايا المتقدمة ، ولكن بسبب أنك أمرتني أن أكون جندي ارتباط على الهاتف مؤقتاً حتى

يعيّنوا لنا عامل الهاتف خودونسكي ، فقد جلست هناك وانتظرت حتى جاء دوري. ومن ديوان الفوج شتموا واشتكوا من أنهم لا يستطيعون الاتصال بأي شخص في أي مكان وأن عليهم أن يبلغوا برقية تفيد بأن على ديوان الكتيبة المتقدمة أن يحضر من ديوان الفوج بعض الكتب لجميع ضباط الكتيبة المتقدمة ، ولأني أعرف ياسيدي أنّ على المرء أن يتصرف بسرعة في زمن الحرب ، فقد هتفت إلى ديوان الفوج وقلت أني سأذهب وأحضر تلك الكتب بنفسي وآخذها إلى ديوان الفوج . وهناك أعطوني حقيبة هائلة لم أستطع حتى أن أجرها إلى ديوان سريتنا إلاّ بالكاد ، وقد ألقيت نظرة على تلك الكتب . ولكن كانت لي أفكاري الخاصة حول الموضوع . لقد أعلمني رقيب أول امدادات الفوج في ديوان الفوج بأنه وفقاً للبرقية التي أرسلت إلى الفوج فقد كانوا يعرفون في الكتيبة أيّاً من الكتب يجب أن تؤخذ وأي«جزء»منها . كما ترى فان تلك الكتب كانت في «جزئين» . كان الجزء الأول مستقلا والثاني أيضاً . ولم أضحك في في حياتي كهذه المرة لأني قرأت كتباً كثيرة في حياتي ، ولكني لم أبدأ كتاباً من جزئه الثاني . وقد قال لي مرة أخرى : « اليك الجزء الأول واليك الجزء الثاني . الضباط يعرفون مسبقاً أي جزء يتوجب عليهم أن يقرؤوه» وهكذا خمنّت أنهم جميعاً سكارى لا ريب . لأن عليك حين تقرأ رواية من البداية كتلك التي جلبتها وعنوانها «خطايا الآباء» (لأني أفهم الألمانية أيضاً) ، أن تبدأ مـــن الجزء الأول . نحـــن لسنا يهودا حتى نقرأ الكتاب من آخره إلى أوله . ولذلك سألتك ياسيدي على الهاتف حين عدت من نادي الضباط وأبلغتك عن تلك الكتب ، إن لم تكن الأمور في زمن الحرب مقلوبة عاليها سافلها وإن كانت الكتب تقرأ من آخرها إلى أولها ، أولا « الجزء الثاني » ثم بعد ذلك «الجزء

الأول » . وقد قلت لي إني ثور سكران إذا لم أكن أعرف أنه في صلاة الرب تأتي «أبانا الذي » أولا ثم «آمين » لاحقاً .

سأل شفيك باهتمام حين تمسّك الملازم الأول لوكاش الذي شحب وجهه بسلّم المرجل الخاص بالقاطرة المهجورة وذلك حتّى لا يقع :

— هل أنت مريض ياسيدي ؟

لم تكن هناك أية أمارة من أمارات الغضب على الوجه الشاحب ، بل كان هناك اليأس والقنوط .

— استمر ياشفيك . هذا لا يهم . حسناً . . .

استأنف شفيك بصوت خفيض قائلاً ، عند السكة المهجورة :

— لقد كنت مع هذا الرأي نفسه ياسيدي كما قلت لك . لقد اشتريت مرة رواية مليئة بالأحداث المثيرة حول « روجا شافاني » من «غابة باكوني » وكان الجزء الأول منها مفقوداً ، لذا كان علي أن أخمّن البداية تخميناً ، وحتّى في حكاية تدور حول رجل عصابات كهذا فانك تحتاج إلى الجزء الأول وقد كان واضحاً لي تماماً أنه سيكون من غير المفيد للضباط أن يبدؤوا بقراءة الجزء الثاني أولاً والجزء الأول لاحقاً ، وأنه سيكون من الغباء لو قلت في الكتيبة ما قيل لي في ديوان الفوج، وأن الضباط سيعرفو ن أي جزء يجب أن يقرؤوه . وقد وجدت في تلك الكتب ما يدعو إلى الشك والغموض . لقد عرفت أن السادة الضباط يقرؤون قليلا جداً على أية حال وأنه في وطيس المعركة . . .

أنّ الملازم الأول لوكاش قائلا :

— توقف عن هذا الهذر ياشفيك .

— وأنت تعرف ياسيدي أني سألتك على الهاتف فوراً إن كنت تريد كلا الجزئين على الفور وقلت لي ، كما هي الحال الآن ، أن أتوقف عن الهذر وألا أزعجك بمسألة نقل أي كتب معنا . وقد فكرت طالما أن هذا هو رأيك فان الضباط لا شك يرون المسألة ضمن هذا الاطار أيضاً ، كما أني سألت «فانييك» الذي قال رغم كل تجاربه على الجبهة، إنه في بداية الحرب ظن جميع الضباط انها ستكون نزهة ، وقد أخذوا معهم إلى الجبهة مكتبات بحالها شأن من يذهب لقضاء عطلته الصيفية . كان من عادة الأرشيدوقات اهداء مجموعات كاملة من الدواوين الشعرية إلى الضباط ليأخذوها معهم إلى الجبهة ، حتى ينحني الوصفاء البائسون نصفين تحت ثقلها ، ويلعنون ذلك اليوم الذي وُلدوا فيه . قال فانييك أن تلك الكتب لم تكن مفيدة لاستعمالها كورق للفّ التبغ حيث كانت مطبوعة على ورق فاخر سميك ، ومن شأنها في دورة المياه — لو عذرتني على هذا التعبير ياسيدي — أن تتسبّب مثل هذه القصائد في كشط كامل المؤخرة ، وعلى أية حال لم تكن هناك لحظة واحدة للقراءة ، فقد كانوا مضطرين للهرب طوال الوقت ، ولذا كانت الكتب ترمى،وأصبح من عادة الوصيف لاَحقاً أن يرمي كل الكتب المخصصة للمطالعة الخفيفة لدى لدى سماعه لأول رشق بالمدافع . وبعد أن سمعت ذلك كله منه أردت أن أعرف رأيك مرة أخرى ياسيدي ، وحين سألتك على الهاتف ما الذي يتوجّب عليّ فعله بتلك الكتب قلت لي إني ما أن أدخل شيئاً في رأسي الغبي اللعين فلا أتخلى عنه حتى أنال ضربة على الحنك . وهكذا أخذت أخذت ياسيدي « الجزء الأول » من الرواية إلى ديوان الكتيبة وقد تركت «الجزء الثاني » في ديوان السرية . لقد ظننت بكل صدق نية أنه حين يكون السادة الضباط قد قرؤوا الجزء الأول سيعطى لهم الجزء الثاني ،

كما يحدث في المكتبات العامة ، ولكن سرعان ما وصلت الأنباء بأن علينا أن نغادر ، وجاءت برقية إلى الكتيبة بوضع كل ما هو زائد أو غير ضروري في مستودعات الفوج . وهكذا سألت السيد فانييك مرة أخرى إن كان يعتبر الجزء الثاني من الرواية على أنه غير ضروري فقال لي إنه بعد تجاربه التعيسة في الصرب وغاليسيا وهنغاريا لم تكن أية كتب مطالعة خفيفة تؤخذ إلى الجبهة ، وكانت تلك الصناديق التي توضع في المدن لجمع الصحف للجنود الأشياء الوحيدة ذات الفائدة ، لأنك تستطيع لف التبغ أو حتى التبن بورق الصحف ، وهذا ما يدخنه الجنود وهم في الخنادق . كان قد سبق لهم ووزعوا في الكتيبة الجزء الأول من تلك الرواية لذا حملنا الجزء الثاني إلى المستودعات .

توقف شفيك للحظة ثم أضاف :

– كان في المستودع أشياء من كل الأنواع ياسيدي ، حتى قبعة رئيس جوقة بودييوفيتسه ، وهي التي كان يرتديها حين استُدعي ليلتحق بالفوج . . . .

قال الملازم الأول لشفيك :

– سأقول لك شيئاً ياشفيك . ربما لا تعرف أي شيء اطلاقاً عن عواقب تصرفك هذا ، لقد مللت تماماً من مناداتك بالأحمق اللعين ، ولكن لا توجد بالفعل كلمات تستطيع وصف مدى حماقتك . حين أدعوك بالأحمق فاني أمدحك . لقد ارتكبت أمراً رهيباً إلى حد أن أفظع الجرائم التي ارتكبتها خلال معرفتي بك هي ، إذا ما قورنت به ، لهو أشبه بعزف الملائكة على القيثار ، لو أنك تعرف ما فعلته ياشفيك فحسب.. ولكنك لن تعرف أبداً . . . ولو حدث وذُكرتْ تلك الكتب فاياك

أن تُفصح خلال ثرثرتك أني قلت أي شيء لك يتعلّق بارسال الجزء الثاني . . . ولو حدث وطُرح موضوع ما جرى للجزئين الأول والثاني عليك أن تتجاهل الأمر تماماً . ليست لديك أية فكرة عن أي شيء ولا تتذكر أي شيء . اياك أن تتجرأ فتورطني في أي شيء ، أنت ، أنت يا . . . .

• وقد تكلّم الملازم الأول لوكاش بلهجة محمومة ، واستغل شفيك لحظة توقفه عن الكلام ليسأله ببراءة :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أن تتفضلوا فتسامحوني ، ولكن لماذا لا يتوجّب أن أعلم بالشيء الذي ارتكبته والذي هو شنيع إلى هذا الحد ؟ لا أستطيع سوى أن أسأل ياسيدي حتى أتجنّب في المرة التالية مثل هذا الأمر ، اذ يقال عادة ان الانسان يتعلم من أخطائه ، كما حدث لسبّاك الحديد «أداميتس» من «دانيكوفا» الذي شرب حمض الكلوريك خطأ . .

ولم تتح له فرصة اكمال حديثه أبداً فقد قاطع الملازم الأول لوكاش هذا المثل المستمدّ من الحياة بهذه الكلمات :

— أيها النغل البائس ، لن أشرح لك أي شيء . عد إلى العربة ثانية وقل لبالون إن عليه حين نصل إلى بودابست أن يحضر إلى حافلة الضباط الرغيف وفطيرة الكبد الملفوفين بورق القصدير والموجودين في قعر حقيبتي . ثم قل لفانيك إنه بغل لعين . لقد طلبت منه ثلاث مرات التعداد الكامل الدقيق للسرية ، وحين احتجت اليه اليوم لم أجد سوى التعداد القديم من الأسبوع الماضي :

نبح شفيك بالألمانية وهو ينسحب ببطء في اتجاه عربته :

— أمرك ياسيدي .

سار الملازم الأول لوكاش على امتداد السكة وهو يفكّر : «كان يتوجّب عليّ أن ألكمه عدة لكمات على حنكه ، ولكني رحت بدلاً عن ذلك أثرثر معه كأنه صديق لي » .

صعد شفيك برزانة إلى عربته . كان يحسّ بالاحترام تجاه نفسه . لم يكن يحدث لكل يوم أن يرتكب شيئاً مخيفاً إلى حد أنه لم يُسمح له حتى بمعرفة ما ارتكبه .

* * *

قال شفيك وهو يجلس في مكانه ثانية :

— يارقيب أول الامدادات ، يبدو لي أن الملازم الأول لوكاش في مزاج جيد جدا هذا اليوم . لقد طلب مني أن أقول لك انك بغل لعين لأنه طلب منك ثلاث مرات أن تعطيه تعداد السرية الصحيح ولم تفعل .

قال فانييك غاضباً :

— يااللرب ، سأعرف كيف أتعامل مع رقباء الفصائل أولئك . كيف أستطيع أن أتصرف إن كان كل نغل كسول من رقباء الفصائل أولئك يفعل ما يحلو له ولا يرسل لي التعداد الصحيح لفصيلته . هل عليّ أن أخرج التعداد من قبعتي ؟ هذه هي الحال في سريتنا . ولا يمكن لهذا أن يحدث إلاّ في السرية الحادية عشرة المتقدمة . ولكني كنت أشك في ذلك ، كنت أعرفه . ما شككت ولو لحظة واحدة بأن الأمور لم تكن تسير جيداً عندنا . فاليوم نقصت من المطبخ أربع حصص من التعيينات وفي الغد ستكون هناك حصص زيادة . لو أن هؤلاء الخنازير الملاعين يقولون لي على الأقل حين يعود جندي ما من المستشفى إن فلانا قد عاد .

في الأسبوع الماضي كان لا يزال على قائمتي شخص يدعى «نيكوديم» ولم أعلم سوى لدى دفع الرواتب أن « نيكوديم » هـذا قبـد مـات مـن جراء سلّ سريع المفعول في المستشفى في مـدينـة بوديبوفيتسه . وخلال ذلك الوقت كله كانوا يستلمون تعييناته ، كما استلمنا بزة عسكرية له ، والله وحده يعلم ما حدث لها . وبعد ذلك كله يقول الملازم الأول اني بغل لعين ، حين لا يستطيع هو نفسه تقويم أمور سريته .

ذرع فانييك العربة جيئة وذهابا وهو في حالة من الغضب :

– لو كنت قائد السرية لسار كل شيء كالساعة ! كنت سأراقب كل رجل منهم ، ولكان على ضباط الصف أن يعطوني تعداد السرية مرتين في اليوم . ولكن ما بوسعك أن تفعل حين يكون ضباط الصف غير أكفاء على الاطلاق ؟ وأسوأهم في سريتنا هو رقيب الفصيلة «زيكا» . كل ما يفعله هو التنكيت وسرد الحكايات ، وحين يقال له إن «كولا رجيك» قد عين في قافلة التموين وأنه ترك فصيلته ، فانه يقدم لي في في اليوم التالي التعداد نفسه وكأن كولا رجيك قد ذهب للتسكع في السرية ولا زال في فصيلته . وحين يحدث ذلك كل يوم ويقال لي فوق ذلك كلـه اني بغل لعين . . . ! ! لن يصنع الملازم الأول شعبية لنفسه بهذه الطريقة . ليس رقيب أول امدادات السرية مجرد وكيل عريف يستطيع أي شخص استعماله ليمسح به . . . .

نطق الآن بالون الذي كان يصغي بفم مفتوح ، فلفظ الكلمة التي لم يتجنب فانييك قولها بالفعل وذلك رغبة منه في المساهمة في الحديث بهذه الطريقة .

قال رقيب أول الامدادات الغاضب :

ـ أغلق فمك .

قال شفيك :

ـ اسمع يابالون ، لدي رسالة لك أنت أيضاً . حين نصل إلى بودابست سيكون عليك أن تجلب إلى الملازم الأول في جافلته رغيف الخبز وفطيرة الكبد اللتين يحتفظ بهما ملفوفتين بورق القصدير في أسفل حقيبته .

لوّح بالون العملاق بيأس ذراعيه الطويلين الأشبه بذراعي الشيمبانزي ثم أحنى ظهره وبقي على هذا الوضع لفترة من الوقت .

قال بلهجة هادئة يائسة وهو يحدق في أرضية العربة القذرة :

ـ ليستا لديّ .

ثم كرر بتشنج :

ـ ليستا لدي . اعتقدت . . . فتحتهما قبل أن نغادر . . . تشممتهما لأعرف إن كانتا فاسدتين أم لا . . . .

ثم صاح بيأس حقيقي بحيث اتضح للجميع ما حدث :

ـ ثم تذوقتهما !

قال فانييك وهو يتوقف أمام بالون .

ـ لقد التهمتهما بورق قصديرهما وكل ما فيهما .

كان ممتناً لأنه لم يعد مضطراً إلى أن يدافع عن وجهة نظره بأنه ليس بغلاً لعيناً ، كما قال عنه الملازم الأول ، وأن سبب العامل المجهول

« س » (تعداد الرجال) له جذور أعمق في بغال لعينة أخرى . وقد شعر بالراحة أيضاً لأن موضوع الحديث قد تغيّر وانتقل إلى بالون الشره وإلى حادثة مأساوية جديدة . لقد تملكت فانييك رغبة شديدة في أن يقول شيئاً كريهاً وتعليمياً لبالون . ولكن الطباخ عالم القوى الخفية « يورايدا» سبقه إلى ذلك ، حيث وضع جانباً كتابه المفضل ، وهو ترجمة لمجموعة الحكم الهندية القديمة «برانيا باراميتا » ، والتفت إلى بالون المحطمّ الذي كان ينحني أكثر فأكثر تحت نقل قدره وقال :

– يابالون ، عليك أن تعتني بنفسك وألا تفقد الثقة بها وبمصيرك. ليس عليك أن تنسب إلى نفسك فضيلة الآخرين . وكلما وجدت نفسك مواجهاً بمشكلة مشابهة قمتَ بالتهامها ، فأسأل نفسك دائماً : « ما علاقتي بفطيرة الكبد ؟»

فكر شفيك في أن يتوِّج هذه التأملات بمثال عملي ، فقال :

– لقد قلت أنت نفسك يابالون مؤخراً أنهم سيذبحون ويدّخنون لحما في بيتك ، وأنك حالما تعرف مكان توجّهك ورقم بريدك العسكري سيرسلون لك فخذ خنزير . والآن تصور أنهم أرسلوا ذلك الفخذ بالبريد العسكري إلى سريتنا وقمنا جميعاً ، بما فينا رقيب أول الامدادات ، باقتطاع شريحة منه . فلنقل اننا استمتعنا جميعاً به إلى حد أننا اقتطعنا شريحة أخرى ، بحيث لاقى ذلك الفخذ المصير ذاته الذي عرفه ساعي بريد يدعى « كوزيل» . كان يعاني من مرض «نخر العظام » ، ولذا فقد قطعوا له ساقه من تحت الكاحل ثم من تحت الركبة ، ثم فخذه ، ولو لم يمت في الوقت الملائم لكانوا سيبرونه كله كقلم الرصاص المكسور . ولذا تخيل فحسب يابالون أننا التهمنا فخذ خنزيرك كما فعلت بفطيرة الملازم الأول !

نظر بالون المارد بحزن إلى الجميع .

قال رقيب أول الامدادات لبالون :

— لولا جهودي وفضائلي لما بقيت وصيفا للملازم الأول . كنت ستنقل إلى الخدمات الطبية لحمل الجرحى من ساحات المعارك . في « دوكلا» أرسلت خدماتنا الطبية ثلاث دفعات من الجنود لاحضار ملازم جريح أصيب في بطنه أمام شبكة الأسلاك الشائكة وكانت كل دفعة مؤلفة من جنديين وقد بقي الجميع هناك معه ورؤوسهم مليئة بالطلقات . وفي المرة الرابعة استطاع الجنديين احضاره ولكنه سلّم الروح قبل أن يصلا به إلى مركز الاسعاف الأولي .

لم يعد بالون قادراً على السيطرة على نفسه فبكى بصوت مرتفع .

قال شفيك باختصار :

— ألا تخجل من نفسك ؟ أنت الجندي . . .

انتحب بالون :

— ولكني لم أخلق للجندية . صحيح أني شره لا أشبع . ولكن ذلك يعود إلى أنني قد انتزعت من حياة محترمة. هذا ما نتوارثه في أسرتنا. لقد راهن المرحوم أبي مرة في احدى الحانات في « بروتيفين » على التهام خمسين قطعة مقانق مدخنة ورغيفين كبيرين من الخبز دفعة واحدة وقد كسب ذلك الرهان . لقد أكلت مرّة في احدى المراهنات أربع أوزات وحوضين مليئين بالشيشبرك والملفوف . لقد كان يحدث ، وأنا في البيت ، أن أشعر بعد الغداء برغبة في تناول قليل من الطعام زيادة على تناولته على الغداء . وهكذا كنت أذهب إلى موضع حفظ اللحوم واقتطع شريحة لحم خنزير وأرسل في طلب ابريق من الجعة ، وخلال

دقائق أكون قد التهمت كيلو غرامين من لحم الخنزير المدخّن . في البيت كان لدي خادم عجوز اسمه «فوميل» ، وكان يحذّرني باستمرار من البدانة وحشو البطن إلى حد التخمة . وكان يتذكّر كيف كان جده يحكي له منذ زمن بعيد عن فلاح شره إلى ذلك الحد ، وكيف قامت الحرب ولم تنبت المحاصيل لثمانية سنوات طويلة ، وكيف أصبحوا يصنعون الخبز من القش ومن أمور شتّى ومن مخلفات بزور الكتان ، كيف كان يوماً مشهوداً عندهم يوم استطاعوا أن يضعوا خثارة في لبنهم ، فلم يكن عندهم خبز . وبعد أن بدأت تلك المجاعة مات ذلك الفلاح خلال أسبوع ، لأن معدته لم تكن معتادة على مثل ذلك البؤس المخيف .

رفع بالون وجهه المكروب واستأنف قائلا :

— ولكنني اعتقد أن الرب رغم أنه يعاقب الناس إلا أنه لا يتخلى عنهم .

قال شفيك :

— الرب أبونا خلق الشرهين في هذا العالم والرب أبونا سيتولى أمرهم . لقد سبق لك وعوقبت مرة والآن تستحق أن ترسل إلى أول خط في الجبهة . حين كنتُ وصيفاً للملازم كان يستطيع الاعتماد عليّ في كل شيء ولم يحدث أبداً أن التهمت شيئاً من طعامه . وحين كانوا يوزعون شيئاً خاصاً كان يقول لي دائماً : « يمكنك أن تأخذه ياشفيك .» أو : « حسنا ، لست مغرماً كثيراً بهذا . أعطني منه قطعة وافعل بالبقية ما تريد .» وحين كنّا في براغ وكان يرسلني أحياناً إلى المطعم لأحضر له طعام الغداء ، وإذا حدث وكانت الحصة ضئيلة ، وحتى لا يظن

أني التهمت نصفها على الطريق ، كنت أشتري بآخر هلر في جيبي حصة اضافية حتى يشبع ولا يظن بي الظنون . ولكنه عرف بالامر لاحقاً .لقد كنت أحضر له لا ئحة الطعام من المطعم وكان يطلب منها ما يريد . وفي ذلك اليوم اختار الحمام المحشي . وحين أعطوني نصفاً واحداً فقط فكرت في أن الملازم قد يظن أني التهمت النصف الآخر ، لذا اشتريت حصة أخرى من نقودي وجلبت له كمية كبيرة بحيث أن الملازم الأول « شيبا» ، الذي كان يحاول أن يجد غداء يتناوله ذلك اليوم ، جاء ليزور ملازمي الأول قبل الظهر مباشرة ، وقد أكل من الوجبة نفسها أيضاً حتى شبع . وحين أنهى غداءه قال : « لا تقل لي أن هذه حصة فردية . لا يوجد في العالم وجبة فيها حمامة محشية كاملة . لو استطعت الحصول على بعض المال هذا اليوم فسأرسل وصيفي إلى مطعمك هذا لإحضار وجبة غداء ولكن أصدقني القول ، انها حصة مزدوجة ، أليس كذلك ؟» سألني الملازم الأول في حضوره صديقه ليبرهن له على أنه أعطاني نقودا لحصة واحدة فقط ، حيث لم يكن يدري مسبقاً أن الملازم الأول شيبا سيحضر . وقد أجبته بأنه أعطاني نقوداً تكفي لغداء عادي . قال الملازم الأول : « اذن تستطيع أن ترى بنفسك أن هذه ليست وجبة خاصة . في المرة الماضية أحضر لي شفيك فخذي اوزة كاملتين للغداء . تصور أن الغداء كـــان مؤلفاً من حساء بالمعكرونة ولحم بقر مع صلصة سمك البلم وفخذي أوزة وشيشبرك وملفوف مكوّم حتى السقف ومقبّلات !»

تأوه بالون وتلمّظ وتحلّب فمه وسال ريقه .

استأنف شفيك :

— كانت تلك هي النهاية ، فقد أرسل الملازم الأول شيبا وصيفه إلى ذلك المطعم ليحضر له وجبة غداء ، وقد جلب له كطبق رئيسي

قطعة صغيرة جداً من بيلاف (١) الدجاج بمقدار حجم ما يفعله رضيع في السادس من عمره في حفاضه ، أي بمعنى آخر بمقدار ملعقتين . وقد اتهم الملازم الأول شيبا وصيفه بالتهام نصف طعامه ، ولكن هذا قال له انه بريء فلكمه الملازم الأول شيبا على حنكه وضرب المثل بي ، وقال إن الحصص التي أحضرُها للملازم الأول لوكاش محترمة تماماً . وهكذا حدث في اليوم التالي أن ذهب ذلك الجندي البريء الذي لُكِمَ على حنكه،إلى المطعم الذي أحضر منه الطعام.وطرحأسئلة كثيرة. وقد حكى كل شيء لسيده الذي نقله بدوره إلى ملازمي الأول. وفي إحدى الأمسيات وبينما كنت جالساً أقرأ في صحيفتي عن أخبار المعارك كما يرويها ضباط أركان جيش العدو ، دخل ملازمي الأول بوجه شاحب كالأموات واتجه نحوي فوراً وهو يسألني كم مرة دفعت ثمن حصص مزدوجة إلى المطعم وأخبرني أنه يعرف كل شيء عن الموضوع ، وأنه لا فائدة من إنكار ذلك وأنه يعرف منذ زمن بعيد كم أني أحمق لعين ، ولكن لم يخطر له أني مجنون إطلاقاً . لقد سببت له الكثير من العار ولديه رغبة واحدةهي أن يطلق النار عليّ أولاً ثم على نفسه ثانياً . قلت له : « ياسيدي حين قبلتني في اليوم الأول قلت أن كل وصيف عبارة عن لص ونغل دنيء . وبما أنهم يقدمون في هذا المطعم حصصاً ضئيلة فعلاً بالنسبة للصحن الرئيسي ، خشيت أن تظنني واحداً من أولئك الأنغال الدنيئين وأني التهمت لك طعامك . . .

همس بالون :

---

(١) بيلاف : طعام شرقي من أرز ولحم وتوابل . (المترجم)

– ياالهي الذي في السماوات .

ثم انحنى على حقيبة الملازم الأول لوكاش وأخذها معه إلى مؤخرة العربة .

استأنف شفيك حديثه قائلا :

– ثم راح الملازم الأول لوكاش ينبش كل جيوبه ، وحين لم يجد فيها شيئاً بحث عن ساعته الفضية في صدرته وأعطاني اياها . كان في حالة من التأثر الشديد . قال : « حين أحصل على راتبي ياشفيك ، اكتب لي المبلغ الذي أنا مدين به لك . وخذ هذه الساعة أيضاً . وفي المرة التالية لا تكن غبياً إلى هذا الحد . » وفي وقت لاحق مررنا كلانا بمرحلة من الضيق المادى مما اضطرني إلى أخذ الساعة إلى محل الرهونات...

سأل فانيك :

– ما الذي تفعله هناك في المؤخرة ؟

وبدلاً عن الجواب بدأ بالون التعيس بالاختناق . كان قد فتح الحقيبة في الواقع وراح يملأ بطنه بآخر رغيف من أرغفة الملازم الأول .

مرّ قطار عسكري آخر عبر المحطة دون توقف . كان مزدحماً من أعلاه إلى أسفله برجال فوج « دويتشما يستر » الذين كانوا في طريقهم إلى الجبهة الصربية . لم يكونوا قد شفوا بعد من الحماسة التي اعترتهم لدى مفارقتهم لفيينا فكانوا يصرخون طوال الطريق دون أن يتوقفوا ليستردوا أنفاسهم :

« الأمير يوجين الفارس النبيل
التمس أن يكسب لأجل امبراطوره

مدينة وغابة بلغراد .

وهكذا أمر ببناء جسر

حتى يعبره بأقصى سرعة

داخلا المدينة مع موكبه .»

وكان هناك عريف ذو شاربين معقوفين على نحو عدائي ، يتدلى من النافذة مستندا بمرفقيه على الرجال الذين كانوا يؤرجحون سيقانهم خارج العربة ، وها هو يسبق الزمن ويصيح بشهوة :

« وحين تم بناء الجسر القوي

وأصبح بامكان الرجل والحصان والعربة والمدفع

المرور بحرية فوق نهر الدانوب ،

نصبوا معسكراتهم عند بوابة «سملين»

وكتبوا خاتمة الحامية الصربية .»

ولكنه فقد توازنه فجأة فطار من العربة وسقط بكل تلك الاندفاعة على رافعة محوِّل السكة الحديدية التي اخترقت بطنه وبقي مثبتاً فوقها ومعلّقاً بينما تابع القطار سيره والجنود يغنّون في العربة الأخيرة أغنية أخرى :

« الكونت راديتسكي ، السيف النبيل ،

أقسم أن يطرد القبيلة المتوحشة

من لومباردي الخائنة .

ولكنه تأخر في فيرونا

حتّى وصلته التعزيزات

ثم لم يعد هناك من كونت أشجع منه . . . »

كان العريف التوّاق إلى القتال والمثبتّ فوق الرافعة السخيفة قد سبق له ومات ، وسرعان ما وقف جندي شاب من قيادة المحطة عند الجثة بحربة مشرعة . كان يتحمل مسؤوليته بكل جدية ، ويقف منتصباً عند محوّل السكة وعلى وجهه تعبير الانتصار ، وكأن تثبيت العريف فوق الرافعة كان واحداً من إنجازاته .

كان هنغارياً ، وحين جاء إلى الرجال من قطار الكتيبة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين لالقاء نظرة ، صاح بلغته الأم عبر خط السكة كله : « نم تشابات ! غير مسموح ! لجنة عسكرية ، غير مسموح ! »

قال الجندي الطيب شفيك الذي كان بين المتفرجين الفضوليين :

— لقد خاض حربه ، ومن حسن حظه أنه مع قطعة الحديد تلك التي في بطنه ، فان الجميع يعرفون الآن على الأقل مكان دفنه . أنه على خط السكة الحديدية ولا حاجة للبحث عن قبره عبر ساحات المعارك كلها .

ثم استأنف وهو يدور من حول العريف من الجهة الأخرى ويرقبه بعين الخبير المحترف :

— لقد ثبتّ نفسه فوق الرافعة على نحو بارع ودقيق . ان احشاءه في بنطاله .

صاح الجندي الهنغاري الشاب :

— «نم تشابات ، نم تشابات ! » لجنة المحطة العسكرية . غير مسموح !

ثم سمع صوت صارم صادر من خلف شفيك :

— ما الذي تفعلونه هنا ؟

كان ذاك هو المرشح بيلغر الذي أصبح أمام شفيك الآن فحياه هذا .

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أننا نلقي نظرة على المرحوم المأسوف عليه ياسيدي .

— وما نوع التهييج الذي تسعى إليه ؟ ما الذي تفعله هنا ؟

أجاب شفيك بهدوء وقور :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أني لا أسعى إلى أي «تهييج» من أي نوع .

انفجر عدد من الجنود كانوا واقفين خلف المرشح بالضحك وتقدم فانييك نحو الأمام ووقف قبالته وقال :

— سيدي ، لقد أرسل الملازم الأول جندي الارتباط شفيك إلى هنا ليخبره بما حدث . كنت للتو في حافلة الضباط وقد عرفت أن جندي ارتباط الكتيبة «ماتوشيتش» يبحث عنك بأمر من قائد الكتيبة . عليك أن تذهب فوراً إلى النقيب ساغنر .

بعد ذلك بفترة قصيرة سُمعت إشارة الركوب فمضى كل واحد إلى عربته .

وبينما كان عائداً مع شفيك قال فانييك :

— حين تكون هناك جمهرة من الناس في أنحاء المكان فبالله عليك تخلّ عن أفكارك البارعة ياشفيك إذ يمكن لها أن تؤدي بك إلى ورطة

حقيقية . وبما أن ذلك العريف كان ينتمي إلى قوات «اللدويتشمايستر» ، فقد كانوا سيدّعون أنك سعيد بالذي حدث له . بيلغر ذاك عبارة عن آكل مخيف للحم التشيكي .

أجاب شفيك بلهجة تطرد كل الشك :

— ولكني لم أقل أي شيء إطلاقاً سوى أن العريف قد ثبتّ نفسه على نحو بارع جداً وأن أحشاءه كانت في بنطاله . . . كان يمكنه أن . .

— هيا دعنا من هذا الحديث ياشفيك .

ثم بصق فانييك .

قال شفيك مرة أخرى :

— في الحقيقة لا فرق هناك فيما يخص المكان الذي تخرج منه أحشاؤه من بطنه في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية . لقد أدّى واجبه على أية حال . . . كان يمكنه أن . . .

قاطعه فانييك قائلا :

— اسمع ياشفيك . انظر كيف يسرع جندي ارتباط الكتيبة ماتوشيتش نحو حافلة الضباط . يدهشني أنه لم يسقط فوق السكّة .

قبل ذلك بقليل كان قد جرى حوار حاد بين النقيب ساغنر والمرشح الغيور بيغلر .

قال النقيب ساغنر :

— يدهشني أيها المرشّح بيلغر أنك لم تحضر لتبلغني فوراً أن تلك «الديكات» الخمسة عشر من السلامي الهنغاري لم يتم تسليمها . لقد

اضطررت إلى الذهاب بنفسي لاعرف السبب في أن الرجال كانوا عائدين من المستودع ، والضباط أيضاً ، وكأنّ الأمر لم يكن أمراً. لا شك أنك سمعتني أقول : « إلى المستودع بالفصائل ، والسرية تلو الأخرى » . وكان ذلك يعني أننا إذا لم نستطع أن نحصل على أي شيء من المستودع سيكون على الرجال أن يعودوا إلى العربات فصيلة فصيلة وسرية سرية . لقد أمرتك أيها المرشح أن تتأكد من المحافظة على النظام ولكنك تركت كل شيء يتزلق من بين يديك . لقد كنت سعيداً جداً لأنك تخلصت من مشكلة عدّ حصص السلامي ورأيتك من النافذة تذهب بهدوء لتلقي نظرة على عريف الدويتشمايستر الذي ثبتّ نفسه فوق الرافعة . وحين استدعيتك لاحقا لم يكن لديك ما هو أفضل من الهذر بأفكارك «المرشحية» حول ذهابك إلى هناك لترى أن كان هناك من حاول التهييج قرب العريف . . .

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أن جندي ارتباط السرية الحادية عشرة واسمه شفيك . . .

– اخرس فيما يخص شفيك . لا تتخيلّ يامرشح بيغلر أنه سيسمح لك أن تتآمر ضد الملازم الأول لوكاش. نحن ارسلنا شفيك إلى هناك.... أنت تنظر إليّ وكأني طعنتك بخنجري . . . حسنا ، إن خنجري ،أجل، خنجري فيك أيها المرشح بيغلر . . . وإذا كنت لا تعرف كيف تحترم الضابط الأعلى منك رتبة ، وإذا حاولت خداعه ، سأجعلك تعاني من هذه الحرب ، بحيث لا تنسى ما عشت محطة « راب » يامرشح بيغلر . لا تتباهى بمعرفتك بالنظرية ! . . . انتظر حتّى نصل إلى الجبهة وسآمرك بقيادة دورية عبر شبكات الاسلاك الشائكة . . . وماذا عن

تقريرك ؟ لم تقدم لي تقريراً حتى حين وصلت . . . ولا حتى نظرياً يامرشح بيغلر . .

— أبلغكم بتواضع ياسيدي (١) أنه بدلا عن خمسة عشر «ديكا» من السلامي الهنغاري استلم الجنود بطاقتين بريديتين مزينتين بالصور. إليك ياسيدي . . .

سلم المرشح بيغلر إلى قائد الكتيبة اثنتين من البطاقات البريدية التي أصدرها «مكتب الأرشيف الحربي» في فيينا ، الذي كان تحت إمرة الجنرال «فوينوفيخ» . كان على أحد وجهي البطاقة رسم كاريكاتوري لجندي روسي ، وهو فلاح روسي ذو لحية كاملة يعانقه هيكل عظمي وطبع تحت الرسم الكاريكاتوري بالالمانية :

« اليوم الذي تنتهي فيه روسيا الغادرة سيكون يوم خلاص لكل مملكتنا .»

أما البطاقة البريدية الأخرى فكانت قادمة من الرايخ الألماني . كانت هدية من الألمان إلى المحاربين النمساويين الهنغاريين .

في أعلى البطاقة طبع باللاتينية « Viribus Unitis » وتحتها صورة تمثل «السير إدوارد غراي» (٢) معلقاً على مشنقة . وتحته كان هناك جندي نمساوي وآخر ألماني يضربان التحية بمرح .

أما القصيدة المطبوعة إلى الأسفل فهي من كتاب بقلم «غراينتس» وعنوانه «القبضة الحديدية» الذي يحوي على نكات ضد العدو . وهذا وقد

---

(١) كافة الاحاديث بين الضباط تجري بالألمانية طبعا . (المؤلف)
(٢) وزير خارجية بريطانيا (١٩٠٥ – ١٩١٦) (المترجم)

كتبت صحف «الرايخ» أن قصائد غرايتنس أشبه بضربات السوط ، وأنها مليئة بروح الفكاهة الطليقة والذكاء الذي لا يفوقه ذكاء .

واليكم ترجمة للنص المطبوع تحت المشنقة :

«على هذه المشنقة ، يمكنك أن تقول :

أنه يتوجب شنق السير ادوارد غراي .

لقد آن أوان ذلك .

وفي الوقت نفسه عليك أن تعرف

أنه ليس هناك من سنديانة على استعداد أن تعير خشبها لشنق هذا اليهودي .

أوراق الحور ترتجف على الشجرة .

إنها من فرنسا كما تستطيع أن ترى .»

لم يكن النقيب ساغنر قد أنهى قراءة هذه الأبيات المتحلية بروح الفكاهة الطليقة والذكاء الذي لا يفوقه ذكاء حين دخل جندي ارتباط الكتيبة ماتوشيتش إلى حافلة الضباط .

كان النقيب ساغنر قد أرسله إلى مكتب التلغراف في القيادة العسكرية للمحطة ليجلب أية تعليمات أخرى في حال وجدت ، هاهو قد جلب برقية صادرة عن اللواء . لم تكن هناك ضرورة لأي مفتاح لحل أية شيفرة . كانت البرقية تقول ببساطة دون فك رموزها : « إنهوا الطبخ بسرعة وسيروا إلى سوكال . » هزّ النقيب ساغنر رأسه مفكراً .

قال ماتوشيتش :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أن قائد المحطة يطلب مخاطبتك ، هناك برقية أخرى .

ثم تبع ذلك حوار سري للغاية بين قائد المحطة والنقيب ساغنر .

كان من المفروض تسليم أول برقية لدى وصول الكتيبة إلى المحطة في « راب » رغم أن محتوياتها كانت مدهشة جداً : « انهوا الطبخ بسرعة وسيروا إلى سوكال .» وقد أرسلت دون فك رموز شيفرتها إلى الكتيبة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين مع نسخة إلى الكتيبة المتقدمة من الفوج الخامس والسبعين التي كانت لا تزال في الخلف .

كان التوقيع صحيحاً : « قائد اللواء ، ريتر فون هربرت . »

قال قائد المحطة بلهجة يلفها الغموض :

— سري للغاية ياسيدي . ها هي برقية سرية من فرقتك . لقد جنّ قائد اللواء ونُقل إلى فيينا بعد أن أَرسل من قيادة اللواء عشرات من البرقيات مثل تلك في كل الاتجاهات . في بودابست ستجد برقية أخرى لا ريب في ذلك . ويتوجب بالطبع الغاء برقياته كلها ، الا أننا لم نستلم أية تعليمات بهذا المعنى بعد . لديّ فقط الأمر الصادر عن الفرقة الذي يفيد بأن البرقيات غير المرمّزة يجب أن يتمّ تجاهلها . ولكني مضطر إلى تسليمها طالما أني لم أستلم جواباً من سلطاتي المختصة . وقد أرسلت بعض الاستفسارات عبر سلطاتي المختصة إلى قيادة الفيلق ، ونتيجة لذلك اتخذت ضدي بعض الاجراءات . . .

ثم أضاف :

— أنا ضابط نظامي من سلاح المهندسين القدماء . وقد اشترك في بناء خط السكة الحديدية الاستراتيجي في غاليسيا . . .

ثم قال بعد لحظة :

– ياسيدي ، بالنسبة لنا نحن الضباط العاملين القدماء ليس أمامنا سوى الجبهة ! في وزارة الحربية اليوم ما أكثر المهندسين المدنيين من العاملين في السكة الحديدية والذين خضعوا لامتحانات في مدرسة المتطوعين بعد دورة سنة واحدة فقط ، . . . حسنا، إن عليكم أن تستأنفوا المسير خلال ربع ساعة . . إن ما أتذكره هو أنني مرة في مدرسة الطلاب الضباط في براغ وكنت وقتها طالباً ضابطاً من سنة أعلى ساعدتك حتى تتسلق إلى القضيب الأفقي للجمباز.ثم حدث أن حُرمنا كلانا من الخروج من المدرسة يوم الأجازة.كنتَ قد تشاجرت مع الألمان في الصف (١) وكان معك لوكاش هناك أيضاً. لقد اعتدتما كلاكما أن تكونا صديقين حميمين . حين استلمنا البرقية مع لائحة بضباط الكتيبة المتقدمة الذين سيمرّون عبر المحطة ، تذكرت كلّ شيء تماماً . . . لقد مرّت سنوات كثيرة على ذلك . . . لقد أحببت الطالب الضابط لوكاش كثيراً في ذلك الحين .

تركت هذه المحادثة ككل انطباعاً مؤلماً على النقيب ساغنر . لقد تذكر تماماً الرجل الذي كان يتحدث إليه والذي قاد المعارضة ضد «النزعة النمساوية» في مدرسة الطلاب الضباط . وفيما بعد كل كان انشغالهم بمهنتهم قد طرد ذلك كله من رؤوسهم . ولكن الأمر الأشد ازعاجاً له كان ذكر الملازم الأول لوكاش والذي كانت الترقية تتجاوزه دائماً بالمقارنة معه .

---

(١) في الحديث الذي جرى بالالمانية بين هذين الضابطين قال له قائد المحطة : « في ذلك الوقت تشاجرت مع زملائك الكلاب من الطلاب الضباط الالمان أيضاً . (ملاحظة المؤلف) .

قال مع التشديد :

ــ الملازم الأول لوكاش ضابط جيد جداً . متى سيغادر القطار ؟

نظر قائد المحطة إلى ساعته وقال :

ــ خلال ست دقائق .

ــ أنا راحل .

ــ كنت أظن أنك ستقول لي شيئاً ما ياساغنر .

ــ حسنا اذن ، «ناز دار » . (١)

هذا ما أجاب به ساغنر ثم خرج إلى المنطقة الواقعة أمام بناء قيادة المحطة .

* * *

حين عاد النقيب ساغنر قبل رحيل القطار إلى حافلة الضباط ، وجد جميع الضباط في أماكنهم . كانوا يلعبون « فريش فيير » في مجموعات . كان المرشح بيغلر هو الوحيد الذي لم يكن يلعب .

كان يتفحصّ بعناية كومة من المخطوطات غير الكاملة والتي كتبها عن الحرب ، لأن صاحبنا هذا كان لا يريد أن يشتهر على ساحات المعارك فحسب ، بل أن يبرز أيضاً على الساحة الأدبية كظاهرة خاصة من خلال وصف الحوادث الحربية . كان هذا الرجل «ذو الجناحين المضحكين وذيل السمكة» راغباً في أن يكون كاتبا بارزاً في الشؤون الحربية . وقد بدأت محاولاته الأدبية بعناوين واعدة جداً ،

---

(١) وهي التحية التي يستعملها الوطنيون التشيكيون . (س . ب)

كانت تعكس الروح الحربية التي سادت تلك الحقبة من الزمن ، ولكنها لم تكن مصنوعة على النحو الملائم ، لذا لم يكن على الأوراق سوى أسماء الأعمال التي كانت ستظهر :

«شخصيات محاربي الحرب العظمى ، من بدأ الحرب ؟ سياسة النمسا – هنغاريا وسبب الحرب ، ملاحظات حربية ، النمسا – هنغاريا والحرب العالمية ، دروس من الحرب ، محاضرة شعبية من اندلاع الحرب ، تأملات عسكرية سياسية ، اليوم المجيد للنمسا – هنغاريا ، الامبريالية السلافية والحرب العالمية، وثائق من الحرب، وثائق تاريخ الحرب العالمية ، مذكرات الحرب العالمية ، مسح يومي للحرب العالمية ، الحرب العالمية الأولى ، سلالتنا الحاكمة في الحرب العالمية ، شعوب المملكة النمساوية – الهنغارية تحت السلاح ، الصراع العالمي على السلطة ، تجاربي في الحرب العالمية ، التسلسل التاريخي لحملتي العسكرية ، كيف يحارب أعداء النمسا – هنغاريا ؟ من سيكون المنتصر ؟ ضباطنا وجنودنا ، أعمال بارزة قام بها جنودي ، من أيام الحرب العظمى ، من وطيس المعركة ، كتاب الأبطال النمساويين – الهنغاريين ، اللواء الحديدي ، مجموعة من كتاباتي من الجبهة ، أبطال كتيبتنا المتقدمة ، دليل للجنود في الميدان ، أيام المعارك وأيام النصر ، الذي رأيته وخبرته في الميدان ، في الخنادق ، أحد الضباط يروي . . . إلى الأمام مع أبناء النمسا – هنغاريا ! طائرات العدو ومشاتنا ، بعد المعركة ، مدفعيتنا ، أبناء الوطن المخلصون ، تعالي ياشياطين العالم كله ضدنا . . . ، الحرب الدفاعية والهجومية ، دم وحديد ، النصر أو الموت ، أبطالنا في الأسر .»

حين اقترب النقيب ساغنر من المرشح بيغلر وأنعم النظر في كل شيء ، سأله عن السبب في أنه فعل ما فعله وما الذي يحاول أن ينجزه .

أجاب المرشح بيغلر بحماسة حقيقية أن كل عنوان يعني كتاباً سيؤلفه ، وسيكون هناك كتب بعدد العناوين .

— لو حدث وسقطت في المعركة فاني أريد لنفسي ذكرى خاصة بي تبقى من بعدي . إن مثالي هو البروفسور الألماني «اودو كرافت » . لقد ولد في عام (١٨٧٠) وتطوع للخدمة في هذه الحرب وسقط في الثاني والعشرين من آب (اغسطس) من عام (١٩١٤) في «أنلوي» . وقبل موته نشر كتابا عنوانه : « التثقيف الذاتي في الموت من أجل الامبراطور » . (١)

أخذ النقيب ساغنر المرشح بيغلر إلى النافذة وقال له بلهجة ساخرة :

— أرني ما لديك أيضاً يامرشح بيغلر . إن نشاطاتك تثير اهتمامي إلى حد كبير . ما هذا الذي وضعته تحت سترتك ؟

أجاب المرشح وقد علت وجهه حمرة طفولية :

— لا شيء ياسيدي . هيا انظر بنفسك .

وكان للدفتر هذا العنوان :

« رسوم تخطيطية لأهم وأمجد المعارك

لقوات الجيش النمساوي — الهنغاري

---

(١) نشر هذا الكتاب من قبل دار أميلانغ للنشر في لايبتسيغ . (المؤلف)

التي جمعت وفق البحث التاريخي
من قبل الضابط الامبراطوري والملكي أدولف بيغلر
ومزودة بالتعليقات والشروح
من قبل الضابط الامبراطوري والملكي أدولف بيغلر »
وكانت الرسوم التخطيطية بسيطة إلى حد مخيف .

من «معركة نوردلينغن » في السادس من أيلول (سبتمبر) عام (١٦٣٤) إلى «معركة سنتا» في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) عام (١٦٩٧) ، ومعركة كالدييرو في الواحد والثلاثين من تشرين الأول (اكتوبر) عـام (١٨٠٥) ، و « معركـة أسبرن » في الثـاني والعشرين مـن أيار (مايو) عام (١٧٠٩) ، « ومعركة الأمم » في لايبتسيغ عام (١٨١٣) و«معركة القديسة لوتشيا » في أيار (مايو) عام (١٨٤٨) « ومعركـة تروتنـوف » في السابـع والعشرين مـن «يونيو» عام (١٨٦٦) حتى احتلال سارابيفو في التاسع عشر من آب « اغسطس » عام (١٨٧٨) .

كانت الرسوم التخطيطية والمخططات الخاصة بهذه المعارك متشابهة جميعاً . كان المرشح بيغلر قد رسم في كل مكان مستطيلات كانت بيضاء على هذه الجهة ومظللة على الجهة الأخرى تمثل العدو . وعلى كلا الجهتين كان هناك جناح أيسر وقلب وجناح أيمن . وفي الخلف الاحتياط وأسهم هنا وهناك . بدت معركة نوردلينغن شأن معركة سارابيفو كأنها تحديد مواضع اللاعبين على ملعب كرة القدم في بداية المباراة ، وبدت الأسهم وكأنها تشير إلى الاتجاه الذي يتوجب فيه على كل جانب أن يرفس الكرة .

وقد خطر هذا للنقيب ساغنر فوراً فسأله :

— يامرشح بيغلر ، هل تلعب كرة القدم ؟

احمرّ وجه بيغلر أكثر من السابق ورمش بعصبية بحيث أوحى للنقيب بأنه يكاد يبكي .

قلّب النقيب ساغنر المزيد من صفحات الدفتر مبتسماً ثم توقف عند ملاحظة على رسم تخطيطي لمعركة تروتنوف خلال الحرب النمساوية البروسية .

كان المرشح بيغلر قد كتب ما يلي : « معركة تروتنوف كان يجب ألا تخاض أبداً ، لأن الأرض الجبلية جعلت نشر فرقة الجنرال ما زوخيلي في جبهة مستعرضة أمراً مستحيلاً . كان يتهددها هناك الطوابير البروسية القوية التي كانت متمركزة على الأراضي المرتفعة المحيطة بالجناح الأيسر لفرقتنا . »

قال النقيب ساغنر مبتسماً وهو يعيد الدفتر إلى المرشح بيغلر :

— وهكذا ففي رأيك أن معركة تروتنوف كان يتوجب ألا تخاض الا لو كانت تروتنوف على أرض واطئة ، يا « بنديك» (١) بوديبوفيتس . يامرشح بيغلر . لطيف جداً منك أن تحاول خلال هذه الفترة القصيرة التي قضيتها في صفوف الجيش أن تخوض في الاستراتيجية ، الا أن الأمر في حالتك أشبه بحال الأولاد الصغار الذين يلعبون لعبة الجنود ويمنحون واحدهم الآخر ألقاب الجنرالات .

---

(١) قاد الجنرال بنديك الجيش النمساوي خلال هزيمته من قبل البروسيين عام (١٨٦١) (س . ب .)

لقد قمت بترقية نفسك بسرعة هائلة حقاً . هذا فاتن ! الضابط الامبراطوري والملكي أدولف بيغلر ! قبل أن نصل إلى بودابست ستكون «فيلد مارشال » . قبل البارحة كنت لاتزال في مكان ما في بيتك مع أبيك تزن جلود البقر ، أيها الملازم الأول الامبراطوري والملكي أدولف بيغلر ! . . . . عجبا أيها الرجل ، أنت لست ضابطاً بعد . أنت مجرد مرشح . أنت معلق في الهواء بين ملازم وضابط صف . إن محاولتك تسمية نفسك بالضباط أشبه بمحاولة وكيل العريف تسمية نفسه بالمساعد حين يكون في احدى الحانات في مكانما .

ثم قال وهو يلتفت إلى الملازم الأول لوكاش :

— اسمع يالوكاش ، المرشح بيغلر في سريتك ، حسنا ، دع هذا الفتى يذقها حامية . إنه يسمي نفسه «ضابطا» . دعه يصنع لنفسه مجداً في المعركة . حين يكون هناك قصف مدفعي ونحن نهاجم ، أرسل هذا الفتى الشجاع وفصيلته ليقطعوا شبكة الاسلاك الشائكة . وبالمناسبة فان «زيكان» يقرئك السلام . إنه قائد المحطة في «راب» .

أدّى المرشح بيغلر ، حين أدرك أن الحديث معه قد انتهى ، التحية ، وقد أصبح وجهه الآن قرمزي اللون ، وسار إلى نهاية الحافلة حيث وجد نفسه عند الممر .

ثم فتح باب دورة المياه كمن يمشي في نومه ، وحين نظر إلى الكتابة الألمانية والهنغارية التي تقول : « دورة المياه لا يجب أن تستعمل الا خلال سير القطار » ، بدأ ينشج ثم يبكي بأنفاس سريعة ثم ينتصب بصمت ، ثم أنزل بنطاله . . عصر بشدة وهو يمسح دموعه . وبعد ذلك استعمل دفتره المعنون : « رسوم تخطيطية لأهم وأمجد

المعارك لقوات الجيش النمساوي – الهنغاري ، التي جمعت من قبل الضابط الامبراطوري والملكي أدولف بيغلر » حتى آخر ورقة فيه . وقد اختفى هذا بعد أن تلطخ شرفه في الثقب . وحين سقط على السكة رفرف بين القضبان تحت القطار العسكري الآخذ في الابتعاد .

غسل المرشح بيغلر عينيه المحمرتين ثم خرج إلى الممر . كان يقول لنفسه إن عليه أن يكون قويا ، قويا جداً . كان رأسه ومعدته يوجعانه منذ الصباح .

مرّ عبر آخـــر مقصورة حيث كـــان جندي ارتباط الكتيبـــة ماتوشيتش يلعب لعبة الورق الخاصة بأهل «فيينا» والمسماة (شنابسن) أو «ستة وستون» مع وصيف قائد الكتيبة واسمه «باتسر » .

نظر إلى داخل الباب المفتوح للمقصورة وسعل . التفتا ثم استمرا في اللعب .

سألهما المرشح بيغلر :

– ألا تعرفان ما هو مطلوب منكما ؟

أجابه باتسر وصيف النقيب ساغنر بلغته الألمانية الرهيبة الخاصة ببلدة «كاشبر سكه هوري » :

– لم تعد معي أوراق رابحة . كان المطلوب مني أن ألعب بالاسباتي ، بالأوراق العالية من الاسباتي ، ثم بالاختيار البستوني . . . هذا ما كان يتوجب علي أن أفعله .

لم يتلفظ المرشح بيلغر بأية كلمة أخرى بل زحف إلى زاويته . وحين جاء الملازم بلشنر لاحقاً ليعرض عليه جرعة من زجاجة

الكونياك التي كسبها في لعب الورق ، دهش حين رآه يقرأ منهمكا في كتاب البروفسور « أودوكرافت » : « التثقيف الذاتي في الموت من أجل الامبراطور » .

وقبل أن يصلوا بودابست كان المرشح بيغلر ثملا إلى حد أنه أطل من نافذة الحافلة وظل يصرخ مخاطباً الريف المهجور :

— إلى الامام ، إلى الأمام أيها الشجعان ! باسم الرب تقدموا !

وبعد ذلك وبناء على أوامر النقيب ساغنر جرّه ماتوشيتش إلى داخل المقصورة، حيث مدّده هو وباتسر على المقعد فرأى المرشح بيغلر في نومه الحلم التالي :

« حلم المرشح بيغلر على الطريق إلى بودابست »

منح المرشح وسامي الشرف والصليب الحديدي وأصبح الآن برتبة رائد وكان في طريقه للتفتيش على مفرزة من لواء عين هو قائداً له . لم يكن يفهم السبب في أنه لا زال برتبة رائد (ميجور) بينما هناك لواء بأكمله تحت قيادته ، وقد شك في أنه كان سيرفّع إلى رتبة لواء (ميجور جنرال) وأن كلمة (جنرال) قد سقطت في مكان ما بسبب العجلة التي تميزّ البريد الميداني . (١)

كان عليه أن يضحك في داخله حين تذكر كيف أن النقيب ساغنر هدّده وهو في القطار في الطريق إلى الجبهة بارساله ليقطع الأسلاك الشائكة . وعلى أية حال ووفقاً لاقتراحه فقد تم نقل النقيب

---

(١) أي بقيت رتبة « ميجور » فحسب وتعني لوحدها رتبة « رائد » (المترجم)

ساغنر والملازم الأول لوكاش إلى فوج آخر وفرقة أخرى ومجموعة جيوش أخرى منذ زمن بعيد .

كما أن شخصا ما قد أخبره كيف أنهما قد قتلا كلاهما على نحو بائس في أحد المستنقعات خلال فرارهما من القتال .

حين ذهب بالسيارة إلى الخطوط الأمامية لتفتيش تلك المفرزة من لوائه كان كل شيء واضحاً بالنسبة اليه ، فقد كان موفداً خاصاً في الحقيقة من قبل رئاسة أركان الجيش .

مر الجنود به وهم ينشدون أغنية سبق أن قرأها في مجموعة من أغاني الجنود النمساويين ، وعنوانها « واجبنا » :

« أيها الاخوة أظهروا كل شجاعتكم

تماسكوا ، حطّموا العدو !

دعوا رايات الامبراطور تخفق . . . »

كان للمنظر الطبيعي خاصية الصور نفسها التي لكتاب «فيينا مصورة » .

فالى الجانب الأيمن قرب مخزن للحبوب ، كان يمكن مشاهدة المدفعية وهي تطلق النار على خنادق العدو قرب الطريق الذي كانت السيارة تسافر على امتداده . وإلى الجانب الأيمن كان منزل تطلق منه النار ، بينما يحاول العدو فتح بابه عنوة بأعقاب البنادق.وعند جانب الطريق كانت طائرة للعدو تحترق على الأرض . وعند الأفق كان ممكناً مشاهدة الخيالة وقرية تحترق ، ثم خنادق كتيبة متقدمة مع تلة صغيرة ، حيث كانت المدافع الرشاشة تطلق نيرانها على العدو . وإلى

الأمام كانت خنادق العدو تمتد على جانب الطريق . كان السائق يقود السيارة على امتداد الطريق باتجاه العدو .

صرخ بالسائق عبر انبوب التخاطب :

— ألا تعرفان أين نحن متجهان ؟ هنا خطوط العدو .

ولكن السائق أجاب بهدوء :

— أيها الجنرال ، هذه هي الطريق المقبولة الوحيدة . إنها في حالة جيدة .العجلات لن تتحمل تلك الطرق الجانبية .

وكلما اقتربا من مراكز العدو كانت النيران تشتد أكثر فأكثر . كانت القذائف تفجر صفوف أشجار الخوخ التي راحت تسقط فوق الخنادق على كلا جانبي الطريق .

ولكن السائق أجاب بهدوء عبر انبوب التخاطب :

— هذه طريق ممتازة ياجنرال . نحن نسير على نحو ناجح ! لو سرنا عبر الحقول لانفجرت العجلات . انظر ياجنرال ، هذه الطريق معبدة على نحو جيد جداً إلى حد أن قذيفة هاون من عيار ٢ / ١ ٣٠ سم لا تؤثر فيها . إنها أشبه بأرضية الدرس ، أما تلك الطرق الحجرية في الحقول فسوف تفجر عجلاتنا . على أية حال لا نستطيع العودة ياجنرال !

سمع بيغلر صوت انفجار ثم قفزت السيارة قفزة هائلة .

هدر السائق في أنبوب التخاطب :

— أو لم أقل لك أيها الجنرال أنها طريق معبدة على نحو شيطاني ؟

لقد انفجرت أمامنا للتو قذيفة من عيار (٣٨) ومع ذلك فلا حفرة هناك . الطريق أشبه بأرضية الدرس . ولكن الذهاب عبر الحقول سيعني نهاية العجلات . انهم يطلقون علينا النار الآن من مسافة أربعة كيلو مترات .

— ولكن أين نحن ذاهبان ؟

— لا أعرف بعد . سنستمر طالما بقيت الطريق كما هي . أنا مسؤول عن كل شيء .

قفزة ، قفزة هائلة ، ثم توقفت السيارة .

صاح السائق :

— أيها الجنرال ، ألا تحمل معك خريطة القادة ؟

أشعل الجنرال بيغلر مصباحه اليدوي ، فرأى خريطة قيادة على ركبتيه . ولكنها كانت خريطة بحرية لشاطىء «هليغولاند» من عام (١٨٦٤) خلال الحرب النمساوية البروسية ضد الدانمرك عبر «شلزفيغ هولشتاين» .

قال السائق :

— هنا مفترق طرق ، ولكن كلتا الطريقين تؤديان إلى مراكز العدو . وإن ما أهتم به هو الطريق الجيدة ، حتى لا تنفجر عجلاتي أيها الجنرال . . . أنا مسؤول عن سيارة القيادة . . .

ثم حدث انفجار ، وكان انفجاراً يصم الآذان وبرزت نجوم ضخمة ضخامة العجلات . كان « دربالتبانة» (الطريق اللبني) قد أضحى ثخينا كالقشدة .

كان بيغلر يعوم عبر الكون على مقعد إلى جانب السائق . فقد انشطرت السيارة إلى جزئين عند المقعد الخلفي تماماً وكأنما قصت بالمقص ، فلم يبق منها سوى الجزء الأمامي الميال للقتال والهجوم .

قال السائق :

– أي حظ طيب أنك أريتني الخريطة من الخلف . لقد طرت باتجاهي وانفجر الجزء الآخر . كانت تلك قذيفة من عيار (٤٢) . . لقد عرفت فوراً أنه حالما تصل إلى تقاطع طرق لن تكون الطريق جيدة إطلاقاً . بعد عيار الثمانية والثلاثين ما كان يمكن أن تكون سوى من عيار اثنين واربعين . لم يتم انتاج ما هو اثقل بعد .

– وإلى أين تقودنا ؟

– نحن نطير نحو السماء ياجنرال وعلينا تجنب المذنبات . انها أسوأ من القذائف من عيار اثنين واربعين .

– والآن ها هو المريخ تحتنا .

أحس بيغلر بالراحة مرة أخرى فسأل :

– هل تعرف تاريخ المعركة الأمم في لايبتسيغ ؟ حين سار الفيلد المارشال الأمير شفارتسنبرغ باتجاه ليبر تكوفيتسه في الرابع عشر من تشرين الأول (اكتوبر) من عام (١٨١٣) ، وحين جرت في السادس عشر من تشرين (اكتوبر) معركة لينديناو ؟ هل تعرف معارك الجنرال ميرفيلت حين كان الجيش النمساوي في « فاخاو » وحين سقطت لايبتسيغ في التاسع عشر من تشرين الأول (اكتوبر)؟

في تلك اللحظة قال السائق بوقار :

— أيها الجنرال لقد وصلنا للتو إلى بوابات الجنة . يجب أن تخرج ياسيدي . لا نستطيع أن نعبر بوابات الجنة بالسيارات . هناك ازدحام شديد . كلهم من الجنود .

صاح بالسائق قائلا :

— ادهس بعضهم ، وسوف يتنحون جانبا بكل تأكيد .

ثم صاح بالالمانية وهو يتدلى من السيارة :

— انتبهوا ياقطيع الخنازير ! يا لكم من بهائم ! ترون جنرالا ولا تؤدون التحية ؟

هدّأ السائق من روعه قائلا :

— هذا صعب ياجنرال ، فمعظمهم قد فقدوا رؤوسهم .

في تلك اللحظة فحسب لاحظ الجنرال أن أولئك الذين كانوا يضغطون للمرور عبر بوابات الجنة كانوا جنودا مصابين بعاهات مختلفة وفقدوا أجزاء من أجسادهم في الحرب وها هم يحملونها معهم في حقائب ظهورهم : رؤوس وأذرع وسيقان . كان هناك رجل صالح من سلاح المدفعية يضغط على أبواب الجنة بمعطف ممزّق وقد حمل كل بطنه وأجزاؤه السفلى في رزمة . ومن رزمة أخرى كانت تنتمي إلى رجل صالح آخر من جنود اللاندفير ، كانت نصف أجزائه الخلفية التي فقدها في « لفوف» تحدّق في الجنرال بيلغر .

قال السائق مرة أخرى وهو يقود السيارة عبر الحشد الكثيف :

— هذا بسبب النظام ، لا شك أن هناك تفتيش إلهيّ سام .

عند بوابات الجنة كان لا يسمح للناس بالدخول إلا بعد اعطاء كلمة السر التي وصلت إلى الجنرال بيغلر فوراً : « من أجل الرب والامبراطور » . وهكذا دخلت السيارة إلى الفردوس .

قال ملاك من الضباط وله جناحان حين مرّا بثكنة الملائكة المجندين حديثاً :

— أيها الجنرال ، عليك أن تراجع القيادة العليا .

مرّا بالسيارة عبر ساحة للاستعراض تعجّ بالمجندّين حديثاً من الملائكة كانوا يتدربون على الصياح بـ « هلّلوا ليا » .

ثم مرّا عبر مجموعة كان بينها عريف من الملائكة أحمر الشعر يهاجم مجنداً أخرق من الملائكة ويضربه على بطنه بقبضته ويصيح به : « افتح فمك أكثر من ذلك ياخنزير بيت لحم . أهكذا تصيح «هلّاواليا » ؟ لكأن هناك شيشبركا في شدقيك ؟ أود أن أعرف أي ثور لعين سمح لدابّة مثلك بالدخول إلى الفردوس . جرب مرة أخرى . . . هللوا ليا ؟ ماذا أيها النغل ؟ أتظن أننا سنسمح لك بأن تعوي من أنفك هنا في الفردوس . . . ؟ حاول مرة أخرى ، ياشجرة الأرز اللعينة اللبنانية ! »

وهكذا سارا بالسيارة نحو الأمام وهم يسمعون من خلفهم طوال الوقت المواء النزوي المرتعش لمجند من الملائكة مصاب بالزكام : « أل . . . ألل . . . اللو . . . ليا . . . » وصراخ العريف الملاك : « ه . . . لل . . . لو . . . يا ، ه . . . لل . . . او . . . يا ، يابقرة الاردن اللعينة ! »

ثم شاهدا وهجا هائلا فوق بناء كبير بحجم ثكنة «ماريا نسكه» في تشكه بوديبوفيتسه وكانت فوقه طائرتان ، واحدة من اليسار والأخرى إلى اليمين وفي الوسط كان معلقاً بينهما لافتة ضخمة كتب عليها بأحرف هائلة الحجم :

« رئاسة الأركان الامبراطورية والملكية للرب »

ثم رافق الجنرال بيغلر من سيارته ملاكان يرتديان ملابس الدرك الميداني . وقد أخذوه من قبته وقادوه إلى الطابق الأول من البناء.

قالا له حين أصبح في الطابق الثاني من البناء ودفعاه إلى الداخل :

— أحسن التصرف في حضور الرب .

كان الرب واقفاً في وسط الغرفة التي كان معلقاً على جدرانها صور فرانتس يوسيف وفيلهلم ، ووريث العرش النمساوي كارل فرانتس يوسيف والجنرال فيكتور دانكل ، والأشدوق فريدريش ورئيس هيئة الأركان كونراد فون هوتسندورف .

قال الرب بلهجة توكيدية :

— يامرشح بيغلر ، ألم تعرفني ؟ أنا النقيب ساغنر سابقاً من السرية الحادية عشرة المتقدمة .

أصيب بيغلر بالخرس .

قال الرب مرة أخرى :

— يامرشح بيغلر ، من أعطاك الحق في أن تمنح نفسك لقب «لواء» ؟ من أعطاك الحق يامرشح بيغلر بركوب سيارة قيادة على الطريق عبر مواقع العدو ؟

— أبلغكم بتواضع . . .

— أغلق فمك يامرشح بيغلر حين يخاطبك الرب .

قال بيغلر مرة أخرى :

— أبلغكم بتواضع . . .

صاح الرب موبخا اياه :

— اذن ، فأنت لن تبقي فمك مغلقاً ؟

ثم فتح الباب وصاح :

— أيها الملاكان ، تعالا إلى هنا .

دخل ملاكان يحمل كل منهما بندقية على جناحه الأيسر . وقد عرف بيغلر فيهما كلا من ماتوشيتش وباتسر .

ثم لفظت شفاه الرب الكلمات التالية :

— ارموه في المرحاض .

كان المرشح بيغلر يسقط إلى الأسفل ، وكانت هناك رائحة عفنة رهيبة .

* * *

مقابل المرشح بيغلر النائم كان ماتوشيتش جالسا مع باتسر وصيف النقيب ساغنر . كانا لا يزالان يلعبان « الستة والستين » .

قال باتسر الذي لاحظ باهتمام كيف كان المرشح بيغلر يتلوّى بحذر :

— للنغل رائحة كريهة أشبه برائحة سمك الكود . (١) لابدّ وأنه فعل شيئاً .

قال ماتوشيتش متفلسفا :

— يمكن أن يحدث ذلك لأي شخص . اتركه في حاله . لن تغيرّ له ملابسه على أية حال . استمر في اللعب بدلاً عن ذلك .

ظهر وهج الأنوار فوق بودابست . كانت هناك أنوار كشافة تتحرك فوق الدانوب .

كان المرشح بيغلر يحلم حلماً آخر الآن لأنه قال في نومه بالألمانية :

— قل لجيشي الشجاع أنه قـد بنى في قلبي نصبا تذكاريا لا يفنى من الحب والامتنان .

وبما أن المرشح بدأ يقول ذلك وهو يتململ مرة أخرى ، فقد هبتّ رائحة قوية على أنف باتسر . قال وهو يبصق :

— رائحته عفنة كرائحة منظّف المراحيض ، كرائحة منظّف مراحيض برّز على نفسه .

ولكن المرشح بيغلر بدأ يتململ ثانية وبشدة ، وكان حلمه الجديد فانتازياً إلى أبعد حد . كان يدافع عن « لينتس » في حرب وراثة عرش النمسا .»

كان يرى المتاريس والتحصينات و « الحسائك (٢)» حول

---

(١) سمك من أسماك شمال المحيط الأطلسي . (المترجم)

(٢) ومفردها الحسيكة وتعني : السياج من الأوتاد الخشبية القوية المستدقة . (المترجم)

المدينة ، وكان مقر رئاسة أركانه العامة قد تحوّل إلى مستشفى ضخم . في كل مكان من حوله كان الجرحى يتمددون وهم يمسكون ببطونهم . تحت حسائك مدينة لينتس كان جنود سلاح فرسان نابوليون الأول يمرون ممتطين جيادهم .

وكان هو ، قائد المدينة ، ، يقف مطلاً على هذا الخراب ويمسك بنفسه من بطنه أيضاً ويصرخ بفرنسي جاء للتفاوض :

— قل لامبراطورك أني أرفض الاستسلام . . .

ثم أحس فجأة وكأن الألم في بطنه قد تلاشى فجأة ، وكان يندفع مع كتيبته من فوق الحسائك خارج المدينة على الطريق نحو المجد والنصر . رأى الملازم الأول لوكاش وقد أصيب بطعنة في الصدر من سيف أحد الفرسان الفرنسيين . كانت الطعنة موجّهة اليه هو في الأصل ، بيغلر ، حامي حمى مدينة لينتس .

كان الملازم الأول لوكاش يموت عند قدميه ويصيح بالألمانية : «رجل مثلك أيها العقيد أكثر فائدة من مجرد ملازم أول لا قيمة له على الاطلاق .»

التفت قائد لينتس بعيداً عن الرجل المحتضر وقد بدا عليه التأثر . وفي تلك اللحظة أصابت شظية عضلات ردفيه .

مدّ بيغلر يده بطريقة آلية إلى مقعد بنطاله فأحس بشيء رطب . كان هناك شيء رطب دبق على أصابعه . صرخ : «الاسعاف ! الاسعاف ! » ثم سقط عن جواده . . .

رفع باتسر وماتوشيتش المرشح بيغلر من الأرض حيث كان قد سقط من المقعد ، وأعاداه إلى مكانه .

ثم ذهب ماتوشيتش إلى النقيب ساغنر وأبلغه أن أموراً غريبة تحدث للمرشح بيغلر .

قال :

– ربما لا يكون السبب هو الكونياك، بل هي الكوليرا على الأرجح. إن المرشح بيغلر يشرب الماء في كل محطة. وفي «موشون» لاحظت أنه . . .

– الكوليرا لا تفعل فعلها بهذه السرعة يا ماتوشيتش . قل للطبيب وهو في المقصورة الثالثة أن يذهب ويفحصه .

كان قد عين للكتيبة «طبيب حربي» ألا وهو الطالب العجوز والطالب الألماني السابق «فلفر» . كان هذا يعرف كيف يشرب ويتشاجر ويعالج بكل مهارة إذ درس في كل كليات الطب المختلفة في مختلف مدن النمسا – هنغاريا ومارس الطب في مستشفيات مختلفة متنوعة ، ولكنه لم يحصل على شهادة الطب لسبب بسيط هو أن الوصية التي خلّفها عمّه لورثته كانت تنصّ على أن طالب الطب ، فريدريش فلفر ، سيتلقى منحة سنوية حتى ينال شهادة الطبيب .

وكانت هذه المنحة أكبر بأربع مرات من راتب طبيب مبتدئ في مستشفى ، وهكذا بذل فلفر ما بوسعه لتأخير نيله شهادة الطب إلى الأبد .

غضب الورثة إلى حد الجنون ، ، فقالوا بأنه معتوه وحاولوا أن يخدعوه بعرائس ثريات ليتخلصوا منه . وحتى يمعن في مضايقتهم ، نشر فلفر ، وهو العضو في حوالي اثني عشر ناد

طلابي ألماني ، في فيينا ولايبتسيغ وبرلين ، مجموعة أو مجموعتين من الشعر الجيد ، كما كان يساهم في مجلة «سيمبليسيموس» ، وتابع الدراسة وكأنّ شيئاً لم يكن .

ثم جاءت الحرب وكانت بالنسبة اليه طعنة مخجلة من الخلف .

وهكذا اقتيد طالب الطب ، فريدريش فلفر ، الشاعر ومؤلف المجموعات الشعرية : «أغان ضاحكة» «والابريق الفضي والمعرفة» و«حكايات خرافية ورمزية» ، إلى الحرب دون المزيد من الجعجعة ودبرّ أحد الورثة من العاملين في وزارة الحربية مسألة منح فلفر «شهادة طبيب حربي » . وقد تمّ ذلك بالمراسلة . كان عليه أن يملأ بياناً من الأسئلة فكتب في كل الفراغات الجواب نفسه بالألمانية : «قبلّ مؤخرتي ! » وبعد ثلاثة أيام علم من العقيد أنه قد منح شهادة «دبلوم الطب العام» إذأنه أصبح جاهزا منذ فترة طويلة لهذهالشهادة ، وأن طبيب رئاسة الأركان سيعينّه في مستشفى احتياطي وأن ترقيته بسرعة تعتمد على سلوكه الجيد . وأضاف العقيد أنه صحيح ما يقال من أنه قد تبارز مع عدد من الضباط في مختلف المدن التي تضم جامعات ، وأن ذلك معروف عنه تماماً ، ولكن هناك حرب دائرة وقد تم نسيان كل شيء .

عض مؤلف « الابريق الفضي والمعرفة » على شفته والتحق بالجيش .

هذا وقد كشف لاحقاً عن حالات معينة كان الطبيب يتصرفّ فيها على نحو متساهل إلى حد غير عادي مع المرضى من الجنود ، فكان يطيل من اقامتهم في المستشفى بقدر ما يستطيع حين

كانت الشعارات تقول : « الموت في الخنادق ولا التكاسل في المستشفيات .» . ونتيجة لذلك أرسل فلفر مع الكتيبة الحادية عشرة المتقدمة إلى الجبهة .

كان الضباط العاملون في الكتيبة ينظرون إليه كمخلوق أدنى . أما الضباط الاحتياطيون فكانوا لا يأبهون به أيضاً ولا يصادقونه خشية أن تتسع الهوة بينهم وبين الضباط العاملين .

بالطبع كان النقيب ساغنر يشعر أنه أعلى مقاماً بكثير من هذا الطالب السابق من طلاب كلية الطب الذي سبق له ، خلال فترة دراسته الطويلة ، أن جرح عدداً من الضباط بسيفه . وحين كان « الطبيب الحربي » يمرّ بالقرب منه لم يكن ليتنازل فيرمقه بنظرة واحدة بل يستمر في حديثه مع الملازم لوكاش حول شيء غير هام اطلاقاً ،مثل زراعة الكوسا حول بودابست ، وكان الملازم الأول لوكاش يجيب بأنه حين كان طالباً ضابطاً في السنة الثالثة ، ذهب مع بعض الأصدقاء بالملابس المدنية إلى سلوفاكيا وزاروا هناك كاهنا بروتستانتيا كان سلوفاكي الأصل . وقد قدم لهم الكوسا مع لحم خنزير المحمص وصب لهم لاحقاً بعض النبيذ وهو يقول :

« الكوسا خنزير

ويحب من النبيذ الكثير .»

ونتيجة لذلك أحس الملازم الأول لوكاش بالاهانة إلى حد شديد.(١)

قال النقيب ساغنر :

(١) محادثة النقيب ساغنر مع الملازم الأول جرت بالتشيكية .
(ملاحظة من المؤلف)

– لن نرى الكثير من بودابست . سندور من حولها . وفقاً للبرنامج سنبقى فيها ساعتين فقط .

أجاب الملازم الأول لوكاش :

– أعتقد أنهم يحولون القطار إلى خط آخر . نحن الآن على الخط الجانبي للترانزيت . إنها محطة النقل العسكري .

في تلك اللحظة مرّ « الطبيب الحربي » بالقرب منهما .

قال الطبيب مبتسماً :

– لا شيء اطلاقاً . أولئك السادة الذين يطمحون إلى أن يصبحوا ضباطاً في المستقبل ، والذين سبق لهم وتفاخروا في نادي الضباط في « بروك » بمعرفتهم بالتاريخ والاستراتيجيا ، يجب أن يحذّروا من التهام طرد كامل من الحلويات التي أرسلتها لهم أمهم إلى الجبهة دفعة واحدة . فالمرشح بيغلر الذي اعترف لي أنه التهم ثلاثين قرصاً بالقشدة منذ أن غادرنا «بروك» ولم يشرب سوى الماء المغلي في كل محطة أيها النقيب يذكرني بقصيدة لشيلر :

« . . . من يتكلم عن . . . »

قاطعه النقيب ساغنر قائلا :

– اسمع يا دكتور ، لا علاقة لهذا بشيلر . ما الذي يعاني منه المرشح بيغلر فعلا ؟

ابتسم « الطبيب الحربي » وقال :

– إن المرشح لرتبة ضابط ، مرشحك بيغلر ، قد تبرّز في

بنطاله . . . ليس للكوليرا دخل في الموضوع ، ولا للزحار أيضاً ، بل هو تبرّز عادي مبتذل . لقد أسرف قليلا في شرب الكونياك مرشحك ذاك لرتبة ضابط ، وقد تبرّز في بنطاله . . . كان سيبرّز في بنطاله دون ذاك الكونياك حتّى ، فقد التهم كل أقراص القشدة التي أرسلت له من البيت . . . انه طفل . . . في النادي ، وهذا ما أعرفه كحقيقة ، كان لا يشرب سوى ربع ليتر من النبيذ . انه من النوع الذي لا يتناول المسكرات .

بصق الدكتور فلفر واستأنف قائلا :

— كان معتاداً على شراء الحلويات من نوع « لينتسر تورته » .

سأل النقيب ساغنر :

— اذن لا شيء خطير ؟ ولكن ماذا لو انتشرت مثل هذه الحالة في الكتيبة ؟

نهض الملازم الأول لوكاش وقال لساغنر :

— شكراً على قائد فصيلة كهذا .

قال «فلفر» الذي لم تفارق الابتسامة شفتيه :

— لقد ساعدته على النهوض قليلا ، وأنت ياسيدي كقائد للكتيبة ستقرر الاجراءات اللاحقة . . . أعني أني سأرسل المرشح بيغلر إلى أحد المستشفيات هنا . . . سأكتب شهادة تفيد بأنه مصاب بالزحار . . . اصابة شديدة بالزحار . إنه بحاجة إلى العزل . .
المرشح بيغلر سيذهب إلى المطهر . . .

استأنف فلفر قائلا والابتسامة المقيتة نفسها على شفيته :

— هذا أفضل بكل تأكيد . سيكون لديك إمّا مرشح تبرّز في بنطاله أو مرشح أصيب بالزحار . . .

التفت النقيب ساغنر نحو لوكاش وقال بلهجة رسمية تماماً :

— أيها الملازم الأول ، لقد أصيب المرشح بيغلر ، وهو من تعداد سريتك بالزحار وسيبقى في بودابست للعلاج . . .

فكر النقيب ساغنر في أن فلفر كان يضحك على نحو استفزازي جداً ولكنه حين نظر إلى «طبيب الحرب» رأى أنّه قد لبس تعبيراً نزيها تماماً .

أجاب فلفر بهدوء :

— كل شيء على ما يرام اذن ياسيدي . إن المرشح لرتبة ضابط . . .

ثم قام بتلويحة من يده كأنه يصرف الموضوع جانباً ، وقال :

— مع الزحار كل شخص يبرز في بنطاله .

وهكذا حدث أن نقل المرشح المقدام بيغلر إلى المستشفى العسكري للعزل في «أوي بودا» .

كما ضاع بنطاله المبرّز فيه في دوامة الحرب العالمية .

وحجزت أحلامه بالانتصارات العظيمة في جناح العزل من المستشفى .

حين علم أنه مصاب بالزحار سر سروراً حقيقياً .

فطالما أنه أصيب خلال تأديته لواجباته تجاه صاحب الجلالة الامبراطورية فلا فرق أن كانت اصابته بمرض أو بجراح .

ولكن حظه كان سيئاً . فبما إن كل الأمكنة المخصصة للزحار كانت ممتلئة فقد نقلوه إلى قسم الكوليرا .

وقد أدخلوه إلى الحمام وحين وضعوا ميزان حرارة تحت ابطه هزّ طبيب هنغاري كبير رأسه وصاح : « سبعة وثلاثون درجة مئوية ! » في حال الاصابة بالكوليرا تكون أسوأ العوارض هي هبوط خطير في درجة الحرارة . كما يصبح المريض لا مباليا .

لم تبد على المرشح بيغلر أي اثارة حقا . كان هادئاً على نحو غير طبيعي وهو يقول لنفسه المرة تلو الأخرى انه كان على أية حال يعاني من أجل صاحب الجلالة الامبراطورية .

أمر الطبيب بوضع ميزان الحرارة في شرج المرشح بيغلر .

فكر الطبيب في نفسه :

– هذه آخر مرحلة من مراحل الكوليرا . انها من علائم الانهيار النهائي ، ضعف شديد يصيب المريض حين يبدأ هذا بفقد الوعي بما حوله ويصبح فكره غائماً . ويبتسم وهو يحتضر متشنجاً .

خلال هذه الاجراءات كان المرشح بيغلر يبتسم بالفعل كشهيد ويتصرف كبطل ، وذلك حين دفعوا ميزان الحرارة في شرجه . ولكنه لم يتحرك .

قال الطبيب في نفسه :

– انها أعراض الكوليرا التي تؤدي إلى الموت . حالة من السلبية . . .

ثم سأل ضابط الصف الطبي الهنغاري إن كان المرشح بيغلر قد تقيأ وأسهل و هو في الحمام .

وحين استلم جواباً بالنفي حدق في بيغلر . في الكوليرا حين يتوقف الاقياء والاسهال ، فان للأمر الدرجة نفسها من الخطورة انه السياق نفسه الذي تتخذه الكوليرا في الساعات الأخيرة قبل الموت .

أحس المرشح بيغلر بالتجمد حين حمل عاريا تماماً من الحمام الساخن إلى سريره . بدأت أسنانه تصطك وغطت القشعريرة بدنه كله .

قال الطبيب بالهنغارية :

— هل ترون ؟ انها نوبة برد شديدة . أطرافه باردة . هذه هي النهاية .

ثم انحنى على المرشح بيغلر وسأله بالألمانية :

— حسنا ، كيف تشعر ؟

أجاب بيلغر بأسنان مصطلكة :

— ج . . . ج . . . ي . . . د . . . ج . . . دا . . . ب . . . ط . . . ط . . . ا . . . ن . . . ية . . .

قال الطبيب الهنغاري :

— الفكر غائم جزئياً ، ولكنه محتفظ به جزئياً أيضاً . البدن هزيل جدا ، يجب أن تكون الشفاه والأظافر مسودّة . . .هذه

ثالث حالة تمر معي يموت فيها الناس من الكوليرا دون أظافر وشفاه مسودة . . .

انحنى فوق المرشح بيغلر مرة أخرى واستأنف قائلا بالهنغارية :

— لقد توقفت الاستجابة الثانية فوق القلب . . .

— قال المرشح بيغلر بأسنان مصطكة :

— ب. ه . ط. . . ط. . . . ا. . . ن. . . ية. . .

قال الطبيب بالهنغارية لضابط الصف الطبي :

— ان ما يقوله الآن هو آخر كلماته . غدا سندفنه مع «الرائد كوخ» . والآن سيصاب بغيبوبة . هل معك أوراقه في المكتب ؟

أجاب ضابط الصف بهدوء :

— ستكون هناك .

أنّ المرشح بيغلر ملاحقاً إيّاهما وهما يبتعدان وأسنانه لا زالت تصطك :

— ب. . . ط. . . ط. . . ا. . . ن. . . ية !

في الجناح كله كان عدد الموجودين خمسة أشخاص فقط في ستة عشر سريراً. كان أحدهم عبارة عن جثة فقد مات منذ ساعتين وغطي بشرشف ويحمل الاسم نفسه الذي كان لذلك الرجل مكتشف عصيات الكوليرا . كان ذاك هو « الرائد كوخ » الذي سيدفن غداً ، وفق ما قاله الطبيب ، مع المرشح بيغلر .

جلس المرشح بيغلر في سريره ورأى للمرة الأولى كيف يموت الناس من الكوليرا لأجل صاحب الجلالة الامبراطورية ، فقد كان اثنان من بين الأربعة الباقين يحتضران . كانا يناضلان ليتنفسا وقد ازرق لونهما ، ويحاولان أن يقولا شيئاً ما ، ولكنه كان من المستحيل معرفة ما كانا يقولانه أو اللغة التي كانا يحاولان النطق بها . كان ذلك أشبه بلغط صادر عن فم مسدود .

أما الآخران ، بردود أفعالهما العنيفة على ابلالهما من المرض ، فكانا أشبه بالناس الذين يعانون من هذيان حمى التيفوئيد ، فقد كانا يصرخان صرخات غير مفهومة ويطيحان بسيقانهما الهزيلة من تحت البطانيات . كان يقف عندهما ممرض ملتح يتكلم باللهجة الستيرية (كما لاحظ المرشح بيغلر) ويحاول تهدئتهما : « أنا نفسي أصبت بالكوليرا أيها السادة الأكارم ، ولكني لم أكن أرفس بطانياتي هكذا . الآن انتما بخير . ستحصلان على اجازة حين . . .

ثم صرخ بأحد هذين اللذين كانا يرفسان البطانيات بحيث غطت رأسه :

— ليس هذا مسموحاً هنا . كونا سعيدين لأن حرارتكما مرتفعة . هذا يعني على الأقل أنهما لن ينقلوكما بعيداً على صوت الموسيقى . لقد نجوتما .

ثم نظر فيما حوله وقال بلهجة بهيجة :

هناك اثنان آخران قد ماتا . وهذا ما توقعناه . كونا سعيدين فقد نجوتما من ذلك كله . يجب أن أذهب لأحضر بعض الشراشف .

بعد العودة بوقت قصير غطى بالشراشف ذينك اللذين ماتا وكانت شفاههما قد أسودّت تماماً ، وأخرج لهما أيديهما ذات الأظافر المسودة أيضاً والتي كانت تمسك بقضيبيهما المنتصبين في آخر نوبات الاختناق ، كما حاول أن يرجع لسان كل منهما إلى فمه . ثم ركع قرب سريريهما وبدأ يصلي : « يامريم العذراء ، ياأم الله . . . » وبينما كان يفعل ذلك نظر المرض العجوز الستيري الأصل إلى مريضيه الناقهين . اللذين كانت الحمى من دلائل عودتهما إلى الحياة .

كان يكرر : « مريم العذراء ياأم الله . . . » حين ربت رجل على على كتفه .

كان ذاك هو المرشح بيغلر الذي قال :

— اسمع . لقد ا س . . . استحممت . . . أعني حمموّني — . . . وأنا بحاجة إلى بطانية . . . اشعر بالبرد .

قال الطبيب بعد نصف ساعة للمرشح بيغلر الذي كان يستريح تحت بطانية الآن :

— هذه حالة خاصة . أنت ناقه من جديد يامرشح . غدا سنرسلك إلى المستشفى الاحتياطي في « تارنوف » أنت حامل لجراثيم الكوليرا . . لقد تقدمنا كثيراً في هذا المجال بحيث نعرف كل شيء عنها . أنت من عناصر الفوج الواحد والتسعين . . .

أجاب الممرض ضابط الصف عن المرشح بيغلر :

— الكتيبة الثالثة عشرة المتقدمة . السرية الحادية عشرة .

قال الطبيب :

ـــ دوّن ما يلي : « ينقل المرشح بيغلر من الكتيبة الثالثة عشرة المتقدمة ، السرية الحادية عشرة المتقدمة ، الفوج الواحد والتسعين ، إلى قسم الكوليرا في تارنوف ليوضع تحت المراقبة . انه حامل لجراثيم الكوليرا . . . »

وهكذا تحول المرشح بيغلر من محارب حماسي إلى حامل لجراثيم الكوليرا .



الفصل الثاني

في بودابست

في المحطة العسكرية في بودابست جلب ماتوشيتش إلى النقيب ساغنر برقية من رئاسة الأركان أرسلها قائد اللواء سيىء الحظ الذي سبق له وحُمل إلى المصح العقلي . كانت دون شيفرة وتحتوي على مضمون مماثل لتلك التي استلمت في المحطة السابقة : « انهوا الطبخ بسرعة وسيروا إلى سوكال » ثم التفاصيل التالية : « اندمجوا مع قفل الرتل في المجموعة الشرقية. الاستخبارات تلغى. تبني الكتيبة الثالثة عشرة المتقدمة جسراً فوق نهر «بوغ» . التفاصيل الأخرى في الصحف . »

انطلق النقيب ساغنر فوراً إلى قيادة المحطة . وقد استقبله هناك ضابط بدين قصير ذو ابتسامة ودية .

قال وهو يهذر ضاحكاً :

— لم يكن قائد لوائكم ذاك مقصراً في واجباته ، ولكننا مضطرون إلى ارسال كل ذلك الجنون اليكم حيث لم نستلم أوامر من الفرقة حتى الآن تفيد بايقاف تسليم البرقيات إلى أصحاب الشأن . البارحة مرت الكتيبة الرابعة عشرة المتقدمة من الفوج الخامس والسبعين واستلم

قائدها برقية هنا تفيد بمنح كل رجل ستة كراونات كمكأفاة خاصة من أجل «برزيميسل» . وقد وصله الأمر في الآن ذاته بأنه من بين الكراونات الستة تلك سيكون على كل رجل أن يضع في المكتب هنا كراونين من أجل «قرض الحرب» . . . . ووفقاً للمعلومات الموثوقة فان قائد لوائكم قد أصيب بالشلل .

قال النقيب ساغنر وهو يلتفت نحو قائد المحطة :

— ياسيدي ، وفقاً لأوامر الفوج وبرنامجنا فان علينا أن تذهب إلى إلى « غودولو» . وعلى الرجال أن يحصلوا هناعلى خمسة عشر «ديكا» من «جبن ايمينتالر » . في المحطة السابقة كان يتوجب أن يستلموا خمسة عشر «ديكا» من السلامي الهنغاري ، ولكنهم لم يحصلوا على أي شيء .

أجاب الرائد وهو لا يزال يبتسم بود :

— أظنّ أنهم لن يحصلوا على أي شيء هنا أيضاً . لا أعرف شيئاً عن أي أمر من هذا النوع يخص «الأفواج القادمة من بوهيميا » . على أية حال فان هذا ليس شأني . قدم طلباً إلى هيئة الامداد والتموين .

— متى سنغادر ياسيدي ؟

— هناك قطار أمامكم يحمل مدفعية ثقيلة وسيذهب إلى غاليسيا.. سنرسله خلال ساعة أيها النقيب . وعلى الخط الثالث لدينا قطار مستشفى . وهذا سيغادر بعد قطار المدفعية بخمس وعشرين دقيقة . وعلى الخط الثاني عشر لدينا قطار ذخائر . وهذا سيغادر بعد قطار المستشفى بعشر دقائق . وبعد ذلك بعشرين دقيقة يأتي دوركم .

ثم أضاف وهو لا يزال يبتسم ، ممّا جعل النقيب ساغنر يشعر نحوه بالاشمئزاز :

— هذا إن لم تحدث أية تغييرات .

سأله ساغنر :

— اعذرني ياسيدي ، هل لك أن تتفضل فتشرح لي كيف حدث أنك لا تعرف شيئاً عن أي أمر يخص إصدار خمسة عشر «ديكا» من من « جبن ايمينتالر » للأفواج القادمة من بوهيميا ؟

قال قائد محطة بودابست وهو لايزال يبتسم :

— هذا سر .

فكر النقيب ساغنر في نفسه وهو يغادر مبنى قيادة المحطة :

— لقد تصرفت كجحش . لماذا كان علي أن أطلب من الملازم الأول لوكاش أن يجمع كل القادة والرجال ويذهب معهم إلى مفرزة الامدادات لاستلام خمسة عشر «ديكا» من «جبن ايمينتالر» لكل رأس؟

ولكن قبل أن يستطيع الملازم الأول لوكاش تنفيذ أمر النقيب ساغنر والايعاز إلى رجال الكتيبة بالتوجه إلى المستودع لاستلام خمسة عشر «ديكا» من « جبن ايمينتالر » لكل رأس ، ظهر شفيك أمامه مع بالون السيء الحظ .

كان بالون يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه .

قال شفيك بلهجة المعتادة الخالية من التكلف :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أن المسألة التي جئت بخصوصها هامة جداً . سأكون شديد الامتنان لك ياسيدي لو استطعنا أن نحل «المشكلة كلها جانبياً» كما كان صديقي «شباتينا» من « زهورج» يقول حين كان شاهداً على زفاف واضطر فجأة في الكنيسة إلى . . .

قاطعه الملازم الأول لوكاش قائلاً :

— حسنا ياشفيك ، ما الحكاية ؟

كان قد سبق له وافتقد شفيك بقدر ما كان شفيك يفتقده ، فاستأنف قائلا :

— هيا نذهب جانباً إذن .

سار بالون خلفهما وهو لا يزال يرتجف . كان هذا المارد قد فقد توازنه تماماً وها هو يؤجح ذراعيه وقد أسقط في يده تماماً .

قال الملازم الأول لوكاش حين ابتعدوا جانباً :

— حسناً ، ما الأمر ياشفيك ؟

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أنه من الأفضل دائماً الاعتراف بشيء ما قبل أن يظهر . لقد أعطيت أمراً محدداً ياسيدي أننا حين نصل إلى بودابست فان على بالون أن يحضر لك فطيرة الكبد وبعض الخبز .

ثم قال شفيك وهو يلتفت إلى بالون :

— هل وصلك الأمر يابالون أم لا ؟

بدأ بالون يؤرجح ذراعيه على نحو أشد عنفا وكأنه كان يرد ضربات عدو مهاجم :

قال شفيك :

— لم يكن ممكناً لسوء الحظ تنفيذ هذا الأمر ياسيدي لأني التهمت تلك الفطيرة بنفسي ياسيدي . . .

استأنف شفيك وهو يلكز بالون المروّع :

— لقد التهمتها كلها لأني خشيت أن تفسد . لقد قرأت عدة مرات في الصحف كيف أن عائلات بكاملها تسممت بسبب فطيرة الكبد . لقد حدث ذلك مرة في «زديراز» «وأخرى في « بيرون» وثالثة في «تابور» ورابعة في «ملادا بوليسلاف» وخامسة في « برجيبرام » . كلهم ماتوا مسمومين . فطيرة الكبد أسوأ قذارة . . .

وقف بالون المرتجف من أعلاه إلى أسفله ، جانباً ، ووضع أصبعه في حلقه وراح يستفرغ على مراحل قصيرة .

— ما حكايتك يابالون ؟

— أنا أسة . . . فرغ ياسيدي . . . لقد ا . . . ل . . . ت . . . هم . . . تها . . . بـ . . . نف . . . سي .

بدأت قطع الورق القصدير والفطيرة تخرج من فم بالون السيء الحظ .

قال شفيك دون أن يفقد هدوءه اطلاقاً :

— كما ترى ياسيدي فان كل قطعة من الفطيرة الملتهمة تطفو كالزيت على سطح الماء . لقد أردت أن أضع اللوم على نفسي ولكن الأحمق اللعين خرب كل شيء . انه شاب مهذب فعلا ، ولكنه يلتهم كل ما يعطى له . لقد عرفت مرة رجلا مثله ، وكان يعمل كمراسل لأحد المصارف . كان يمكنهم أن يثقوا به بآلاف الكراونات . مرة سحب نقودا من مصرف آخر فأعطوه ألف كراون زيادة فأعادها فوراً .ولكنهم لو أرسلوه ليشتري لحم خنزير مدخن بخمسة عشر كرويتزراً لالتهم نصفه على الطريق.فيما يتعلق بالطعام كان شرهاً إلى حد أنه كلما أرسله

الموظفون لشراء المقانق كــان يقطعهــا على الطريق بمــوساه ثم يلصق الثقوب بقماش لاصق . كان القماش اللاصق الذي يستعمله لخمس قطع من المقانق يعادل سعر قطعة بكاملها .

تنهد الملازم الأول لوكاش ثم ابتعد عنهما .

لحق به شفيك وهو يسأله :

— هل هناك أوامر أخرى ياسيدي ؟

بينما تابع بالون سيء الحظ وضع اصبعه في حلقه .

صرفه الملازم الأول لوكاش بحركة من يده وانطلق نحو المستودع وخلال ذلك خطرت له فكرة غريبة مفادها أنه لو أكل الجنود فطيرة كبد ضباطهم لما استطاعت النمسا أن تكسب الحرب .

في هذه الأثناء اصطحب شفيك بالون إلى الطرف الآخر من الخط الحديدي العسكري وواساه بأن قال انهما يستطيعان الذهاب معا والقاء نظرة على المدينة والعودة بعد شراء بعض مقانق « دبريتسين » للملازم حيث كانت فكرة عاصمة المملكة الهنغارية مرتبطة بالطبع في ذهن شفيك بنوع خاص من المقانق .

ثغا بالون الذي كان جوعه الذي لا يرتوي مقترناً بالبخل الشديد قائلا :

— ولكن قد يفوتنا القطار !

قال شفيك :

— حين تذهب إلى الجبهة ، لا يتركونك وراءهم أبداً ، لأن كل

قطار يتجه إلى الجبهة يفكّر مرتين قبل أن يوصل نصف حمولته إلى المكان المقصود . ولكني أفهمك تماماً يابالون . أنت بخيل عجوز .

إلا أنّهما لم يذهبا إلى أي مكان لأن اشارة الصعود إلى القطار قرعت فجأة . عاد الرجال من مختلف السرايا من المستودع إلى عرباتهم بأيد فارغة مرة أخرى . وبدلا عن الخمسة عشر «ديكا» من «جبن ايمينتالر » التي كان من المفترض أن يستلموها هنا ، حصل كل منهم على علبة ثقاب وبطاقة بريدية من منشورات «لجنة القبور الحربية في النمسا » (فيينا –رقم ١٩ / ٤ جادة كانيسيوس) . وبدلا عن الخمسة عشر «ديكا » من الجبن وجد كل جندي نفسه مع صورة لمقبرة المحاربين الغاليسية الغربية في «سدليسك» مع النصب التذكاري للقتلى البؤساء من جنود اللاندفير الذي صممّه النّحات المتقن لعمله والمتطوع لعام واحـــد ، الرقيب الأول «شولتس» .

خارج حافلة الضباط كان هناك اضطراب غير عادي ، فقد كان ضباط الكتيبة المتقدمة قد تجمعوا حول النقيب ساغنر الذي كان يشرح لهم باستثارةشيئاً ما. كان قد عاد لتوهمن مقر قيادة المحطة ومعه في يده برقية حقيقية ، ولكنها سرية ، وردت من رئاسة أركان اللواء تحوي على رسالة مطولة جداً من التعليمات والتوجيهات حول كيفية الاستمرار في الوضع الجديد الذي وجدت النمسا فيه نفسها يوم ٢٣ أيار «مايو » عام (١٩١٥) .

كان اللواء قد أبرق بأن ايطاليا قد أعلنت الحرب على النمسا – هنغاريا . في نادي الضباط في «بروك آن ديرلايتا» كان قد سبق وجرى الكثير من الحديث على موائد الغداء والعشاء عن العلاقات والتصرفات

الغريبة الشاذة للطليان ، ولكن حين قيل كل شيء وتم فعله ، لم يتوقع أحد أن الكلمات التنبؤية لذلك الأحمق اللعين المرشح بيغلر ، ستتحقق ،وذلك حين دفع مرة، خلال العشاء ، طبق المعكرونة وقال : « سيحين وقت أكل هذه حين نكون على أبواب فيرونا » .

بعد دراسة التعليمات التي وصلته من اللواء ، أمر النقيب ساغنر بضرب نفير الاستنفار .

وحين تجمع كافة الرجال الكتيبة المتقدمة ، امروا بتشكيل مربع وتلا عليهم النقيب ساغنر بصوت جاف قوي ، على غير العادة ، الأمر الذي استلمه برقياً :

« لقد نسي ملك ايطاليا ، بخيانة وشره لا مثيل لهما ، الالتزامات الأخوية التي تربطه بنا كحليف لمملكتنا . ومنذ اندلاع الحرب ، وحين كان يتوجّب عليه أن يقف إلى جانب جيوشنا الباسلة ، لعب الملك الخائن دور المحتال المقنّع ، فراح يتصرف بنفاق ويقيم طوال الوقت اتصالات سرية مع أعدائنا . وقد تُوِّجَت تلك الخيانة في ليلة الثاني والعشرين / الثالث والعشرين من أيار (مايو) ، وذلك باعلانه الحرب على مملكتنا . إن قائدنا الأعلى مقتنع بأن جيوشنا الباسلة المجيدة سترد على هذه الخيانة الخسيسة للعدو الغادر بضربة سيدرك الخائن معها أنه إذ يبادر هنا بالحرب بهذه الطريقة المخزية الغادرةفقد كتب على نفسه الدمار. نحن نؤمن بحزم بأنه وبعون الله سرعان ماسيأتي ذلك اليوم الذي ستشهد فيه سهول ايطاليا مرة أخرى منتصري سانتا لوتشيا وفيتيسنتا ونوفارا و كوستوستا . نريد أن ننتصر ،يجب أن ننتصر ولسوف ننتصر بالتأكيد ! »

وبعد ذلك جاءت « الهتافات الثلاثة » ثم صعد الجنود إلى القطار مرة

أخرى ولكن بمعنويات منهارة . وبدلا من الخمسة عشر « ديكا » من «جبن ايمينتالر» ها هم يحملون حول أعناقهم الحرب مع ايطاليا .

في العربة حيث كان شفيك جالساً مع فانييك وخودونسكي وبالون وبوريدا ، بدأ حوار هام حول دخول ايطاليا الحرب .

قال شفيك مبتدئاً الكلام :

— حدث شيء مشابه مرة في شارع « تابورسكا » في براغ ، حيث كان يعيش صاحب متجر يدعى «هورجييشي » ، كما وكان على الجانب الآخر من الشارع وأبعد قليلا عنه متجر لرجل آخر اسمه «بوشمورني » ، وبينهما كان دكان خضري اسمه «هافلاسا » . وقد خطر مرة لهورجييشي أن يتحالف مع الخضري ، هافلاسا ، ضد صاحب المتجر الآخر بوشموزني ، وبدأ يفاوضه على أن يوحّدا دكانيهما تحت لافتة واحدة: «هورجييشي وهافلاسا » . ولكن هافلاسا هذا ذهب إلى بوشمورني وقال له إن هورجييشي مستعد أن يعطيه ألفاً ومئتي كراون لقاء دكانه ويريد منه أن يصبح شريكا له . ولكن لو أعطاه بوشمورني ألفاً وثمانمئة كراون لفضّل أن يشاركه هو ضد هورجييشي . وهكذا عقدا صفقة وأصبح هافلاسا لبعض الوقت يداهن هورجييشي ويتصرف وكأنه أفضل أصدقائه بينما كان يخدعه طوال الوقت . وحين وصل الأمر إلى قضية توقيت الشراكة كان يقول دائماً : « حسنا ، سنفعل ذلك عما قريب . أنا أنتظر حتى تعود أسر الزبائن من العطلة الصيفية . » وحين عادوا ، كان كل شيء قد تم ترتيبه من أجل توحيد القوى كما سبق له ووعد هورجييشي . ولكن حين نزل هورجييشي في صباح أحد الأيام لفتح متجره رأى فوق متجر منافسه لافتة كبيرة هائلة تقول : « بوشمورني وهافلاسا . »

قال بالون المعتوه :

ـــ جرت لدينا حادثة مشابهة أيضاً . لقد أردت شراء عِجْلة من القرية المجاورة . وبعد أن تم الاتفاق وصل جزّار من « فوتيتسه » واختطفها من تحت أنفي .

استأنف شفيك كلامه فقال :

ـــ طالما أن لدينا حرباً جديدة مرة أخرى ، ولدينا عدّو إضافي جديد ، وجبهة جديدة ، سيكون علينا أن نقتصد بالذخائر . « كلما كثُر الأطفال في العائلة كلما كثُر استعمال العصي » هذا ما كان جدّي «خوفانيتس » يقوله في «موتول » حين كان يضرب أطفال الحارة كلهم ضرباً مبرحاً بدلاً عن آبائهم جميعاً .

قال بالون وهو يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه :

ـــ جُلّ ما أخشاه أن يتم تخفيض كمية تعيينات الطعام بسبب الحرب مع ايطاليا .

فكر فانيك للحظة ثم قال بجدّية :

ـــ قد تكون الحال هكذا ، لأن انتصارنا سيستغرق الآن وقتاً أطول .

قال شفيك :

ـــ نحن في حاجة الآن إلى راديتسكي آخر ، فقد كان هذا يعرف أمراً أو أمرين فيما يتعلق بالريف الايطالي : كان يفهم جيداً أين تكمن نقطة الضعف في الدفاع الايطالي ، وما

الذي يجب أن يؤخذ بالهجوم الانقضاضي ومن أية جهة . كما ترون ، فانه ليس من الصعب الدخول إلى مكان ما . أي شخص يمكنه ذلك ، ولكن الخروج مرة أخرى يحتاج إلى مهارة عسكرية حقيقية . حين يقتحم شخص مكاناً ما عليه أن يعرف كل ما يدور من حوله ، حتى لا يجد نفسه فجأة في ورطة : أي ما يسمى بالكارثة . مرة حين كنت أعيش في بيتي السابق ، تمّ القبض على لص في العلّية . وحين اقتحم ذلك النغل البيت لاحظ أن البنائين كانوا في طور اصلاح مجرى التهوية ، فهرب من مطارديه وضرب السيدة التي تعمل كبوّابة للمبنى فأوقعها أرضاً ، ورمى بالسلم في « المنور» وهبط ولم يعرف كيف يخرج . ولكن لم يكن هناك ممر واحد لا يعرفه بابا «راديتسكي» . ولم يكن هناك من يستطيع الامساك به في أي مكان . هناك كتاب يدور حول هذا الجنرال وكيف هرب بعيداً عن سانتا لوتشيا ، وكيف هرب الطليان أيضاً ولم يدرك أنه انتصر حتى اليوم التالي حين لم يستطع أن يجد أي إيطالي ولا حتى بمنظاره المكبّر . وهكذا عاد واحتل سانتا لوتشيا المهجورة . وبعد ذلك رقيّ إلى رتبة مارشال .

قال يورايدا :

ـ حسنا ، إن ايطاليا بلد جميل حقاً ! كنت مرة في البندقية وأعرف أن الطليان يدعون كل الناس بالخنازير . وحين يغضب الواحد منهم يدعو من حوله بالخنزير السيء ، وبالنسبة اليه يصبح حتى البابا خنزيراً بل ويقول : «سيدتي خنزيرة» و«بابا خنزير» .

تحدث فانييك من ناحية أخرى مطريا على ايطاليا . ففي صيدليته في « كرا لوبي » كان يصنع عصير الليمون أيضاً وكان يستعمل لأجل ذلك الليمون الفاسد ، وقد اعتاد أن يشتري أرخص وأكثر الليمون

فساداً من ايطاليا . والآن سيعني ما حدث نهاية لنقل الليمون من ايطاليا إلى كرالوبي . لم يكن هناك أي شك في أن الحرب مع ايطاليا ستتسبب في مفاجآت متنوعة لأن النمسا سترغب في الانتقام .

قال شفيك بابتسامة :

— من السهل القول بأنها ترغب في الانتقام . فقد يظن الرجل أنه سينتقم ، ولكن في النهاية يكون ذاك الذي اختاره كأداة لانتقامه هو الذي يدفع الثمن . حين عشت منذ سنوات في فينوهرادي كان بواب أحد الأبنية يسكن في الطابق الأول ويؤجر موظفاً صغيراً في أحد المصارف . اعتاد هذا الموظف ارتياد احدى الحانات في شارع «كراميريوس» وتشاجر مرة مع سيد يمتلك مخبراً لتحليل البول في فينوهرادي . لم يكن ذلك السيد يفكر أو يتحدث عن أي موضوع عدا مخبره ذاك ، وطوال الوقت كان يحمل معه أنابيب اختبار صغيرة للبول . وكان يقحم هذه تحت انوف الناس وهو يحثهم على التبول لتحليل بولهم ، لأن سعادة الرجل وعائلته تعتمد على ذلك . وكانت الأجرة رخيصة بحيث لم يكن تتجاوز الستة كراونات . كان كل زبائن الحانة ، وصاحبها وزوجته ، قد حللوا بولهم . ولم يرفض ذلك سوى ذلك الموظف الصغير رغم أن ذلك السيد كان يلاحقه باستمرار إلى دورة المياه ويقول له حين يعود بلهفة : « لا أعرف ياسيد سكوركوفسكي ولكني لست سعيداً نوعاً ما ببولك . الأفضل لك أن تبول في هذا قبل فوات الأوان ! »وأخيراً أقنعه بأن يفعل ذلك . وقد تكلف ذلك الموظف الصغير ستة كراونات وجعله السيد المحلل يعاني لقاء ذلك كما كان يفعل مع كل الناس في الحانة دون أن يستثني صاحب الحانة الذي خرب له تجارته ، حيث أنه كان يقدم مع كل تحليل تقريراً ينص على أن حالة

الشخص خطيرة جداً، وأنه لا يتوجب على أحد حالتهخطيرة إلى هذا الحد أن يشرب سوى الماء، وأن عليه ألا يدخّن وألا يتزوج وأن يأكل الخضار فحسب. ولذا فان ذلك الموظف الصغير غضب، كما حدث للجميع، واختار البواب اداة لانتقامه حيث كان يعرف أنّه زبون كريه بالفعل. وهكذا قال للسيد الذي يحمل معه انابيب الاختبار باستمرار بأن البواب يشعر بتوّعك منذ حين وأنه يطلب منه أن يذهب ليراه في اليوم التالي في الساعة السابعة ويحلل له بوله ... وهكذا ذهب إلى هناك. كان البواب لا يزال نائماً حين أيقظه ذلك السيد وقال له : « احترامي ياسيد ماليك. أتمنى لك صباحاً سعيداً. ها هو أنبوب اختبار لك. من فضلك بوّلْ فيه وأجرتي هي ستة كراونات.» وياله من شجار وياله من هرج ومرج! فقد قفز البواب من سريره وهو في سرواله وأمسك بالسيد من حلقه ورماه على الخزانة بحيث جعله يدخل فيها. وحين أخرجه منها أمسك بالسوط وخرج كما هو لا يرتدي سوى سرواله وطارده على امتداد شارع «تشيلا كوفسكا» والسيد يصرخ وكأنه كلب ديس على ذيله. وفي جادة «هافليتشيك» قفز هذا السيد إلى ترام وأمسك شرطي بالبوّاب وتقاتل معه لأنه كان لا يرتدي سوى سرواله وكل شيء عنده يطل من فتحة السروال، ثم رموه في العربة التي يحملون بها السكارى عادة وذلك حتى مخفر الشرطة. وحين كان في العربة كان يخور كالثور قائلا: «أيها الأنغال سأعلمكم كيف تحلّلون بولي». وقد وضع في السجن ستة أشهر لارتكابه مخالفة الآداب العامة ولاهانته الشرطة. وبعد ذلك حين تلي عليه الحكم ارتكب مخالفة أخرى حين شتم المحكمة ومن المحتمل أنه لا يزال في السجن حتى اليوم. ولذلك أقول أنه إذا كان على رجل أن ينتقم من شخص ما فان الطرف البريء هو الذي يدفع الثمن.

في هذه الأثناء كان بالون يفكر بجنون في شيء ما ، فسأل فانييك بذعر أخيراً :

– اعذرني أيها الرقيب الأول ، هل يمكن لك أن تتفضل فتقول لي إن كنت تعتقد فعلا أنه بسبب الحرب مع ايطاليا فاننا سنحصل على حصة أقل من تعيينات الطعام ؟

أجاب فانييك :

– أجل ، هذا واضح وضوح الشمس .

زعق بالون :

– يالمسيح ومريم !

ثم دفن رأسه بين يديه وجلس بهدوء في الزاوية .

وبهذه الطريقة انتهى الحوار حول يطاليا في العربة .

* * *

في حافلة الضباط كان من شأن النقاش الذي جرى حول حالة الحرب الجديدة التي خلقها دخول ايطاليا الحرب أن يكون مملاً جداً في غياب المنظر العسكري الشهير المرشح بيغلر ، لو لم يكن له بديل في شخص الملازم الأول «دوب» في السرية الثالثة .

كان الملازم الأول «دوب» معلم مدرسة في الحياة المدنية يدرس اللغة التشيكية ، وكان قد سبق له وأظهر نشاطاً غير عادي في التعبير عن ولائه للعرش في كل المناسبات الممكنة منذ ذلك الحين .

فقد كان يعطي تلامذته في مادة التعبير مواضيع مأخوذة من تاريخ آل

هابسبورغ . وفي الصفوف الأدنى كان تلامذته يخشون من الامبراطور ماكسيميليان الذي صعد إلى جرف فلم يعد يستطيع الهبوط ، ويوسيف الثاني في دور الحرّاث ، وفرديناند الرقيق . وفي الصفوف الأعلى كانت الموضوعات أكثر تعقيداً ، فكان التمرين للصف السابع مثلا : « الامبراطور فرانتس يوسيف الأول ، راعي الفنون والعلوم » ، كما سببّ في طرد أحد طلاب الصف السابع من كل المدارس الثانوية في الامبراطورية النمساوية — الهنغارية لأنه كتب أن أعظم ما فعله هذا الحاكم كان بناء جسر الامبراطور فرانتس يوسيف الأول في براغ .

كان يحرص على أن يجعل كل تلامذته ينشدون النشيد النمساوي الوطني بكل حماسة في كل يوم من أيام ميلاد مختلف أفراد العائلة المالكة ومناسبات امبراطورية أخرى . وفي الحياة الاجتماعية لم يكن محبوباً ، لأن الناس كانت تعرف أنه « مُخْبر » أيضاً وأنه يبلّغ عن زملائه . في المدينة التي كان يعلّم فيها كان يعتبر عضوا في ثالوث مقدس يحوي أكبر الأغبياء والبغال في المدينة ، ويضم هذا الثالوث أيضاً ممثل الحكومة المركزية في المنطقة ، ومدير المدرسة الاعدادية . ضمن هذه الدائرة الضيقة تعلم كيف يتحدث في السياسة خلال اطار الامبراطورية النمساوية — الهنغارية . والآن ها هو قد بدأ أيضاً يفكر بصوت ولهجة أستاذ مدرسة محنّط :

— رغم كل شيء فاني لست مندهشا من دخول ايطاليا الحرب . وقد توقعت ذلك منذ ثلاثة أشهر . لقد كان واضحاً في الفترة الأخيرة أن ايطاليا قد أصبحت شديدة الوقاحة نتيجة لانتصارها على تركيا في معركة الاستيلاء على طرابلس (١)، وزيادة على ذلك فانها تعتمد كثيراً

---

(١) يعني طبعا طرابلس الغرب (المترجم)

على اسطولها وعلى ميول السكان في مقاطعاتنا البحرية وفي التيرول الجنوبي. عجبا ، لقد ناقشت هذه المسألة حتّى من فترة ما قبل الحرب مع ممثل الحكومة المركزية في منطقتنا وألححت على أن حكومتنا لا يجب أن تستخفّ بالحركة التحريرية التوحيدية في الجنوب . قال أني كنت على حق تماماً لأن أي رجل عاقل يهمه أمر الحفاظ على الامبراطورية كان سيدرك منذ زمن طويل إلى أين سيؤدي بنا تساهلنا الزائد تجاه مثل أولئك الأشخاص . أتذكر جيدا كيف حدث منذ حوالي عامين أن قلت في احدى حواراتي مع ممثل الحكومة المركزية في المنطقة إن ايطاليا — كان ذلك في زمن الحرب البلقانية خلال قضية قنصلنا بروخاسكا — كانت تنتظر أول فرصة لتطعننا طعنة خيانية في الظهر .

ثم صاح بلهجة توحي بأن الجميع قد تشاجروا معه رغم أنه خلال حديثه كله ما كان الضباط النظاميون الحاضرون يفكرون سوى بأنه فيما يخصهم فان هذا المدني الأحمق الهاذر يستطيع أن يذهب إلى جهنم :

— والآن حدث ما كان متوقعاً !

ثم استأنف بلهجة ألطف :

— صحيح أنه في معظم الحالات في مواضيع التعبير المدرسية كان التلامذة ينسون علاقاتنا الطيبة مع ايطاليا وتلك الأيام المجيدة لجيوشنا المنتصرة الرائعة في (١٨٤٨) و (١٨٦٦) ، والتي لا تزال تذكر في أوامراللواء حتّى هذا اليوم ، ولكني فعلت واجبي دائماً وحتّى قبل نهاية العام الدراسي ، أي في بداية الحرب ، حين أعطيت تلامذتي الموضوع التالي : « أبطالنا في ايطاليا من فيتسينتسا إلى كوستوتسا أو . . . »

وهنا أضاف الملازم الأول الأحمق «دوب» بالألمانية :

« الدم والحياة في سبيل آل هابسبورغ ! في سبيل «نمسا» طاهرة ، متحدة وعظيمة . . . »

وهنا توقف ، وتوقع على نحو واضح أن الآخرين في حافلة الضباط سيتحدثون عن هذا الوضع الجديد ، وكان يستطيع أن يريهم مرة أخرى أنه كان يعرف منذ خمس سنوات أن ايطاليا ستعامل حليفها بهذا الأسلوب في يوم في الأيام . ولكنه أصيب بخيبة أمل كاملة لأن النقيب ساغنر ، الذي جلب له ماتوشيتش الطبعة المسائية من « بستر لويد » من المحطة ، نظر إلى الصحيفة وقال :

— انظروا ها هنا ، لقد ظهرت تلك الفتاة من عائلة «فانير» والتي رأيناها في بروك خلال حفلة مسرحية لنزلاء الفندق ، ظهرت البارحة هنا على « المسرح الصغير » .

وهكذا انتهى النقاش حول ايطاليا في حافلة الضباط . . .

* * *

كما قام ماتوشيتش وباتسر بتقييم الحرب مع ايطاليا شأن اولئك الجالسين في مؤخرة القطار ، وذلك من وجهة نظر عملية تماماً ، حيث حدث مرة منذ سنوات ، حين كانا كلاهما في الخدمة النظامية ، أن اشتركا في المناورات التي جرت في التيرول الجنوبي .

قال باتسر :

— سيكون علينا أن نبذل جهداً رهيباً لو اضطررنا إلى تسلق تلك الجبال ، فالنقيب ساغنر يحمل كومة هائلة جداً من الحوادث على كاهله . صحيح أني شخص جبلي ، ولكنها حكاية أخرى حين تحمل

بندقية تحت معطفك ، وتذهب فتكتشف أنك لا تستطيع أن تطلق النار على أرنب وحشي في أملاك الأمير شفارتسنبرغ .

قال ماتوشيتش بكآبة :

ـ هذا بالطبع إذا ما نقلونا إلى ايطاليا . لا يمكنني القول بأنه يروقني أن أطير عبر الجبال والأنهار الجليدية حاملا الرسائل . أما الطعام هناك فحدث ولا حرج ! فهو عبارة عن « بولينتا» (١) وزيت لا غير .

قال باتسر وقد أخذ الغضب يستبد به :

ـ ولماذا سيحملوننا نحن من بين كل الناس إلى تلك الجبال ؟ لقد سبق لفوجنا أن كان في الصرب والجبال الكارباثية ، كما سبق لي وتسكعت في الجبال مع النقيب وحوادثه . لقد تهت عنه مرتين : مرة في الصرب وأخرى في الجبال الكارباثية في احدى المناوشات ، وربما سيحدث ذلك مرة ثالثة على الجبهة الايطالية . أما بالنسبة للطعام هناك . . .

بصق باتسر واقترب من ماتوشيتش وقال له بأسلوب حميم :

ـ أنت تعرف أننا نصنع في البيت كاشبرسكه هوري نوعاً من الشيشبرك الصغير من البطاطا النيئة . ثم نغليها ونغمسها في البيض وندحرجها جيداً على فتات الخبز وبعد ذلك نقليها مع لحم الخنزير المقدّد .

وقد لفظ هذه الكلمات الأخيرة بلهجة رزينة مبهمة ، ثم أضاف بصوت كئيب :

(١) بولينتا : طعام إيطالي هو عبارة عن عصيدة من دقيق الذرة . (المترجم)

— ولكنها أفضل ما تكون مع الكرنب المخمر . يستطيعون أن يرموا بمعكرونتهم في المرحاض .

وهكذا انتهى الحوار حول ايطاليا هنا . . .

* * *

بما أن القطار كان متوقفاً في المحطة منذ أكثر من ساعتين ، فقد كان هناك رأي واحد سائد في العربات ، ألا وهو أنه سيتم اعادة برمجة رحلتهم ليرسلوا إلى إيطاليا .

وقد بدا وكأن هذا قد تأكد بحقيقة أن أموراً غريبة كانت تجري للقطار في هذه الأثناء . فقد جرى اخراج كل الرجال من العربات ، ووصل مفتشو الصحة مع عمال التطهير ورشّوا كل العربات بالليزول . وقد كان رد الفعل على ذلك سيئاً جداً ، خاصة في تلك العربات التي تحمل الخبز العسكري .

وعلى أية حال ، فالأوامر هي الأوامر ، وكانت اللجنة الطبية قد قد أصدرت أمراً بتطهير القطار رقم (٧٢٨) وهكذا تم رش أكوام من الخبز العسكري واكياس الأرز بالليزول وحدث ذلك بكل حبور ودلّ هذا على أن شيئاً ما ذا خصوصية كان يجري .

بعد ذلك أدخل الرجال إلى العربات مرة أخرى ثم أخرجوا منها مرة بعد نصف ساعة لأن جنرالا عجوزاً وصل ليفتش القطار . كان عجوزاً إلى حد أن شفيك فكر في اسم له على نحو تلقائي تماماً . فقد قال لفانييك وهما يقفان في المؤخرة :

— ذلك العجوز عبارة عن ساعة للموت .

استعرض الجنرال العجوز ، يرافقه النقيب ساغنر ، صف الجنود ثم توقف عند جندي شاب . وحتى ينفخ روح الحماسة في الرجال سأل الجندي عن موطنه الاصلي ، وكم يبلغ عمره وان كانت معه ساعة . كان مع الجندي ساعة فعلا ، ولكنه طمع في أن يكسب ساعة أخرى من السيد العجوز فقال إنه لا يملك ساعة ، فما كان من «ساعة الموت» العجوز الا إن ابتسم ابتسامة شديدة الغباء اعتاد الامبراطور فرانتس — يوسيف أن يمنحها حين كان يتحدث إلى محافظ احدى البلدات ، ثم قال :

— حسنا ! حسنا !

ثم تنازل فسأل العريف الذي يقف إلى جواره أن كانت السيدة زوجته في حال حسنة .

صاح العريف :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي اني غير متزوج .

فأجابه الجنرال بابتسامته المتواضعة :

— حسنا ! حسنا !

ثم طلب الجنرال الخَرِف من النقيب ساغنر أن يصطف الرجال اثنين اثنين ، وكان ممكناً سماعه وهو يقول حقاً :

— واحد — اثنان — واحد اثنان — واحد اثنان .

وقد سر «ساعة الموت» العجوز بذلك. كان لديه ولدان في البيت وكان يجعلهما يصطفان أمامه ويعدان : « واحد — اثنان ، واحد — اثنان » .

كان لدي النمسا حشود من أمثال هذا الجنرال .

بعد انتهاء التفتيش على نحو ناجح لم يوفر الجنرال مديحه حين تحدث إلى النقيب ساغنر ، وقد سمح للرجال بالانصراف والتنقل بحرية في منطقة المحطة ، لأن الأخبار وصلت بأنهم لن يغادروا قبل ثلاث ساعات أخرى. وهكذا بدؤوا يتجولون في المحطة ويحدقون فيها حولهم. فقد كان في المحطة الكثير من الناس وقد راح الجنود يتسولون لفافات التبغ من هنا وهناك .

كان من الواضح أن الفورة الأولى من الحماسة التي تبدت في الترحيب الاحتفالي بالقطارات في المحطات قد تلاشت إلى حد كبير ، بل وهبطت إلى درجة التسول .

تقدم وفد « جميعة استقبال الأبطال » من النقيب ساغنر ، وكان مؤلفا من سيدتين منهكتين قامتا بتسليم هدية للقطار ، كانت مؤلفة من عشرين علبة من أقراص غسل الفم الحلوة الرائحة ، وهي عبارة عن دعاية لأحد معامل حلويات في بودابست . كانت العلب من المعدن المصقول وقد رسم على أغطيتها جندي هنغاري من « الهونفيد» يمسك بيد جندي من « اللاندشتومر » النمساوي ، وبينما راح يتوهج فوقهما تاج القديس ستيفن . ومن حولهما كانت كتابة بالألمانية والهنغارية تقول : « في سبيل الامبراطور والله والوطن » .

كان معمل الحلويات شديد الولاء إلى حد أنه منح الأسبقية للامبراطور على الله .

كان في كل علبة ثمانون قرصا ، ولذا فقد كان نصيب كل ثلاثة جنود خمسة أقراص .وقد جلبت السيدتان المهمومتان المنهكتان رزمة

هائلة من نسخ مطبوعة من صلاتين كتبهما كبير أساقفة بودابست المدعو « غيزا » من « شاتمار بودافال » . كانتـــا مكتوبيتين بالألمانية وتحويان أشد اللعنات الموجهة على كل الأعداء . وقد كتبت بروح انفعالية جداً بحيث أن الشيء الوحيد الذي كان ينقصها هو التعبير الهنغاري اللاذع (١) « . . . . »

ووفقاً لما أفاد به كبير القساوسة الموقر فان على الرب الرحيم أن يقطع الروس والبريطانيين والصربيين والفرنسيين واليابانيين محولّا اياهم إلى لحم مفروم ويصنع منهم غولاش الفليفلة . على الرب الرحيم أن يستحم في دماء الأعداء ويقتلهم جميعاً ، كما فعل هيرودس بالأبرياء.

كان نيافته ، أي أسقف بودابست ، قد استعمل في صلواته جملا جميلة جداً ، منها مثلا : « فليبارك الله حرابكم وهي تنغرز عميقاً في بطون اعدائكم . فليوجه الرب العادل نيران مدفعيتكم على رؤوس هيئة أركان العدو . فليجعل الرب الرحيم كل أعدائكم يختنقون بدمائهم من الجراح التي ستسببونها لهم ! »

لذلك نكرر مرة أخرى أن الشيء الوحيد الذي كان ينقص تلك الصلوات الصغيرة هو :

« . . . . ». (٢)

بعد أن قدمت كلتا السيدتين هذه الهدايا كلها ، عبرّتا عن رغبتهما الحارة في أن تكونا حاضرتين لدى توزيعها . بل كان لاحداهما الجسارة الكافية لتذكر أنها تودّ أن تخاطب المحاربين الذين أشارت اليهم على أنهم : « رجالنا الشجعان في ملابس الميدان الرمادية . »

---

(١) و (٢) هذه شتيمة هنغارية تصعب ترجمتها لشدة قذاعتها . (المترجم)

وقد بدت عليهما كلتيهما أمارات الغضب حين رفض النقيب ساغنر طلبهما هذا . في هذه الأثناء وجدت هدايا الاحسان طريقها إلى العربات التي تحوي على المخازن . وقد استعرضت السيدتان الموقرتان صف الجنود ولم تستطع احداهما أن تقاوم رغبتها فربتت على خد أحد الجنود الملتحين . كان رجلا يدعى «شيميك» من بوديبوفيتسه ، وبما أنه لم يكن يعرف شيئاً عن المهمة السامية للسيدتين فقد قال لرفاقه بعد رحيلهما : «العاهرات هنا شابات تماماً على ما أعتقد ! كان الأمر سيختلف لو أن قردة كتلك تستحق أن يكتب عنها المرء شيئاً في رسائله إلى البيت . ولكنها هزيلة كاللقلق . ليس لديها ما تريه سوى عراقيبها ، وتبدو وكأنها « الشهادة في سبيل الله » . بل وتجرأت تلك الشمطاء فحاولت اغراء جنودنا » .

كان هناك الكثير من الجلبة والنشاط في المحطة ، فقد سببت قضية ايطاليا بعض الذعر اذ تم ايقاف قطارين محملين بالمدفعية ثم ارسلا إلى « ستيريا» . كما كان هناك قطار ينقل جنوداً من «البوسنة » ، وكان قد مر يومان على هؤلاء وهم في الانتظار دون أي سبب معروف ، كانوا منسيين تماماً . ولمدة يومين لم يكن هؤلاء البوسنيوّن قد استلموا أية تعيينات وها هم يتسولون الخبز في «أوي بشت» (١) كلها . لذلك كان كان كل ما تستطيع سماعه هو الأصوات المهتاجة للبوسنيين المنسيين الذين كانوا يصيحون بعنف طوال الوقت وهم يشتمون بلغتهم قائلين : (٢) « . . . . » .

(١) أوى بشت : من الضواحي الصناعية لبودابست (المترجم)

(٢) لا يمكن ترجمة هذه الشتائم لقذاعتها الشديدة (المترجم)

ثم طلب من الكتيبة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين أن تصطف مرة أخرى وتعود إلى عرباتها . وبعد وقت قصير عاد ماتوشيتش من قيادة المحطة ومعه خبر مفاده أنهم سيغادرون خلال ثلاث ساعات . وبسبب ذلك سمح للرجال أن يخرجوا من العربات مرة أخرى . وقبل رحيل القطار مباشرة دخل الملازم الأول دوب إلى حافلة الضباط وهو في حالة شديدة من الاستثارة وطلب من النقيب ساغنر أن يرمي شفيك في السجن فوراً وكان الملازم الأول دوب المعروف في مدرسته على أنه «مخبر» عريق ، يحب الاحتكاك بالجنود ، وهو إذ يفعل ذلك يحاول أن يستطلع آراءهم وينشد في الوقت نفسه اغتنام الفرصة ليعلّمهم ويشرح لهم السبب في أنهم يحاربون وفي سبيل أي شيء يحاربون .

وخلال جولته رأى شفيك خلف بناء المحطة . كان يقف عند مصباح وينظر باهتمام إلى اعلان أصدرته شركة لليانصيب الخاص بتقديم أعمال الاحسان خلال الحرب . كان الاعلان يرينا جندياً نمساوياً يثبتّ إلى الجدار جندياً ملتحياً من القوزاق وقد فتح عينيه حتّى آخرهما .

ربت الملازم الأول دوب شفيك على كتفه وسأله ان كان الاعلان قد راق له .

أجاب شفيك :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي انه شديد السخافة . لقد رأيت الكثير من الاعلانات التافهة ولكني لم أر شيئاً أتفه من هذا .

سأله الملازم الأول دوب :

— وما الذي لا يروق لك فيه ؟

ـ ان مالا يروقني في هذا الاعلان ياسيدي هي الطريقة التي يحمل بها هذا الجندي السلاح الذي وضع في أمانته . أنت تعرف أنه يستطيع بكل سهولة أن يكسر الحربة على الجدار وعلى أية حال فهذا الأمر كله غير ضروري . سيُحاكم محاكمة ميدانية من جراء ذلك لأن الروسي قد رفع ذراعيه عاليا وهو يستسلم . لقد تم أسره ويتوجب معاملة الأسرى على نحو لائق ، فهم على أية حال بشر أيضاً .

وهكذا سأل الملازم الأول دوب بعد أن قرر أن يستطلع المزيد من أفكار شفيك :

ـ اذن اعتقد أنك حزين لأجل ذلك الروسي ، أليس كذلك ؟

ـ أنا حزين لأجلهما كليهما ياسيدي ، لأجل الروسي لأنه مطعون ولأجل الجندي لأنه سيُسجن لقاء ما فعله . أنت تعرف ياسيدي أنه لا شك كسر حربته خلال تنفيذه لهذا الأمر . لم يكن ما فعله جيداً ، فأنت ترى أن الجدار يبدو كجدار حجريّ وهو يدفع حربته فيه والفولاذ سريع الكسر . حين كنت في الخدمة النظامية قبل الحرب ياسيدي ، حدث مرة أن كان لدينا ملازم أول في سريتنا . وما كان حتى رقيب أول عجوز ليستعمل مثل تلك اللغة التي كان هذا الملازم يستعملها . ففي ساحة الاستعراض كان يقول لنا : «حين أقول : «استعد» أيها الخنازير اللعينون ، فعليكم أن تجعلوا عيونكم تتقلّب كما تفعل القطة وهي تبرّز في كومة التبن . » ولكنه كان شخصاً محترماً فيما عدا ذلك.وقد جنّ جنونه في عيد الميلاد فاشترى عربة كاملة من جوز الهند للسرية كلها ، ومنذ ذلك الحين عرفت كم هي الحراب هشة . فقد كسر نصف رجال السرية حرابهم على تلك الجوزات وقام مقدمنا بحبس السرية بكاملها . ولم

يسمح لنا بالخروج من الثكنة ثلاثة أشهر بحالها ، كما أن الملازم الأول نفسه كان قيد الاقامة الجبرية في بيته . . .

حدّق الملازم الأول دوب في غيظ إلى الوجـــه الهادىء للجندي الطيب شفيك وسأله بغضب :

— هل تعرفني ؟

— نعم ياسيدي أعرفك .

قلّب الملازم الأول دوب عينيه وضرب الأرض بقدمه وصاح :

— أقول لك إنك لا تعرفني بعد .

أجاب شفيك مرة أخرى بذاك الهدوء الرزين الذي قد يتميزّ بهشخص يقدم تقريراً :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أني أعرفكم . أنت من كتيبتنا المتقدمة .

صاح به الملازم الأول دوب مرة أخرى :

— أنت لا تعرفني بعد . ربما تعرف الجانب الطيب مني ، ولكن انتظر حتّى تعرف الجانب الآخر السيء مني . أنا كريه . لا تتصور أني لست كذلك . أنا أجعل الجميع يبكون .حسنا اذن ، هل تعرفني أم لا ؟

— اعرفك ياسيدي .

— اقول لك للمرة الأخيرة أنك لا تعرفني أيها النغل . هـــل لك اخوة ؟

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أن لي أخا واحداً !

صاح الملازم الأول دوب وقد أغاظه التعبير الهادىء الساكن على على وجه شفيك فلم يعد يستطيع أن يسيطر على نفسه :

— ولابد أن أخاك أيضاً بغل لعين مثلك . ما هي مهنته ؟

— معلم مدرسة ياسيدي . وقد كان في الجيش أيضاً ونجح في امتحان الضباط .

ثم نظر الملازم الأول دوب إلى شفيك وكأنه يريد أن يخترقه بسيفه . وقد تحمل شفيك هذه النظرة الغاضبة بهدوء جليل ، ولذا فان محادثتهما انتهت مؤقتاً بعبارة :

« انصراف ! »

وقد ذهب كل في حال سبيله وافكاره الخاصة به تعتمل في ذهنه .

فكر الملازم الأول دوب في أن عليه أن يطلب من النقيب أن يرمي بشفيك في السجن ، وفكر شفيك بدوره في أنه رأى الكثير من الضباط الحمقى في زمانه ولكن ولا شك أن هذا الجحش اللعين الملازم الأول دوب شيء فريد في الفوج كله .

لقد وجد الملازم الأول دوب ، الذي كان قد قرّر في ذلك اليوم نفسه أن يثقّف الرجال ، ضحيّة جديدة خلف المحطة . كان هناك جنديان من الفوج ، ولكنهما من سرية أخرى ، وكانا يساومان في الظلام وبألمانية « مكسرّة » عاهرتين من أصل عشرات من العاهرات اللواتي كن يتجوّلن في أرجاء المحطة .

وبينما كان شفيك يبتعد سمع بوضوح عن بعد الصوت الثاقب للملازم الأول دوب : « هل تعرفاني ؟ . . . ولكني أقول لكما انكما لا تعرفاني ! . . . ولكن انتظرا حتّى تعرفاني ! . . . . ربما تعرفان الجانب الطيب مني ! . . . . ولكن انتظرا حتّى تعرفا الجانب الآخر السيء مني ! . . . . سأجعلكما تبكيان أيها البغلان اللعينان ! . . . هل

لكما اخوة ؟ . . . اذن لابدّ أنهم بغال لعينة مثلكما ! . . . ماذا ؟ . ماذا ؟ . . . مِنْ قفل الرتل ؟ . . . حسنا اذن . . . . تذكرا أنكما جنديان . . . هل أنتما تشيكيان ؟ . . . هل تعرفان أن «بالاتسكي» قال إنه لو لم توجد النمسا لكنّا خلقناها ؟ . . . انصرا ف ! . . . »

وهكذا لم تكن لجولة الملازم الأول دوب نتيجة ايجابية على أية حال . لقـــد أوقف نحـــو ثلاث مجموعـــات أخرى مـــن الجنود ولكن أخفقت محاولاته التثقيفية «لجعل الرجال يبكون » اخفاقاً تاماً . كانت المادة المأخوذة إلى الجبهة من تلك النوعية الّتي جعلت الملازم الأول دوب قادراً على أن يقرأ من التعبير الذي كان على وجه كل واحد منهم أن لهم جميعاً ذلك الرأي البغيض نفسه . وقد طُعِن في كبريائه ، وكانت نتيجة ذلك أنه طلب من النقيب ساغنر في حافلة الضباط قبل رحيل القطار أن يرمي بشفيك في السجن . وقد حاول تبرير طلبه هذا بسلوك شفيك الوقح الاستثنائي . كما وصف جواب شفيك الصريح على آخر سؤال وجه اليه بأنه عبارة عن « ملاحظات خبيثة » . وإذا كان هذا النوع من الأمور مسموحاً باستمراره فان الضباط سيفقدون كل احترام في نظر الجنود . إن أياً من الضباط لا يحمل أية شكوك تجاه ذلك . فقبل الحرب بفترة طويلة كان قد تكلم هو نفسه مع ممثل الحكومة المركزية في المنطقة كيف أنه يتوجب على كل ضابط أن يحافظ على حد معين من السلطة تجاه مرؤوسيه . هذا وكان لممثل الحكومة المركزية في المنطقة الرأي نفسه . كما يتوجب الآن بسبب الحرب الدائرة أن يكون الجنود باستمرار في حالة من الرعب ، على أن تزيد هذه الحالة كلما تمّ الاقتراب من العدو في الجبهة . ولهذا السبب فانه يطلب فرض عقوبة تأديبية على شفيك .

كان النقيب ساغنر باعتباره ضابطا عاملا « نظاميا »، يكره كل أولئك الضباط الاحتياطيين القادمين من مختلف فروع الحياة المدنية ، ولذا فانه حذّر الملازم الأول دوب بالتالي من تقديم أية شكاوٍ من هذا النوع إلاّ على شكل تقرير خطّي، وليس بتلك الطريقة الغريبة ، طريقة بائع الخضار المتجوّل الذي يساوم على سعر البطاطا . أما بالنسبة إلى شفيك نفسه فانّ أول درجة من السلطة التي يقع ضمن نطاقها هي سلطة الملازم الأول لوكاش . لا يمكن تقديم مثل هذه الشكوى إلاّ على شكل تقرير . ومن السرية سيتم رفع التقرير إلى الكتيبة ، والملازم الأول دوب يعرف ذلك جيداً . إذا كان شفيك قد ارتكب خطأ ما ، فعليه أن يمثل أمام لجنة تأديب السرية ، وإذا ما استأنف سيُقدم إلى لجنة تأديب الكتيبة . ولكن إذا لم يعترض الملازم الأول لوكاش وقبل بافادة الملازم الأول دوب على أنها ابلاغ رسمي لفرض عقوبة ، فلن يكون أمام شفيك سوى أن يُستدعى ويُستجوب .

لم يكن لدى الملازم الأول لوكاش أي اعتراض على ذلك ، ولكنه قال انه يعرف تماماً أن شفيك قد سبق له وقال أن له أخاً يعمل حقاً كمعلّم مدرسة ، وهو أيضاً ضابط في الاحتياط .

تردّد الملازم الأول دوب وقال إنه يطلب العقوبة بالمعنى الأوسع ، وانه من الممكن أن يكون الشخص المذكور، أي شفيك ، غير قادر على التعبير عن نفسه ، وان اجاباته هي التي تحمل ذلك التعبير الذي يوحي بالوقاحة والخبث وقلة احترام من هم أعلى منه رتبة . كما كان واضحاً من مظهر ذلك الجندي أن هناك غشاوة على عقله .

وهكذا مرّت العاصفة كلها من فوق رأس شفيك دون أن تضربه الصاعقة .

في العربة التي كانت تجمع ما بين الديوان ومستودع الكتيبة ، كان رقيب أول امدادات الكتيبة المتقدمة « باوتانزل » يقوم وبكل تنازل ، بتسليم كاتبين من كتبة الكتيبة حفنة من أقراص غسل الفم من العلب المفترض توزيعها على الجنود . وقد كان من الشائع أن يمر كل شيء مخصص للجنود عبر ديوان الكتيبة وأن يخضع لمعالجة مشابهة .

وقد كان ذلك أمراً عادياً في كل مكان زمن الحرب ، حتى أنه كان يحدث بعد كل تفتيش ، إذا تبين عدم وجود سرقة ، أن يكون كل رقباء الامدادات في كل الدواوين موضع شك في انهم قد تجاوزوا ميزانيتهم وأنهم مذنبون بارتكاب تلاعبات أخرى لوضع السجلات في حالة مقبولة .

وكان ذلك ما يحدث هنا ، فبينما كان هؤلاء يحشون أفواههم بهذه الأقراص — حتى لا يبددوا شتائم الجنود ضدهم دون جدوى طالما لم يتبق ما يستحق السرقة من هؤلاء — فقد تحدث باوتانزل حول الظروف السيئة التي سادت الرحلة :

— لقد سبق لي ورافقت كتيبتين متقدمتين ولكني لم أر مثل هذه الرحلة الحقيرة بعد . ياالهي ، في أول رحلتين شاركت فيهما ، كانت لدينا أكوام من كل شيء يمكنك أن تفكر فيه ، وحتى قبل أن نصل إلى «بريشوف» . لقد ادخرت عشرة آلاف لفافة تبغ وقالبين كاملين كبيرين من « جبن ايمينتالر» وثلاثمئة من المعلبات . وفيما بعد حين وصلنا إلى الخنادق في «بارديبوف» ، قطع الروس الذين احتلوا « موشينا» اتصالاتنا مع « بريشوف» ، وكان حرياً بك أن ترى الصفقات الرابحة التي عقدناها ! لقد تخليت للكتيبة عن عشر ما في حوزتي في سبيل ذر الرماد في العيون ،

وقلت انه نتيجة لجهدي في التوفير . أما الباقي فقد أودعته في قفل الرتل .
كان قائدنا هو الرائد «سويكا» ، ولو وجد خنزير حقيقي لكان الرائد سويكا هو ذاك لا ريب . لم يكن بطلا وكان يفضل البقاء معنا في قفل الرتل لأن الرصاص كان يلعلع والشظايا تتناثر في المواقع الأخرى . وهكذا استمر في القدوم لزيارتنا بحجة أنه يريد أن يطمئن على أن طعام الجنود كان يُطبخ كما يجب . ولكنه كان يأتي في العادة كلما وصله تقرير بأن الروس كانوا يحضرون لنا شيئاً ما مجدداً . كان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه ويضطر إلى شرب الروم في المطبخ قبل أن يستطيع تفتيش كل المطابخ الميدانية ؛ وكانت تلك متجمعة حول قفل الرتل لأنه لم يكن ممكناً نقل القدور حتى الخنادق ، وكانت حصص الطعام تنقل إليها ليلا . في ذلك الحين كنا نعيش في ظروف رهيبة إلى حد أنه لم يكن ممكناً التحدث عما يسمى مطعم الضباط ، فقد كانت الطريق الوحيدة إلى القاعدة محتلة من قبل ألمان «الرايخ» . وكان هؤلاء يستولون على أفضل الأشياء التي ترسل من القاعدة ويلتهمونها ، ولذا لم يكن يصلنا أي شيء . لقد تركونا في قفل الرتل دون تعيينات للضباط . وخلال ذلك الوقت كله نجحت في توفير خنزير واحد لي ولعناصري في الديوان ، وكنا قد دخناه ، واضطررنا حتى لا يكتشفه الرائد سويكا إلى إخفائه على مسيرة ساعة لدى صديق لي من سلاح المدفعية برتبة رقيب أول . وكلما جاء الرائد ليزورنا كان يبدأ بتذوق الحساء في المطبخ . والصحيح أنه لم يكن لدينا الكثير من اللحم لنطبخه سوى الخنازير أو البقرات العجاف التي كنا نختلسها أو نستجديها من المناطق المجاورة . كان البروسيون ينافسوننا بشدة ، ولدى مصادرتهم للمواشي كانوا يدفعون دائماً ضعف ما ندفعه . وهكذا حدث طوال فترة حصارنا لباردييوف ، أني لم أستطع

أن « أدّخر» من بيع المواشي الا ما يزيد قليلا عن ألف ومئتي كراون .
وفوق ذلك كله لم نكن في تلك الأيام نعطي نقوداً بل إيصالات مختومة بخاتم الكتيبة ، وخاصة في الفترات اللاحقة عندما اقتربت النهاية ، وعرفنا أن الروس لم يكونوا بعيدين عن « رادفاني » إلى الشرق منا ، ولا عن « بودولين » إلى الغرب منا . كانت تلك مهمة صعبة جدا ، أعني التعامل مع الناس الذين كانوا يعيشون في تلك المنطقة ولا يعرفون القراءة والكتابة وكان توقيعهم عبارة عن رسم ثلاثة صلبان . بالطبع كانت هيئة الامداد والتموين على علم بما يجري ، ولذا فحين كنا نطلب منها النقود ما كنت أستطيع أن أرفق إيصالات مزّورة لأثبت أني دفعتها . لا يمكنك أن تفعل ذلك إلا لدى التعامل مع أناس أكثر ثقافة ويعرفون كيف يوقعون أسماءهم . وفوق ذلك كله ، وكما سبق وقلت لك ، كان البروسيون يدفعون مبالغ أكبر ويدفعونها نقداً ، وكنا حين نصل إلى قرية من القرى ينظر الينا سكانها كأننا من قطاع الطرق . ثم أصدرت رئاسة هيئة الامداد تعليمات تقول بأن الوصولات الموقعة بالصلبان يجب أن تقدم إلى « مكتب مراقبة الحسابات الميداني » ، وهناك كانت حشود من أولئك المحاسبين الأنغال تتسكع دون عمل . في العادة كان النغل من أولئك يأتي الينا ويلتهم طعامنا وشرابنا ثم يذهب ويبلغ ضدنا في اليوم التالي . كان الرائد سويكا يتجول دائماً في مطابخنا الميدانية ، وصدقني إذا أقسمت لك أنه أخذ مرة من القدر اللحم المخصص للسرية الرابعة بكاملها ، أي والله لقد فعل ذلك ، لقد بدأ برأس الخنزير الذي قال انه لم ينضج جيداً ، وطلب انضاجه اكثر . صحيح أننا لم نكن نطبخ الكثير من اللحم في تلك الأيام ، ولكن كانت هناك حوالي اثنتي عشرة حصة محترمة من اللحم من ذلك الحجم القديم من الحصص وذلك لأجل

السرية كلها، وقد التهمها كلها . ثم تذوق الحساء وأقام الدنيا وأقعدها قائلا انه كالماء ويالها من حالة وصلت اليها الأمور حين يطبخ حساء اللحم دون لحم ! ثم طلب تكثيف الحساء ورمى فيه بآخر كمية معكرونة كنت ادخرها منذ دهور . ولكن ما أزعجني أكثر كان أنه التهم مع ذلك الدقيق الأسمر كيلو غرامين من أفضل أنواع الزبدة كنت أدخرهما أيضاً من ايام وجود مطعم للضباط. كنت قد وضعتهما على رف فوق سريري ، وقد شتمني وسألني لمن تكون هذه الزبدة ، وحين قلت له إنه وفقاً لآخر أمر من الفرقة يتعلّق باطعام الجنود فانه يحقّ لكل جندي حصة اضافية قدرها خمسة عشر غراما من الزبدة أو واحد وعشرون غراما من دهن الخنزير . وبما أن الموجود من الزبدة لم يكن كافيا ، فقد تمّ خزنه حتى نتمكن من توزيع الكمية الاضافية من الزبدة بالوزن الكامل المطلوب . ولكن الرائد سويكا غضب غضباً شديداً وبدأ يصرخ بأني كنت دون شك أنتظر حتى يصل الروس ، ثم أخذ آخر كيلو غرامين من الزبدة كنت أملكهما وأمر بوضعهما في الحساء فورا ، حيث لم يكن فيه أي لحم . وهكذا خسرت كامل ما لديّ . وصدقني إذا قلت لك أن ذلك الرائد كان شؤماً عليّ في كل مرة زارني فيها . لقد تطورت حاسة الشم لديه بالتدريج بحيث أصبح يعرف كل ما أدخره. مرّة استطعت أن أوفر من حصص الجنود كبد ثور وكنت أنوي أن أطهوه بالغلي البطيء حين ظهر هو فجأة وذهب فوراً إلى سريري وأخرجه من تحته . وحين بدأ يصرخ بي وقلت له أن الكبد كان من المفروض دفنه حيث تم تشخيصه وادانته في الصباح من قبل جدّاد من سلاح المدفعية كان قد تخرّج من دورة في الطب البيطري . هذا وقد اصطحب الرائد معه أحد رجال نقل الرتل وقاما بطبخ الكبد في القدر في مكان

مرتفع من الجبل تحت الجرف . ولكن كانت تلك هي نهايته . فحين رأت المدفعية الروسية النار أطلقت على الرائد وقدّره قذيفة من عيار (١٨) . وقد ذهبنا لاحقاً للاستطاع ولم يكن هناك من يستطيع أن يعرف أن كان الكبد المتناثر على تلك الصخور هو كبد الثور أو كبد الرائد .

* * *

وصلت أنباء تفيد بأنهم سيغادرون بعد حوالي أربع ساعات . كان الخط المؤدي إلى «هاتفان» مسدوداً بواسطة قطارات تحمل الجرحى . وزيادة على ذلك انتشرت شائعة في أنحاء المحطة تفيد بأنه بالقرب من «إيغر» اصطدم قطار مستشفى يحمل الجرحى والمرضى بقطار آخر يحمل المدفعية ، وأن قطارات الاسعاف من بودابست هي في الطريق إلى مكان الحادث .

وسرعان ما كانت مخيّلة أفراد السرية كلها قد بدأت تنشط . فقد تحدّث الناس عن مئتي قتيل وجريح وقالوا أن الاصطدام كان متعمداً حتى لا يُكتشف التلاعب الحاصل في تعيينات المرضى والجرحى.

وقد أثار هذا نقداً حاداً لحالة الاطعام غير الملائم لعناصر الكتيبة وللسرقات الجارية في الديوان والمستودعات .

كان معظم الرجال يرون أن باوتانزال رقيب أول الامدادات كان يتقاسم المكاسب مناصفة مع الضباط .

وقد أعلن النقيب ساغنر في حافلة الضباط أنه وفقاً للبرنامج من المفروض أن يكونوا الآن في الجبهة الغاليسية . في « إيغر » يتوجب استلام خبز ومعلبات تكفي لمدة ثلاثة أيام ، ولكن «إيغر» لا تزال بعيدة

مسيرة عشر ساعات ، وهي مليئة بالفعل بقطارات الجرحى بعد الهجوم الذي حصل عند « لفوف» ، حتّى أنه ذكر في احدى البرقيات أنه لم يتبق أي رغيف أو معلبات في «إيغر» . كان قد استلم أوامر بأن يدفع ستة كراونات واثنين وسبعين هلرا لكل رجل بدلاً عن الخبز والمعلبات وكان يتوجب دفع هذا المبلغ مع الرواتب خلال تسعة أيام ، هذا إذا استلموا النقود من اللواء حتّى ذلك الحين . لم يكن في الصندوق أكثر من اثني عشر الفا من الكراونات .

قال الملازم الأول لوكاش :

– انها حيلة لعينة نتنة من الفوج أن يرسلنا إلى العالم العريض في مثل هذه الحالة البائسة .

ثم جرت محادثة هامسة بين الملازم «فولف » والملازم الأول «كولارج» فحواها أن العقيد شرودر قد حوّل إلى حسابه في «مصرف فينر» خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة مبلغاً قدره ستة عشر ألفاً من الكراونات .

هذا وقد شرح الملازم الأول كولارج كيف يتم التوفير . تسرق ستة آلاف كراون من الفوج وتضعها في جيبك . وبالمنطق الحتمي تأمر المطابخ كلها بعد ذلك بأن تحسم ثلاثة غرامات من البازلاء من حصة كل رجل في كل مطبخ .

خلال شهر يمثل هذا مقدار (٩٠) غراماً عن كل رجل ، وهكذا يتوفّر في مطبخ كل سرية حوالي ستة عشر كيلو غراماً من البازلاء ويجب على الطباخ أن يبرهن على توفيرها .

تحدّث الملازم الأول كولارج مع فولف ضمن اعتبارات عامة فحسب حول حالات بعينها لاحظها هو بنفسه .

ولكن كان يبدو صحيحاً بكل تأكيد أن الادارة العسكرية كلها كانت تعجّ بمثل تلك الحالات . لقد بدأت بأحد رقباء الامدادات في احدى السرايا تعيسة الحظ وانتهت بذلك الجرذ المرتدي لرتبة الجنرال والذي كان يدّخر لنفسه شيئاً ليومه الأسود بعد أن تكون الحرب قد انتهت .

في الحرب كانت الشجاعة مطلوبة حتى فيما يخصّ السرقة .

كان المسؤولون عن الامدادات ينظرون إلى بعضهم البعض بمحبة وكأنهم يقولون : « نحن جسد واحد وروح واحدة ، فنحن نسرق ياصديقي العزيز ، ونغشّ ياأخي ، ولكن ما الذيتستطيع أن تفعله ؟ من الصعب السباحة ضد التيار . إذا لم تسرق سيسرق غيرك ما لم تسرقه ، وسيقول الناس أن السبب الوحيد في عدم سرقتك لأي شيء هو أنه سبق لك وسرقت بما فيه الكفاية . »

دخل سيد يرتدي بنطالاً له شرائط حمراء وذهبية على بنطاله إلى الحافلة . وكان من جديد أحد أولئك الجنرالات المسافرين بغرض التفتيش على كل طرق الخطوط الحديدية .

أومأ برأسه قائلا بود وقد سرَّ لأنه فاجأ قطاراً لم يكن يتوقع وجوده هناك :

— تفضلوا بالجلوس أيها السادة .

وحين أراد النقيب ساغنر تقديم نفسه اليه لوّح بيده قائلا :

— واسطة نقلكم ليست في حالة جيدة . واسطة نقلكم ليست نائمة . كان يتوجب عليها أن تكون قد نامت الآن . حين تقف واسطة النقل في محطة فعلى الرجال الذين فيها أن يناموا في الساعة التاسعة مساء و كأنهم في الثكنة .

كان يتكلم باقتضاب :

— قبل الساعة التاسعة يجب أن يؤخذ الرجال إلى المراحيض التي خلف المحطة . وبعد ذلك يذهبون إلى الفراش . وإذا لم يحدث ذلك فانهم يسببون الازعاج على الخط خلال الليل . هل تفهمني أيها النقيب ؟ كرّر ذلك لي . لا تكرره ! افعل ما أطلبه منك فحسب . اقرع جرس الانذار ، وقُدِ الرجال إلى المراحيض ثم اضرب نفير النوم وأطفىء الأنوار وراقب من لا ينام وعاقبه ! أجل ! هذا هو كل ما في الأمر . وزع العشاء الساعة السادسة .

كان يتحدث الآن عن شيء ما يتعلق بالماضي ، شيء ما عاد يحدث ، شيء كان في زاوية أخرى . كان يقف هناك كشبح من عالم البعد الرابع .

استأنف يقول وهو ينظر إلى ساعته التي كانت تشير إلى الحادية عشرة وعشر دقائق ليلاً :

— وزّع العشاء في السادسة وفي الثامنة والنصف اقرع جرس الانذار ثم التبرّز في المراحيض ، ثم الفراش . العشاء في السادسة : الغولاش مع البطاطا بدلاً عن خمسة عشر «ديكا» من جبن ايمينتالر .

ثم أعطى أمراً بالاستعداد فأمر النقيب ساغنر بقرع جرس الانذار

وراح الجنرال المفتّش يراقب الكتيبة وهي تتجمع ثم سار مع الضباط وتحدث اليهم طوال الوقت كأنهم حمقى لا يستطيعون أن يفهموا فوراً ما يقوله . وبينما كان يفعل ذلك كان يشير إلى عقربي ساعته : «حسنا ، والآن انظروا ! في الثامنة والنصف التبرّز وبعد ذلك الفراش . هذا كاف تماماً . في هذه المرحلة الانتقالية براز الجنود قليل على أية حال . ولكنني أركزّ كأشد ما يكون على النوم . انه يقويّهم من أجل المزيد من التقدم نحو الجبهة . طالما يكون الجنود في القطار عليهم أن يرتاحوا. وإذا لم يكن هناك من أمكنة كافية في العربات فليناموا « على نوبات » . يمكن لثلث الرجال أن يتمدّدوا في العربات براحة ويناموا من التاسعة حتّى منتصف الليل ثم يقف الآخرون وينظرون اليهم . ثم يعطي أولئك الذين ناموا في النوبـــة الأولى أمـــاكنهم إلى جنـــود النوبـــة التالية الذين سينامون من منتصف الليل وحتّى الثالثة صباحاً . والنوبة الثالثة تنام من الثالثة إلى السادسة ثم يضرب نفير الاستيقاظ فيغتسل الجنود . لا داعي للقفز من العربات حين تكون هذه منطلقة ! ضع دوريات على امتداد القطار حتى لا يقفز أحد من القطار خلال سيره ! وإذا ما كسر العدو ساق جندي . .» هنا ربت الجنرال على ساقه وأستأنف قائلا : « . . . فهذا شيء يستحق المديح ، ولكن أن تسبّب في تعطيل أحد أعضائك بالقفز دون جدوى من العربة والقطار ينطلق بأقصى سرعته فهذه مخالفة تستحق العقوبة .»

ثم سأل النقيب ساغنر وهو يشير إلى الأشكال النائمة من الجنود الذين كانوا يتثاءبون في هواء الليل النقي بعد أن أوقظوا من نومهم بالقوة :

— هل هذه كتيبتك ؟ انها كتيبـــة متثائبة . يجب أن يذهب الرجال إلى النوم في التاسعة تماماً .

اتخذ الجنرال موقعاً له أمام السرية الحادية عشرة حيث كان شفيك يقف عند الجناح الأيسر ويتثاءب على نحو رهيب ، ولكنه كان حسن السلوك بحيث كان يضع يده أمام فمه . ومع ذلك صدرت من تحت يده زمجرة هائلة إلى حد أنه الملازم الأول لوكاش ارتعش من رأسه إلى أخمص قدميه خشية أن ينتبه الجنرال إلى ذلك . وقد خطر له أن شفيك يتثاءب عن عمد .

وهكذا التفت الجنرال إلى شفيك كأنه عرف ذلك واتجه اليه وقال :

— تشيكي أم ألماني ؟

أجاب شفيك بالألمانية :

— تشيكي ، كما أبلغكم بتواضع ياسيدي .

قال الجنرال الذي كان بولنديا ويعرف القليل من التشيكية :

— حسنا !

ولكنه لفظها كأنها بالبولندية واستعمل تعابير بولندية :

— أنت تزمجر كما تفعل البقرة طلباً لعلفها . اخرس ! اغلق فمك ! لا تـَخُرْ كالبقرة ! هل سبق لك وذهبت إلى المرحاض ؟

— أبلغكم بتواضع أني لم أفعل ياسيدي ؟

— لماذا لم تذهب وتبرّز مع الرجال الآخرين ؟

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أن العقيد «فاختل » اعتاد أن يقول لنا خلال المناورات التي جرت في «بيسيك » ، حين كان الرجال يزحفون بين عيدان الذرة خلال فترة الراحة ، إن على الجندي ألا يفكر طوال

الوقت بالبراز فحسب ، على الجندي أن يفكر في القتال . وإلى جانب ذلك أسألكم بتواضع ما الذي يمكن أن نفعله في تلك المراحيض ؟ لا يوجد هناك ما يمكن عصره منّا . فوفقاً لبرنامج مسيرتنا كان يتوجب حصولنا على العشاء في عدة محطات ، ولكننا لم نحصل على أي شيء . لا فائدة من الذهاب إلى المرحاض بمعدة فارغة !

وبينما كان شفيك يشرح الوضع للجنرال بكلمات بسيطة كان ينظر اليه بثقة كبيرة إلى حد أن الجنرال أحس برغبة الرجال في أن تُمد لهم يد المساعدة. إذا كان الأمر قد صدر بذهاب الرجال إلى المراحيض بتشكيل التقدم نحو الجبهة ، إذن يجب أن يكون لهذا الأمر نوع من التعزيز الداخلي .

قال الجنرال للنقيب ساغنر :

— أرسلهم جميعاً إلى العربات . كيف حدث أنهم لم يحصلوا على أي عشاء ؟ على كل من يمرّ في هذه المحطة أن يحصل على عشاء . هذه محطة تموين . لا يمكن أن تكون غير ذلك . الخطة واضحة ومحددة .

قال الجنرال ذلك بثقة تعني أنه رغم اقتراب الساعة من الحادية عشرة ليلا (١) الا أن العشاء يجب أن يقدم في الساعة السادسة ، كما سبق له وقال سابقاً ، لذا لم يكن ممكناً فعل أي شيء سوى إبقاء القطار ليلة أخرى ويوماً آخر حتى يستطيع الرجال تناول الغولاش والبطاطا .

ثم قال بجدية هائلة :

---

(١) قال قبل قليل إن الساعة هي الحادية عشرة وعشر دقائق .

(المترجم)

— حين تَنْقُلُ جيشا في زمن الحرب . لا شيء أسوأ من نسيان التموين . ان من واجبي أن أكتشف الحقيقة وأرى كيف هي الأمور في مكتب قائد المحطة ، فانتم تعرفون أيها السادة أنه يحدث في بعض الاحيان أن يفشل قادة القوافل أنفسهم في تأدية واجباتهم . حين فتشت محطة «سوبوتيشتيي »على خط السكة البوسني الجنوبي اكتشفت أن ستة قوافل لم تنل عشاءها لأن قادة القوافل أنفسهم لم يطلبوه . لقد طبخوا ست مرات الغولاش والبطاطا في المحطة ولم يطلبها أحد . وهكذا رموها بعيداً في أكوام . أيها السادة كانت هناك حفرة كبيرة ملأى بالبطاطا والغولاش هناك ، وعلى بعد ثلاث محطات كان الجنود من القوافل التي مرّت للتو أمام تلك الأكوام والجبال من الغولاش في سوبوتيشتيي يتسوّلون ارغفة الخبز في المحطة . في مثل هذه الحالة ، وكما ترون ، فان الخطأ لم يكن خطأ الادارة العسكرية .

ثم قام بحركة عنيفة بيده وقال :

— لم يكن قادة القوافل على مستوى الواجب . فلندخل إلى المكتب .

وقد تبعوه وهم يتساءلون عن السبب في أن كل الجنرالات يصابون بالجنون .

في قيادة المحطة تبيّن أنه لا توجد أية معلومات عن الغولاش . كان صحيحاً وجود أمر بوجوب طبخ وجبات في هذا اليوم لكل القوافل المارة بالمحطة ، ولكن وصل الأمر بحسم (٧٢) هلراً من حصة تعيينات كل جندي وبذلك تكون كل وحدة تمرّ في المحطة مدينةً بمبلغ (٧٢) هلرا عن كل رجل . وهذا المبلغ يجب أن يُسدَّد من قبل مكتب التموين في يوم دفع الرواتب التالي . أما بالنسبة للخبز فسوف يحصل الرجال على نصف رغيف لكل منهم في « فاتيان » .

كان قائد نقطة التموين غير خائف ، وقال للجنرال صراحة أن الأوامر تتغير في كل ساعة . وغالباً ما تم تجهيز الطعام للقوافل ثم يصل قطار مستشفى ومعه أوامر أعلى وتكون تلك نهاية الأمر . وعندها تواجه القوافل بمشكلة القدور الفارغة .

أومأ الجنرال برأسه موافقاً ولاحظ أن الظروف تتحسن الآن بالتأكيد وأنها كانت في بداية الحرب أسوأ بكثير . لا يمكن للمرء أن يتوقع من كل الأمور أن تسير جيداً دفعة واحدة . كانت التجربة والممارسة مطلوبتين طبعاً . وفي الواقع فان النظرية تقف في طريق الممارسة . وكلما طالت الحرب كلما تحسنت الأمور .

ثم قال بمتعة واضحة وكأنه قد وقع على شيء هام :

— أستطيع أن أعطيكم مثالا عمليا . منذ يومين كانت القوافل المارة عبر محطة «هاتفان» لا تحصل على أي خبز اطلاقاً ، بينما ستستطيعون استلام حصصكم منه غداً في تلك المحطة . فلنذهب الآن إلى مطعم المحطة .

في مطعم المحطة بدأ الجنرال يتحدث ثانية عن المراحيض ويقول : كم كان المنظر جميلا حين كانت نباتات الصبّار في كل مكان على خط السكة . وفي هذه الأثناء كان يأكل شريحة من لحم البقر وكان الجميع يتخيلون أنه يأكل صبّاراً .

لقد شدّد كثيراً على المراحيض إلى حدّ أنك كنت ستظن أن أن انتصار المملكة يعتمد عليها .

أما بالنسبة إلى الوضع الجديد مع دخول ايطاليا الحرب فقد أكّد أن تفوقنا الذي لا ينكر — في الحملة الايطالية — يكمن في مراحيض جيشنا .

كان انتصار النمسا سيخرج زاحفاً من مراحيضها .

بالنسبة إلى الجنرال كان كل شيء بسيطاً جدا . ان الطريق إلى المجد العسكري هو حسب الوصفة التالية : في السادسة مساء يتناول الجنود الغولاش والبطاطا . في الثامنة والنصف يتغوط الجنود في المراحيض وفي التاسعة يذهبون للنوم . في مواجهة جيش كهذا سيفرّ الأعداء مذعورين .

ثم أن الجنرال غرق في حالة من التأمل ، فأشعل سيجاراً ونظر إلى السقف لفترة طويلة . كان يحاول أن يفكّر فيما عليه أن يقوله الآن طالما أنه هنا وكيف يستطيع أن يفيد ضباط القافلة بالمزيد من ثقافته .

قال فجأة حين كان الجميع يتوقعون أنه سيستمرّ في النظر إلى السقف دون أن يقول شيئاً :

— ان قلب كيتبتكم سليم . فتعدادكم صحيح . ذلك الرجل الذي كنت أتحدث اليه ، بصراحته ووقفته العسكرية ، يعطينا الأمل الأمثل بأن الكتيبة كلها ستحارب حتى آخر قطرة من دمائها .

ثم توقف ونظر مرة أخرى إلى السقف ،وهو يستند إلى ظهر كرسيه ويستمر في وضعه نفسه، بينما كان الملازم الأول دوب، العبد المطيع لغرائز العبودية المتأصلة فيه ، هو الوحيد الذي راح ينظر إلى السقف أيضاً . واستأنف الجنرال كلامه فقال :

— ولكن ما تحتاجه كتيبتكم هو ألا تغرق أفعالكم المجيدة في بحر النسيان . لقد سبق لكتائب لوائكم أن كتبت تاريخها .وعلى كتيبتكم الاستمرار في ذلك . ولكن ما تحتاجون اليه هو رجل يدون سجلا دقيقاً

ويكتب تاريخ كتيبتكم . يجب أن يمسك بيديه خيوط كل ما تفعله أية سرية في الكتيبـــة . ويجب أن يكون شخصاً ذكياً ، ليس بغلا أو بقرة . أيها النقيب ، عليك أن تعيّن مؤرخ كتيبة لكتيبتك .

ثم نظر إلى الساعة التي على الجدار التي ذكّرت عقاربها كل رفاقه الوسنانين بأنه قد حان وقت الانصراف .

لقد أنجز الجنرال تفتيشه للقطار وطلب من السادة الضباط مرافقته حتى عربة النوم .

تنهّد قائد المحطة . كان الجنرال قد نسي أن يدفع ثمن شريحة لحم البقر وزجاجة النبيذ وكان على القائد أن يدفع لقاء ذلك من جيبه . في كل يوم هناك زيارات عديدة كهذه . كان قد سبق لهذه الزيارات أن كلّفته عربتين من التبن اضطر إلى تحويلهما إلى خط جانبي وبيعهما إلى شركة «لوفنشتاين» وهي الشركة التي تزود الجيش بالحنطة . لقد اشترى الجيش مرة أخرى هاتين العربتين وتركهما واقفتين هناك لكل الاحتمالات ربما سيضطر إلى بيعها مرة أخرى إلى شركة لوفنشتاين .

ولكن كل مفتشي الجيش الذين مروا خلال محطـــة بودابست الرئيسية هذه اعتادوا أن يحكوا لبعضهم أن قائد المحطة هناك لديه باستمرار طعام وشراب جيدان .

* * *

في الصباح كانت القافلة لا تزال واقفة عند المحطة ، وقد ضرب نفير الاستيقاظ وراح الجنود يغتسلون مستعملين صفائح الطعام وذلك عند مضخة المياه . لم يكن الجنرال وقافلته قد غادرا بعد ، وقد ذهب إلى

المراحيض لتفتيشها شخصياً ، حيث انطلق الجنود إلى هناك حسب الأمر اليومي الذي أصدره النقيب ساغنر للكتيبة : « كل جماعة على حدة تحت قيادة قـائد الجماعـة » ، وذلك حتى يبعث السرور في قلب اللواء (١) . هذا ، وحتى يبعث السرور في قلب الملازم الأول دوب أيضاً فقد أعلمه أنه سيكون ضابط التفتيش لذلك اليوم .

وهكذا أشرف الملازم الأول دوب على المراحيض .

كانت المراحيض الطويلة الواسعة ذات الصفين قد استوعبت جماعتين من كل سرية . وهكذا كان الجنود يجلسون على نسق واحد على أعجازهم الواحد الى جانب الآخر فوق تلك الحفر ، كأنهم طيور السنونو الواقفة على أسلاك الهاتف وهي تحضرّ نفسها لطيرانها الخريفي نحو أفريقيا .

كان كل واحد منهم قد أنزل بنطاله وركبتاه ظاهرتان ، وكل واحـد قـد وضع حزامه فوق رقبته وكأنه يريد أن يشنق نفسه في أية لحظة ، الا أنه ينتظر الأمر بذلك فحسب .

لقد تميزّت العملية بكاملها بانضباط عسكري صارم وتنظيم بارع فعّال .

على الجناح الأيسر جلس شفيك الذي كان وصل إلى هناك خطأ وكان يقرأ باهتمام قصاصة ورق انتزعت من احدى الروايات التي كتبتها « روجينا بيسينسكا » :

« . . . رسة البنات المكلفة ، الشابات لسوء الحظ . . .

---

(١) كان يلقبه بالجنرال فحسب وهذه هي المرة الأولى التي يخذد فيها رتبته على وجه الدقة . (المترجم)

. . . يدات ليس أكيدا ، ولكن ربما أكثروا . . .

. . . اللواتي كن كتومات على الاغلب ومتحفظات ووحـ

. . . ناولن الغداء في شققهن ، أو ربما كن سـ . . .

. . . يكرسن أنفسهن لتلك المتع المريبة . وإذا . . .

. . . ورجل والحزن والأسى وحده على شر . . .

. . . ضحا أنها تتحسن ، ولكنها لم ترغب . . .

. . . حيث أنهن أنفسهن قد رغبن ذلك . وبنجاح

. . . شيء كان أكثر مدعاة لسرور كرجيتشكا الشابة من. .»

وحين نجح في ابعاد عينيه عن قصاصة الورق نظر لا اراديا إلى مخرج المراحيض وأصيب بالذهول . فقد كان لواء الليلة الماضية واقفاً هناك في كامل أبّهته ، وكان يرافقه معاونه ومعهما الملازم الأول دوب الذي كان يشرح لهما شيئاً ما بلهفة .

نظر شفيك فيما حوله . استمر كل الجنود جالسين بهدوء فوق المراحيض بينما كان ضباط الصف متيبسين ودون حراك .

أحس شفيك بخطورة الوضع .

قفز كما هو بينطاله الذي سبق له وأنزله وحزامه حول عنقه ، وبما أنه استعمل قصاصة الورق في اللحظة الاخيرة فقد هدر بصوت هائل : « انتبه ! قف ! تهيأ ! التفت نحو اليمين » . ثم أدى التحية العسكرية . وقد نهض أفراد جماعتين كاملتين بنياطيلهم المنزلة وأحزمتهم حول أعناقهم من فوق المراحيض .

ابتسم اللواء بود وقال : « استرح ! تابع ! »

كان وكيل العريف «ماليك» أول من أعطى المثل الجيد لجماعته واستأنف جلسته السابقة . أما شفيك وهو الوحيد الذي استمر بالوقوف وضرب التحية ، فقد كان الملازم الأول دوب يقترب منه من أحد الاتجاهات مهدّداً ، ويقترب من الجهة الأخرى اللواء بابتسامته .

قال اللواء وهو يراقب الوضعية الغريبة لشفيك :

— لقد رأيتك الليلة الماضية .

بينما التفت الملازم الأول دوب الذي ثارت ثائرته نحو اللواء وقال بالألمانية :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أن هذا الشخص ضعيف العقل كما أنه أحمق شهير . انه أبله إلى حد لا يوازيه فيه أحد .

هدر اللواء فجأة مخاطباً الملازم الأول دوب وقد غضب منه أشد الغضب : «ما الذي تقوله أيها الملازم الأول؟» ثم قال إن العكس هو الصحيح فهذه القضية قضية شخص عرف واجباته حين رأى ضابطاً عالي الرتبة ، رغم أن الضابط لم يره بل تجاهله . هذا أشبه بما يحدث في الميدان . فالجندي العادي يستلم القيادة في وقت الخطر . وكان يتوجب على الملازم الأول دوب نفسه أن يعطي الأمر الذي أعطاه ذلك الجندي : « انتبه ! قف ! تهيأ ! التفت نحو اليمين ! »

سأل اللواء شفيك :

— هل مسحت مؤخرتك ؟

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أن كل شيء على ما يرام .

– ألا تريد الاستمرار في التبرّز ؟

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أني انتهيت .

– حسنا اذن ارفع بنطالك وقف باستعداد مرة أخرى !

ولأن اللواء لفظ عبارة «باستعداد» بصوت أعلى قليلا بالأحرى ، فان الجنود الأقرب بدؤوا ينهضون بدورهم من على مراحيضهم .

لوّح لهم اللواء بود وقال بصوت لطيف أبوي :

– لا ! لا ! استرح ! استرح ! تابع !

كان شفيك الآن في كامل روعته يقف أمام اللواء الذي خطب فيه خطبة قصيرة بالالمانية :

– الاحترام للرؤساء ، معرفة أنظمة الخدمة والبديهة الحاضرة : لكل ذلك أهمية كبرى في زمن الحرب . وإذا ما أضيفت الشجاعة إلى ذلك كله ، فلا حاجة إلى الخوف من أي عدو .

ثم التفت إلى الملازم الأول دوب ونخس بطن شفيك بأصبعه وقال :

– انتبه لهذا : حين تصلون إلى الجبهة يجب أن يُرقّى هذا الرجل فوراً ويجب أن يوضع اسمه في أول فرصة في لائحة الذينّ يستحقونّ الميدالية البرونزية بسبب التنفيذ الدقيق لواجباته ومعرفته الكاملة بـ . . . ولكنك تعرف ما أعنيه . . . انصراف !

ابتعد اللواء عن المراحيض بينما أعطى الملازم الأول دوب الأمر بصوت مرتفع بحيث يستطيع اللواء سماعه : « الجماعة الأولى قف ! رتلاً رباعياً رتلاً ترادف ! . . . الجماعة الثانية . . . »

في هذه الأثناء ابتعد شفيك وحين مرّ بالملازم الأول دوب حيّاه التحية اللائقة المناسبة ، ولكن الملازم قال مع ذلك : « اثبت ! » وهكذا كان على شفيك أن يحيي مرة أخرى وأن يسمع ثانية : « هل تعرفني ؟ أنت لا تعرفني ! أنت تعرف الجانب الطيب مني ولكن انتظر حتى تعرف الجانب السيىء مني إ سأجعلك تبكي ! »

وأخيراً مضى شفيك إلى عربته وهو يفكر : « مرة حين كنا لا نزال في الثكنة في «كارلين» كان معنا ملازم أول اسمه «خودافي» وقد اعتاد أن يقول شيئاً مغايراً تماماً حين كان يغضب : « أيها الشباب ، حين تروني تذكروا أني خنزير تجاهكم وأني سأبقى خنزيراً تجاهكم طالما كنتم في هذه السرية . »

حين مرّ شفيك بحافلة الضباط ناداه الملازم الأول لوكاش وطلب منه أن يقول لبالون أن يسرع بالقهوة وأن يغلق علبه الحليب جيداً حتى لا تفسد . كان بالون يغلي القهوة للملازم الأول لوكاش على مصباح كحولي صغير في عربة فانييك . وحين وصل شفيك ليوصل الرسالة لاحظ أن ركاب العربة كلهلم كانوا يشربون القهوة خلال غيابه .

كانت علب القهوة والحليب الخاصة بالملازم الأول لوكاش قد فرغ نصفها في هذه الأثناء وكان بالون الذي يرتشف القهوة من فنجانه يدس ملعقته في علبة الحليب ليحسنّ طعم قهوته .

لقد وعد كلٌ من يورايدا وفانييك بأنه لدى وصول الدفعة التالية من علب القهوة والحليب سيعوّضان الملازم الأول عما استهلكاه ، من قهوته وحليبه .

هذا وقد عرضت القهوة على شفيك أيضاً الذي رفضها وهو يقول لبالون :

— لقد صدر أمر من رئاسة أركان الجيش ووصلنا للتو وهو يفيد بأن أي وصيف يسرق علب الحليب والقهوة الخاصة بضابطه سيشنق دون تأجيل خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة . عليّ أن أنقل اليك هذا من الملازم الأول الذي يريد أن يريد أن يراك فوراً مع القهوة .

انتزع بالون المذعور من بين يدي خودونسكي ما كان قد صبّه له من القهوة منذ لحظات ، ووضعها على السخّان حتى تسخن قليلا ثم أضاف اليها بعض الحليب المعلّب واندفع بها إلى حافلة الضباط .

قدّم القهوة للملازم الأول لوكاش بعينين جاحظتين ، وبينما كان يفعل ذلك خطر له أن الملازم الأول لوكاش يستطيع أن يقرأ في عينيه ما فعله بعلب القهوة والحليب .

تلعثم قائلا :

— لقد تأخرت لاني لم أستطع فتحها .

قال الملازم الأول وهو يشرب قهوته :

— أعتقد أنك أسقطت علبة الحليب ، أليس كذلك ؟ أم أنك ابتلعته بالملعقة كالحساء ؟ هل أنت مدرك لما سيحصل لك ؟

تنهد بالون ثم أنّ وقال :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أن لي ثلاثة أطفال .

— الأجدر بك يا بالون أن تنتبه إلى نفسك . أحذّرك مرة أخرى فيما يخص شراهتك .ألم يقل لك شفيك أي شيء ؟

— قال لي إني سأشنق خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة .

هذا ما أجاب به بالون بلهجة حزينة وقد أخذ يرتجف .

قال الملازم الأول مبتسماً :

— لا ترتجف أمامي هنا أيها لأحمق ، بل حاول أن تصلح نفسك . ضع شراهتك خارج رأسك وقل لشفيك أن يبحث في المحطة أو ما يجاورها عن شيء يؤكل . أعطه هذه الغليدرات العشرة . لن أرسلك أنت ، فأنت لا تذهب الآن إذا حشوت معدتك حتى درجة الانفجار . ألم تلتهم علب السردين خاصتي ؟ تقول إنك لم تفعل ؟ اذن اجلبها إلى هنا وأرني اياها .

قال بالون لشفيك أن الملازم يرسل له عشرين كراونا ليجد له ما يؤكل . ثم أخرج متنهداً علب سردين الملازم الأول وحملها بمعنويات منهارة إلى الملازم الأول ليجري التفتيش عليها .

كان الأحمق المسكين يأمل بأن يكون الملازم الأول لوكاش قد نسي أمر السردين ، ولكن الحلم تبخر الآن . هذا وقد يبقيها الملازم الأول في الحافلة معه ويحرمه بذلك منها. أحس وكأنه قد تعرض للسرقة.

قال بمرارة وهو يعطيها لصاحبها :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي ها هي علب السردين . هل أفتحها ؟

— حسنا يا بالون ، لا تفتح شيئاً بل أعدها إلى مكانها . لقد أردت أن أتأكد فحسب من أنك لم تفتحها لتلقي نظرة عليها . كما ترى فقد ظننت حين جلبت لي القهوة أن فمك كان يبدو دهنياً بعض الشيء . هل ذهب شفيك ؟

قال بالون وقد أخذت البهجة تعود إليه :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أنه سبق له وذهب . قال إنك ستكون راضياً ياسيدي وإن الجميع سيحسدونك ياسيدي . لقد ذهب إلى خارج المحطة وقال إنه يعرف الريف كله هنا حتّى «راكسوبالوتا» . وإذا حدث صدفة أن انطلق القطار دونه سيحاول الالتحاق بقافلة سيارات ويلحق بنا في محطة القطارات التالية . لا يجب أن نقلق عليه ، فهو يعرف واجبه حتّى لو اضطر إلى استئجار عربة صغيرة على نفقته الخاصة واللحاق بالقطار حتّى غاليسيا ، وعندها سيتم حسم المبلغ من رواتبه لاحقاً . ليس عليك أن تقلق فيما يخص هذا الموضوع ياسيدي .

قال الملازم الأول بحزن :

— اغرب عن وجهي .

وصلت الأخبار من مكتب القيادة بأن القطار سيغادر في الساعة الثانية بعد الظهر عبر «غودولو — أتسود» وأنهم سيستلمون عند المحطات المختلفة ليترين من النبيذ الأحمر وزجاجة من الكونياك للضباط . وقيل انها شحنة تائهة كانت مرسلة في الأصل إلى «الصليب الأحمر» . ومهما تكن فانها هدية من السماء وقد بعثت المرح في حافلة الضباط . كان الكونياك من صنف الثلاثة نجوم والنبيذ من ماركة «غومبولد سكيرخن» .

ولكن الملازم الأول لوكاش كان قلقاً بالأحرى طوال الوقت ، فقد مرت ساعة حتّى الآن وشفيك لم يعد بعد . وبعد نصف ساعة أخرى برز موكب غريب من وراء مكتب قيادة المحطة واقترب من حافلة الضباط .

على رأس الموكب سار شفيك برزانة ومهابة ، كواحد من الشهداء المسيحيين الأوائل يُقاد إلى الحلبة .

كان يرافقه من الجانبين جنديان هنغاريان من الهونفيد وقد ثبّت كل منهم حربته في بندقيته . على الجناح الأيسر رقيب أول من قيادة المحطة وخلفهم امرأة في تنورة حمراء ذات طيّات تشبه آلة الأكورديون ورجل يرتدي جزمة وقبعة مستديرة وقد ازرقّت عينه من الضرب . كان يحمل دجاجة حية تقوقىء بفزع .

كانوا على وشك الصعود إلى حافلة الضباط ، ولكن الرقيب صرخ بالهنغارية بالرجل حامل الدجاجة وبالمرأة أن يبقيا حيث هما .

وما أن رأى شفيك الملازم الأول لوكاش حتّى بدأ يغمز له غمزات ذات معنى .

كان الرقيب راغباً في التحدث إلى قائد السريـــة الحاديـــة عشرة المتقدمة . أخذ الملازم الأول لوكاش وثيقة أرسلها له قائد المحطة وما أن قرأها حتّى شحب وجهه :

« إلى قائد السرية الحادية عشرة المتقدمة من الكتيبة القصوى من الفوج الواحد والتسعين لاتخاذ الاجراءات اللازمة :

نرسل اليكم جندي المشاة شفيك ، يوسيف ، الذي هو وفق افادته جندي ارتباط السرية الحادية عشرة المتقدمة من الكتيبة المتقدمة القصوى من الفوج الواحد والتسعين ، والمتهم بجريمة السرقة ضد الزوجين من عائلة « اسطفان» في «ايساتارشا» في منطقة قيادة المحطة .

الحيثيات

قام جندي المشاة شفيك ، يوسيف ، بوضع يده على دجاجة كانت تعدو وراء منزل الزوجين «اسطفان» في ايساتارشا في منطقة قيادة المحطة وهي تخص الزوجين «اسطفان» (في الأصل استعمل اسم ألماني جديد ومجيد « اسطفانغاتن ») ، وبعد أن أوقفه المالك وحاول أن يستردّ منه الدجاجة قاوم شفيك مالك الدجاجة المدعو « اسطفان» وضربه على عينه اليمنى . وقد أوقفته الدورية التي تم استدعاؤها وتم ارساله إلى وحدته مخفوراً وأعيدت الدجاجة إلى مالكها . »

« توقيع : الضابط المناوب»

حين وقع الملازم الأول لوكاش صك استلام شفيك كانت ركبتاه تصطكان تحته .

وقف شفيك قريباً جداً إلى حد أنه كان يستطيع أن يرى أن الملازم الأول لوكاش نسي أن يكتب التاريخ .

أعلن شفيك :

ــ أبلغكم بتواضع ياسيدي أن اليوم هو الرابع والعشرون ، فقد كان البارحة هو الثالث والعشرون من أيار «مايو» يوم أعلنت ايطاليا الحرب علينا . خلال وجودي في الريف كان الناس لا يتحدثون إلاّ عن ذلك .

ذهب جندي الهونفيد مع الرقيب وبقي في الأسفل الزوجان«اسطفان» اللذان كانا لا يزالان يريدان دخول الحافلة .

قال شفيك بأسلوبه السردي :

— إذا كنت لا تزال تحمل خمسة غيلدرات أخرى لاستطعنا شراء تلك الدجاجة . لقد أراد الوغد خمسة عشر غيلدراً ثمناً لها ، ولكنه يضيف الآن عشرة غيلدرات أخرى لقاء عينه التي ازرقّت . الا ّ أني أعتقد ياسيدي أن عشرة غيلدرات لقاء عين حمقاء كتلك ثمن باهظ جداً . في حانة « السيدة العجوز » حطموا فك الخرّاط المدعو « ماتيبي » بكامله وستة أسنان من أسنانه وذلك باستعمال قطعة آجر . وكان ما كل ما دفع له لقاء هو عشرون غيلدرا ، وكان للمال في ذلك الحين قيمة أعظم بكثير من قيمته في أيامنا هذه . عجبا حتّى الجلاد «فولشليغر» لا يقبض سوى أربعة غيلدرات لقاء شنق كل شخص .

ثم أشار شفيك إلى الرجل ذي العين المزرقّة الذي يحمل الدجاجة وقال :

— تعال إلى هنا ، وأنت أيتها الشمطاء العجوز ، ابقي حيث أنت !

دخل الرجل إلى الحافلة .

قال شفيك :

— انه يعرف القليل من الألمانية ، فهو يفهم كل الشتائم ويستطيع هو نفسه أن يشتم جيداً بالألمانية .

قال للرجل بخليط من الألمانية والهنغارية :

— حسنا اذن ، عشرة غيلدرات ، خمسة غيلدرات للدجاجة وخمسة للعين . أفهمت أيها الديك المغرور ؟ خمسة فلورينات ؟ هذه حافلة الضباط أيها اللص . أعطني الدجاجة .

— دفع بعشرة غيلدرات في يد الرجل المندهش وأخذ منه الدجاجة ثم لوى عنقها ودفعه خارج الحافلة وهو يصافحه بقوة وبودّ ويقول :

— وداعاً أيها النغل العجوز ، وداعاً ! عد إلى زوجتك العجوز رثة الملابس قبل أن أرميك أرضاً !

قال شفيك للملازم الأول لوكاش :

— وهكذا ياسيدي ترى كيف يمكن لكل شيء أن ينتهي بسلام . من الأفضل دائماً أن يمرّ كل شيء دون شجار كثير من الجلبة . سنقوم بالون وأنا ، بطبخ حساء دجاج رائع لك تشم رائحته الطيبة حتى ترانسيلفانيا .

لم يعد الملازم الأول لوكاش قادراً على السيطرة على نفسه فأسقط الدجاجة البائسة من يد شفيك وصاح :

— هل تعرف يا شفيك ما عقوبة الجندي الذي يسرق السكان المدنييّن المسالمين في زمن الحرب ؟

أجاب شفيك برزانة :

— الموت المجيد بالرصاص والبارود ياسيدي .

— بل الحبل هو ما تستحقه ياشفيك لأنك أنت الذي بدأ بالسرقة . أيها الوغد ، أنت . . . لا أعرف حقاً ما ادعوك به . لقد نسيت القسم الذي أدّيته . أنت تسبب لي صداعاً رهيباً .

نظر شفيك إلى الملازم الأول لوكاش نظرة متسائلة ثم أجاب بسرعة :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أني لم أنس القسم الذي يتوجب على محاربينا تأديته . أبلغكم بتواضع ياسيدي أني أقسمت بكل قدسية أمام أميري الماجد وسيدي فرانتس يوسيف الأول ، بأني سأخدمه بكل

اخلاص وطاعة وأن أخدم جنرالات صاحب الجلالة الامبراطورية وكل الضباط الأعلى رتبة . لقد أقسمت أن احترمهم وأحميهم وأن انفذ أوامرهم وتعليماتهم في كل الخدمات المطلوبة ضد أي عدو كائنا من كان وحيثما أراد صاحب الجلالة الامبراطورية والملكية ، في البحر ، تحت البحر ، على البرّ وفي الجو ، في الليل والنهار ، في المعارك ، في الهجوم ، في الاشتباكات وفي كل الأعمال والأمكنة مهما تكن .

التقط شفيك الدجاجة من الأرض واستأنف وهو يقف باستعداد وينظر مباشرة في عيني الملازم الأول لوكاش :

— لقد أقسمت أن أحارب بشجاعة ورجولة في كل ساعة وفي كل مناسبة وألا أتخلى عن جيشي وبيارقي وأعلامي ومدافعي ، وألا أدخل في مفاوضات مع العدو وأن أتصرف باستمرار وفق قوانين الجيش وعلى نحو يليق بجندي ممتاز ، بحيث أعيش وأموت بشرف ، وأشهد الله على ذلك ، آمين . وابلغكم بتواضع ياسيدي أنني لم أسرق تلك الدجاجة ولا ارتكبت فعل اللصوصية . لقد تصرفت بصورة صحيحة وبما يتفق مع قسمي .

هدر الملازم الأول لوكاش وهو يأخذ الأوراق ويضرب بها اليد التي كان شفيك يمسك بها الدجاجة المرحومة المأسوف عليها :

— ارم بهذه الدجاجة أرضاً أيها البغل . انظر إلى هذه الأوراق . هل ترى ما كتب هنا بالأبيض والأسود ؟ « نرسل لكم جندي المشاة شفيك ، يوسيف ، الذي هو وفق افادته جندي ارتباط السرية . . . والمتهم بجريمة السرقة . . . » والآن قل لي أيها اللص ، أيها الضبع ، لا ، سأقتلك يوما ما بعد هذا كله ، سأقتلك ، هل تفهم ؟ هل قل لي أيها الأحمق السارق ، كيف أمكنك أن تنحدر إلى مثل هذا الدرك ؟

قال شفيك بود :

— أبلغكم بتواضع يا سيدي أن في المسألة دون شك خطأ صغيراً . حين وصلني أمرك بأن أبحث لك عن شيء تأكله وأشتريه لك ، بدأت أتساءل عما قد يكون أفضل طعام لك . خلف المحطة لم يكن هناك من شيء إطلاقاً سوى السلامي المصنوع من لحم الحصان وبعض لحم الحمير المقدّد . أبلغكم بتواضع ياسيدي أني فكرت في المسألة كلها بعناية . في ميدان المعركة يحتاج المرء إلى شيء مغذٍّ جداً حتى يستطيع احتمال مشاق الحرب على نحو أفضل . ولذ أردت أن أقدم لك متعة « مفخّمة » . لقد أردت أن أطبخ لك حساء الدجاج يا سيدي .

كرر الملازم الأول من بعده وهو يمسك برأسه بين يديه :

— حساء الدجاج ؟ !

— نعم ياسيدي ، أبلغكم بتواضع ياسيدي أنه حساء الدجاج . لقد اشتريت بعض البصل وخمسة «ديكات» من المعكرونة . ها هي يا سيدي . في هذا الجيب البصل وفي الآخر المعكرونة . لدينا ملح في الديوان والبهار كذلك . لم أكن في حاجة إلى أي شيء آخر سوى الدجاجة . وهكذا ذهبت إلى ما وراء المحطة إلى ايساتارشا . انها قرية ، ليست بلدة اطلاقاً ، رغم أنه مكتوب في أول شارع فيها « بلدة ايساتارشا » . لقد مررت بشارع فيه حدائق ثم بشارع آخر فثالث فرابع فخامس فسادس فسابع فثامن فتاسع فعاشر فحادي عشر حتى وصلت أخيراً إلى الثالث عشر في آخر القرية خلف منزل تبدأ به المروج ، وكان سرب من الدجاج يتجوّل في أنحاء المكان وهو ينقر بحثاً عن الطعام . ولقد التطقت أكبر وأثقل دجاجة . أرجوك . انظر اليها يا سيدي . انها دهن خالص ، لا حاجة بك

إلى أن تلمسها . يمكنك أن ترى من نظرة واحدة أنها قد أُطعمت القمح .
ولذا أخذتها بكل صراحة أمام السكان ، الذين صرخوا عليّ بالهنغارية .
وقد أمسكت بالدجاجة من ساقيها وسألت شخصاً أو شخصين بالتشيكية
والألمانية عن صاحب الدجاجة حتى أستطيع شراءها منه ، حين اندفع
نحوي رجل وامرأة من ذلك المنزل القائم في آخر القرية وبدأ الرجل
يشتمني بالهنغارية أوّلاً ثم بالألمانية وهو يقول إني سرقت له دجاجته في
وضح النهار . وقد قلت له انه لا يتوجب عليه أن يصرخ بي حيث أني
أُرسلتُ لشرائها من أجلك وقد شرحت له الوضع كله . وبينما كنت
أمسك بتلك الدجاجة من ساقيها بدأت تضرب بجناحيها فجأة وهي تريد
أن تطير مبتعدة عني ، وبما أني كنت أمسك بها دون شدة فقد أُفلتتْ
من يدي وحاولت الجلوس على أنف صاحبها ، فراح هذا يصيح على
الفور بأني ضربته على حنكه بالدجاجة . ثم راحت تلك المرأة تزعق
وهي تتلفظ بشيء ما وتستمر في مخاطبة الدجاجة . وفي تلك اللحظة
بالضبط قام بعض الحمقى الأغبياء الذين ما كانوا عارفين بما حدث
باستدعاء الدورية ، وهي طبعاً دورية الهونفيد ، وقد طلبت من الدورية
أن تذهب معي إلى قيادة المحطة حتى تَتَبيّن لها براءتي الواضحة وضوح
حقيقة أن الزيت يطفو على الماء .ولكن كان مستحيلاً التكلم مع الملازم
الأول المناوب هناك ، حتى حين طلبت منه أن يسألك عن الموضوع
وعما إذا كنت قد أرسلتني أم لا لشراء طعام جيد لك.لكنه راح يصرخ
بي وأمرني بأن أغلق فمي ، وأنه كان يستطيع أن يرى في عيني غصناً
قوياً وقد تدلّت منه أنشوطة متينة . كان في مزاج سيء جداً دون شك
حيث أنه قال لي إن الجندي جيد التغذية مثلي لص دون ريب . وقال إن
هناك الكثير مـــن الشكاوي في المحطـــة . ففي أول أمس فقـــد أحد

الأشخاص ديكاً رومياً في هذه الأنحاء ، وحين قلت له إننا كنا لا نزال في « راب» في ذلك اليوم قال إن مثل هذا العذر لا ينفع معه . وهكذا أرسلوني اليك وفوق ذلك كلّه صرخ بي عريف لم ألحظ وجوده ، وسألني أن كنت لا أميزّ الشخص الذي أخاطبه . قلت له إنه عريف وإنه إن كان في سلاح «الرماة » فسيكون قائد دورية وان كان في سلاح المدفعية فسيكون كبير رماة مدفع .

قال الملازم الأول لوكاش بعد لحظة :

— ياشفيك ، لقد سبق أن جرت لك الكثير من الحوادث الغريبة والفجائية وارتكبت الكثير من «الأخطاء » و« الغلطات» الصغيرة ، كما تسمّيها ، بحيث أن الطريقة الوحيدة لتحريرك من كل بلاياك هو وضع حبل متين حول عنقك واجراء مراسيم عسكرية كاملة ضمن تشكيل مربعّ . هل فهمتني ؟

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أني أفهم ، فمربع الكتيبة المغلقة يتألف من أربع سرايا أو ثلاث أو خمس في الحالات الاستثنائية . هل تأمر ياسيدي بأن أضع المزيد من المعكرونة في حساء تلك الدجاجة فأجعله أكثر كثافة ؟

— ياشفيك ، أوامري هي أن تبتعد عني أنت ودجاجتك على الفور والاّ ضربتك على رأسك بها ، أيها الاحمق اللعين . . . :

— أمرك ياسيدي ، ولكني أبلغكم بتواضع أني لم أستطع أن أجدأي كرفس أو جزر أيضاً . سأضع البطا . . . .

لم يكن لدى شفيك الوقت الكافي ليكمل لفظة «البطاطا» حيث اضطر

إلى الهرب من الحافلة مع دجاجته . وقد تجرّع الملازم الأول لوكاش مقدار كأس نبيذ كامل من الكونياك دفعة واحدة .

ضرب شفيك التحية خارج نوافذ الحافلة ثم ابتعد .

* * *

بعد صراع مع ضميره انتهى بسعادة كان بالون على وشك فتح علبة السردين الخاصة بملازمه الأول حين ظهر شفيك مع الدجاجة. وقد سبب ذلك في حدوث اضطراب طبعاً بين كل الموجودين في العربة وقد نظر الجميع إلى الدجاجة وكأنهم أرادوا أن يسألوا السؤال الواضح: « من أين سرقتها ؟ »

أجاب شفيك وهو يخرج البصل والمعكرونة من جيبه :

ـ لقد اشتريتها لأجل الملازم الأول . لقد أردت أن أطبخ له الحساء . ولكنه رفضها ، بل انه وهبني إيّاها أيضاً .

سأله رقيب أول الامدادات بلهجة تدل على الارتياب :

ـ أو لم تَنْفقْ لأسباب طبيعية ؟

أجاب شفيك وهو يخرج سكّيناً من جيبه :

ـ لا ، فقد لويت رقبتها بيدي .

نظر بالون إلى شفيك وعلى جهه تعبير الامتنان الممزوج بالاحترام ثم بدأ يجهزّ بصمت الموقد الكحولي الخاص بالملازم الأول . ثم أخرج بعض الفناجين وخرج ليحضر بعض الماء .

اقترب خودونسكي من شفيك وعرض عليه أن يساعده في نتف ريش الدجاجة وهو يهمس في أذنه :

— هل المكان بعيد جداً من هنا ؟ هل عليك أن تتسلق سوراً لتدخل فناء المنزل أم هل المكان مفتوح ؟

ولكني اشتريتها .

— اخرس وكن ذا روح رياضية . لقد رأيناهم وهم يقتادونك مخفوراً .

وقد قام بمساعدة شفيك بحماسة في نتف ريش الدجاجة على أية حال وخلال التحضيرات العظيمة المجيدة انضم اليهما يورايدا الذي قطع البطاطا والبصل إلى شرائح لأجل الحساء .

لفتت الريشات التي كانت ترمى خارج العربة نظر الملازم الأول دوب الذي كان يقوم بجولة تفتيشية على العربات .

صاح بأن الذي يقوم بنتف ريش دجاجة عليه أن يقدم نفسه فوراً ، وظهر له عند الباب وجه شفيك .

صاح الملازم الأول دوب وهو يلتقط من الأرض رأس الدجاجة المقطوع :

— ما هذا ؟

أجاب شفيك ؟

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أنه رأس الدجاجة من النوع المسمى «اللغهورن الأسود» . انه يضع الكثير من البيض ، حوالي (٢٦٠) بيضة في السنة . هل لك أن تتلطف فترى هذا المبيض الخصب الذي لها ؟

وهنا وضع شفيك أحشاء الدجاجة وأمعاءها قرب أنف الملازم الأول دوب .بصق دوب وابتعد ، ولكنه عاد بعد قليل .

— لمن هذه الدجاجة ؟

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أنها لنا . انظر كم عليها من دهن .

ابتعد الملازم الأول دوب وهو يهمهم لنفسه : « سأراك في فيليبي » .

سأل يورايدا شفيك :

— ما الذي قاله لك ؟

— لقد رتّبنا اجتماعاً في مكان ما في « فيليبس » . هؤلاء السادة الأنيقون يكونون شاذين عموماً .

وقد أكدّ له الطباخ عالم القوى الخفية أن المهتمين بعلم الجمال هم الشاذون جنسياً فحسب . وهذا ناتج عن طبيعة علم الجمال بالذات .

عند ذلك حكى فانيك كيف أن المعلّمين في الأديرة الاسبانية يغتصبون الأطفال .

وبينما كان الماء يغلي في القدر فوق الموقد ذكر شفيك كيف أنهم أودعوا مرة مجموعة كاملة من الأطفال اليتامى من مدينة البندقية لدى معلم وكيف قام هذا باغتصاب كل واحد منهم دون استثناء .

— انه أمر لا تمكن مقاومته . انه نوع من الولع الشديد . ولكنه أسوأ ما يكون لدى النساء . منذ سنوات في براغ كانت تعيش امرأتان مهجورتان ، مطلقتان لانهما كانتا من المومسات . كان اسم احداهما «موركوفا» والأخرى «شوسكوفا» ، وقد قامتا في مساء أحد الأيام بالإمساك

بعازف أرغن يدوي في الشارع وهو عجوز عنّين عمره مئة سنة واقتادتاه إلى غابة واغتصبتاه هناك. ولم تتركا شيئاً لم تفعلاه له! وفي جيجكوف يعيش بروفسور اسمه «أكساميت»، وكان من عادته أن يمارس الحفر هناك باحثاً عن قبور أناس دفنوا جاثمين على ركبهم، وكان قد سبق له ووجد القليل من هذه القبور فعلا. وكانت السيدتان المذكورتان قد جرّتا عازف الأرغن العجوز ذاك إلى أحد تلك القبور واغتصبتاه هناك حتّى انهكتاه فعلا. وحين جاء البروفسور أكساميت في اليوم التالي ورأى شيئاً في القبر قفز فرحاً، ولكن ذاك لم يكن سوى عازف الأرغن العجوز الذي عذب واستشهد على يد السيدتين المطلقتين. من حوله لم يكن هناك سوى قطع من الحطب. وبعد خمسة أيام مات عازف الأرغن. وقد بلغت بالمرأتين الفاسقتين الصفاقة إلى حد أنهما شاركتا في جنازته. هذا هو الشذوذ إذا أردتم.

ثم سأل شفيك وهو يلتفت إلى بالون الذي اغتنم فرصة الانهماك بحكاية شفيك ليسرق شيئاً وضعه في حقيبته:

— هل وضعت الملح فيه؟ أرني ما تفعله هناك.

ثم قال شفيك بجدية:

— يابالون، ما الذي تريده من ساق الدجاجة تلك؟ انظروا إلى ذلك النغل! لقد سرق ساق الدجاجة منّا حتّى يطبخها لنفسه لاحقاً. هل تعرف يابالون ما الذي فعلته؟ هل تعرف ما هي عقوبة السرقة في الميدان إذا ارتكبت ضد الرفاق؟ يربط السارق إلى سبطانة المدفع ويقذف به إلى السماء بواسطة قذيفة. لقد فات أوان التنهد. حين نجتمع بالمدفعية على الجبهة سيكون عليك أن تسلم نفسك إلى أول رئيس لبطارية مدفعية.

في هذه الأثناء عليك أن تقوم ببعض التدريبات على العقوبة . اخرج من العربة !

خرج بالون التعيس وجلس شفيك عند باب العربة وراح يصدر له الأوامر التالية : « استعد ا استرّاح ! استعد ! يمين دُرْ ! أمامك ! استرح ! والآن ستقف وتقوم بتدريبات دون سلاح . يمين در ! أيها الرجل أنت بقرة ! كان يجب أن يكون قرناك حيث كان كتفك الأيمن من قبل . ابق كما أنت . يمين در ! يسار در ! انحن إلى اليمين ! ليس كذلك أيها الثور ! ابق كما أنت ! انحن إلى اليمين ! والآن ترى أيها البغل أنك تستطيع القيام بذلك . انحن إلى اليسار ! يسار در ! إلى اليسار إلى الأمام ! الامام أيها الاحمق اللعين ! ألا تعرف ما هو أمامك ؟ إلى الامام سر ! وراء در ! اركع ! انزل ! اجلس ! قف ! اجلس ! انزل قف ! انزل ! قف ! اجلس ! قف استرّح ! والآن ألا ترى يابالون أن هذا مفيد لصحتك ولهضمك أيضاً ؟

بدأ الجنود يحتشدون من حولهما ثم راح هؤلاء يهتفون .

صاح شفيك :

— يُرجى افساح الطريق . سيسير نحو الأمام . والآن يابالون ، انتبه حتّى لا تضطرني إلى أن أقول : « ابق كما أنت » . أكره ازعاج الجنود دون داع . والآن : الاتجاه محطة السكة الحديدية ! انظر إلى الاتّجاه الذي أشير اليه . أمام سر ! قف ! كرمى للمسيح قف والا سجنتك ! لقد توقفتَ أخيراً أيها الأحمق اللعين . هوناً سر ! ألا تعرف الأمر الذي يقول : هوناً سر ؟ سأعلمّك حتّى يزرقّ وجهك . خطوة كاملة ! غير الخطوة ! مكانك راوح ! أيها الفيل ؟ حين أقول : مكانك راوح ! عليك أن تحرّك ساقيك صاعداً ونازلا في مكانك .

كان قد احتشد في المكان ما تعداده سريتان في الأقل .

كان بالون يعر ق ولم يكن يدري بما يحدث له ، ولكن شفيك استمر باعطاء الأوامر :

— إلى المؤخرة سر ! قف ! هرول ! أبطىء ! قف ! استرح ! استعد ! الاتجاه :محطة القطار ! أسرع ! قف ! وراء در ! الاتجاه : العربة ! أسرع ! هوناً سر ! قف ! استرح! تستطيع أن تستريح لدقيقة الآن وبعدها سنعيد الكرة . حين تتوفر الاداة كل شيء ممكن .

هنا وصل صوت الملازم الأول دوب الذي جاء يعدو متزعجاً :

— ما الذي يحدث هنا ؟

قال شفيك :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أننا نمارس بعض التدريبات حتى لا ننسى مهارتنا ونضيع وقتاً ثميناً .

أمره الملازم الأول دوب قائلا :

— انزل من العربة . هذا يكفي . سأرسلك إلى قائد الكتيبة .

حين ظهر شفيك في حافلة الضباط غادرها الملازم الأول لوكاش من باب آخر وخرج إلى رصيف المحطة .

وحين أبلغ الملازم الأول دوب النقيب ساغنر بجنون شفيك الغريب كما أسماه ، كان هذا في مزاج جيد جداً إذ أن نبيذ « غومبلد سكيرخن» من الصنف الممتاز فعلا .

قال بابتسامة العارف :

— هاهه ، اذن فأنت لا تريد أن تضيعّ وقتاً ثميناً . ياما توشيتش تعال إلى هنا .

— واستلم جندي ارتباط الكتيبة تعليمات باستدعاء رقيب أول السرية الثانية عشرة . واسمه «ناساكلو » ، المعروف بأنه أكثر الطغاة استبداداً ، كما أمر بتسليم بندقية إلى شفيك .

قال النقيب ساغنر للرقيب الأول ناساكلو :

— هذا الرجل هنا لا يريد أن يضيّع وقتاً ثميناً . خذه إلى ما وراء الحافلة ودّربه ساعة مع البندقية . ولكن دون شفقة أو رحمة ، هل تفهمني ؟ والشيء الأساسي هو أن تعطيه الأمر بعد الآخر وبشدة : جنبك سلاحك ، علّق سلاحك ! جنبك سلاحك !

قال له وهما يغادران الحافلة :

— سترى يا شفيك أنك لن تملّ أبداً .

وبعد لحظة كان يمكن سماع أمر صارم يهدر على نحو رسمي بين قضبان السكة . فقد كان الرقيب الأول ناساكلو قد ترك لعبة « الواحد والعشرين » للتو ، بعد أن أمسك بالبنك ، ولذا صاح غاضباً مخاطباً مساحات السماء العريضة : « جنبك سلاحك ! علق سلاحك ! جنبك سلاحك ! علّق سلاحك ! »

ثم ساد صمت قصير وبعدها كان ممكنا سماع صوت شفيك السعيد المتأمل يقول :

— لقد تعلّمت هذا كله منذ سنوات بعيدة خلال الخدمة النظامية . حين تقول : « جنبك سلاحك ! » فذلك يعني أن البندقية ترتاح على الورك الأيمن . ويجب أن يكون رأس عقب البندقية بموازاة رأس أصبع

القدم . الذراع اليمنى ممتدة بالطبع وتمسك بالبندقية بحيث يعانق الابهام السبطانة . أما الأصابع الأخرى فيجب أن تمسك بالعقب من جزئه الأمامي . وحين تقول : « علّق سلاحك » فذلك يعني أن تعلّق البندقية من حمالتها فوق الكتف الأيمن بينما فم السبطانة متجه نحو الأعلى والسبطانة عند ظهر . . .

استأنف الرقيب الأول ناساكلو أوامره قائلا :

ــ والآن الأفضل لك أن تؤدي التدريبات بقوة استعد ! التفت إلى اليمين ياالهي ! ما هذه اللخبطة . . .

ــ أنا في وضع « علق سلاحك » والتفت إلى اليمين ويدي اليمنى تنزلق على الحمالة وتمسك بعنف العقب . أدير رأسي إلى اليمين . وحين يكون الأمر : « استعد » ! فاني أمسك بالحمالة مرة أخرى ويكون رأسي في اتجاهك .

ومرة أخرى هدر صوت الرقيب الأول :

ــ اسحب سلاحك ! جنبا سلاحك ! اسحب سلاحك ! علق سلاحك ! ثبت الحربة ! فك الحربة ! جرّد الحربة ! تهيأ للصلاة ! إنه الصلاة ! اركع للصلاة ! لقمّ السلاح ! اطلق النار ! اطلق باتجاه نصف اليمين ! الهدف حافلة الضباط ! المسافة ٢٠٠ خطوة!جاهز! سدّد ! نار ! استرح ! سدّد ! نار ! سدّد ! نار ! استرح ! التسديد عادي ! الطلقات في الجعبة ! استرح .

ثم لفّ الرقيب الأول لفافة تبغ .

في هذه الأثناء كان شفيك ينظر إلى رقم البندقية ويقول :



General Organization of the Alexandria Library

— (٤٢٦٨) انه الرقم نفسه الذي كان لقاطرة السكة حديدية في « بيتشكي» على الخط رقم (٢٦) . كان يتوجب عليهم أن يأخذوها للاصلاح في المحطة في «ليزاناد لابم» ولكنها لم تذهب بسهولة لأن سائق تلك القاطرة كما ترى أيها الرقيب الأول ، كان ذا ذاكرة سيئة جداً فيما يتعلق بالأرقام . وهكذا استدعاه ناظر السكة إلى مكتبة وقال له: « على الخط رقم ١٦ قاطرة رقمها ٤٢٦٨ وأعرف أن لك ذاكرة سيئة فيما يتعلق بالأرقام، ولو كتبت أي رقم على ورقة فأنت ستضيع الورقة. والآن اصغ بعناية ، وبما أنك لست ماهراً في حفظ الأرقام سأريك أنه من السهل جداً أن تتذكر أي رقم تريد . انظر : العربة التي ستأخذها إلى المحطة في ليزاناد لابم رقمها ٤٢٦٨ . والآن انتبه إلى جيداً . الرقم الأول أربعة والثاني اثنان هذا يعني أن عليك أن تتذكر الرقم ٤٢ . وهو ضعف اثنين . أي أن تسلسل الأرقام كما يلي : ٤ تأتي أولاً قسم ٤ على ٢ فيكون الناتج ٢ ويكون لديك اربعة واثنان . والآن لا تخف إما هو ضعف ٤؟٨ أليس كذلك ؟ حسنا ، تذكر أن ٨ هي آخر رقم في سلسلة الأرقام في ٤٢٦٨ . والآن حين تكون قد أدخلت في رأسك أن الرقم الأول هو٤ والثاني ٢ والرابع ٨ ، فكل ما يكون قد بقي عليك هو أن تكون ذكياً وتتذكر رقم اﻟ٦ الذي يأتي قبل اﻟ٨ . وهذا بسيط إلى حد مخيف . الرقم الأول ٤ والثاني ٢ و ٤+٢ = ٦ . لقد وصلنا : الثاني من الأخير هو ٦ والآن لن ننسى أبدا ترتيب الارقام.والآن أصبح مثّبتاً في ذهنك على نحو لا يمحى رقم ٤٢٦٨ . ولكنك تستطيع بالطبع أن تصل إلى النتيجة نفسها بطريقة أسهل حتى . . .

توقف الرقيب الأول عن التدخين ، وجحظت عيناه ولم يستطع سوى أن يقول :

— انزع الكبسولة !

استأنف شفيك قائلا بهدوء :

— ثم بدأ يشرح له الطريقة الأبسط في تذكر رقم القاطرة ٤٢٦٨أي ٨—٢=٦ . اذن لديه الآن الرقم ٦٨ . ثم ٦—٢=٤ . وهكذا أصبح لدينا الرقمان ٤ و٦٨، ولم يبصق سوى رقم ٢ الذي يتوجب إقحامه وهذا يعطينا : ٨ — ٦ — ٢ — ٤ . وليس صعباً أن تفعل ذلك أيضاً بطريقة اسهل أيضاً وذلك بواسطة الضرب والقسمة . وبهذه الطريقة يمكن الوصول إلى النتيجة نفسها أيضاً . قال ناظر المحطة : تذكر أن ضعف ٤٢ هو ٨٤ . السنة فيها ١٢ شهراً . حسنا اذن : اطرح رقم ١٢ من الرقم ٨٤ فيبق لديك ٧٢ . خذ منها الا١٢ شهراً يتبق لديك ٦٠ . نحن الآن واثقون من الرقم ٦ ولنحذ ف الصفر . والآن لدينا ٤٠ و ٦٨ و ٤٢ . بعد أن حذفنا الصفر نحذ ف أيضاً الا ٤ أخيراً فنحصل بكل سهولة على الرقم ٤٢٦٨ وهو رقم القاطرة التي يتوجب عليك أن تأخذها إلى المحطة في ليزاناد لابم وكما قلت لك فان الأمر سهل جداً بالتقسيم . نحن نحسب «المعامل» بواسطة التعرفة الجمركية . ألا تشعر أنك على ما يرام أيها الرقيب الأول ؟ إذا أردت أستطيع بسهولة أن أبدأ ربما بـ «جهزّ لاطلاق صلية ! لقم ! سدّد ! نار ! » أوه ، ياللجحيم ! ما كان يتوجب على النقيب أن يجعلنا نفعل ذلك في وهج الشمس . سأذهب لأحضر نقالة .

حين حضر الطبيب اكتشف أنها كانت حالة ضربة شمس أو التهاب حاد لغشاء الدماغ .

وحين استعاد الرقيب الأول الوعي كان شفيك واقفاً إلى جواره وقال له :

– سأنهي لك قصتي . هل تتصور أيها الرقيب الأول أن سائق القطار ذاك قد استطاع تذكر الأرقام؟ لقد خلطها كلها ببعضها وضربها برقم ثلاثة لأنه كان يتذكر «الثالوث المقدس» . ولذا فانه لم يستطع أن يجد تلك القاطرة اطلاقاً . وهي لا تزال واقفة هناك على الخط رقم ١٦ .

أغمض الرقيب الأول عينيه مرة أخرى .

وحين عاد شفيك إلى عربته وسئل عن سبب غيابه هذه الفترة الطويلة أجاب :

– ان على من يعلم شخصاً آخر تمرين « المزدوج » أن يكون هو نفسه قادراً على تأدية مئة «تنكب سلاحك». في مؤخرة العربة كان بالون يرتجف ، فخلال غياب شفيك وخلال طبخ جزء من اللدجاجة التهم هذا نصف حصة شفيك .

* * *

قبل رحيل القطار وصلت إلى المحطة قافلة عسكرية مختلطة فيها مختلف المفارز . وكان أولئك جنوداً تأخروا عن اللحاق بقوافلهم أو ناقهون خرجوا من المستشفيات وهم يحاولون اللحاق بمفارزهم ، أو أفراداً مشبوهون عائدين من واجبات خاصة أو من الاعتقال .

ومن بين أولئك الخارجين من هذا القطار كان المتطوّع لعام واحد «ماريك» الذي كان قد اتهم بالتمرد بسبب رفضه تنظيف المراحيض، ولكن محكمة الفرقة برأت ساحته ، وألغت الاجراءات ضده ، وها هو يدخل الآن إلى حافلة الضباط ليقدم نفسه لقائد الكتيبة . لم يكن هذا

المتطوع قد ألحق بأية وحدة حتى الآن فقد كان ينتقل باستمرار من اعتقال إلى آخر .

حين رآه النقيب ساغنر وأخذ منه الأوراق المتعلقة بوصوله وراجعها بصمت لمدة دقيقة ولاحظ ما كتب عليها : « مشبوه سياسياً . توخوا الحذر ! » لم يكن مسروراً بالضبط ، ولكنه تذكر لحسن الحظ جنرال المراحيض الذي سبق له وقدم توصية هامة بوجوب اضافة « مؤرخ كتيبة » إلى قوة الكتيبة .

قال له :

— أنت شديد التهاون أيها المتطوع لعام واحد . في مدرسة المتطوعين كنت شيطانا بكل ما في الكلمة من معنى وبدلاً عن محاولتك تحسين سلوكك والحصول على ترقية ، كما هو لائق بذكائك ، فقد رحت تنساق من اعتقال إلى اعتقال . يجب أن يكون الفوج خجلاً فعلاً من تصرفاتك أيها المتطوع . وعلى أية حال تستطيع أن تقوّم خطأك إذا نفذت واجباتك بالطريقة الصحيحة واحتللت مكانك مرة أخرى بين صفوف المحاربين الشجعان . كرس جهودك بحب لأجل الكتيبة . سأرى ما سأفعله بخصوصك. أنت شاب ذكي وتتمتع بموهبة الكتابة بأسلوب جيد . سأقول لك شيئاً . إن كل كتيبة على الجبهة في حاجة إلى رجل يستطيع أن يقوم بمسح يعتمد على التسلسل التاريخي لكل الحوادث الحربية التي تميز اداء الكتيبة في ساحات المعارك ، كل الحملات المنتصرة للكتيبة ، كل الاحداث الهامة والمجيدة التي تمر بها الكتيبة والتي تلعب فيها دوراً قائداً وبارزاً : يجب أن تُسجل بحيث تشكل تدريجياً مساهمة في تاريخ الجيش . هل تفهمني ؟

. — ابلغكم بتواضع ياسيدي أني أفهم ما تريده . أنها مسألة الحوادث الخاصة بحياة كل الواحدات . إن للكتيبة تاريخها . وعلى أساس تواريخ كتائبه فان الفوج يصنّف تاريخه الخاص . ثم تقوم الأفواج بصنع تاريخ اللواء والألوية تاريخ الفرقة وهكذا دواليك .سأبذل قصارى جهدي ياسيدي .

وهنا وضع ماريك يده على قلبه ثم استأنف الكلام فقال :

— سأدون بحب حقيقي أجمل ساعات كتيبتنا ، وخاصة في هذا الوقت بما أن الهجوم في أعلى وتائره ، وسوف تشتد المعارك وتقوم كتيبتنا بنثر جثث أبنائها الأبطال على ساحة المعارك . سأسجل بكل ضمير حيّ سير الحوادث التي ستجري حتى تكون صفحات تاريخ كتيبتنا مليئة بأكاليل الغار .

— ستكون ملحقاً بأركان الكتيبة أيها المتطوع . وسوف تدوّن بحرص أسماء كل الذين ينالون الثناء أو الأوسمة . كما ستسجل — وفقاً لتوجيهاتنا بالطبع — عليات التقدم التي ستقدم الأمثلة الناصعة على الروح الحربية والانضباط الحديدي لكتيبتنا . وهذه ليست بالمهمة السهلة على أية حال أيها المتطوع ، ولكني آمل أنك ستتمتع بما يكفي من موهبة الملاحظة حتى إذا استلمت مني توجيهات معينة ستكون قادراً على التسامي بكتيبتنا إلى درجة أعلى ممّا قد تصل اليه التشكيلات الأخرى . سأرسل برقية إلى الفوج بأني عيّنتك مؤرخاً للكتيبة . اذهب إلى رقيب أول الامدادات فانييك من السرية الحادية عشرة حتى يجد لك مكاناً في العربة. لازال هناك الكثير من الأمكنة الفارغة . وقل له أن يأتي ليقابلني . بالطبع

سيتم اضافة اسمك إلى لوائح الكتيبة . وسيتّم ذلك وفق أمر صادر عن الكتيبة .

* * *

كان الطباخ عالم القوى الخفية نائماً وبالون لا يزال يرتجف لأنه سبق له وفتح علبة سردين من علب الملازم الأول . كان فانيك قد ذهب لمقابلة النقيب ساغنر ، اما خودونسكي الذي وضع يده سراً على زجاجة «بوروفيتشكا» في المحطة ، فكان قد شربها كلها وقد راح يغني الآن بمزاج سوداوي :

«حين كنت لا أزال أرتكب الآثام في احلامي الجميلة ،

كان العالم كله يبدو حقيقيا ،

وكان الإيمان وحده يتنفس في صدري .

وبالحب كانت عيني تشعان أيضاً .

ولكني حين بدا العالم كله لي

مزيّفاً ككذبة يهوذا ،

وخباحبيّ وايماني ،

تعلمت البكاء للمرة الأولى . »

ثم نهض واقفاً وذهب إلى طاولة فانيك ، وكتب على قطعة من الورق بأحرف كبيرة :

« أطلب بتواضع تعييني وترقيتي إلى ضارب نفير الكتيبة .

خودونسكي ، عامل التلغراف » (١)

---

(١) هكذا وردت في النص الا نكليزي . (المترجم)

كان حوار النقيب ساغنر مع فانييك موجزاً ، إذ اقتصر على ابلاغ النقيب لفانييك بأن المتطوع ماريك مؤرخ الكتيبة سيركب العربة نفسها معه وهو وشفيك .

— كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن ماريك ذاك عبارة عن شخص مشبوه سياسياً . ياالهي ! ليس هذا بالأمر العظيم الأهمية في أيامنا هذا . ومن هو ذاك الشخص الذي لا يتحلى بمثل هذه السمعة اليوم ؟ هناك شبهات كثيرة متنوعة تماثل هذه الشبهة . وعلى أية حال ، فأنت تفهم ما أعنيه ، أليس كذلك ؟ أقول لك هذا حتى إذا صدف وقال شيئاً ما ، حسناً ، أنت تفهم ما أعينه ، فسوف تقرّعه حتى لا أعاني من أية مشاكل . قل له فحسب أن عليه أن يتوقف عن هذا النوع من الحديث وسيتوقف . لا أعني أن عليك أن تهرع إلي فوراً . حاول أن تنهي الموضوع بأسلوب ودي . إن حديثاً ودياً من ذاك النوع أفضل من تبليغ غبيّ . وباختصار : لا أريد أن أسمع أي شيء ، لأني . . . حسنا ، أنت تفهمني . . . أن أمراً كهذا ينعكس على الكتيبة كلها .

وهكذا حدث أنه حين عاد فانييك أخذ ماريك جانبا وقال له :

— أيها الصديق ، أنت شخص مشبوه ، ولكن لا أهمية لذلك . انتبه فحسب لما تقوله أمام عامل التلغراف في خودونسكي .

وما كاد ينهي كلامه حتى دخل خودونسكي وهو يتعثر وسقط بين ذراعي رقيب أول الامدادات ، كان يبكي بلهجة ثملة محاولا أن يغنيّ الأغنية التالية :

«حين تخلى العالم كله عنيّ
دفنت رأسي في صدرك .

وق قلبك الدافىء والنقي

أذرف دموعاً مريرة يائسة .

يتوهّج شعاع صغير في عينيك

كنجوم صغيرة تومض وتلتمع .

لقد سمعت همسة الشفاه المرجانية :

« لن أتركك أبداً . أنت لي . »

عوى خودونسكي :

— لن نترك واحدنا الآخر أبداً . وكل ما أسمعه على الهاتف سأحكيه لك فوراً . أبَرِّزُ على قسمي .

في الزاوية كان بالون يرسم على نفسه اشارة الصليب في هلع وهو يصلي بصوت مرتفع :

— يا أمّ الله ، لا تصمّي أذنيك عن صلواتي النابعة من كربي الشديد ، بل اصغي اليّ برحمة . واسيني بحبك ، ساعديني أنا الآثم البائس ، الذي يدعوك بايمان حيّ وأمل راسخ وحب متقدّ في وادي الدموع هذا . أيتها الملكة السماوية ، بشفاعتك ساعديني على السير في نعمة الله وتحت حمايتك حتى آخر أيام حياتي .

وقد قامت العذراء الرؤوم بحمايته بالفعل ، فقد قام المتطوع باخراج بضعة علب من السردين من حقيبته الهزيلة ووزعها علىالموجودين .

فتح بالون عن تصميم حقيبة الملازم الأول وأعاد اليها علبة السردين التي سقطت عليه من السماء .

ولكنه استلسم أمام الإغراء حين فتح الآخرون عليهم وراحوا يستمتعون بتناول السردين ، ففتح الحقيبة وأخرج علبة السردين والتهمها بنهم .

ثم أن العذراء الرؤوم الحنون أشاحت بوجهها عنه لأنه في تلك اللحظة بالذات التي كان يشرب فيها زيت السردين ظهر ماتوشيتش في مقدمة العربة وصاح :

— يا بالون ، اجلب السردين إلى الملازم الأول .

قال فانييك :

— والآن سيتورّم وجهك فعلا .

ونصحه شفيك قائلا :

— الأفضل لك ألاّ تذهب اليه خالي الوفاض . على الأقل خذ معك هذه العلب الخمس الفارغة .

قال المتطوع :

— ما الذي ارتكبته حتّى يعاقبك الله على هذا الشكل ؟ لا شك أنك ارتكبت اثماً عظيماً في حياتك سابقاً ، أليس كذلك ؟ أو لم ترتكب تدنيس المقدسات والتهمت فخذ الخنزير الخاص بقسيسك وهو يتدلّى من المدخنة ؟ أم هل شربت النبيذ المقدّس من قبوه ؟ أم هل سرقت الأجاص من بستانه حين كنت غلاماً ؟

ترنّح بالون مبتعداً وتعبير يائس مرتسم على وجهه ، تعبير ملؤه القنوط . كانت عبارته القلقة فصيحة على نحو يكسر القلب فقد قال :

— متى سينتهي هذا العذاب ؟

قال المتطوع حين سمع كلمات بالون التعيس الحظ :

— هذا بسبب فقدانك للتماس مع الرب صديقي . أنت لا تعرف كيف تصلي على نحو صحيح للرب حتى يبعدك عن هذا العالم بأسرع ما يمكن .

وأضاف شفيك على هذا ما يلي :

— لم يقرر بالون بعد أن يأتمن الله ذا القلب الأموي الرؤوم على حياته وعقليته العسكرية وكلماته وأفعاله وصوته العسكري ، كما قال قسيسي «كاتس» مرة حين ثمل واصطدم بأحد الجنود خطأ في الشارع .

أعول بالون قائلا إنه سبق له وفقد الايمان بالرب لأنه صلى له كثيراً حتى يعطيه القوة ويقلص له من حجم معدته على نحو ما أو آخر .

ثم تأوه قائلا :

— لم يبدأ الأمر مع الحرب ، فعلتي هذه قديمة ، أعني شهيتي الرهيبة هذه . وبسببها فان زوجتي وأطفالي اعتادوا الحج إلى«كلوكوتي».

قال شفيك :

— أعرف ذلك المكان . انه بالقرب من «تابور» ولديهم تمثال نفيس جداً للسيدة العذراء عليه ماسات مزيفة أراد قندلفت من مكان ما في سلوفاكيا أن يسرقها مرة . كان رجلا شديد الورع . حسنا ، لقد جاء إلى هناك وظن أنه قد يستطيع تحسين أحواله إذا استطاع التطهر من كل خطاياه القديمة . وهكذا دهب إلى الاعترا ف واعترف بين أمور أخرى بأنه كان يريد أن يسرق تمثال العذراء في اليوم التالي . وما كان ينهي الثلاثمئة صلاة «أبانا الذي» التي طلب منه القسيس أن يتلوها حتى لا يهرب في تلك الأثناء ، حتى كان القندلفتية قد اقتادوه إلى مخفر الدرك .

بدأ الطباخ عالم القوى الخفية يختلف مع خودونسكي حول إذا ما كان في ذلك نقضاً لسر الاعترا ف الذي يصل إلى السماء العليا مباشرة أو إن كان أمراً لا يستحق الذكر حيث أنها مسألة سرقة ماسات مزيفة . وفي النهاية أثبت لخودونسكي أن القضية عبارة من « كارما » (١) ، أي بكلمات أخرى عبارة عن أمر سبق أن رسمه القضاء والقدر منذ زمن بعيد مجهول حين كان هذا القندلفت مجرد حيوان رخوي على كوكب آخر . كما أنه سبق له وتقرّر منذ زمن طويل حين كان ذلك القسيس من «كلوكوتي » لا يزال «نضناضا» (٢) أو نوعاً آخر من الحيوانات ذات الجراب ، والتي انقرضت الآن ، وأنه لا شك سيقوم بنقض سر الاعترا ف حتى لو كان الغفران من وجهة النظر القانونية ممكناً منحه وفقاً لقوانين الكنيسة ولو كان الأمر يخص أملاك الكنيسة .

وأضاف شفيك هذه الملاحظة البسيطة :

— عجبا ، بالطبع ليس هناك من يعرف ما سيحل به خلال بضعة ملايين من السنين وليس عليه أن يحث الارادة الإلهية . حين كنا لا نزال نخدم في كارلين في قيادة الاحتياطي ، كان الملازم الأول «كفانيشكا» يقول لنا دائماً حين يدربنا : « لا تتخيلوا يا آكلي الروث ، أيتها البهائم والخنازير المتبطلة أن الخدمة العسكرية ستنتهي في هذه الدينا . ستتقابل مرة أخرى بعد الموت ، وسأحضر لكم « مطهراً» (٣) يجعلكم تجنّون تماماً أيتها الحثالة أيها الأنغال ! » .

---

(١) karma العاقبة الأخلاقية الكاملة لأعمال المرء لطور من أطوار الوجود بوصفها العامل الذي يقرر قدر ذلك المرء في طور تناسخي تال (في الاعتقاد البوذي) (المترجم)

(٢) قنفذ النمل . (المترجم)

(٣) عند النصارى المكان الذي تطهر فيه نفوس الابرار بعد الموت بعذاب محدد الأجل . (المترجم)

في هذه الأثناء كان بالون لا يزال يفكر في يأسه المطلق فهم لا يتحدثون إلاّ عنه وكأن لكل شيء علاقة به ، فراح يستأنف اعترافه العلني :

— ولا حتّى «كلوكوتي» عالجت نهمي الجامح . وبعد أن عادت زوجتي وأطفالي من الحج بدؤوا بعدّ الدجاجات . كانت واحدة أو اثنتان منهما مفقودتين . ولكني لم أستطع أن أغالب نفسي . كنت أعرف أننا في حاجة اليهما في المنزل لأجل بيضهما ، ولكني خرجت ونظرت اليهما وأحسست بفراغ مؤلم في معدتي . بعد ساعة كنت في حالة جيدّة مرة أخرى ، ولكن احدى الدجاجتين كانت قد نهشت فلم يتبق منها سوى العظام . ومرة حين ذهبوا إلى كلوكوتي حتّى يصلّوا لأجل ألا يلتهم بابا أي شيء خلال غيابهم ويسببّ في اضرار جديدة ، تمشيت في الفناء ووقعت عيني على ديك رومي . وكان يمكن لذلك أن يفقدني حياتي بكل سهولة . فقد علقت عظمة فخذه في حلقي ولولا الجعة ، والغلام الذي يتدرّب لدّي والذي استطاع أن يخرج العظمة ، لما كنت جالساً معكم هنا الآن ، ولما عشت لأرى الحرب العالمية . أجل ، أجل كان ذلك المتدرّب ولداً ذكياً . كان صبياً صغير الجسم ممتلئه ، قصيراً وبديناً ، جيد التغذية . . .

اقترب شفيك من بالون وقال له :

— أرني لسانك !

أخرج بالون لسانه لشفيك الذي التفت نحو جميع من كانوا في العربة وقال :

— عرفت ذلك . لقد ابتلع حتّى متدربّه ذاك . اعترف ، متى فعلت ذلك ؟ مرة حين كانت زوجتك وأطفالك في كلوكوتي ، أليس كذلك ؟

فرك بالون يديه وصاح :

— دعوني بحالي أيها الأصدقاء ! تصوّروا أنه فوق كل ما حدث فاني ألاقي مثل هذا من رفاقي بالذات .

قال المتطوع :

— نحن لا ندينك بسبب ذلك ، بل العكس هو الصحيح ، فانت ستكون جندياً ممتازاً جداً . حين حاصر الفرنسيون مدريد خلال الحروب النابو ليونية،أكل القائدالاسباني لقلعة مدريد معاونه الخاص دون ملْح مفضّلاً ذلك على الموت جوعاً فيضطر بالتالي إلى تسليم القلعة . وقد كانت تلك تضحية حقيقية ، لأن المعاون المملّح كان أكثر قابلية للهضم دون شك . قل لي يارقيب أول الامدادات ما هو اسم معاون الكتيبة ؟ « تسيغلر» ؟ انه شخص هزيل إلى حد أنك لن تستطيع أن تقتطع منه من اللحم ما يكفي لسرية متقدمة واحدة .

قال فانييك :

— انظروا ، بالون يحمل سبّحة بين يديه .

وفعلا كان بالون في حزنه اللامتناهي ينشد الخلاص في الخرزات الصغيرة للسبّحة المصنوعة من قبل شركة «موريتس لوفنشتاين » في فيينا .

قال بالون بحزن :

— إنها من كلوكوتي . قبل أن يجلبوها لي كنت قد التهمت فرخي إوزة،ولكن لم يكن فيهما من اللحم شيء.مجرد شيء طري لا شكل له.

بعد فترة قصيرة وصل الأمر بوجوب رحيل القطار خلال ربع ساعة

ولأن أحداً لم يصدقه ، فقد حدث رغم كل الاحتياطات أن ذهب بعض الرجال ليتجوّلو' . وحين انطلق القطار كان ثمانية عشر رجلا في عداد المفقودين بمن فيهم الرقيب الأول ناساكاو من السرية المتقدمة الثانية عشرة . وبعد أن اختفى القطار بفترة طويلة إلى ما خلف ايساتارشا ، كان هذا لا يزال يساوم إحدى المومسات في حفرة ضحلة في بستان صغير من شجر الأكاسيا خلف المحطة . كانت تطالبه بخمسة كراونات ، بينما كان يعرض عليها بقاء الخدمة التي سبق لها وأدتها له اما كراوناً واحداً أو بضع صفعات على الوجه . وفي النهاية تم الوصول إلى اتفاق لصالح الاقتراح الأخير وقد نفذ الرقيب الأول الاتفاق بقوة هائلة إلى حد أن الناس الذين سمعوا صراخ السيدة بدؤوا يهرعون اليهما من المحطة .

* * *

الفصل الثالث

من هاتفان ونحو الحدود الغاليسية

جرت طوال رحلة الكتيبة بالقطار ، والتي كان من المتوقّع لها أن تحصد المجد حين تتقدم من «لابورتسه» عبر غاليسيا الشرقية إلى الجبهة ، حوارات غريبة بل وخيانية تقريباً ، وذلك في العربة التي كان يسافر فيها كل من المتطوع وشفيك . وكان هذا الشيء نفسه يجري في العربات الأخرى أيضاً ، رغم أنه كان أخف حدة هناك . وحتى في حافلة الضباط كان الاستياء سائداً ، فقد وصل أمر في «فوز يسابوني » من الفوج يفيد بتخفيض حصة النبيذ لكل ضابط بنسبة $\frac{1}{8}$ ليتر . وبالطبع لم يغفلوا الجنود من هذا فقد تم تخفيض حصتهم من «الساغو» (١) بنسبة «ديكا» واحد لكل رأس ، وقد كان هذا الأمر أشد غرابة لأنه لم يسبق لأي شخص أن رأى الساغو في الجيش اطلاقاً .

ومع ذلك كان لابد من تبليغ الأمر إلى رقيب أول الامدادات باوتانزل ، وأحس هذا بالاهانة الشديدة وبأنّه قد خدع ، وقد عبرّ عن ذلك بأن قال ان الساغو سلعة نادرة اليوم وأنه كان يستطيع أن يحصل على ثمانية كراونات لقاء كل كيلو غرام من الساغو .

---

(١) الساغو : دقيق نشوي يعد من لب نخل الساغو . (المترجم)

وفي فوز يسابوني علم أن أحدى السرايا قد فقدت مطبخها الميداني لأن الغولاش والبطاطا التي أكد عليها «جنرال المراحيض» إلى ذلك الحد كانا سيطبخان أخيراً في هذه المحطة بالذات . وقد كشفت التحقيقات أن المطبخ الميداني البائس لم يغادر بروك مع بقية القافلة وربما لا يزال حتى يومنا هذا في مكان ما خلف الحظيرة رقم ١٨٦ ، مهجوراً وبارداً .

قبل يوم واحد من الرحيل سُجن جماعة المطبخ الميداني المفقود في المحرس بسبب سلوكهم الصاخب جداً في المدينة وقد استطاع هؤلاء ترتيب موضوع بقائهم محجوزين هناك حتى أصبحت سريتهم المتقدمة في طريقها عبر هنغاريا .

لذلك أحيلت السرية التي بقيت دون مطبخ إلى مطبخ ميداني آخر ، وهذا لم يتم دون شجار بالطبع ، فقد حدث خلاف بين الرجال الذين وقعت عليهم القرعة من السريتين لتقشير البطاطا ، إذ أكّد رجال إحدى السريتين للآخرين أنهم ليسوا حمقى لعينين إلى حد أن يرهقوا أنفسهم في سبيل غيرهم . وأخيراً تبيّن أن طبخ الغولاش والبطاطا لم يكن أكثر من مناورة تدريبية حتى يعتاد الرجال تدريجياً على احتمال أن يصدر فجأة الأمر بالتراجع العام حين يكون الغولاش قيد الطبخ في ميدان المعركة وفي مواجهة العدو ، وعندها يجب أن يرمى الغولاش على الأرض دون أن يحصل أحد على لعقة واحدة منه .

إذاً كان هذا نوعاً من التدريب ، دون أن يكون مأساوياً في نتائجه ، ولكنه كان تعليمياً جداً على أية حال ، ففي تلك اللحظة التي كان من المتوقع فيها توزيع الغولاش وصل الأمر بأن يصعد الجميع إلى عرباتهم ، وانطلق القطار نحو «ميسكولتس» . ولكن حتى هناك لم يتم

توزيع أي غولاش ، لأن قطاراً بعربات روسية كان متوقفاً على السكة هناك . وهكذا لم يسمح للرجال بالخروج من العربات وسرعان ما بدأت مخيلتهم تنشط : لن يتم توزيع الغولاش إلا حين يصل القطار إلى غاليسيا حيث سيعلن أنه أصبح حامضاً وغير مناسب للاستهلاك وسيرمى به بعيداً بالتالي .

وهكذا أخذوا الغولاش حتى « تيتسالوك » و« سامبور »، وحين لم يعد هناك من يتوقع أي غولاش توقف القطار في « ساتوراليا أويهيلي » حيث أوقدت النيران من جديد تحت القدور وأعيد تسخين الغولاش وتم توزيعه أخيراً .

كانت المحطة مزدحمة . وكان من المفروض إرسال قطاري ذخيرة أولاً وبعد ذلك قطاري مدفعية وقطاراً يحمل مفارز سلاح إنشاء الجسور العائمه . كان يصح القول وبكل تأكيد أنه في هذه المحطة تتجمع كل القوات من كل وحدة ممكنة من الجيش .

خلف المحطة كان فرسان الهونفيد الهنغاريون يذيقون يهوديين بولنديين الجحيم بعد أن سرقوا لهما سلة المشروبات الروحية. كان هؤلاء في حالة من النشوة ، وبدلا عن أن يدفعوا ثمن ما شربوا كانوا يضربون اليهوديين . ويبدو أن هذا كان مسموحاً به لأن نقيبهم كان واقفاً إلى القرب من هذا المشهد وهو يبتسم بود له ، بينما كان بعض الفرسان الهنغاريين الآخرين يدسون أيديهم خلف المستودع تحت تنانير بنات سوداوات العيون ، هن بنات هذين اليهوديين .

وكان هناك أيضاً قطار يحمل مفرزة من سلاح الطيران . وعلى الخطوط الأخرى كانت تقف مقطورات عليها أشياء مشابهة ، كالطائرات

والمدافع ولكنها مدمرة تماماً . كانت تلك طائرات تم اسقاطها ومدافع هاوتزر دمرّت سبطاناتها . وهكذا،وبينما كان كل ما هو جديد ولامع يتجه إلى الجبهة ، كانت بقايا المجد هذه تعود إلى القاعدة للاصلاح والترميم .

وكان الملازم الأول دوب يشرح لكل أولئك الجنود الذين كانوا يزدحمون حول المدافع والطائرات المحطمة أن هذه كانت غنائم حرب . ولم يفته أن يلاحظ أن شفيك كان واقفاً مرة أخرى بين مجموعة من الجنود إلى القرب منه وهو يروي شيئاً ما . وهكذا سار إلى حيث يقف شفيك واستطاع أن يسمع صوت شفيك الحذر ويقول :

— مهما يكن ما ترونه فانه على أية حال غنيمة حربية . لدى المشاهدة الأولى يبدو الأمر خادعاً بعض الشيء وذلك حين تقرأ على عربة المدفع : « فرقة المدفعية الامبراطورية والملكية » ، ولكن ربما كان الأمر على هذا المنوال : سقط المدفع بين أيدي الروس وكان علينا استعادته مرة أخرى . ان الغنيمة من هذا النوع أثمن بكثير لأن . . .

ثم استأنف برزانة حين لاحظ وجود الملازم الأول دوب :

— لأنه لا يتوجب أن يترك أي شيء بين أيدي الأعداء . وهذا أشبه بما حدث في «برزيميسل» أو ما حدث لذلك الجندي الذي انتزعت منه «مطرته» خلال أحد الاشتبكات أيام الحروب النابوليونية . وقد ذهب ذلك الجندي ليلا وتسلل إلى معسكر العدو واستعاد «مطرته» ثانية . وكان في الأمر ما يستحق المخاطرة فقد كان جنود العدو قد استلموا في تلك الليلة حصصهم من المشروبات الروحية .

لم يقل الملازم الأول دوب سوى ما يلي :

— فليكن كلامك أقل ياشفيك وحاول ألا أجدك هنا ثانية .

— كما تأمر ياسيدي .

ثم ابتعد شفيك نحو مجموعة أخرى من العربات ، ولو سمع الملازم الأول دوب ما قاله لاحقاً لكان سيقفز من برته ، رغم أنه كان كلاماً بريئاً مقتبساً من الكتاب المقدس : « انها فترة قصيرة ولن تروني ، ثم فترة قصيرة أخرى وستروني . »

بعد أن ابتعد شفيك كان الملازم الأول دوب غبياً ، فوق ذلك كله ، إلى درجة أنه لفت الانتباه إلى حطام طائرة نمساوية ساقطة خُطّت عليها بكل وضوح عبارة « فينر نيوشتات (١) على حلقتها المعدنية ، وقال :

— لقد أسقطنا هذه الطائرة الروسية في « لفوف » .

ولقد سمع كلماته هذه الملازم الأول لوكاش فاقترب وقال بصوت عال :

— وخلال هذه العملية احترق كلا الطيارين الروسيين حتى الموت.

ثم ابتعد دون كلمة أخرى وهو يفكر في نفسه بأن الملازم الأول دوب ثور برخصة . خلف العربة الأخرى التقى لوكاش بشفيك وحاول تجنّبه ، لأنه كان واضحاً من تعابير شفيك أن الرجل يحمل الكثير مما يريد الافضاء به .

سار شفيك مباشرة نحوه وقال :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أن جندي ارتباط السرية شفيك يسألكم

---

(١) Wiener Neustadt

إن كانت هناك أوامر أخرى . أبلغكم بتواضع ياسيدي أنه سبق لي وبحثت عنكم في حافلة الضباط .

قال الملازم الأول لوكاش بلهجة كلها ازدراء وعداء :

— اسمع ياشفيك ، هل تعرف ما هو اسمك ؟ هل نسيت الاسم الذي أطلقته عليك ؟

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أني لم أنس شيئاً كهذا لأني لست المتطوع « جيليزني » . قبل الحرب بفترة طويلة حين كنا في ثكنة« كارلين» وكان لدينا عقيد اسمه «فليدلر فون بوميرانغ » أو شيء من هذا القبيل على وزن « رانغ » .

هذا ، ورغماً ، عنه ، لم يستطع الملازم الأول لوكاش الا أن يبتسم لدى سماعه عبارة « على وزن رانغ » ، واستأنف شفيك كلامه قائلا :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أن عقيدنا كان لا يصل إلى نصف ارتفاعكم . وكانت له لحية أشبه بلحية « الأمير لوبكوفيتس » ، لذا فقد كان يبدو كالقرد ، وحين كان يغضب كان يقفز إلى ارتفاع يعادل ضعفي طوله ، لذلك اسميناه «مستحاثة المطاط الهندي » . وقد حدث أن كان الوقت هو الأول من أيار وكنا في حالة تأهب . وفي المساء السابق في ساحة الاجتماع ألقى علينا خطابا عظيماً وأفادنا بأن علينا جميعاً التواجد في الثكنة في اليوم التالي وألا نغادرها ولو خطوة واحدة ، حتى إذا ما صدرت الأوامر العليا نقوم بإطلاق النار على كل تلك الحثالة من الاشتراكيين . ولذا فان أي جندي غائب في اجازة طويلة يمدّد اجازته حتى اليوم التالي بدل العودة إلى الثكنة سيتّهم بالخيانة العظمى ، لأن

النغل السكّير من هذا النوع لن يكون قادراً على إصابة أي رجل لدى صدور الأوامر بإطلاق النار ، بل ستذهب طلقاته في الهواء . وهكذا عاد المتطوع جيليزني إلى غرفته وقال إن «مستحاثة المطاط الهندي » قد أعطاه فكرة جيده على أية حال . وقد كان ذلك صحيحاً تماماً كما ترى : ففي اليوم التالي لم يسمحوا لأي فرد أن يدخل الثكنة ولذا كان من الأفضل عدم الحضور نهائياً ، كما أبلغكم بتواضع ياسيدي ، وهذا ما فعله ذلك الشخص الذكي وباستمتاع شديد . ولكن العقيد فليدلر ذاك كان خنزيراً قذراً إلى حد كبير ، أعاننا الله ، بحيث أنه تجول في كل انحاء براغ وهو يبحث عن أي شخص من فوجنا تجرّأ فغادر الثكنة.وفي مكان ما قرب «برج البارود»كان من حظه أن اجتمع بجيليزني ذاك وانقض عليه فوراً وهو يقول : « لأذيقنّك الجحيم ! سألقنك درساً لن تنساه ! سأطعمها لك ساخنة جداً ! » وقد تلفظ بأشياء كثيرة أخرى من هذا القبيل ثم جرّه إلى الثكنة . وخلال الطريق كله كان يهدده بكل أنواع التهديدات البشعة وهو يسأله عن اسمه باستمرار . « جيليزني ، جيليزني ، ستعملها في ملابسك لقاء هذا . أنا سعيد لأني أمسكت بك . سأعلمك ما هو الأول من ايار ! ياجيليزني ، ياجيليزني ، لقد أمسكت بك الآن ، سأرمي بك في السجن أجل ، في سجن جميل . » ولكن جيليزني لم يكترث اطلاقاً . وعندما ساروا على طول شارع «بورجيتس» عبر « أو روزفارجيلو » قفز جيليزني إلى مدخل أحد الأبنية وهرب عبر احدى الممرات وحرم «مستحاثة المطاط الهندي » من استمتاعه الهائل برميه في السجن . كان العقيد غاضباً من فراره إلى حد أنه نسي لشدة غضبه اسم مرتكب المخالفة هذا ، ولم يعد يستطيع تذكّره على النحو الصحيح ، وحين عاد إلى الثكنة بدأ يقفز حتى السقف . كان السقف منخفضاً وقد دهش الضابط

المناوب أشد الدهشة من أن « المستحاثة » العجوز بدأ يتحدث بالتشيكية « المكسّرة» ويصرخ قائلا : «ضعوا » ميديبيني « في السجن ! لا تضعوا «ميديبيني » في السجن ! ضعوا «أولو فيبيني » في السجن ! ضعوا « تسينوفي » في السجن ! » (١) بل انه دعا كل الفوج إلى الاجتماع ، ولكن جيليزني الذي كان يعرف الجميع حكايته كان قد أحيل إلى القسم الطبي كونه طبيب أسنان ، ثم حدث في أحد الأيام أن طعن رجل من فوجنا جنديا من سلاح الفرسان كان يطارد فتاة من حانة « أو بو كو » وهكذا اجتمع الفوج على هيئة مربع وكان على كل فرد أن يأتي إلى ساحة الاستعراض حتّى المرضى ، أما المرضى جداً فكان على شخصين أن يحملاهم إلى الساحة . إذن لم يكن هناك مجال للهروب : كان على جيليزني أن يأتي إلى الساحة ، وقد تُلي علينا الأمر الصادر عن قائد الفوج والقائل أن جنود سلاح الفرسان هم جنود أيضاً وأنه محظور طعنهم لأنهم « رفاقنا في السلاح » . وقد ترجم أحد المتطوعين لعام واحد هذا الأمر وراح العقيد يحملق فينا كالنمر . في البداية ذهب إلى الصف الأول تم إلى المؤخرة ثم دار حول المربع كله ، ثم اكتشف جيليزني فجأة ، فقد كان ذاك رجلا هائل الحجم ياسيدي إلى حد أن الأمر كان مضحكاً جداً حين أحضر إلى منتصف الساحة . توقف المتطوع عن الترجمة وبدأ عقيدنا يقفز أمام جيليزني كأنه كلب يقفز على حصان ويزمجر طوال الوقت قائلا : « لا يمكنك أن تهرب مني الآن . لا يمكنك الهروب إلى أي مكان . والآن أقول مرة إنك جيليزني . لقد قلت إنك

---

(١) « جيليزني » تعني بالتشكية : « حديد » ، و « ميديبيني » : « النحاس » ، و « أولوفيبيني » : « الرصاص » و « تسينوفي » : القصدير . لم يكن العقيد قادراً على تذكر الاسم الصحيح . (س . ب)

«ميديبني » و «تسينوفي » «وأولو فييني » . ولكنك جيليزني ، النغل اللعين جيليزني . سأعطيك أولو فييني وتسينوفي وميديبيني أيها النغل ، أيها الخنزير أيها الجيليزني ! » ثم حكم عليه بالسجن لأربعة أسابيع وبعد أسبوعين من ذلك اليوم أصيب بألم في ضرسه فتذكر أن جيليزني كان طبيب أسنان . ولذا أمر باحضاره إليه من السجن إلى القسم الطبي حتى تخلع له ضرسه . وقد استغرق خلع الضرس حوالي نصف ساعة بحيث اضطروا إلى تطهير فم « المستحاثة » العجوز حوالي ثلاث مرات ، ولكنه تدجن بطريقة ما أو بأخرى وعفا جيليزني من قضاء أسبوعين أخرين في السجن . هذا هو ما يحدث ياسيدي حين ينسى ضابط ذو رتبة اسم مرؤوسه . ولكن على المرؤوس ألا ينسى أبداً اسم رئيسه ، كما كان يقول لنا هذا العقيد نفسه . كان يقول اننا لن ننسى طوال حياتنا أنه كان لدينا مرة عقيد اسمه فليدلر . أو لم تكن تلك القصة أطول ربما من اللازم ياسيدي ؟

أجابه الملازم الأول لوكاش :

– أتعرف ياشفيك أني كلما أصغيت اليك كلما اقتنعت أنك لا تحترم ضباطك اطلاقاً . يجب على الجندي ألا يتحدث الا حديثاً طيباً عن رؤوسائه حتى لو كان ذلك بعد مرور سنوات طويلة .

كان يبدو على الملازم الأول لوكاش وكأنه قد بدأ يستمتع على ما يبدو بالحديث إلى شفيك .

قال شفيك بلهجة اعتذارية :

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أن العقيد فليدلر قد مات منذ فترة طويلة ، ولكن إذا أردت ياسيدي فاني مستعد أن أمدحه وأقرّظه . لقد

كان ملاكاً بكل معنى الكلمة مع جنوده ياسيدي . كان طيباً مثل القديس مارتين الذي كان من عادته اهداء الأوز إلى المحتاجين والجائعين في يوم عيده (١) ، كما كان يقتسم عشاءه الذي يأتيه من مطعم الضباط مع أول جندي يقابله في الساحة ، وحين كان يتعب من أكل «الشيشبرك» كان يأمر بأن توزّع علينا البطاطا المسلوقة والمعكرونة المقلية بالزبدة والبصل المحمص مع لحم الخنزير . ولكنه كان يظهر كرمه الحقيقي خلال المناورات ، فحين وصلنا إلى «دولني كرالوفيتسه» أمر بأن يتم شرب كل ما يحتويه معمل الجعة هناك على نفقته الخاصة ، وحين كان يحتفل بعيد ميلاده كان يقدم إلى الفوج كله الأرنب المشوي مع مرق القشدة والشيشبرك . كان طيباً جداً مع رجاله إلى درجة أنه قام مرة ياسيدي . . .

ربت الملازم الأول لوكاش على أذن شفيك بلطف وقال بلهجة ودية :

ـ حسنا ، يكفي الآن أيها النغل . يكفي ما قلته عنه .

قال شفيك :

ـ حسنا ياسيدي !

ثم سار نحو عربته . في هذه الأثناء وأمام قطار الكتيبة حيث كانت معدات الهاتف والأسلاك موضوعة في احدى العربات ومقفلاً عليها ، جرى المشهد التالي : كان خفير يقف هناك حيث نصّت أوامر النقيب ساغنر على وضع كل شيء قيد الاستنفار الميداني . وبناء عليه وضع

---

(١) يأتي عيد القديس مارتين في اليوم الحادي عشر من تشرين الثاني نوفمبر من كل عام . (المترجم)

الخفراء على كلا جانبي القطار وفقاً لقيمة الحمولة وكانت كلمة السر توزع من قبل ديوان الكتيبة .

في ذلك اليوم بالذات كان الجزء الأول من كلمة السر « قلعة » والثاني « هاتفان» . وكان على الخفير الواقف عند العربة حيث وضعت الهواتف والذي كان عليه أن يتذكر كلمة السر بولنديا من« كولومييه» والذي حدث بصدفة عجيبة أن ألحق بالفوج الواحد والتسعين .

وبالطبع لم يستطع أن يعرف ما هي «القلعة» ولكن بسبب أنه كان يعرف شيئاً بسيطاً عن فن الاستذكار فقد استطاع أن يتذكر أن الكلمة تبدأ بحرف «ق» وحين وصل اليه الملازم الأول دوب ، وكان ضابطا مناوباً ليلتها ، وسأله عن كلمة السر لذلك اليوم أجاب بافتخار «قهوة» وبالطبع كان هذا أمراً بديهياً ، لأن البولنديا من « كولومييه » ما كان يمكن أن ينسى قهوة الصباح والمساء في معسكر «بروك» .

وحين صاح : «قهوة» مرة أخرى واقترب منه الملازم الأول دوب أكثر فأكثر تذكر قسمه وأنه كان يقوم بالخفارة فصاح بلهجة تهديدية : « قف ! » ، وحين خطا الملازم الأول دوب خطوتين أخريين باتجاهه وهو لايزال يريد منه أن يقول كلمة السر ، سدد الخفير بندقيته باتجاهه وبما أنه كان يعرف الألمانيه على نحو ركيك فقد صاح بمزيج عجيب من البولندية والألمانية : « سأبرِّز سأبرِّز . » وذلك بدلا عن أن يقول : « سأطلق النار . سأطلق النار .»

فهم الملازم الأول دوب وبدأ يبتعد وهو ينادي : « يارئيس الحرس يارئيس الحرس .»

عندها ظهر الرقيب «يلينيك » ، وهو الذي كان قد صحب البولندي

إلى مركز خفارته ، وسأله عن كلمة السر . وقد سأله الملازم الأول السؤال نفسه فأجاب البولندي اليائس على هذه الأسئلة بهدير سمع في كل أنحاء المحطة : « قهوة ، قهوة » . كان هناك الكثير من القوافل وبدأ الرجال يقفزون من عرباتهم حاملين أوعيتهم المعدنية وانتشرت فوضى هائلة انتهت بتجريد الغفير من سلاحه وارساله إلى عربة الاعتقال .

ولكن الملازم الأول دوب كان لا يزال يحمل بعض الشكوك تجاه شفيك ، وذلك حين لاحظ أنه كان أول من قفز من عربته حاملا وعاءه المعدني . وكان مستعداً أن يراهن بحياته أنه سمع شفيك يصرخ : «الكل خارجاً مع أوعيتهم ، الكل خارجاً مع أوعيتهم » .

وبعد منتصف الليل تحرك القطار نحو «لادوفيتسه » و « تربيشوف» حيث استقبل صباحاً عند المحطة من قبل جمعية المحاربين القدماء الهنغاريين الذين خلطوا بين هذه الكتيبة المتقدمة وكتيبة أخرى متقدمة من الفوج الرابع عشر من الهونفيد ، والتي سبق لها أن مرّت من المحطة خلال الليل . كان من الواضح أن المحاربين القدماء كانوا ثملين وقد أيقظوا ركاب القطار جميعاً بموائهم التزوي وهم يصيحون بالهنغارية : « حمى الله الملك» . ولكن قلة من الأفراد الأشد وعياً من الناحية الوطنية تدلّوا من العربات وأجابوهم : « تعالوا وقبلّوا مؤخراتنا . مرحبا ! »

عندها هدر المحاربون القدماء على نحو جعل النوافذ تهتز وهم يقولون : « مرحبا بالفوج الرابع عشر » .

بعد خمسة دقائق استأنف القطار سيره نحو « هومينيه » . وهنا كان ممكناً مشاهدة الآثار الواضحة التي خلّفتها المعارك حين تقدم الروس إلى وادي نهر «تيسا». كانت هناك خنادق بدائية تمتد على طوال المنحدرات ،

وكان ممكناً رؤية مزرعة محترقة هنا وهناك ، كما كان كوخ جديد بني على عجل يدّل على أن المالكين الأصليين قد عادوا مجدّداً .

وحين وصلوا لاحقاً إلى «هومينيه» في موعد الغداء تقريباً ، كانت المحطة تعاني من آثار القتال على نحو مشابه ، وقد جرى التحضير الآن لوجبة الغداء ووكان بإمكان الجنود أن يطلعوا على الأسرار وأن يلاحظوا كيف كانت السلطات تعامل السكان المحليين بعد رحيل الجيش الروسي الذي يشاطره هؤلاء السكان اللّغة والمذهب .

وعلى رصيف المحطة كانت مجموعة من « الروثينيين » (١) الهنغاريين المعتقلين محاطة بالدرك الهنغاري . كانت هذه المجموعة تضم قساوسة ومعلمين وفلاحين من كل أنحاء هذه المنطقة ، وكان كل اثنين منهم موثقين بالحبال معاً وأيديهما خلف ظهورهما ، كما كانت آثار الضرب بادية على أنوفهم ورؤوسهم حيث كان رجال الدرك قد عاجلوهم بالضرب بعد الاعتقال مباشرة .

وعلى مسافة أبعد قليلا كان دركي هنغاري يتسلى بأحد القساوسة اذ ربط قدمه اليسرى بحبل وأمسك بالحبل بيده وراح يجبره بعقب بندقيته على رقص « التشارداش »(٢) . ثم راح يشد الحبل بقوة حتّى جعل القسيس يسقط على أنفه ، وبما أن القسيس كان موثق الذراعين إلى الخلف فلم يكن قادراً على النهوض بل يحاول بيأس أن ينقلب على ظهره ، أو ربما أن ينهض من على الأرض . كان الدركي يضحك من كل قلبه وإلى

---

(١) وهو الاسم الذي كان يطلق على الأوكرانيين من سكان الامبراطورية النمساوية - الهنغارية . (المترجم)

(٢) وهي رقصة وطنية هنغارية . (المترجم)

حد أن الدموع جرت من عينيه ، وحين حاول القسيس أن ينهض شدّ الدركي الحبل بقوة مرة أخرى فسقط القسيس مرة أخرى على أنفه .

وأخيراً وضع ضابط الدرك حداً لذلك كله وأمر بأن يؤخذ الأسرى إلى مخزن حبوب فارغ خلف المحطة ريثما يمر القطار . كان من الواجب أن يجري ضربهم وجلدهم دون أن يرى أحد ذلك .

وكانت هذه الحادثة موضوعاً للحديث في حافلة الضباط ، وقد أدانها معظمهم .

قال الملازم كراوس انه يتوجب شنقهم فوراً إن كانوا خونة دون المزيد من المعاملة السيئة . أما الملازم الأوّل دوب فكان من ناحية أخرى موافقاً تماماً على المشهد كله وحوّل موضوع الحديث مباشرة إلى حادثة الاغتيال في سارايیفو ، وعللّ تصرف رجال الدرك الهنغاريين في محطة هومينيه بأنه انتقام لموت الأرشدوق فرانتس فرديناند وزوجته . وحتّى يدعم كلامه قال أنه كان مشتركاً في مجلة « شيماتشيك» (النّفل ذو الأوراق الأربعة) وأنه سبق له وقرأ قبل الحرب في عدد تموز (يوليو) حين كتبت هذه المجلة عن هذا الاغتيال أن الجريمة التّي لا مثيل لها والتّي حدثت في سارايیفو قد تركت جرحاً من قلوب الناس سيبقى دامياً لفترة طويلة . وهذا الجرح كان أشد إيلاماً لأن الجريمة تسببّت في موت ليس ممثل السلطة التنفيذية للدولة فحسب بل وزوجته المخلصة المحبوبة أيضاً . وهكذا حدث أن تحطمت بتدمير حياة هذين الشخصين حياة عائلة نموذجية ، وتحوّل أطفال محبوبون من الجميع إلى أيتام .

ولم يقل الملازم الأول لوكاش شيئاً عدا أنه همهم لنفسه بأن رجال الدرك في هومينيه هنا كانوا مشتركين أيضاً في مجلة « شيماتشيك »

تلك واطلعوا على مقالتها المؤثرة . وفجأة بدأ هذا كله يثير لديه الغثيان ولم يشعر سوى بالحافز إلى أن يسكر حتى يتخلص من تشاؤمه تجاه حالة الكون فخرج من الحافلة وذهب يبحث عن شفيك .

قال له :

– اسمع ياشفياك، هل تعرف أين يمكن أن أجد زجاجة كونياك ؟ لا أشعر أني على ما يرام .

– ابلغكم بتواضع ياسيدي أنه من تغيير الطقس لا شك . ربما ستشعر بأنك أسوأ حالاً حتى حين نصل إلى ميدان المعركة . فكلما ابتعد المرء عن قاعدته العسكرية الأصلية كلما أحس أنه أوهى قوة . لقد غادر بستاني من « سترا شنيتسه » واسمه «يوسيف كالندا » بيته مرة بالطريقة نفسها ، فقد ذهب من سترا شنيتسه إلى فينوهرادي (١) ومرّ على حانة اسمها « على الموقف » ، ولكنه كان لا يزال يشعر أنه على ما يرام . ولكنه ما أن اقترب من برج الماء في جادة كوروني ، حتى راح يمرّ على كل حانة على امتداد الجادة كلها وحتى كنيسة القديسة لودميلا ، ثم بدأ يشعر ببعض التعب . وعلى أية حال فان ذلك لم يثبط همته لأنه في الليلة السابقة في حانة « آخر الخط » في سترا شنيتسه تراهن مع سائق ترام بأنه يستطيع أن يمشي حول العالم في ثلاثة أيام . وهكذا بدأ يبتعد عن بيته تدريجياً حتى وصل إلى «معمل الجعة السوداء» في ساحة تشارلز ومن هناك ذهب إلى « مالا سترانا » ثم إلى « معمل جعة توماس » ثم إلى مطعم «أومونتاغو » وحتى أنه صعد إلى الاعلى نحو حانة «ملك برابانت» ثم إلى حانة «المنظر الجميل » ومن هناك إلى معمل الجعة في «دير سترا

---

(١) وهما الجزآن اللذان يشكلا ن مدينة براغ . (س . ب)

هوف » . ولكن تغيير المناخ في تلك النقطة بالذات ما عاد يشعره أنه على ما يرام . لقد وصل حتّى ساحة «لوريتا» وهناك أصيب بنوبة شديدة من الحنين إلى الوطن وإلى حد أنه سقط على الأرض وبدأ يتقلب على الرصيف على وهو يصيح : « لا ، لن ابتعد أكثر من ذلك . أما بالنسبة إلى تلك الجولة حتّى العالم (إذا عذرتني ياسيدي) فلست أكترث بها اطلاقاً . » إذا أحببت ياسيدي فسوف أدبرّ لك زجاجة كونياك ولكنني أخشى أن يتحرك القطار قبل عودتي .

أكدّ له الملازم الأول شفيك أنهم لن يغادروا المحطة قبل ساعتين وأن الكونياك يُباع سراً في زجاجات خلف المحطة بالضبط . لقد سبق للنقيب ساغنر أن أرسل ماتوشيتش إلى هناك وجلب له زجاجة من الكونياك المحترّم مقابل خمسة عشر كراوناً . ثم أعطاه خمسة عشر كراوناً وطلب منه أن يذهب شريطة ألاّ يقول لأحد إنها للملازم الأول لو كاش أو أنه أرسله ليشتريها لأن ذلك محظور تماماً .

قال شفيك :

– يمكنك أن تكون على ثقة من أن كل شيء سيكون على ما يرام لأنه لو كان هناك ما أحبّه فهو المحظورات . أنت تعرف أني أتورط دائماً في شيء محظور دون أن أدرك ذلك . ومرة في ثكنة كارلين حظروا علينا . . .

قاطعه الملازم الأول لو كاش قائلا :

– وراء در ! أمام سر !

وهكذا ذهب شفيك إلى ما وراء المحطة وهو يكرر لنفسه على

الطريق كل عناصر مهمته : يجب أن يكون الكونياك جيّداً وعليه أن يتذوقه مسبقاً . كان ذلك محظوراً ، ولذا عليه أن يكون حذراً .

وبينما كان ينعطف إلى خلف المحطة قابل الملازم الأول دوب مرة أخرى ، فسأل هذا شفيك :

— ما الذي تفعله هنا ؟ هل تعرفني ؟

قال شفيك وهو يضرب التحية :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أني لا أريد أن أعرفك من جانبك السيىء .

تيبّس الملازم الأول دوب من الصدمة ولكنّ شفيك ظل واقفاً دون حراك ، ويده طوال الوقت فوق قبعته . ثم استأنف قائلا :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أني لا أريد أن أعرفك الا من جانبك الطيب حتى لا تجعلني أبكي كما قلت لي في المرة الماضية .

أحس الملازم الأول دوب بدوخة في رأسه من جراء هذه الوقاحة ولم يستطع أن يفعل أي شيء سوى أنه صرخ بازدراء :

— اغرب عن وجهي أيها النغل ، سيكون لي شأن معك لاحقاً .

ابتعد شفيك إلى ما وراء رصيف المحطة ، ولكن الملازم الأول دوب عاد بعد أن استرجع نفسه وانطلق وراءه . خلف المحطة وعند الطريق مباشرة كان صف من السلال المقلوبة عاليها سافلها ، وقد صفّت عليها أطباق من القش المضفور ، وعلى هذه الأطباق كانت انواع مختلفة من الأطعمة اللذيذة التي تبدو في منتهى البراعة ، وكأن كل هذه المأكولات الشهية كانت مخصّصة لأطفال مدرسة خارجين في

نزهة . فقد كان هناك حلويات «غزل البنات» وقماع البسكويت ، وأكوام صغيرة من أقراص البون بون الحامضة وصينية أو اثنتان من شرائح الخبز الأسود وعليها قطع من السلامي يبدو عليها أنها من لحم الخيل فعلا . وتحت ذلك كانت السلال تحمل مختلف انواع المشروبات الكحولية وزجاجات الكونياك والروم والبيرجابينكا وأنواع الليكور والمشروبات الروحية الأخرى .

خلف الخنادق المحاذية للطريق مباشرة كوخ كانت تجري فيه كل الصفقات الخاصة بالمشروبات المحظورة .

بدأ الجنود أولا يشترون من البضاعة المعروضة على السلال ، وقام يهودي ذو شعر طويل أجعد باخراج زجاجة من المشروبات الروحية ولكنها ذات مظهر بريء من قعر السلة ثم وضعها تحت قفطانه وأوصلها إلى الكوخ الخشبي حيث أخفاها الجندي دون تفاخر في بنطاله أو تحت سترته .

مضى شفيك إلى ذلك المكان بينما كان الملازم الأول دوب يراقبه بموهبته البوليسية بدقة من المحطة .

انطلق شفيك نحو السلة الأولى وأخذ بعض الحلويات ودفع ثمنها ووضعها في جيبه ، بينما كان السيد ذو الشعر الطويل الأجعد يهمس له : « لديّ بعض الشنابس أيضاً ياصاحب الفضيلة » .

وقد تمت المفاوضات بسرعة . ذهب شفيك نحو الكوخ ولكنه لم يسلم النقود حتى فتح السيد ذو الشعر الطويل الأجعد الزجاجة وسمح لشفيك بتذوق ما فيها . لاقى الكونياك استحسان شفيك فعاد إلى المحطة بعد أن دس الزجاجة تحت سترته .

سأله الملازم الأول دوب وهو يسدّ عليه الطريق إلى الرصيف :

— أين كنت أيها النغل ؟

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أني كنت أشتري بعض الحلويّات .

ثم دس يده في جيبه وأخرج حفنة من الحلويات القذرة المغبرة . وقال :

— هل لي أن أقدم لك بعضاً منها إذا لم تكن تثير قرفك ياسيدي ؟ لقد سبق لي وتذوقتها وهي ليست سيئة . إن لها طعماً لطيفاً خاصاً أشبه بطعم مربى الخوخ ياسيدي .

تحت سترّته كانت الخطوط المستديرة للزجاجة واضحة .

ضرب الملازم الأول دوب شفيك على سترّته وقال :

— ما الذي تحمله هنا أيها النغل ؟ هيا أخرجه .

أخرج شفيك الزجاجة بمحتوياتها الصفراء وملصقها الواضح المكتوب عليه : « كونياك » .

أجاب شفيك دون خوف :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أني ضخخت بعض ماء الشرب في زجاجة كونياك فارغة إذ لا زلت أشعر بظمأ شديد بعد كل ذلك الغولاش الذي تناولناه البارحة ، إلاّ أن الماء في هذه المضخّة أصفر اللون كما ترى ياسيدي . لا شك نه يحتوي على مادة الحديد . الماء نافع للصحة جداً ولك أيضاً ياسيدي إن كان فيه بعض الحديد .

قال الملازم الأول دوب هو يبتسم على نحو شيطاني ويريد أن يمدّد لأطول فترة ممكنة هذا المشهد الذي سيكون فيه شفيك خاسراً إلى الأبد :

– إذا كنت ظمآنا إلى هذا الحد فعلاً يا شفيك فاشرب ولكن على النحو الصحيح . اشربها كلها دفعة واحدة .

كان الملازم الأول دوب قد خطّط مسبقاً أن شفيك سيأخذ بضع جرعات ثم يتوقف عن الشرب ، انه لن يتمكن من الاستمرار وسيحقق هو ، الملازم الأول دوب ، انتصاراً مجيداً عليه ويقول له : « أعطني الزجاجة حتّى أشرب قليلا ، أنا ظمآن أيضاً » كان يتصور التعبير الذي سيرتسم على وجه ذلك النغل شفيك في تلك اللحظة المخيفة ، ثم سيقدم تقريراً به وهكذا دواليك .

فتح شفيك الزجاجة ، وضعها على شفتيه ثم راحت تختفي جرعة إثر جرعة في حلقه . تخشّب الملازم الأول دوب تماماً . فقد شرب شفيك الزجاجة كلها أمام عينيه دون أن يرمش له جفن ثم رمى بالزجاجة الفارغة في احدى برك المياه قرب الطريق، وبصق وقال وكأنه شرب ماء معدنياً :

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أن الماء له مذاق الحديد فعلا . في « كاميك ناد فلتافو » كان هناك صاحب حانةيقدم الماء مع الحديد لزبائنه الصيفيين وذلك بالقاء حدوات الجياد القديمة في البئر .

– سأعطيك حدوات قديمة ! تعال وأرني من أين اشتريت الماء !

– المكان قريب جداً من هنا ياسيدي ، خلف ذلك الكوخ الذي هناك .

– امش أمامي أيها الحثالة ، حتّى أستطيع أن أرى أن كنت تستطيع أن تسير باستقامة .

فكّر الملازم الأول دوب: « هذا غريب فعلا . لا يمكنك أن تلاحظ أي شيء على هذا النغل البائس .»

وهكذا سار شفيك إلى الأمام وهو يضع قدره بين أيدي الرب ، . ولكن كان هناك شيء يخبره طوال الوقت أنه لابد من وجود بئر ماء هناك ، وهكذا لم يدهش أبداً حين وجد بئراً هناك بالفعل . بل أنه وجد مضخة أيضاً . وما أن وصلا اليها وبدأ شفيك بالضخ ، حتّى نزل منها ماء أصفر اللون ، فأعلن شفيك باحتفالية :

— هذا هو ماء الحديد ياسيدي .

ظهر رجل مذعور ذو شعر أجعد طويل وطلب منه شفيك بالألمانية أن يجلب كأساً حيث أن الملازم الأول يرغب في الشرب .

فقد الملازم الأول دوب اتزانه تماماً بحيث شرب الكأس كلها ، وبعد ذلك انتشر فوق فمه كله طعم بول الجياد وروثها . وبما أنه جنّ تماماً بسبب ما مرّ به فقد أعطى اليهودي خمسة كراونات لقاء كأس الماء والتفت نحو شفيك وقال :

— ما الذي تفعله واقفاً هنا فاغر الفم ؟ عد إلى عربتك .

بعد خمس دقائق ظهر شفيك أمام الملازم الأول لوكاش في حافلة الضباط وأشار له أن يخرج منها . وفي الخارج قال له :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أني بعد خمس دقائق أو عشر دقائق على الأكثر سأكون قد غبت عن الوعي تماماً . ولكني سأكون متمدّداً في عربتي . لي رجاء واحد عندك يا سيدي هو أن تكون كريماً معي بحيث لا تطلبني في هذه الساعات الثلاث القادمة على الأقل وألاّ تعطيني أية

أوامر يا سيدي حتى أنام لأتخلص من تأثير ما حدث . كل شيء على ما يرام ، ولكن الملازم الأول دوب أمسك بي . لقد قلت له إنه ماء ولذا اضطررت إلى أن أشرب زجاجة الكونياك كلها أمامه لأريه أنها كانت مليئة بالماء لا غير . كل شيء على ما يرام . لم أفش بأي شيء ، تماماً كما كما طلبت مني ، ولقد كنت شديد الحذر يا سيدي بالفعل . ولكني أبلغكم بتواضع يا سيدي أنني أحس بالأمر منذ الآن . ساقاي بدأتا تشعران بالدبابيس والأبر ، طبعاً أرجو يا سيدي أن تعلموا أني معتاد على الشراب لأني حين كنت أخدم لدى القسيس كاتس . . .

صاح به الملازم الأول لوكاش ، إنما دون غضب :

— أغرب عن وجهي أيها البهيمة .

ولكن الملازم الأول دوب أصبح في نظره الآن أكثر مدعاة للاشمئزاز بمقدار خمسين بالمئة .

دخل شفيك عربته بحذر ثم تمدّد على معطفه ورزمته وهو يقول لرقيب أول الامدادات والآخرين :

— كان يا ما كان في قديم الزمان رجل شرب حتى الثمالة فطلب ألاّ يزعجه أحد . . .

وبعد هذه الكلمات نام على جنبه وبدأ يشخر .

سرعان ما ملأت الغازات التي كان يطلقها مع تجشواته المقصورة كلها بحيث أن يورايدا الذي كان يتنشق الهواء خلال منخريه صرّح قائلا :

— يا الهي ! لا شك أنها روائح الكونياك القوية !

أما ماريك الذي وصل بعد كل المحن التي مرّ بها إلى مرتبة مؤرخ الكتيبة ، فكان يجلس إلى طاولة قابلة للطيّ .

كان منهمكا في الكتابة سلفاً عن الأعمال البطولية للكتيبة ، وكان واضحاً أنه يستمدّ متعة هائلة من تشوفه للمستقبل .

كان فانييك يراقب باهتمام المتطوّع الذي كان يكتب منهمكا ويضحك من كل قلبه خلال ذلك . ثم نهض وانحنى من فوق كتفه المتطوع ، وبدأ ماريك يشرح له :

— كما تعرف فانه من الممتع جداً كتابة تاريخ الكتيبة مسبقاً . الشيء الأساسي هو أن تتقدم على نحو نظامي . لابد من نظام لكل شيء .

قال فانييك بابتسامة احتقار تقريباً :

— نظام نظامي .

قال المتطوع بلهجة اللامبالاة :

— أجل ، نظام نظامي منظّم لكتابة تاريخ الكتيبة . لا يمكننا أن ننظم تاريخاً عظيماً هكذا . يجب أن يسير كل شيء بالتدريج وفق خطّة محدّدة . « شيء جيد على الأقل » . الشيء الأساسي بالنسبة للمؤرخ الواعي مثلي هو أن يرسم خطة لانتصاراتنا . مثلا أصف هنا كيف أن كتيبتنا — سيجري هذا بعد شهرين على الأرجح — ستعبر تقريباً الجبهة الروسية ، التي يدافع عنها مثلاً أفواج «الدون» التابعة للعدو ، بينما يحاصر عدد من فرق العدو مواقعنا . من النظرة الأولى سيبدو أن كتيبتنا قد انتهى أمرها وأن العدو سيصنع منا لحماً مفروماً للمقانق . ولكن في هذه اللحظة بالذات يعطي النقيب ساغنر الأمر التالي إلى كتيبتنا : « لم يكتب

علينا الله أن نموت هنا . فلنهرب .» وهكذا تبدأ كتيبتنا بالهرب ، ولكن حين يرى جنود الفرقة المعادية ، التي طوقتنا ، اننا نهرب وإنما باتجاههم يبدؤون بالتراجع مذعورين ويقعون في أسرى أيدي احتياطي جيشنا دون أن يطلقوا طلقة واحدة . في هذه اللحظة بالذات يبدأ بالفعل تاريخ كتيبتنا كله . ومن حوادث غير هامة . هذا إذا تكلمت كنبيّ ياسيد فانيبك ، تتطور أمور بعيدة الأثر ، ستنتقل كتيبتنا من نصر إلى نصر . سيكون من الممتع أن نقرأ كيف تهاجم كتيبتنا العدو وهو نائم . ومن أجل هذا نحتاج بالطبع إلى أسلوب كتاب « أخبار الحرب المصوَّرة» ، الذي نشره «فيليميك» خلال الحرب الروسية — اليابانية . حسنا ، كما قلت فان كتيبتنا تهاجم معسكر العدو وهو نائم . سيبحث كل منّا عن جندي من الأعداء ليدفع بكل ما فيه من قوة بحربته في صدره . ستدخل الحربة ذات الحد المرهف مخترقة إياه كما تخترق السكين الزبدة . هنا وهناك ستسمع صوت ضلع وهو يتحطم. سيختلج الاعداء النائمون وهم يعانون من سكرات الموت . للحظة واحدة سيقلبون عيونهم ثم تجحظ هذه العيون،ولكنها عيون لم تعد ترى أية شيء . ثم نسمع منهم حشرجة الموت وتتيبس أجسادهم . سيظهر على شفاههم الزبد المدّمى ، وبهذا يكون كل شيء قد انتهى والنصر إلى جانب كتيبتنا . أو ستكون الأمور أفضل حتىّ ، فلنقل أن ذلك سيحدث خلال ثلاثة أشهر ، حين تأسر كتيبتنا قيصر روسيا . ولكننا سنتحدث عن هذا لاحقاً ياسيد فانيبك . في هذه الأثناء عليّ أن أحضر مقدّماً بعض الحوادث الصغيرة التي تثبت بطولة كتيبتنا التي لا مثيل لها . سيكون علي أن أخترع مصطلحات حربية جيدة تماماً لها . لقد سبق لي وابتدعت مصطلحاً جديداً . أنوي الكتابة عن تصميم جنودنا على التضحية بالنفس ، والشظايا تخترق كل

مكان من أجسادهم . ونتيجة لانفجار أحد ألغام العدو فان أحد رقبائتنا ، ولنقل واحداً من السرية الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، قد طار رأسه عن جسده .

ثم استأنف قائلا وهو يضرب على رأسه :

— وبالمناسبة ، لقد كنت أنسى أيها الرقيب الأول ، أو إذا تكلمنا بلغة المدنيين ، ياسيد فانييك ، أن أقول لك إن عليك أن تحضر لي قائمة بكل الضباط وضباط الصف . أعطني اسم رقيب أول السرية الثانية عشرة ؟ «هوسكا» ؟ حسنا . سيطير رأس «هوسكا» هذا بواسطة لغم ، يطير رأسه ولكن جسده يظل يخطو خطوة أو خطوتين نحو الأمام ، يصوب ويطلق النار على طائرة معادية فيسقطها . من الواضح تماماً أنه سيتم الاحتفال في المستقبل بهذه الانتصارات ونتائجها ضمن الدائرة الأسرية في « شونبرون» (١) . لدى النمسا الكثير من الكتائب ، ولكنها لا تملك سوى كتيبة واحدة مثل كتيبتنا تبلي بلاء حسنا إلى حد أنه سيجري احتفال عائلي حميم على شرفها ضمن الأسرة الامبراطورية. وأتصور ذلك بالطريقة التالية كما يمكنك أن ترى في دفتر ملاحظاتي : ستنتقل أسرة الأرشدوقة ماري فاليري من «فالسي » إلى « شونبرون » خصيصاً لأجل هذا الاحتفال : « هذه المناسبة ستكون خاصة جداً وتجري في القاعة المجاورة لغرفة النوم الملك وهي مضاءة بشموع بيضاء ، لأنهم ، كما هو معروف تماماً ، لا يحبون المصابيح الكهربائية في البلاط حتى لا يحدث انقطاع في الكهرباء فيتعرض الملك العجوز بشدة . سيبدأ الاحتفال على شرف كتيبتنا في تمام الساعة السادسة مساء .

---

(١) القصر الا مبراطوري في فيينا . (المترجم)

وفي هذه اللحظة سيدخل أحفاد صاحب الجلالة إلى القاعة وهي في الواقع جزء من جناح الامبراطورة المرحومة . والآن المسألة هي مسألة من سيكون حاضراً بالاضافة إلى العائلة الامبراطورية . يجب أن يكون حاضراً دون شك الكونت « بار » كبير معاوني الملك، ولأنه في مثل هذه الاحتفالات العائلية والحميمة قد يشعر احدهم بالدوار (ولا أعني بذلك طبعاً أن الكونت « بار » سيتقيّأ) ،فان حضور الطبيب الخاص ، مستشار البلاط ، الدكتور « كرتسل» ، سيكون مطلوباً . ومن أجل الحشمة ، ولضمان ألا يسمح خدم البلاط لأنفسهم بأي خرق لآداب السلوك مع الوصيفات الحاضرات حفل الاستقبال ، سيأتي أيضاً كل من قيّم مراسيم البلاط ، البارون « ليديرر » والياور، الكونت « بلغارد » وكبيرة الوصيفات ، الكونتسة «بومبل» . وهذه الأخيرة ستؤدي ذلك الدور بين الوصيفات الذي تؤديه في العادة مديرة ماخور مدينة براغ المسمى «أو شوهو» . وما أن يظهر هؤلاء النبلاء المجيدون حتى يتم اعلام الامبراطور فيظهر بصحبة أحفاده . يجلس إلى مائدة ويقترح نخباً على شرف كتيبتنا المتقدمة . وبعد ذلك تقوم الأرشدوقة « ماري فاليري » بالقاء خطاب تمتدحك فيه على نحو خاص يارقيب أول الامدادات . بالطبع ، ووفقاً لدفتر ملاحظاتي فان كتيبتنا ستعاني من خسائر شديدة وقاسية ، لأن الكتيبة التي لا قتلى فيها ليست كتيبة على الاطلاق ، وسيكون علي أن أحضر مقالة جديدة حول من سقطوا منا . لا يجب أن يتألف تاريخ الكتيبة من مجرد حقائق جافة حول الانتصارات ، والتي سبق لي وسجلت منها اثنين وأربعين انتصاراً سلفاً . فأنت مثلا ياسيد فانييك ، ستسقط عند جدول صغير ، وسيموت «بالون » ، الذي يحدّق فينا وهو جالس هنا بتلك الطريقة الاستثنائية ، ميتة مختلفة تماماً . لن

يكون موته بالرصاص أو الشظايا أو القذائف . بل سيخنق بالوهق (١) الذي يُرمى من طائرة معادية في تلك اللحظة بالذات التي يكون فيها على وشك التهام عشاء ملازمه الأول .

خطا بالون نحو الخلف ، لوّح بيديه بيأس ثم قال بعزيمة واهية :

— أنا آسف كما تعلم ، ولكني لا أستطيع مغالبة ذلك بطبيعتي ! وحتى حين كنت في الخدمة النظامية اعتدت أن أحضر ثلاث مرات إلى المطبخ لأطلب في كل مرة اعطائي حصة جديدة حتى زجوني في السجن بسبب ذلك . ومرة أخذت حصتي من العشاء ثلاث مرّات وكان العشاء ضلع عجل مسلوق ، وقد حبست شهراً لقاء ذلك . فلتكن مشيئة الله !

قال له المتطوع مواسياً :

— لا تخف يا بالون . في تاريخ الكتيبة لن تذكر حقيقة أنك توفيت حين كنت تلتهم الطعام في الطريق من مطعم الضباط إلى الخنادق . بل ستذكر مع كل رجال كتيبتنا الذين سقطوا في سبيل مجد امبراطوريتنا كرقيب أول الامدادات فانييك مثلا .

— ما هو نوع الموت الذي تهيئه لي يا ماريك ؟

— لا تكن عجولا من فضلك أيها الرقيب الأول . لا تجري الأمور بهذه السرعة .

فكر المتطوع للحظة ثم استأنف قائلا :

---

(١) حبل في طرفه انشوطة يستعمل لا قتناص الخيل والا بقار . (المترجم)

– أنت من «كرالوبي» ، أليس كذلك ؟ اذن فاكتب إلى بيتك في «كرالوبي» أنك ستُفقد دون أن يتبقى لك أي أثر ، ولكن اكتب بحذر. أو هل تفضل أن تُجرح جراحاً خطيرة وتبقى خلف شبكات الأسلاك الشائكة ؟ ! يمكنك أن تتمدّد على نحو جميل بهذا الأسلوب وبساق مكسورة طوال النهار . وفي الليل يضيء العدو مواقعنا بأنواره الكشافة ويلاحظ وجودك ، فيظن أنك تتجسسّ ويبدأ بتقبيلك بالقذائف والشظايا . لقد قدمت خدمة هائلة إلى الجيش ، حيث أن العدو سيضطر إلى أن ينفق عليك كمية كبيرة من الذخيرة كان يمكن أن تكفي للقضاء على كتيبة كاملة . وبعد كل هذا الانفجارات ستتطاير أشلاؤك بحرّية في الهواء من فوقك ، وستغنّي وهي تخترق الهواء بدورانها أنشودة النصر المجيد . وباختصار فانه سيكون لكل شخص دوره ، كل فرد من كتيبتنا سيبلي بلاء حسنا بحيث تطفح صفحات تاريخنا المجيدة بالانتصارات ورغم أني أفضل شخصياً ألا تطفح ، ولكني لا أستطيع شيئاً حيالها . يجب أن ينجز كل شيء على نحو كامل شامل بحيث يتبقى منّا بعض الذكرى وذلك حتى شهر أيلول (سبتمبر) مثلا ، حين لن يكون قد تبقى شيء من كتيبتنا اطلاقاً باستثناء هذه الصفحات المجيدة من صفحات التاريخ ، والتي ستنقل رسالة إلى قلوب النمساويين جميعاً توضح لهم فيها أن كل أولئك الذين لن يروا بيوتهم مرة أخرى قد قاتلوا بالدرجة نفسها من الشجاعة . وقد سبق لي و كتبت الخاتمة ، أو كما تعرف ياسيدي فانيك : التأبين . المجد لذكرى الذين سقطوا . أن حبهم للملكية هو أقدس أنواع الحب على الاطلاق ، فقد كان الموت ذروته . فلتُلفظْ أسماؤهم باجلال وعلى سبيل المثال اسم فانيك . إن أولئك الذين تألموا

لفقد معيليهم يجب أن يمسحوا دموعهم بفخر واعتزاز . فقد كان من سقطوا أبطال كتيبتنا .

كان خودونسكي ويورايدا يصغيان باهتمام شديد إلى شرح التاريخ المستقبلي للكتيبة كما يعرضه المتطوع .

قال المتطوع وهو يقلب صفحات دفتره :

— اقتربا أكثر أيها السيدان . ها هي الصفحة رقم (١٥) : « سقط عامل الهاتف خودونسكي في يوم الثالث من أيلول (سبتمبر) مع طباخ الكتيبة يورايدا . » والآن اسمعا ما كتبته زيادة على ذلك : « بطولة نموذجية . فالأول ضحى بحياته لحماية أسلاك الهاتف في ملجئه حين تُرك عند الهاتف مدة ثلاثة أيام دون نجدة . والثاني حين لاحظ الخطر الذي كان يهدد جناحنا بالتطويق من جانب العدو ، رمى بنفسه على الأعداء بقدر من الحساء المغلي ونشر الفزع والحروق في صفوفه . » هذا موت رائع لكليهما ، أليس كذلك ؟ أحدهما يمزّقه لغم إلى أشلاء ، والآخر يختنق بالغاز السام الذي يوضع تحت أنفه حيث لم يكن معه سلاح يدافع به عن نفسه . كلاهما يموتان وهما يصرخان : «عاش قائد كتيبتنا!» لا يمكن للقيادة العليا أن تفعل شيئاً سوى أن تعبرّ عن امتنانها يوميا على شكل أمر ينص على وجوب أن تعرف كل وحدات جيشنا بشجاعة كتيبتنا وأن تحذو حذوها . أستطيع أن أقرأ لكم مقتطفاً من الأمر العسكري الذي سيتلى على وحدات جيشنا كافة ، وهو شبيه جداً بالأمر الذي أصدره الأرشدوق كارل، حين وقف مع جيشه عام (١٨٠٥) أمام «بادوا» وتلقى ضربة موجعة في اليوم التالي . اسمعوا ما سيقرأه الناس عن كتيبتنا كوحدة عسكريـــة بطوليـــة الأفعال وكمثال ناصع

لكل الجيوش : « . . . آمل أن يحذو الجيش كله حذو الكتيبة المذكورة أعلاه ، وأن يتبنى خصوصاً روحها في التضحية بالنفس والاعتماد على النفس وصمودها الراسخ اثناء الخطر ، وصفات البطولة والحب والثقة بضباطها التي تتحلى بها . هذه الفضائل التي تتميز بها هذه الكتيبة ستقودها إلى أفعال مجيدة تؤدي إلى انتصار وسؤدد امبراطوريتنا . فليحذُ الجميع حذوها ! »

ومن المكان الذي كان يتمدّد فيه شفيك دوّت تثاؤبة وأمكن سماعه وهو يتكلم في نومه قائلا : « أنت على حق ياسيد مولر ، الناس متشابهون . في كارلوبي كان يعيش رجل يدعى السيد ياورش وهو صانع مضخّات وكان يشبه الساعاتي ليهانتس من باروبيتسه وكأنهما دبوسان . وكان ليهانتس شبيهاً أيضاً إلى حد كبير وصاعق بشخص يدعى بيسكورا من «بيتشين » ، وكان هؤلاء الاربعة (١) جميعاً يشبهون شخصاً منتحراً مجهول الاسم وجد مشنوقاً ومتحللا تماماً في بحيرة قرب «بيندلر جيخوف هرادتس» تحت خط السكة الحديدية مباشرة ، حيث ألقى بنفسه على الأرجح تحت القطار . » ثم دوّت تثاؤبة أخرى وتبعها ما يلي : « ثم حكم على الآخرين كلهم بغرامة كبيرة ، وأرجو منك ياسيدة مولر (٢) أن تطبخي لي غداً بعض المعكرونة مع بذور الخشخاش . » ثم انقلب شفيك على الجانب الآخر واستمر في الشخير . بينما استمر النقاش بين يورايدا والمتطوع عما سيحدث في المستقبل .

كان يورايدا يرى أنه لو كان يبدو من الوهلة الأولى أنه من الهراء

---

(١) يقول النص هنا أربعة وهم ثلاثة فقط : ياروش وليهانتس وبيسكورا . (المترجم)

(٢) وهي خادم شفيك في منزله . (المترجم)

أن يكتب المرء عما سيحدث في المستقبل ، ولو على سبيل النكتة ، إلاّ أنه من المؤكد على أية حال أن تحمل حتى مثل هذه النكتة بعض عناصر النبوءة ، وذلك حين تخترق العين حجاب المجهول تحت تأثير قوى غامضة . ومنذ تلك اللحظة أصبح حديث يورايدا عبارة عن حُجُب فحسب . ففي كل جملة من جمله كان حجاب المستقبل يظهر حتى انتقل أخيراً إلى تجدّد أو انبعاث الجسد البشري . وقد تحدث عن قدرة النقاعيات على تجديد أجسادها وانتهى ببيان مفاده أنك لو قطعت ذيل السحلية لعاد ونما من جديد .

وقد علّق خودونسكي على هذا قائلا أن الناس كانت ستعيش أجمل لحظات حياتها لو كان باستطاعتها أن تفعل ما تفعله السحالي بذيولها . وخذ الحرب مثالاً على ذلك حين يُقطع رأس شخص أو جزء آخر من جسده . كم ستكون الادارة العسكرية سعيدة لأنه لن يكون هناك جنود عاجزون . أن جنديا نمساوياً يمكن لساقيه وذراعيه أن تنمو من جديد، المرة تلو المرة ، سيكون أثمن من لواء بأكمله .

قال المتطوع إنه في أيامنا هذه ونتيجة لتطور التقنيات الحربية ، فقد أصبح ممكناً تقسيم العدو إلى ثلاثة أجزاء قطرية . كان هناك قانون حول تجديد أجساد «الستنتورات » (١) من فصيلة النقاعيات ، والذي يفيد أن كل شلو وسينمو مـــن جديد وسيكتسب أعضاء ويصبح ستنتوراً جديداً وقياساً على ذلك ، وبعد كل معركة يشترك بها الجيش النمساوي ، سيتضاعف عدد أفراده ثلاث أو حتى عشر مرات ، فمن كل ساق مقطوعة سينمو جندي مشاة جديد .

---

(١) الستنتور : نوع من البروزيات التي لها شكل البوق . (المترجم)

قال فانيك :

— لو سمعك شفيك ، لكان سيروي لنا مثلاً حياً على ذلك .

وقد قام شفيك برد فعل على ذكر اسمه اذ همهم : « حاضر !» ثم استمر في الشخير بعد أن تلفظ بتعبير يدل على الانضباط العسكري .

في الباب نصف المفتوح للمقصورة ظهر رأس الملازم الأول دوب .

سأل :

— هل شفيك هنا ؟

أجاب المتطوع :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أنه نائم .

— حين أسال عنه يا متطوع السنة الواحدة فعليك أن تقفز فوراً وتناديه .

— لا أستطيع ياسيدي فهو نائم .

— اذن أيقظه . أنا مندهش أيها المتطوع من أن ذاك لم يخطر لك على الفور . عليك أن تبدي المزيد من الحماسة تجاه ضباطك. أنت لا تعرفني ، هل تعرفني ؟ اذن انتظر حتى تعرفني !

بدأ المتطوع يوقظ شفيك :

— النار يا شفيك ! النار ! استيقظ !

همهم شفيك وهو ينقلب على جنبه الآخر .

— حين كانت مطاحن « أودكوليك » تحترق آنذاك ، جاءت فرقة مكافحة الاطفاء من «فيسوتشاني » . . .

قال المتطوع بود للملازم الأول دوب :

— فلتتفضل يا سيدي لترى كيف أني أحاول ايقاظه إنما عبثاً .

غضب الملازم الأول دوب وقال :

— ما اسمك أيها المتطوع ! ماريك ؟ هاهه ! اذن فأنت المتطوع ماريك القابع في السجن طوال الوقت ، أليس كذلك ؟

— نعم ياسيدي ، لقد أنفقت دورتي التدريبية التي تستغرق عاماً كاملاً في السجن وتم تخفيض رتبتي . وهذا يعني أنه منذ الافراج عني من قبل محكمة الفرقة ، حيث ثبتت براءتي ،فقد عينت مؤرخاً للكتيبة مع الاحتفاظ برتبة متطوع لعام واحد .

زمجر الملازم الأول دوب الذي أصبح وجهه شديد الاحمرار الآن :

— لن يطول هذا معك :

كان هذا التغيّر في اللون يعطي الانطباع بأن وجهه قد انتفخ بسبب تلقي الصفعات .

ثم اسأنف قائلاً :

— سأهتم بهذا الموضوع :

قال المتطوع بوقار :

— أرجوك ياسيدي ، هل يمكنني أن أتقدم إلى لجنة التأديب ؟

قال الملازم الأول دوب :

— لا تمارس حيلك معي . سأعلمك ما هي لجنة التأديب ! سنرى واحدنا الآخر مرة أخرى وسأذيقك جهنم عندها ، لأنك ستعرفني آنذاك بينما أنت لا تعرفني الآن .

غادر الملازم الأول دوب العربة غاضباً ، وقد نسي أمر شفيك في ثورة غضبه . رغم أنه كان ينوي قبل فترة قصيرة أن يناديه ويقول له « تنفسّ على وجهي ! » وذلك كآخر وسيلة لإثبات تناوله للكحول رغم حظره . ولكن فات الأوان طبعاً الآن ، لأنه حين عاد إلى العربة بعد نصف ساعة كانوا قد وزعوا في هذه الأثناء القهوة « السادة » مع الروم على الجنود . وها هو شفيك قد سبق له وأفاق من نومه ، وحين ناداه الملازم الأول دوب قفز من العربة كعنزة جبلية .

زمجر الملازم الأول دوب :

— تنفّس على وجهي !

نفخ شفيك عليه كل ما في خزان رئيته من هواء ، وكان ذلك أشبه بهواء ساخن يحمل إلى الحقول عبير معمل لتقطير الكحول .

— وما الذي تفوح رائحته منك أيها النغل ؟

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أنها رائحة الروم .

صاح الملازم الأول دوب بانتصار :

— اذن هذا ما تقوله أيها النذل . لقد أمسكت بك أخيراً !

قال شفيك دون أية أمارة من أمارات القلق :

— نعم ياسيدي . لقد استلمنا للتو حصصنا من الروم لتناولها مع القهوة وقد شربت الروم أولاً . إذا كانت قد صدرت أوامر جديدة ياسيدي تنص على شرب القهوة أولاً والروم لاحقاً ، فأرجو أن تعذرني وأعدك بألاّ يتكرر هذا .

– ولماذا كنت تشخر حين كنت في العربة منذ نصف ساعة ؟ لم يستطيعوا ايقاظك في ذلك الحين !

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أني لم أستطع النوم طوال الليل لأني كنت أتذكر ذلك الزمان حين كنا لا نزال نقوم بالمناورات في « فيشيبريم » . في ذلك الحين كانت مجموعة الجيوش الأولى والثانية الصورية قد عبرت « ستيريا » وهنغاريا الغربية وطوقت مجموعة الجيوش الرابعة وكنت فيها . وكان ذلك من معسكر في فيينا وما جاورها حيث أقمنا تحصيناتنا هناك . ولكنهم التفوّا علينا ووصلوا حتّى الجسر الذي كان سلاح الهندسة ينشئه على الضفة اليمنى للدانوب . كان من المفترض أن نشنّ هجوماً وأن تأتي الجيوش من الشمال ولاحقاً من «أوسييك » في الجنوب لنجدتنا . وقد تُلي علينا في الأمر اليومي أن مجموعة الجيوش الثالثة ستأتي لنجدتنا ، حتى لا ننكسر حين نتقدم ضد مجموعة الجيوش الثانية . ولكن كان ذلك كله عبثاً . فحين كنا على وشك الانتصار أطلقوا نفير انتهاء المناورات وأعلن انتصار أولئك الذين يرتدون العصابات البيضاء .

لم يقل الملازم الأول دوب شيئاً بل ابتعد وهو يهزّ رأسه في حيرة . ولكنه عاد بعد لحظة من حافلة الضباط وقال لشفيك :

– من الأفضل لكم جميعاً أن تتذكروا أن الزمن الذي ستنتحبون فيه أمامي آت لا محالة !

ولم يستطع أن يقول المزيد بل مضى إلى حافلة الضباط حيث كان النقيب ساغنر يستجوب آنذاك رجلا سيء الحظ من السرية الثانية عشرة أحضره الرقيب الأول «سترناد » . وكان هذا الرجل القلق منذ الآن على

سلامته في الخنادق قد حمل معه من أحد الأماكن في المحطة باب زريبة خنازير مقوى بصفائح معدنية . والآن ها هو واقف هناك بعينين محدقتين . وقد استولى عليه الذعر ، كما راح يتذرّع بأنه أراد أن يأخذه أن يأخذه معه إلى ملجئه ليحميه من الشظايا .

اغتنم الملازم الأول دوب الفرصة ليلقي موعظة مطوّلة حول الطريقة التي يتوجّب فيها على الجندي أن يتصرف . وما هي واجباته تجاه وطنه الأم والملك ، الذي هو القائد الأعلى وأسمى سلطة عسكرية . إن كانت عناصر من هذا النوع في الكتيبة فلابد طبعاً من استئصالهم ومعاقبتهم ورميهم في السجن . كل هذا الهراء كان مثيراً للاشمئزاز إلى حد أن أن النقيب ربت على كتف المذنب وقال له :

— حسنا ، حسنا ، لا شك أنه لم يكن في نيّتك الاساءة ، ولكن لا ترتكب أي شيء مشابه في المستقبل . كان ذلك تصرفاً يدل على الحماقة . أعد الباب إلى المكان الذي جلبته منه وأخرج منه إلى الجحيم !

عض الملازم الأول دوب على شفته وفكر في نفسه أن المحافظة على الانضباط في الكتيبة ، وهو الأمر الموشك على الانهيار ، كان يعتمد عليه هو وحده . وهكذا جال في منطقة المحطة كلها مرة أخرى ، وقرب أحد المستودعات ، حيث كتب بخط كبير بالهنغارية والألمانية أن التدخين ممنوع ، وجد جندياً يجلس وهو يقرأ صحيفة تغطية تماماً . بحيث كان مستحيلاً رؤية كتفيتيه . صاح به الملازم الأول دوب : «انتبه ! » ، فقد كان ذلك جندياً من الفوج الهنغاري المتمركز في « هومينيه » كاحتياط .

هزّه الملازم الأول دوب ، فما كان من الجندي الهنغاري سوى أن نهض واقفاً ولم يجد من اللائق حتى أن يضرب التحية . كان كل ما فعله

هو ن حشر الصحيفة في جيبه وانطلق نحو الطريق . تبعه الملازم الأول وكأنه أصيب بنوبة ، إلاّ أن الجندي الهنغاري حثّ الخطى ثم التفت ووضع يديه فوق رأسه هازئاً حتى لا يترك أي شك في نفس الملازم الأول دوب في أنه ميزّه على الفور على أنه ينتمي إلى أحد الأفواج التشيكية . وبعد ذلك أسرع الهنغاري مبتعداً عن الانظار بين الأكواخ القريبة خلف الطريق .

وحتى يبرهن الملازم الأول دوب على أن هذا المشهد لم يزعجه ، دخل إلى دكان صغير قرب الطريق بأسلوب ملوكي واشار مضطرباً إلى بكرة كبيرة من الخيطان السوداء ، ثم وضعها في جيبه ودفع ثمنها . ثم التفت إلى حافلة الركاب وطلب من جندي ارتباط الكتيبة أن ينادي على وصيفه «كونيرت» ، ثم أعطاه البكرة وقال :

— عليّ أن أهتم بكل شيء . أعرف أنك نسيت الخيطان .

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أن لدينا « دزينة » كاملة منها .

— اذن أرني اياها فوراً وعد إلى هنا ثانية وأنت تحملها . هل تعتقد أني أصدقك ؟

حين عاد « كونيرت » مع علبة كاملة من بكرات الخيطان . البيضاء منها السوداء ، قال الملازم الأول دوب :

— انظر الي أيها النغل . عليك أن تتفحص جيداً الخيطان التي جلبتها والبكرة الكبيرة التي اشتريتها أنا ، وسترى أن خيطانك رفيعة وتنقطع بسهولة . والآن انظر إلى خيطاني أنا . عليك أن تبذل جهداً كبيراً قبل

أن تستطيع قطعها . حين نكون في الميدان لا نريد أية خرق . في الميدان يجب أن يكون كل شيء متيناً . حسنا اذن ، خذ كل هذه الخيطان وأعدها إلى مكانها وانتظر أوامري . وتذكّر ، في المرة القادمة اياك أن تفعل أي شيء يخطر لك دون استشارتي ، اذ عليك أن تسألني قبل أن تشتري أي شيء .والأحرى بك ألا تتمنى أن تعرفني ، فأنت لا تعرف الجانب السيىء مني بعد .

حين ابتعد كونيرت التفت الملازم الأول دوب إلى الملازم الأول لوكاش وقال :

— وصيفي شخص ذكي جداً . قد يرتكب أحياناً بعض الأخطاء ولكنه شخص جيد عموماً . وأفضل ما فيه أمانته المطلقة . حين كنا في بروك وصلني طرد يحوي عدداً من فراخ الأوز المشوية من صهري في الريف ، وصدّقني أنه لم يلمسها اطلاقاً . وبما أني لم أستطع تناولها كلها بسرعة فقد فضل أن يتركها تفسد وتنتن . طبعاً هذه المسألة هي مسألة انضباط . على الضابط أن يدرب جنوده على النحو اللائق .

التفت الملازم الأول لوكاش نحو النافذة متعمداً حتى يوضّح أنه لم يكن يصغي إلى هذر هذا الأحمق . قال :

— أجل ، اليوم هو الأربعاء .

أحس الملازم الأول دوب بالحاجة إلى قول شيء ما على الأقل ، فالتفت إلى النقيب ساغنر وخاطبه بلهجة حميمية رفاقية :

— أيها النقيب ، ما رأيك . . . ؟

قال النقيب ساغنر :

ـــ اعذرني للحظة .

ثم خرج من الحافلة .

* * *

في هذه الأثناء كان شفيك يتحدث إلى كونيرت حول الملازم الأول دوب .

سأله شفيك :

ـــ أين كنت طوال هذا الوقت الذي لم نر لك أثراً خلاله ؟

قال كونيرت :

ـــ أنت تعرف جيداً أني مشغول طوال الوقت بذلك المجنون العجوز . انه يناديك في كل لحظة ويسأل عن أشياء لا تخصك اطلاقاً . حتى لقد سألني أن كنت صديقاً لك فقلت له اننا نادراً ما نلتقي .

قال شفيك برزانة :

لكم هو جميل منه أن يسأل عني ! أحبه كثيراً جداً ملازمك الأول ذاك ! إنه لطيف جداً وخفيف الظل جداً ، أب حقيقي للجنود .

اعترض كونيرت قائلا :

ـــ حسنا ، هذا ما تفعله أنت ، ولكني أقول لك إنه خنزير لعين وأحمق من الدرجة الأولى أيضاً . لقد ضقت ذرعاً به ، فهو يضيق الخناق علي .

قال شفيك مندهشاً :

ــ حقاً ؟ لو أنك تعرف كم أني ظننته رجلا محترماً . انه لأمر مضحك أن تتحدث عن ملازمك الأول بهذا الأسلوب ، ولكن ربما كان ذلك طبيعياً ، فكل الوصفاء يفعلون ذلك . خذ مثلا وصيف الرائد فنتسل . فهو لا يقول أي شيء عن سيّده عدا أنه أحمق لعين . أو خذ وصيف العقيد شرودر . فكلما تحدث هذا عن سيّده لا يصفه إلا على أنه النغل البوّال والبّراز النتن الرائحة . وهذا لا يحدث لأن كل وصيف يتعلّم من سيده . فاذا لم يكن هذا السيد من النوع الذي يشتم ، فان الوصيف لا يشتم . حين كنت في الخدمة النظامية في بوديوفيتسه كان هناك ملازم أول يدعى « بروخازكا » . لم يكن هذا يشتم كثيراً : بل كان معتاداً فحسب على أن يقول لوصيفه : « أيتها البقرة الجميلة . » ولم يكن وصيفه المسمى «هيمان » يسمع أي شتيمة أخرى منه . وهكذا اعتاد هيمان هذا بالطبع على هذه الكلمة حين عاد إلى الحياة المدنية بحيث أصبح يقولها لأبيه وأمه وأخواته : « أيتها البقرة الجميلة» . وقد قال هذا الكلام نفسه لخطيبته فما كان منها سوى أن قطعت علاقتها به ورفعت عليه دعوى بتهمة اهانة شرفها . لأنه قال هذا الكلام لها ولأبيها وأمها علنا خلال حفلة رقص . ولم تسامحه أبداً وقالت أمام المحكمة انه لو ناداها بالبقرة على انفراد لكانت سترضى بمصالحته ربما ، ولكن القضية كما حدثت كانت تعني فضيحة على مستوى أوربا . وبيني وبينك يا كونيرت ، فانه لم يسبق لي أن فكّرت بملازمك الأول على أنه سيء إلى هذا الحد . لقد ترك عندي انطباعاًلطيفاًجداً في المرة الأولى الذي تحدثت فيهااليه.لقدكان أشبه ما يكون بالمقانق المدّخنة ، طازجاً ولذيذاً وقادماً من المدخنة فوراً ، وحين تحدثت إليه في المرة الثانية بدا لي مثقفاً وقارئاً وحساساً . أين مسقط رأسك ؟ أنت من بوديوفيتسه بالذات ؟ أنا سعيد دائماً حين أصادف

أشخاصاً قادمين من مكان ما بالذات . وأين تسكن فيها؟في القناطر؟ جيد على الأقل المكان رطب هناك في الصيف . هل لك أسرة ؟ زوجة وثلاثة أطفال ؟ أنت محظوظ ياصديقي . سيكون لك على الأقل من يلبس ثياب الحداد عليك ، كما اعتاد قسيسي العزيز « كاتس » أن يقول في مواعظه . وهذا صحيح طبعاً لأني سمعت مرة عقيداً يتحدث بهذه الطريقة حين كان يخطب في الاحتياطيين في بروك ، الذين كانوا ذاهبين من هناك إلى الصرب : كل جندي يخلف وراءه اسرة ويسقط في ساحة الوغى بقطع كل صلاته العائلية ، أو كانت كلماته على وجه الدقة كما يلي (وهنا يتكلم شفيك مقلّداً ذلك العقيد بلكنته الألمانية وتشيكيته الركيكة) : «إن كان جثة ، فهو اذن جثة العائلة . الصلات العائلية تتحطم، ولكنه أنجز أعظم بطولة ، لأنه ضحى بحياته في سبيل العائلة الأكبر ، في سبيل الوطن . » هل تعيش في الطابق الرابع ؟ في الطابق الأرضي ؟ طبعاً ؟ لقد نسيت أنه في الساحة في بوديبوفيتسه لا يوجد بناء واحد من أربعة طوابق . هل ستذهب الآن ؟ آه ، حسنا ، أرى ملازمك الأول يقف أمام حافلة الضباط وينظر في هذا الاتجاه . إذا ما حدث وسألك أن كنت قد تحدثتُ عنه ، فقل له طبعاً أني فعلتُ ولا تنسى أن تقول له كيف تحدثتُ عنه بلطف ، وكيف قلتُ أني نادراً ما قابلتُ ضابطاً يتصرّف بكل تلك الروح الودية والأبوية التي يتحلّى هو بها . ولا تنسى أن تقول له إني اعتبره شديد الاطلاع والثقافة وقل له أيضاً إنه ذكي جداً . قل له كذلك إني حذرتك بأن تتصرف معه على نحو جيد وأن تطيع كل أمرمن أوامره . هل ستتذكر ذلك كله ؟

دخل شفيك إلى عربته وعاد كونيرت إلى حجره مع خيطانه .

بعد ربع ساعة استأنفوا الرحلة نحو « نوفاتشابينا» عبر القريتين

المدمرتين «بريسنوف » و « فيليكي رادفاني» . كان واضحاً أن قتالا مريراً جرى هناك . في منحدرات الجبال الكارباثية حفرت الخنادق الممتدةمن واد إلى آخر على امتداد خط السكة الحديدية بعوارضهاالجديدةوالذي كانت على جانبيه حفر ضخمة خلفتها القنابل . كانت السكة تتبع الألسنة المنبسطة العليا من نهر « اللابورتيس» ، وهنا وهناك فوق الجداول التي تصب فيه كان ممكناً رؤية الجسور الجديدة والأعمدة المتفحمة لتلك الجسور التي حلت هذه محلها .

في الطريق إلى ميدز لابورتسه كان الوادي كله مثلّما وأكوام التراب ترتفع عالية وكأن جيوشاً من المناجذ العملاقة كانت تعمل هناك . كان الطريق خلف النهر محفّراً ومدّمراً ، وعلى امتداده كان ممكناً رؤية الامتدادات المسحوقة التي خلفتها الجيوش التي مرت فوقها .

كانت العواصف والأمطار قد كشفت عن الخرق الممزقة من البزات النمساوية الموجودة عند حوا ف الحفر التي خلفتها القنابل .

خلف «نوفا تشابينا» اشتبكت بأغصان شجرة صنوبر محترقة فردة حذاء جندي مشاة نمساوي وقطعة من عظم قصبته .

في الأماكن التي استعرت فيها نيران المدفعية كان ممكناً رؤية غابات دون أوراق أو أكواز ، وأشجار دون تيجان ومزارع بمبانيها وقد ضربت بالقنابل .

مضى القطار ببطء عبر الجسور المبنية حديثاً . حتى تستطيع الكتيبة أن تستوعب وتتذّوق على نحو شامل متع الحرب . لدى مشاهدتهم للمقابر العسكرية بصلبانها البيضاء اللامعة في السهول وفوق منحدرات الجبال المدمرة ، كان ممكناً للجميع أن يحضرّوا أنفسهم ببطء ولكن

بثقة ، لميدان المجد الذي ينتهي بقبعة نمساوية مغطاة بالطين ترفرف فوق صليب أبيض .

بعد « هومينيه » صمت الجنود الألمان القادمون من « كاشبر سكه هوري » والجالسون في العربات الخليفة ، رغم أنهم كانوا لازالوا يغنون في محطة « ميلوفيتسه» : « حين أجيء ، حين أجيء ، حين أجيء من جديد . . . »

لقد فهموا أن كثيراً من أولئك الذين كانت قبعاتهم فوق صلبان المقابر قد غنّوا مثلهم عن مدى جمال العودة إلى البيت والبقاء هناك إلى الأبد مع حبيباتهم .

في « ميدزيلا بورتسه » توقفوا خلف المحطة المدمرة المحترّقة . كانت هناك عوارض ملتوية تبرز من جدرانها المغطاة بالسخام ، وقد ألصق على الحظيرة الخشبية الطويلة التي تم بناؤها بسرعة بدلاً عن المحطة المحترقة ملصقات بكل اللغات تقول : « ساهِموا في قروض الحرب النمساوية » .

كانت هناك حظيرة طويلة أخرى تضم مستودعاً للصليب الأحمر . خرج منها ممرّضتان وطبيب عسكري بدين . كانت الممرضتان تضحكان على نحو صاخب على الطبيب العسكري الذي كان يقلد مختلف أصوات الحيوانات لتسليتهما ويحاول دون نجاح أن يقبع كالخنزير .

في أسفل الجسر في مجرى النهر كان مطبخ ميداني مدمرً . أشار شفيك اليه وهو يقول لبالون :

ــ انظر يابالون ، هذا ما علينز توقعه في المستقبل القريب . كانت

حصص الرجال من الطعام على وشك التوزيع ولكن قذيفة سقطت وسببت هذا الخراب والفوضى .

تنهد بالون قائلا :

— هذا مخيف . لم أتصور أبداً أن شيئاً كهذا كان ينتظرني . ولكن هذا كله نتيجة لكبريائي اللعينة لأني ، أنا المتوحش البائس ، اشتريت قفازين من جلد الجدي في بوديبوفيتسه في الشتاء الماضي . لقد ظننت أني أرقى من أن أرتدي بيديّ الفلاّحيتين هاتين القفازين القديمين اللذين كان أبي المرحوم يرتديهما ، ولذا بقيت أتوق توقاً شديداً إلى تلك القفازات المصنوعة من جلد الجدي التي تباع في البلدة . كان أبي يقتنع بتناول البازلاّء المسلوقة ولكني لم أكن أطيق تناولها بأي ثمن . وما كنت أتناول سوى الدواجن بل أصبحت أترفّع عن أكل لحم الخنزير المُحمّص العادي ، فقد اعتادت زوجتي أن تطبخه لي مع الجعة ، فليغفر لي الرب !

بدأ بالون بعد أن أصيب باليأس يقدم اعترافاً كاملاً :

— لقد جدّفت على القديسن والشهداء . في احدى الحانات في «مالشه» وفي «دولني زاهايي» ضربت القسيس . لقد استطعت أن أؤمن بالله فحسب ، لا أنكر ذلك ، ولكني كنت أشكّ بالقديس يوسيف . في البيت كنت أتحمل كل القديسين باستثناء صورة القديس يوسيف التي كان لابد من إزالتها من أمام ناظرّي ، والآن يعاقبني الله على كل تلك الخطايا وعلى لا أخلاقياتي . لكم ارتكبتُ من تصرفات لا أخلاقية في غرفة الطحن ! الكم شتمتُ أبي وجعلت حياته عبئاً ثقيلاً على كاهله . لكم تنمرتُ على زوجتي .

فكّر شفيك للحظة ثم قال :

ـ أنت طحّان ، أليس كذلك ؟ اذن عليك أن تعرف أنه رغم أن طواحين الله تطحن ببطء الاّ أنها تطحن على نحو دقيق جداً ، هذا إذا لم تكن الحرب العالمية قد اندلعت بسبب خطاياك !

ثم انضم المتطوع إلى الحديث فقال :

ـ مع ذلك التجديف ياbالون ، ورفضك الاعترا ف بكل القديسين والشهداء ، فلا شك أنك أسأت إلى نفسك لأن عليك أن تعرف أن جيشنا النمساوي كان لسنوات عديدة جداً كاثوليكيا محضاً ، ويجد مثاله الأمجد في قائدنا الحربي الأعلى . كيف يمكنك أن تتواقح إلى حد الدخول إلى المعركة حاملا في قلبك سم الكراهية ضد بعض القديسين والشهداء ، في حين أن وزارة الحربية قدمت مواعظ يسوعية للضباط في قيادات الحاميات ، بعد أن شهدنا انبعاث مجدنا العسكري ؟ هل أنت واثق من أنك تفهمني يا بالون ؟ هل تدرك أنك ترتكب جريمة ضد الروح المجيدة لجيشنا المجيد ، فيما يخص القديس يوسيف الذي قلت انك لا تسمح بتعليق صورته في بيتك ! ولكنك يا بالون تعرف أنه في الواقع القديس الحامي لكل من يتهرّب من الخدمة العسكرية . لقد كان نجّاراً وأنت تعرف التدبير الشائع : « هيّا نر أين ترك النجار ثقباً » (١) . كم سمح أناس لأنفسهم بأن يؤسروا تطبيقاً لهذا الشعار ؟ فحين تم تطويقهم من كل الجهات رأوا حتمية الأمر وحاولوا الحفاظ على حياتهم ، ليس لاعتبارات أنانية ، بل لاعتبارات تتعلّق بكونهم أعضاء في الجيش ، وذلك حتّى يستطيعوا ، حين يطلق سراحهم لاحقاً أن يقولوا لصاحب

(١) مثل تشيكي يعني : « هيا بنا نهرب » . (س . ب .)

الجلالة الامبراطورية : « نحن هنا في انتظار أوامرك ثانية الأبوية . » والآن هل تفهم ذلك يا بالون ؟

تنهد بالون قائلا :

— لا ، لا أفهم . رأسي سميكة جدا . فيما يخصني ، عليك أن تكرر كل شيء عشر مرات .

قال شفيك :

— ألا يمكنك أن تفهم بعدد أقل من المرات؟ إن كان ذلك ممكناً أستطيع أن أشرح لك الموضوع مرة أخرى . لقد كنت تصغي إلى كلام مفاده أن عليك أن تتصرف وفق الروح السائدة في الجيش ، وأن عليك أن تؤمن بالقديس يوسيف ، وأنه حين تكون مطوقاً من قبل العدو عليك أن تبحث عن المكان الذي ترك فيه النجار ثقباً ، حتى تستطيع الحفاظ على حياتك لأجل صاحب الجلالة الامبراطورية ولأجل المزيد من الحروب . والآن ربما فهمت ما أعني ومن الأفضل لك أن تعترف لنا ، بالمزيد من التفاصيل ، بتلك الأعمال اللاأخلاقية التي ارتكبتها فعلا في غرفة الطحن تلك . ولكن اياك أن تحكي لنا أي شيء مشابه لحكاية تلك الفتاة التي ذهبت إلى القسيس لتعترف ، وبعد أن اعترفت بخطايا عدة احمر وجهها وقالت أنها ترتكب في كل ليلة أعمالاً لا أخلاقية . وحين سمع القسيس ذلك فانك تستطيع أن تتصور كيف تحلب فمه فوراً وقال : « لا تخجلي يا ابنتي العزيزة . أنا هنا مكان الرب ، وبامكانك أن تروي لي أدق التفاصيل عن أعمالك اللاأخلاقية تلك » . وهكذا انفجرت الفتاة باكية وقالت أنها خجلة لأنها أعمال لا أخلاقية إلى حد مرعب . وقد شرح مرة أخرى أنه أبوها الروحي . وفي النهاية وبعد تردد طويل ،

بدأت تحكي له كيف اعتادت أن تخلع ملابسها وتتسلل إلى الفراش . ثم لم يستطع أن يستخلص منها كلمة واحدة أخرى بل عادت إلى المزيد من البكاء . فقال لها مرة أخرى انه لا يتوجب عليها أن تخجل ، وأن الانسان بطبيعته اناء للخطيئة ولكن رحمه الله واسعة . وهكذا قررت أخيراً أن تنطق فقالت له وهي تشرق بدموعها : « حين أخلع ملابسي وأدخل إلى الفراش أبدأ باخراج الأوساخ من بين أصابع قدمي وأتشمّمها . » وكانت تلك هي كل لا أخلاقياتها . ولكني آمل يا بالون أنك لم تفعل ذلك في غرفة الطحن وأنك ستحكي لنا شيئاً أكثر دسماً ، شيئاً لا أخلاقياً بالفعل .

وقد تبيّن أن بالون وفقا لما رواه قد ارتكب أعمالاً لا أخلاقية مع الفلاحات في غرفة الطحن ، ولكن لا أخلاقياته كانت تتعلق بخطيئة الغش في الدقيق التي يدعوها هو بعمل لا أخلاقي . كان أكثر الحاضرين خيبة هو خودونسكي الذي سأل بالون أن لم يرتكب شيئاً بالفعل مع أولاء الفلاحات فوق أكياس الدقيق في غرفة الطحن ، فما كان من بالون سوى أن لوّح بذراعيه وأجاب :

— كنت أشد حمقاً من أن أفعل ذلك .

تم ابلاغ الجنود بأن وجبة الغداء ستؤخذ إلى ما خلف «بالوتا » في «ممر لوبكوفسكي » ، هذا وقد خرج رقيب أول امدادات الكتيبة وانطلق إلى قرية « ميلنزيلا بورتسه » مع طباخي كل السرايا والملازم الأول الأول « كايتهامل» المسؤول عن تموين الكتيبة . وقد أرسلت معهم دورية مؤلفة من أربعة جنود .

وقد عادوا بعد أقل من نصف ساعة مع ثلاثة خنازير ربطت من قوائمها الخلفية ومع أسرة «روثينية » مولولة صودرت منها الخنازير

والطبيب العسكري البدين من الصليب الأحمر الذي كان يشرح بانفعال شيئاً ما للملازم الأول كايتهامل بينما راح ذاك يهزّ كتفيه فحسب .

وقد وصل الجدال إلى قمته خارج حافلة الضباط حين بدأ الطبيب العسكري يقول للنقيب ساغنر صراحة أن تلك الخنازير كانت مخصصة لمستشفى الصليب الأحمر . ولكن الفلاح كان يرفض الاقرار بذلك ويطالب باعادة الخنازير اليه . وكان يلح على أنها ما تبقى له من ممتلكات وانه لا يستطيع بكل تأكيد أن يتخلى عنها لقاء السعر الذي دفع له .

وبينما كان يقول ذلك حاول أن يدس النقود التي حصل عليها لقاء الخنازير والتي كان يمسك بها في يد النقيب ساغنر ، أما زوجة الفلاح فكانت تمسك باليد الأخرى للنقيب وتقبّلها بذلك الخنوع الذي يميزّ أهل تلك المنطقة .

كان النقيب ساغنر فزعاً تماماً من هذا كله وقد انتظر برهة قبل أن يستطيع دفع الفلاحة العجوز بعيداً عنه . ولكن كان ذلك كله عبثاً .فقد جاء ت قوى شابة لتحلّ محلّها وتقبّل له يديه .

أعلن الملازم الأول كايتهامل بلهجة جدية وعملية :

— هذا النغل يملك اثني عشر خنزيراً غير هذه ، وقد دفع له المبلغ الصحيح وفقاً لآخر أمر صادر عن الفرقة ورقمه (٢ ١٤٤)،الجزء الخاص بالاطعام منه . وهذا الأمر ، ينص في الفقرة (١٦) منه على أنه يتوجب شراء الخنازير في المناطق الخارجة عن نطاق العمليات الحربية بسعر لا يزيد عن كراونين و (١٦) هلرا لكل كيلو غرام من الوزن الحي . أما في المناطق المتأثرة بالعمليات الحربية فيضاف إلى سعر كيلو غرام من الوزن الحي (٣٦) هلرا وهذا يعني كراونين و (٥٢) هلرا لكل

كيلو غرام . وهناك حاشية اضافية تقول أنه في حالة وجود مزارع في المناطق المتأثرة بالعمليات العسكرية بقيت قطعانها من الخنازير والحيوانات الأخرى سليمة لم تمس ، ويمكن تسليمها لغرض الطعام للوحدات العابرة فان الدفع لقاء الخنزير المصادر يمكن أن يكون بالسعر الذي دفع خارج المناطق الحربية من دفع مبلغ اضافي قدره (١٢) هلرا لقاء كل كيلو غرام من الوزن الحي . وإذا كان هذا الوضع ليس واضحاً تماماً تؤلف على الفور لجنة مؤلفة من الشاري وقائد الوحدة العسكرية العابرة والضابط أو الرقيب الأول المسؤول عن الامدادات (ان كانت الوحدة ذات تشكيل صغير) والإطعام .

قرأ الملازم الأول كايتهامل هذا كله من نسخة من أمر الفرقة التي كان يحملها معه باستمرار . ولذا كان يعرف مسبقاً عن ظهر قلب تقريباً أن سعر كيلو غرام الجزر في منطقة العمليات الحربية قد ازداد بنسبة ١٥,٣٠ هلرا وأن سعر القنبيط المخصص لطعام الضباط قد ازداد بنسبة كراون واحد و ٧٥ هلرا .

كان أولئك الذين أصدروا هذه الأوامر في فيينـــا يتصورون أن منطقة العمليات الحربية أرض تفيض بالجزر والقنبيط .

قرأ الملازم الأول كايتهامل هذا الكلام بالألمانية طبعاً للفلاح الثائر وسأله ان كان قد فهمه . وحين هزّ هذا الأخير رأسه صرخ فيه :

— هل تريد لجنة اذن ؟

فهم الفلاح كلمة « لجنة » وأومأ برأسه موافقاً . وبينما كانت خنازيره تُحرّ قبل لحظة إلى المطبخ الميداني لاعدامها ، ها هو محاط الآن بجنود شاهري الحراب يقومون بمهمة المصادرة . انطلقت اللجنة نحو

مزرعته لتقرر أن كان يتوجب دفع مبلغ كراونين و (٥٢) هلرا للكيلو الواحد أم كراونين و (٢٨) هلرا .

وما كادوا يصلون إلى الطريق المؤدية إلى القرية حتى دوّت من المطابخ الميدانية صرخات الموت الثلاثية الحادة للخنازير .

فهم الفلاح أن الأمر قد انتهى فصاح يائساً :

— أعطوني غيلدرين «راين» عن كل خنزير .

أحاط به الجنود الأربعة على نحو ألصق . وركعت عائلته كلها على تراب الطريق أمام النقيب ساغنر والملازم الأول كايتهامل .

طوقت الأم وابنتاها ركبتي كل من الرجلين،ورحن يخاطبنهما على أنهما من المحسنين المتبرعين للأعمال الخيرية حتى صاح بهن الفلاح باللهجة «الروثينية » التي يتكلم بها الروس من سكان « كارباثيا» الجنوبية وطلب منهن النهوض : فليملأ الجنــود بطونهم بالخنازير ولتكن نهايتهم وخيمة .

وهكذا انتهت مهمة اللجنة ، ولكن بما أن الفلاح بدأ فجأة يتحول إلى العناد ويهدد بقبضته ، فقد ضربه أحد الجنود بعقب بندقيته حتى أن معطفه المصنوع من جلد الخروف دوّى من الضربة . ثم رسمت العائلة كلها اشارة الصليب وهربت كلها مع أبيها .

بعد عشر دقائق كان رقيب أول امدادات الكتيبة مع جندي ارتباط الكتيبة ماتوشيتش يستمتعان بأكل مخ الخنزير في عربتهما ، وبينما كان الرقيب الأول يملأ بطنه بشجاعة ، راح يقول بلهجة لاذعة للكتيبة من وقت لآخر : « تريدون قضمة ، أليس كذلك ؟ حسنا يا أولادي ، هذا

للرتب العليا فقط . يحصل الطباخون ورقباء الامدادات على المخ والرأس والعنق ، والكتبة على ضعف حصة الجنود العاديين من اللحم . »

كان قد سبق للنقيب ساغنر أن أصدر أمراً فيما يخص طعام الضباط : « لحم الخنزير المحمص مع بذور الكروياء . اختاروا أفضل نوعية من اللحم بحيث لا يكون كثير الدهن ! »

وهكذا حدث أنه حين وزعت في ممر لوبكوفسلي حصص الجنود من الطعام ، وجد كل جندي في حصته من الحساء قطعتين صغيرتين من اللحم ، أما من صدف وولد تحت نجم غير سعيد فلم يجد سوى قطعة من الجلد .

في المطبخ سادت بالطبع المحاباة العسكرية المعتادة حيث تمت مكافأة كل أولئك المقربين من الزمرة الحاكمة . لقد بدا الوصيف في ممر لوبكوفسكي بشفتين يغطيهما الدهن ، وأصبح لكل جندي ارتباط بطن أشبه بالصخرة المدورة . لقد كان الظلم صارخاً إلى أبعد الحدود .

أثار ماريك ضجة في المطبخ لأنه اراد أن يكون عادلاً ، وحين وضع الطباخ في حسائه شريحة كبيرة الحجم من مفصل مشوي وهو يقول: « هذه لمؤرخنا» ، قال هذا إن الناس في الجيش سواسية كلهم . وقد لقي كلامه هذا استحساناً جماعياً ووفّر عذراً مقبولاً لشتم الطباخين .

أعاد المتطوع شريحة اللحم إلى الطباخ وهو يقول بجزم انه لا يريد أية محاباة . ولم يفهم الطباخون هذا وظنّوا أن مؤرخ الكتيبة ليس راضياً عن حصته ، ولذا أخذه الطباخ جانبا وقال له أنه لو اتى لاحقاً بعد توزيع الحصص سيحصل على جزء من ساق .

كانت أنوف الكتبة لامعة من الدهن كما كان جنود الارتباط يشخرون من الامتلاء، وحول هذا المشهد الذي يدّل على الوفرة كانت آثار آخر المعارك ، فهاهي علب الذخيرة في كل مكان وكذلك الصفائح الفارغة وخرق البزّات الروسية والنمساوية والألمانية ، وأجزاء من عربات مدّمرة وشرائط طويلة دامية من ضمادات الشاش والقطن .

لقد تحولت المحطّة إلى كومة من الركام ، كما كان بالامكان مشاهدة قذيفة لم تنفجر وقد أسكنت نفسها في شجرة صنوبر قديمة . في كل مكان كان ممكناً أن ترى شظايا القنابل ، ولا شك أنّه قد جرى دفن جثث الجنود في مكان مجاور حيث كانت رائحة النتانة قوية جداً .

وبينما كانت القوّات تمر وتعسكر في الجوار كان ممكناً مشاهدة أكوام من الغائط البشري في كل مكان ، وهو غائط دولي ينتمي إلى كل شعوب النمسا وألمانيا وروسيا . كان غائط الجنود من كل الجنسيات والعقائد مكوّماً جنباً إلى جنب أو فوق بعضه البعض دو ن أن يتشاجر فيما بينه .

كما كان الجنود قد قاموا بتثقيب صهريج ماء نصف مدمر وكوخ خشبي خاص بحارس السكة الحديدية وكل شيء له جدران ، وذلك برصاص البنادق ، فبدا كل شيء كأنه منخل .

ولإكمال هذا الانطباع عن مسرات الحرب ، كانت سحب من الدخان ترتفع من خلف هضبة ليست بعيدة جداً ، وكأن قرية كاملة تحترق هناك في مركز عمليات عسكرية واسعة النطاق . وفي الواقع فانهم كانوا يحرقون الأكواخ التي كانت تؤوي المرضى من المصابين بالكوليرا والزحار مما أشعر السادة المعنييّن بانشاء ذلك المستشفى تحت رعاية

« الأرشدوقة ماري » براحة كبيرة ، كما أدخل ذلك الاطمئنان أيضاً إلى قلوب أولئك اللصوص الذين سلبوا مبالغ محترمة من المال عن طريق التلاعب بحسابات أكواخ لا وجود لها لمرضى الكوليرا والزحار .

وها هي مجموعة من الأكواخ يُضحىّ بها الآن لأجل المجموعات الأخرى كلها ، ومع نتن حشايا القش المحترقة المتصاعد إلى السماء ، تصاعدت أيضاً كل لصوصية الرعاية الأرشدوقية .

خلف المحطة كان الألمان من « الرايخ» قد سارعوا إلى اقامة نصب تذكاري على احدى الصخور لمن سقط من جنود البراند نبورغ ، وقد حفر عليها : « ابطال ممرّ لوبكوفسكي » ، كما نصبوا أيضاً عقاب الرايخ الألماني المصنوع من البرونز . وعلى قاعدة النصب ذكر بوضوح أن الشعار قد صنع من المدافع الروسية التي غُنمت خلال تحرير الجبال الكارباثية من قبل الأفواج الألمانية من الرايخ .

في هذا الجو الغريب الذي لم يكونوا قد اعتادوا عليه ، كان أفراد الكتيبة يرتاحون في عرباتهم بعد الغداء وكان النقيب ساغنر ومساعد الكتيبة يتبادلان البرقيات بالشيفرة مع قاعدة اللواء دون أن يستيطعا الوصول إلى تفاهم حول مسألة تقدم الكتيبة مسافة أخرى . كانت الرسائل عديمة الدقة وإلى حد بدا معه وكأنه ما كان يتوجب على الكتيبة أن تصل إلى ممر لوبكوفسكي اطلاقاً ، بل كان يجب أن تسافر في اتجاه مختلف تماماً من « ساتوراليا أويهيلي » ، لأن البرقيات كانت تذكر أماكن مثل : « تشاب ، يونغفار ، كيس — بير يزن ، أوشوك . »

وبعد دقائق تبين أن ضابط الأركان الجالس في قاعدة اللواء كان مغفلاً تماماً فقد وصلت برقية بالشيفرة تسأل أن كانت هذه الكتيبة هي

الكتيبة الثامنة المتقدمة من الفوج الخامس والسبعين (الشيفورة الحربية رقم ز — ٣) . وقد بدأ أن المغفل الجالس في قاعدة اللواء قد دهش عند سماع الجواب بأنهم الكتيبة السابعة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين فسألهم عمّن أمرهم بالتوجه إلى « موكاتشيفو» على امتداد خط السكة العسكرية نحو « ستّريي» بينما كان طريق التقدم المخطط للكتيبة عبر ممرلوبكوفسكي باتجاه «سانوك » في غاليسيا . وقد دهش المغفل تماماً من وصول البرقية من ممر لوبكوفسكي وأرسل الرسالة التالية بالشيفرة : « طريق التقدم دون تغيير . الاتجاه ممر لوبكوفسكي — سانوك وهناك انتظروا أوامر أخرى .»

بعد عودة النقيب ساغنر جرى حديث في حافلة الضباط عن بعض عن بعض الأشخاص الذين فقدوا عقولهم وكانت هناك تلميحات أكيدة إلى أنه لولا الألمان من الرايخ فان مجموعة الجيوش الشرقية كانت ستفقد عقلها تماماً .

حاول الملازم الأول دوب الدفاع عن حماقة هيئة الأركان النمساوية وهذر بما معناه أن المنطقة هنا قد دمرتها المعارك الأخيرة التي جرت وأنه لم يكن ممكناً اعادة السكة الحديدية إلى سابق عهدها بعد .

نظر كل الضباط اليه برثاء وكأنهم يقولون : « هذا السيد لا يستطيع سوى أن يكون أحمق لعينا . » وحين لم يلمس الملازم الأول دوب أية معارضة بدأ يثرثر ثانية حول الانطباع الرائع الذي تركته مشاهد الدمار هذه عليه ، حيث أنها برهنت على القوة الهائلة التي تتحلى بها القبضة المدرعة لجيشنا . ومن جديد لم يسمع أي جواب ، فكرر قائلا :

— أجل ، وانه لمن لمن المؤكد طبعاً أن الروس هربوا من هنا وهم في حالة من الذعر الشامل .

وقد قرّر النقيب ساغنر أنه في أول فرصة سانحة وحين تكون الحالة خطيرة بالفعل في الخنادق ، سيقوم بارسال الملازم الأول دوب كضابط دورية لاستطلاع مراكز العدو خلف شبكات الأسلاك الشائكة . وقد قال هامسا للملازم الأول لوكاش حين كانا يتكئان كلاهما على نافذة الحافلة :

— هؤلاء المدنيون اللعينون يسببّون لي صداعاً رهيباً . كما أن المثقّفين منهم هم أكثرهم رداءة .

كان يبدو وكأن الملازم الأول دوب لن يتوقف أبداً عن الحديث . لقد راح يشرح لكل الضباط ما قرأه في الصحف عن تلك المعارك الّتي جرت في الجبال الكاربائية والقتال الذي جرى لاستعادة الممرّات فيها خلال الهجوم النمساوي — الالماني على نهر «السان» .

لقد تحدث عن الموضوع ليس كأنه واحد ممن شاركوا في تلك المعارك فحسب بل وكأنه قد قاد تلك المعارك بنفسه .

وقد كان كلامه كريهاً مقرفاً على نحو خاص حين تلفظّ بجمل من هذا الصنف : « ثم اتجهنا نحو « بوكوفسكو» لتأمين خط « بوكوفسكو — دينوف » ، وحتّى نبقي الاتصال مع مجموعة «بارديبوف» في «فيلكا بولانكا» حين سحقنا فرقة «سامارا المعادية . »

لم يعد الملازم الأول لوكاش قادراً على تحمل الأمر أكثر من ذلك فقال للملازم الأول دوب :

– وبالطبع سبق لك وتحدثت عن هذا الموضوع قبل الحرب مع ممثل الحكومة المركزية في مقاطعتكم !

رمى الملازم الأول دوب لوكاش بنظرة بشعة وغادر الحافلة .

كان القطار العسكري واقفاً على جسر وتحت المنحدر بأمتار كان ممكناً رؤية أشياء مختلفة خلّفها الجنود الروس وهم يتقهقرون ، وذلك على امتداد هذا المسيل :

أباريق شاي صدئة ، وقدور صغيرة ذات مقابض وجعب ذخيرة . وإلى جانب هذه الأشياء المتنوّعة كانت لفّات من الأسلاك الشائكة والمزيد من شرائط الشاش والقطن المدماة . في أحد الأماكن كانت مجموعة من الجنود تقف وهي تطلّ على حفرة ، وقد لاحظ الملازم الأول دوب فوراً أن شفيك كان يشرح لهم شيئاً ما .

وهكذا ذهب الملازم الأول دوب لينضم اليهم .

قال بصوت حازم وهو يقف مباشرة أمام شفيك :

– ما الذي يحدث هنا ؟

أجاب شفيك عنهم :

– ابلغكم بتواضع ياسيدي أننا نلقي نظرة .

صاح الملازم الأول دوب :

– وما الذي تلقون نظرة عليه ؟

– ابلغكم بتواضع ياسيدي أننا نلقي نظرة على الحفرة .

– من سمح لكم بذلك ؟

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أنها كانت رغبة عقيدنا شرودر في «بروك» . فحين كنا وعلى وشك الرحيل إلى ساحات المعارك جاء لتوديعنا ثم قال في خطابه إن علينا حين نعبر ساحات المعارك أن ندرس بكل عناية كيف جرت المعركة ونبحث عما يمكن أن يكون ذا فائدة لنا . وفي هذه الحفرة يمكننا أن نرى كل ما على الجندي أن يتخلى عنه حين يتقهقر . نستطيع أن نرى هنا ، كما أبلغكم بتواضع ياسيدي ، كم يكون الجندي غبياً حين يحمل معه كل هذه الأشياء التي لا فائدة منها والتي تُثقل عليه دون ضرورة . انها ترهقه . كما أنه لو حمل مثل هذه الأثقال معه فلن يستطيع أن يقاتل بسهولة .

وفجأة شعّ الأمل في صدر الملازم الأول دوب ، فقد يتمكن أخيراً من تقديم شفيك إلى محكمة ميدانية حربية بتهمة نشر دعاية خيانية مضادة للحرب ، فسأله بسرعة :

— اذن فأنت تظن أن على الجندي أن يتخلى عن طلقاته كما يمكننا أن نرى في الحفرة هنا ، أو عن حربته كتلك التي نراها هناك ؟

— لا بالطبع ، لا ، ياسيدي كما أبلغكم بتواضع .

هذا ما أجاب به شفيك وهو يبتسم بود ثم استأنف :

— ولكن أرجوك أن تنظر هنا إلى تلك المبولة المهجورة من النوع الذي يستعمل في غرف النوم .

وتحت الجسر كانت تقبع بالفعل وعلى نحو استفزازي مبولة صدئة من المينا المطروق بين شظايا وأجزاء من أوعية أخرى . كل هذه المواد التي لم تعد صالحة للاستعمال المنزلي كانت قد وضعت هنا من قبل ناظر

المحطة كمواد يتجادل حولها علماء الحفريات في العصور القادمة ، والذين سيجنّون تماماً لدى اكتشافهم لهذه المستوطنة ، كما أن الأطفال في المدارس سيلقنون دروساً حول عصر المباول المصنوعة من المينا .

حدق الملازم الأول دوب إلى هذه المبولة ولم يستطع سوى أن يؤكد أنها كانت بالفعل واحدة من المحاربات القديمات المصابات بعاهة والتي قضت ريعان شبابها تحت أحد الأسرّة .

وقد ترك هذا انطباعاً هائلا لدى الجميع ، وحين لم يقل الملازم الأول دوب شيئاً قال شفيك :

ـ ابلغكم بتواضع ياسيدي أنه حدث مرة الكثير من الهزل بسبب مبولة في « بود بيبرادى سبا » . لقد سمعت عن ذلك في حانة في فينوهرادى . كانوا قد بدؤوا في ذلك الحين بنشر جريدة محلية تسمى «الاستقلال » وكان صيدلاني من بود بيبرادي هو الشخص الرئيسي وراء تلك الجريدة ، وقد عينوا كرئيس تحرير لها شخصاً يسمى «لاديسلاف هاييك» (١) من « دوما جليتسه» . وكان ذلك الصيدلاني شخصاً غريب الأطوار اعتاد أن يجمع الأواني والمباول القديمة والأشياء المشابهة حتّى لقد أصبح لديه متحف كامل منها . وقد قام هاييك القادم من « دوما جليتسه» ذاك بدعوة صديق له مرة إلى بود بيبرادي سبا وكان هذا الصديق صحفياً أيضاً ، وقد شربا كلاهما حتّى الثمالة فقد كانا قد افترقا منذ اسبوع كامل . وقد وعد الصحفي صديقه بأنه سيقوم لقاء هذه الحفلة بكتابة مقالة ساخرة لأجل صحيفة «الاستقلال » ، تلك

(١) هنا بالطبع تشابه مقصود مع اسم مؤلف الرواية « ياروسلاف هاشيك . »
(المترجم)

الصحيفة المستقلة التي يعتمد عليها في معيشته . وهكذا كتب مقالة ساخرة عن جامع تحف وجد في رمال شاطىء نهر «إلبه» مبولة معدنية قديمة من النوع الذي يستعمل في غرف النوم ، فظنّ أنها كانت خوذة «القديس فنتسيسلاس»، وأثار الكثير من الهرج والمرج حولها وإلى حد أن الأسقف « برينيخ» من « هرادتس» جاء ليراها ضمن موكب احتفالي وبيارق . ثم أن صيدلي « براد يبيرادى »ظن أن هذه المقالة الساخرة قد كُتبت عنه فتشاجر هو والسيد هايك .

كان الملازم الأول دوب يتوق إلى دفع شفيك من على الجسر ولكنه سيطر على نفسه وصاح في الجنود جميعاً :

— آمركم بألا تضيّعوا وقتكم بالوقوف والتفرج هنا ! لا أحد منكم يعرفني بعد ، ولكن انتظروا حتّى تعرفوني . . .

ثم قال بصوت رهيب حين كان شفيك يهم مع الآخرين بالعودة إلى العربات :

— ياشفيك ، ابق هنا !

وهكذا بقيـــا واقفين الواحد أمام الآخر ، وكان الملازم الأول دوب يفكر باجتهاد بشيء مخيف بقوله لشفيك .

ولكن شفيك قال فجأة :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أني أتمنىّ لو تبقى الطقس جيداً كما هو فهو ليس حاراً جداً في النهار كما أن الليالي لطيفة تماماً ، ولذا فان هذا هو أنسب وقت للحرب .

سحب الملازم الأول دوب مسدسه وسأل شفيك :

— هل تعرف ما هذا ؟

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أنيّ أعرفه ، فالملازم الأول لوكاش كان لديه واحد يشبهه ، كما تعرف .

— قال الملازم الأول دوب بجدّية ووقار وهو يعيده إلى مكانه :

— إذاً ، فلا تنسه أيها النغل ، عليك أن تعرف أن شيئاً كريهاً جداً قد يحدث لك لو تابعت نشر دعاياتك هذه .

ثم كرر لنفسه : « والآن وضعت الكلام في قالبــه الصحيح : « دعاياتك هذه » ، أجل ، « دعاياتك هذه » .)

وقبل أن يدخل شفيك إلى عربته مرة أخرى تجوّل لفترة قصيرة وهو يهمهم في نفسه : « كيف أصنفّه ياترى ؟ » ولكنه كان كلّما فكر في الموضوع كلما أصبح واضحاً له أن تصنيفه كان كما يلي : «نصف ضرطة . »

في لغة الجيش كانت كلمة «ضرطة» رائجة الاستعمال منذ الأبد ، وكان هذا اللقب المحترم يُضفى عادة على الأغلب على العقداء أو النقباء والروّاد ، وهو يشير إلى منزلة أعلى من المصطلح الدارج «العجوز اللعين » . وكانت تسمية «العجوز » دون صفة «اللعين » تشير إلى تقدير ودّي لعقيد عجوز أو رائد شديد الغرور ، إنما مغرم في الوقت نفسه برجاله ويحميهم من الأفواج الأخرى ، وخاصه فيما يتعلق بالدوريات التي تقوم بتجميعهم من الحانات حين لا يكونون قد منحوا«اجازةطويلة». كان «العجوز» ضابطاً يهتم بشؤون جنوده وبطعامهم،ولكن كان هناك دائماً أمر ما يستحوذ على تفكيره أو هو بصدد شيء ما . . . وهكذا كان يُسمى «العجوز » .

ولكن حين يكون «العجوز» من النوع الذي يزعج الضباط والجنود دون ضرورة ، ويخترع عمليات ليلية وأشياء أخرى مشابهة ، فانه يصبح « العجوز اللعين » .

ومن « العجوز اللعين » يصبح القائد الذي يصل إلى مراتب الحقارة والتنمر والحماقة : «ضرطة» . كانت هذه الكلمة مليئة بالمعاني ، كما أن الفرق هائل بين استعمالها في الحياة المدينة واستعمالها في الحياة العسكرية .

ففي الحياة المدنية يطلقها المراسلون والمرؤوسون في الدوائر الحكومية على موظف كبير ، ويكون هذا في العادة بيروقراطياً عديم الأخلاق ، يتذمر من أن المسودة لم تكن قد جففت تماماً بالورق النشاف أو ما شابه ، كما يكون في العادة ظاهرة لعينة حمقاء جداً من ظواهر المجتمع البشري لأن البغل من هذا الصنف يتظاهر في العادة بالإخلاص والأمانة والشرف ، ويريد أن يفهم كل شيء ، وأن يفسرّ كل شيء وأنه يتزعج من كل شيء .

وأي شخص سبق له وخدم في في الجيش يفهم بالطبع الفرق بين هذا النوع من «الظاهرة المدنية » و « الضرطة » المرتدية للبزة العسكرية . فهنا تعني هذه الكلمة « عجوزاً » لعيناً ، لعيناً حقاً ، وقد جعل من نفسه نغلاً كاملاً فيما يتعلّق بكل شيء، ولكنه مع ذلك لا يتوقّف أمام أي عائق . انه لا يحب الجنود ويتشاحن معهم بلا طائل ، كما أنه لا يستطيع أن يحصل على السلطة التي يتمتع بها عادة « العجوز » أو «العجوز اللعين » .

في بعض الحاميات مثلا ، كما في « ترنتو» ، يستعمل الجنود بدلا عن « ضرطة » كلمة «برازنا العجوز » . وفي هذه الحالات كافة يطلق هذا اللقب على شخص عجوز ، وحين عمدّ شفيك الملازم الأول دوب

فلقّبه بـ « نصف ضرطة» ، كان يشخصّ على نحو منطقي حالة الملازم الأول من حيث السن والرتبة ، اذ أنه في الحقيقة أقل بخمسين بالمئة من حيث النوعية عن«الضرطة» . حين عاد إلى عربته وهو يحمل هذه الأفكار في رأسه قابل الوصيف كونيرت فرأى وجهه متورماً وسمعه يهمهم بشيء غير مفهوم حول اصطدامه بسيده الملازم الأول دوب الذي لكمه فجأة ودون سابق انذار مرات عديدة على فكّه ، متذرّعاً بأن لديه البرهان على صداقته مع شفيك .

قال شفيك بهدوء :

— إذا كانت الحال هكذا فسوف يكون علينا أن نطلب المثول أمام لجنة التأديب ، فالجندي النمساوي لا يسمح بأن يضرب على الوجه الا في حالات معينة . ولكن سيدك قد تجاوز كل الحدود . لقد اعتاد الأمير العجوز يوجين أمير سافوي أن يقول : « هناك حدود لكل شيء » والآن عليك أن تذهب وتطلب المثول أمام لجنة التأديب وإذا لم تفعل ذلك سألكمك أنا بنفسي ، و ألكمك على وجهك لأعلمك ما يعنيه الانضباط في الجيش . في الثكنة في «كارلين» كان هناك مرة ملازم أول يدعى «هاوزنر» ، وكان له وصيف أيضاً . وقد اعتاد أن يلكمه على فكّه وأن يرفسه . وفي احدى المرات تلقى هذا الوصيف العديد من اللكمات على الفك بحيث فقد صوابه وتقدم إلى لجنة التأديب ، وبما أن الأمور قد اختلطت عليه ، فقد أفاد بأنه جرى رفسه . وهكذا استطاع سيدُه ذاك أن يبرهن على أنه كاذب حيث أنه لم يرفسه في ذلك اليوم بل لكمه على الفك فحسب . ونتيجة لذلك سُجن الوصيف الطيبّ لمدة ثلاثة أسابيع بسبب تقديمه تهمة مزيفة .

ثم استأنف شفيك :

— ولكن ذلك لا يؤثر على القضية ، فهذا هو الشيء نفسه الذي اعتاد طالب الطب «هوبيتشكا» أن يقوله : إنك حين تشرح جثة شخص ما في مؤسسة الباثولوجيا، فالنتيجة واحدة سواء كان هذا الشخص قد مات مشنوقاً أو مسموماً . ولكني سأساعدك . في الجيش بضع لكمات على الفك ليست نكتة .

وهكذا استطاع شفيك أن يقنع كونيرت واقتاده إلى حافلة الضباط .

هدر الملازم الأول دوب وهو يطل من نافذة الحافلة :

— ما الذي تسعيان اليه هنا أيها النغلان ؟

حثّ شفيك كونيرت قائلا :

— تصرّف بوقار .

ثم دفعه نحو الحافلة .

في ممر الحافلة ظهر الملازم الأول لوكاش وخلفه النقيب ساغنر .

أصيب الملازم الأول لوكاش ، الذي كان يعرف شفيك جيداً ، بدهشة رهيبة حين رأى شفيك وقد خلع عن وجهه تعبيره الهادىء الودود ، إذ كانت قد ارتسمت عليه الآن بعض التعابير القاسية وليس البهجة المعتادة .

قال شفيك :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أن المسألة يجب أن تحال إلى لجنة التأديب .

— كرمى لله لا تتصرف بحماقة من جديد ياشفيك . لقد مللت من ذلك .

قال شفيك :

— هل تسمح لي ياسيدي بالكلام كجندي ارتباط لسريتك ؟ أنت ياسيدي ، لو تفضلت وسمحت لي بالكلام ، قائد السرية الحادية عشرة المتقدمة ، إذا سمحت ياسيدي . أستطيع أن أفهم ياسيدي أن هذا يبدو غريباً جداً ، ولكني أعرف أيضاً ياسيدي أن الملازم الأول دوب تحت إمرتك .

قاطعه الملازم الأول لوكاش قائلا :

— لقد جننت تماماً ياشفيك . أنت ثمل ! الأحرى بك أن تبتعد من هنا . هل تفهم أيها الأحمق اللعين ، أيها النغل ؟

قال شفيك وهو يدفع كونيرت أمامه :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أن الأمر يبدو أشبه بما حدث في براغ حين حاولوا استعمال حاجز واق لحماية الناس من الوقوع تحت عجلات الترام . وقد سقط المخترع نفسه ضحية للتجربة واضطر مجلس المدينة إلى دفع تعويض لأرملته .

أومأ النقيب ساغنر ، الذي لم يعرف ما يقول، برأسه موافقاً، بينما بدا على الملازم الأول لوكاش اليأس الكامل .

تابع شفيك كلامه بتصميم :

— يجب أن يُعرض كل شيء على لجنة التأديب . لقد ضُرب حتى فقد صوابه . لكمه الملازم الأول دوب على فكّه وهو غير قادر على

التبليغ عن ذلك بنفسه . أبلغكم بتواضع ياسيدي أن عليكم أن تنظروا اليه حتى تروا كيف ترتجف ساقاه . لم تعد فيه حياة لأنّه مضطر للشكوى إلى لجنة التأديب . ولولاي لما كان سيتقدم أبداً بالشكوى إلى لجنة التأديب ، وذلك كما حدث لرجل يدعى «كوديلا» من بينتو خوف . فحين كان هذا في الخدمة النظامية كان يتقدم إلى لجنة التأديب باستمرار حتى تم نقله إلى البحرية حيث أصبح بوّاقاً ، ثم أعلن عنه كهارب من الخدمة على جزيرة في المحيط الهادي . وهناك تزوج ، كما وتحدث أيضاً إلى الرحالة هافلاسا الذي لم يخطر له أن كوديلا ذاك ليس من السكان المحليين . . . انه لأمر محبط فعلا أن يتقدم المرء إلى لجنة التأديب بسبب تلقيه بضع لكمات سخيفة على الفك . لم يكن يريد أن يأتي إلى هنا وقال إنه لا يريد ذلك . وعلى أية حال فقد كان الضرب قد سحقه وأفقده صوابه إلى حد أنه ما كان يعي اللكمات التي كان يشكو منها . ما كان يريد أن يأتي إلى هنا اطلاقاً وكان يريد أن يتلقى المزيد من الضرب مراراً وتكراراً . أبلغكم بتواضع ياسيدي أن تتفضلوا بالنظر اليه . انه في أسوأ حال بسبب ما أصابه . ولكن كان عليه من ناحية أخرى أن يشكو فوراً بسبب تلقي تلك اللكمات ، ولكنه يخشى ذلك لأنه يعلم أنه من الأفضل الأخذ بنصيحة شاعر قال مرة « كن بنفسجة متواضعة .» إنه يخدم الملازم الأول دوب كما ترى .

قال شفيك لكونيرت وهو يدفعه أمامه :

ــ لا ترتعش كورقة السنديان الرجراجة !

أمر النقيب ساغنر كونيرت أن يروي له كيف جرت الحادثة .

وقد أكد كونيرت على أية حال ، وهو يرتجف من رأسه إلى أخمص

قدميه ، انهم يستطيعون سؤال الملازم الأول دوب ، فهولم يضربه أبداً على الوجه .

وبينما كان لا يزال يرتجف قام كونيرت اليهوذا بالادعاء بأن القضية كلها من اختراع شفيك .

وقد وضع الملازم الأول دوب حداً لهذه المسألة المربكة بأن ظهر فجأة وهو يهدر مخاطباً كونيرت :

ــ هل تريد أن تنال المزيد من اللكمات على الفك ؟

اذن كانت المسألة الآن واضحة تماماً وقال النقيب ساغنر للملازم الأول دوب بكل بساطة :

ــ من الآن فصاعداً فان كونيرت سيلحق بمطبخ الكتيبة ، أما مسألة ايجاد وصيف جديد لك فالأفضل لك أن تطلب ذلك من رقيب أول الامدادات فانييك .

ضرب الملازم الأول دوب التحية وهو يخرج وقال لشفيك :

ــ أود أن أراهن على أنك ستشنق في أحد الأيام .

وبعد أن رحل التفت شفيك إلى الملازم الأول لوكاش وقال بلهجة لطيفة ودية :

ــ مرة في «منيخو فوهراديشتيي» قال سيد كهذا مخاطباً رجلاً آخر بمثل هذا الكلام وكان الجواب : « سنرى بعضنا في ساحة الاعدام . »

قال الملازم الأول لوكاش :

ــ ياشفيك أنت أحمق لعين فعلا ، ولكن اياك أن تقول كما هي عادتك : « ابلغكم بتواضع ياسيدي أني أحمق لعين ! »

قال النقيب ساغنر وهو ينكيء مطلا من النافذة :

– رائع !

كان يود الابتعاد عن النافذة ولكنه لم يستطيع ذلك حيث ظهرت الكارثة في شكل الملازم الأول دوب الواقف تحتها .

بدأ الملازم الأول دوب الكلام بأن قال انه آسف جداً أن النقيب ساغنر قد ابتعد حين كان يشرح أسباب الهجوم على الجبهة الشرقية فلم يستمع إلى ما قاله .

قال الملازم الأول دوب مخاطباً النافذة :

– لو كان علينا أن نفهم هذا الهجوم العملاق فان علينا أن ندرك كيف تطور الهجوم في نهاية شهر نيسان . كان علينا أن نخترق الجبهة الروسية وقد وجدنا أن الخط بين الجبال الكارباثية ونهر الفيستولا أكثر الأماكن ملاءمة للاختراق .

أجاب النقيب ساغنر بلهجة مقتضبة :

– ولكني لست في صدد مناقشتك حول هذا الموضوع .

ثم غادر النافذة .

وحين استؤنفت الرحلة بعد نصف ساعة باتجاه « سانوك » تمدد النقيب ساغنر على المقعد وتظاهر بالنوم ، لعل الملازم الأول دوب ينسى في هذه الأثناء استنتاجاته المبتذلة حول الهجوم .

في عربة شفيك تفقدوا بالون فلم يجدوه . وكان في الواقع قد ترجى وتوسل حتى سمحوا له بمسح قدر الغولاش بقطعة من الخبز . وهاهو

الآن في عربة المطبخ الميداني وفي وضع مزعج جداً حيث أنه حين بدأ القطار بالانطلاق طار هذا وغطس في القدر ورأسه إلى الأسفل وساقاه إلى الأعلى . وعلى أية حال فقد اعتاد هذا الوضع وكان ممكناً سماع شفتيه وهما تلعقان القدر من الداخل . وكان ذلك أشبه بقنفذ يطارد الخنافس . وقد أمكن سماع صوت بالون المتوسل لاحقاً وهو يقول : « كرمى لله ياشباب ، تلطفوا برمي قطعة خبز إلي . لا يزال هنا الكثير من المرق . » وقد استمرت هذه الأنشودة الرعوية الرومانسية حتى المحطة التالية حيث وصل القطار وقد أصبح قدر السرية الحادية عشرة نظيفاً إلى حد أن المعدن في داخله كان لامعاً كالمرآة .

قال بالون وهو يشكرهم بحرارة :

ـ بارك الله فيكم ياشباب . هذه أول مرة يبتسم لي فيها الحظ منذ أن دخلت الجيش .

ما كان يمكن لأي شيء أن يكون أصدق من هذا الكلام . ففي ممر لوبكوفسكي استطاع بالون الحصول على حصتين من الغولاش. وقد عبّر الملازم الأول لوكاش عن سروره لأن بالون جلب له حصة كاملة من مطعم الضباط دون أن يمسّها على الطريق ، وقد ترك له لاحقاً نصفها . كان بالون سعيداً على نحو هادىء ، وراح يؤرجح ساقيه اللتين كانتا مدلاتين من القطار وبدت له الحرب كلها فجأة دافئة وأليفة .

بدأ طباخ السرية يغيظه ويقول له انهم حين يصلون إلى سانوك سيتم طبخ وجبتي عشاء وغداء أخريين وذلك للتعويض عن الجوع الذي عانوا منه طوال الرحلة . وقد أومأ بالون برأسه موافقاً وهمس :

ـ سترون أيها الرجال أن الله لن يتخلى عنا .

ضحك الجميع من القلب وبدأ الطبّاخ الجالس فوق المطبخ الميداني يغني :

« لن يتخلى الله عنا ، لن يفعل !

إذا رمانا الله في تراب

فسوف يفركنا به ، وهذا أمر آكيد .

إذا رمانا في الغابات

فسوف يمزقنا إلى اشلاء . وأنا واثق من أنه يستطيع ذلك .

لن يتخلى الله عنا . لن يفعل ! »

* * *

خلف محطة « «شتسافنه » بدأت تظهر مقابر عسكرية جديدة في الوديان من جديد . وتحت «شتسافنه» كان ممكناً مشاهدة صليب حجري عليه تمثال للمسيح دون رأس ، وكان ممكناً للجنود أن يروا ذلك من داخل القطار . وكان التمثال قد فقد رأسه حين تم تفجير خط السكة الحديدية .

زاد القطار من سرعته وهو يهبط الوادي نحو سانوك . بدأ الأفق يتسع أكثر فأكثر وأصبح ممكناً مشاهدة المزيد من مجموعات القرى المهجورة على جانبي السكة .

إلى القرب من «كولاشنه » كان ممكناً مشاهدة قطار للصليب الأحمر وقد سقط في النهر . كان قد وقع عن جسر السكة الحديدية وتحطم تماماً .

جحظت عينا بالون لدى مشاهدته لهذا المنظر ، وقد دهش تماماً

بسبب رؤيته لأجزاء القاطرة المتناثرة من تحته . كانت المدخنة قد انحشرت في الجسر وبرزت منه كأنها مدفع من عيار ثمانية وعشرين .

كما أثارت هذه الظاهرة اهتمام ركاب العربة التي كان شفيك فيها ، وقد كان يورايدا أكثرهم اثارة اذ صاح :

— عجبا ! وهل اطلاق النار على عربات الصليب الأحمر مباح ؟

قال شفيك :

— ليس مباحاً ولكن ممكن ارتكابه . كانت تلك اصابة في الصميم وهم سيعتذرون لاحقاً بالطبع ، ويتذرعون بأن الوقت كان ليلا دوماً وما كان ممكناً رؤية اشارة الصليب الأحمر . هنالك الكثير من الأمور في العالم غير مباحة ولكنها ترتكب . الشيء الأساسي هو أن يحاول كل شخص أن يرتكب ما هو غير مباح له وبذلك يرتكب ما يريد . خلال المناورات الامبراطورية في بيسيك صدر أمر يقضي بأنه لا يتوجب توثيق الجنود خلال المسيرة . ولكن كان من رأي نقيبنا أن هذا غير ممكن لأن أمراً كهذا سخيف إلى حد مخيف . وعلى أية حال فانه يمكن لأي شخص أن يعرف أن الجندي الموثق لا يستطيع المسير . وهكذا لم يتجنب الأمر بل قام بكل بساطة وعقلانية برمي الجنود الموثقين في عربات قطار البضائع وكان بذلك قادراً على استئناف المسير معهم . أو اليكم حالة أخرى جرت في شارعنا منذ خمس أو ست سنوات خلت . فالسيد كارليك كان يسكن في الطابق الأول بينما كان يسكن في الطابق الثاني رجل طيب اسمه ميكيش وهو طالب في المعهد الموسيقي . كان هذا مولعاً بالنساء وبدأ يلاحق ابنة السيد كارليك وهو يعمل كموزع للصحف ولديه أيضاً دكان للحلويات وكذلك ورشة لتجليد الكتب باسم آخر

مختلف تماماً وذلك في مورافيا . وحين علم السيد كارليك أن الطالب كان يطارد ابنته ذهب لزيارته في شقته وقال له : «لن تتزوج من ابنتي. لن أعطيهالك!» أجاب السيد ميكيش : « حسنا، إذا كنت لا أستطيع الزواج منها فما الذي تتوقع مني أن أفعله ؟ هل تتوقع مني أن أنشر نفسي إلى نصفين ؟ » وبعد شهرين زاره السيد كارليك ثانية وأحضر معه زوجته . وقد قالا معا وبصوت واحد : «أيها النغل ، لقد جعلت ابنتنا تخسر شرفها فأجابهما : « لقد فعلت ذلك بالطبع ، فقد سمحت لنفسي أن أحولها إلى عاهرة ياسيدتي . » ثم بدأ السيد كارليك يصيح دون مبرر قائلا انه سبق وأنذره بأنه لا يتوجب عليه الزواج من ابنته وأنه لن يعطيها له ، ولكن السيد ميكيش أجاب عن حق أنه لن يتزوجها وأنهما لم يتناقشا سابقاً عما يستطيع أن يفعله بها . بل عن الزواج منها فحسب . لم يكن هناك أي خلاف حول ذلك . اذن سيحافظ على وعده ، وليس على الأبوين أن يقلقا حيث أنه لن يتزوجّها . كان شخصاً وليس مجرد قشة في الهواء . وكان سيحافظ على وعده لأنه حين يقول شيئاً ينفذه . ولو تمت مقاضاته بسبب ذلك فلن يكترث بالأمر لأن ضميره نظيف . لقد طلبت منه أمه المرحومة على فراش الموت أن يقسم بأنــه لن يكذب طوال حياتــه ، وقد منحها هذا الوعد ومثل هذا القسم ملزم . في أسرته لم يسبق أن وجد كذّاب واحد . وكان ينال في المدرسة أفضل العلامات على سلوكه الجيد . إذاً يمكنك أن ترى من هذا أن هناك الكثير من الأمور غير المباحة ولكن يمكن ارتكابها على أية حال ، وأنّ « أساليبنا قد تختلف ، الاّ أنّ على محاولاتنا أن يكون متشابهة . »

قال المتطوع الذي كان يكتب الملاحظات بحماسة :

— أيها الأصدقاء الأعزاء لكل غيمة بطانة فضية . هذا القطار الخاص

بالصليب الأحمر والذي نُسف وسَقَط عن الجسر نصف محترق يغني التاريخ المجيد لكتيبتنا باضافة عمل بطولي جديد للمستقبل . فأنا أتصور أنه في السادس عشر من أيلول (سبتمبر) ، وكما سبق لي أن دوّنت هنا ، سيتطوع جندي عادي أو اثنان من كل سرية من سرايا كتيبتنا وذلك تحت قيادة عريف ، لنسف قطارات العدو المصفّحة والتي تقوم بالرمي علينا وتمنعنا من عبور النهر . سيتخفّى هؤلاء كفلاحين وينفّذون مهمتهم بكل شرف .

ثم صاح المتطوع وهو ينظر إلى دفتر ملاحظاته :

— ما الذي أراه هنا ؟ كيف وصل السيد فانييك إلى هنا ؟

ثم قال وهو يلتفت إلى فانييك :

— اسمع أيها الرقيب الأول ، يالها من مقالة جميلة وصغيرة كتبتها عنك لأجل تاريخ كتيبتنا . أعتقد أنه سبق وورد ذكرك مرة في تاريخي ولكن من شأن هذه أن تكون أجمل وأدسم .

ثم تلا بصوت قوي مثير للخيال :

((((الموت البطولي لرقيب أول الامدادات فانييك))))

« كانت الخطة الرامية إلى نسف القطار المصفح المعادي خطة جريئة . وقد تطوع رقيب أول الامدادات فانييك ضمن من تطوّعوا للاشتراك فيها متخفياً كالآخرين في ملابس الفلاحين . هذا وقد صعقه الانفجار مؤقتاً وحين استعاد وعيه وجد نفسه محاطاً بالأعداء . وقد قام هؤلاء بارساله فوراً إلى رئاسة أركان فرقتهم حيث رفض رغم تهديده بالاعدام أن يفشي بأية معلومات حول مواقع وأعداد قواتنا . وبما أنه كان متنكراً

فقد حكم عليه بالشنق كجاسوس ، ولكن نظراً لرتبته العالية فقد تم تخفيف العقوبة لتكون بالرصاص . وقد تم تنفيذ الحكم الإعدام فوراً عند الجدار المقبرة كما طلب رقيب أول الامدادات فانيك الشجاع ألا يعصبوا له عينيه . وحين سألوه إن كانت لديه رغبة أخيرة أجاب : « انقلوا تحياتي إلى كتيبتنا عبر أحد مفاوضي الهدنة ، قولوا إني أموت وأنا على قناعة من أن كتيبتنا ستستمر في التقدم نحو الأمام على طريق المجد وقولوا للنقيب ساغنر أنه وفقاً لآخر أمر صادر عن اللواء فانه تمتّ زيادة الحصة المخصصة من المعلبات إلى علبتين ونصف يومياً لكل رجل . » وهكذا مات رقيبنا الأول فانيك . وقد زرع الرعب بجملته الأخيرة التي لفظها قبل موته في قلوب أعدائنا الذين كانوا يظنون أنهم إذْ منعونا من عبور النهر فقد كانوا يقطعون عنا خط الامدادات ، وبذلك يجوعوننا ويحطمون لنا معنوياتنا . إن حقيقة أنه لعب «الكاوفزفيك» مع ضباط أركان العدو لشهادة على الهدوء الذي واجه به الموت : « اعطوا المبلغ الذي كسبته من اللعب معكم إلى الصليب الأحمر الروسي . » هذا ما قاله وهو ينظر إلى فوهات بنادق فرقة الاعدام . هذه الشهامة الفائقة جعلت الدموع تترقرق في عيون المندوبين العسكريين الذين كانوا حاضرين . »

استأنف المتطوع قائلا :

— اعذرني ياسيد فانيك لأني سمحت لنفسي بأن أتصرف بالمال الذي كسبته . لقد كنت أفكر إن كان يتوجب منحه بالأحرى إلى الصليب الأحمر النمساوي ، ولكني اعتقدت في النهاية أنه من جهة النظر الانسانية فان الأمر سيّان ، شريطة منحه لمؤسة إنسانية .

قال شفيك :

— كان يمكن لرقيبنا الأول المرحوم أن يمنحه إلى « مؤسة حُساء مدينة براغ » ، ولكن الأفضل أن تبقى الأمور على ما هي عليه حيث أن محافظ المدينة قد يشتري مقانق لفرق كرة القدم بذلك المبلغ من المال .

قال خودونسكي :

— حسنا انهم يسرقون في كل مكان بالطبع .

قال يورايدا مهتاجاً :

— وخاصة في « الصليب الأحمر » ، إذ عرفت مرة رئيس طباخين كان مسؤولا عن طبخ الطعام للمرّضات في المبنى المخصص لهن ، وقد أخبرني أن الرئيسة ومعاوناتها كن يرسلن إلى بيوتهن الخمر المالقية والشوكولاته . هذا هو ما تجلبه الفرصة السانحة معها . انه تقرير مصير الانسان . كل انسان خلال مجرى حياة روحه الأبدية يمرّ بتغييرات لا حصر لها وعليه أن يبدو مرة في هذا العالم في دور اللص وذلك في فترات معينة من فترات نشاطه . لقد مررت بهذه التجربة شخصياً .

ثم أخرج زجاجة كونياك من حقيبته وقال وهو يفتحها :

— هنا يمكنكم أن تروا البرهان الجازم على رأيي ، فقبل رحيلي أخذت هذه الزجاجة من مطعم الضباط . انه كونياك من أفضل نوع وكان من المفترض أن يستعمل لتزيين قالب كاتو في نوع « لينتسر تورته » . ولكن شاءت الأقدار أن أسرقها ، كما شاءت أن أتحول إلى لص .

تدخل شفيك قائلا :

— يبدو لي بالفعل أنه لو كتب علينا أن نكون شركاء لك في هذه

الجريمة فلن يكون ذلك أمراً طالحاً أبداً بالفعل . وعلى أية حال فان لدي حسّ داخلي في القلب يشعرني أننا سنكون كذلك .

وقد تبين أن مشيئة القدر هذه كانت حقيقة واقعة . هذا وقد تم تمرير الزجاجة من واحد إلى آخر رغم احتجاجات رقيب أول الامدادات فانييك الذي أصر على أن يتّم شرب الكونياك من صفائح الطعام وأن يتّم توزيعه بالعدل لأن هناك خمسة رجال لزجاجة واحدة ، وهو رقم وتريّ كما أنه يمكن لأحد الأشخاص أن يشرب في جرعة واحدة أكثر من الآخرين ؛ بينما قال شفيك :

— هذا صحيح ، ولكن إن كان السيد فانييك يفضل وجود عدد شفعيّ فربما يود أن ينسحب من الدائرة وذلك ليتجنّب أي ازعاج أو جدال .

عند ذلك سحب فانييك اقتراحه وقدم اقتراحاً آخر ولكنه اقتراح سخي بالفعل ، فقد قال إن على صاحب الهدية يورايدا أن يضع نفسه في موضع يستطيع منه أن ينال جرعتين ، ولكن هذا أثار عاصفة احتجاج لأن فانييك كان قد سبق له ونال جرعة حين تذوق الكونياك لدى فتحه للزجاجة .

وأخيراً تم قبول اقتراح المتطوع بأن يتّم الشرب حسب التسلسل الأبجدية للاسماء . وقد برّر ذلك بقوله أن الاسم له علاقة بمشيئة القدر أيضاً .

هذا وقد انتهت الزجاجة عند خودونسكي الذي كان ترتيبه الأول حسب الترتيب الأبجدي . وبينما كان ينهي الزجاجة ألقى نظرة وعيد على فانييك الذي حسب أنه طالما كان الأخير في الترتيب فسوف تتاح له جرعة

أخرى . ولكن حساباته الرياضية كانت خاطئة ، فقد كان عدد الجرعات احدى وعشرين جرعة فحسب .

وبعد ذلك لعبوا لعبة «زفيك أم الثلاث ورقات » . وقد تبين أنه كلما كان المتطوع يشتّري ورقة كان يرافق ذلك ببعض الاقتباسات من الكتاب المقدس . فحين كان يشتّري ورقة « الشاب » (أو « الولد» أو « الخادم ») كان يقول : « أيها الرب اسمح لي بهذا الاسم لهذا الصيف أيضاً حتّى أحرث وأسمّد وينبت الثمر . »

وحين انتقدوه لتهوّره واقدامه على شراء ورقة « الثمانية » ، صاح بصوت هائل : « وأي امرأة لديها عشر قطع من الفضة وفقدت احداها ولا تشعل شمعة وتمسح البيت وتفتش عنها بكل جد واجتهاد ؟ حتّى إذا ما وجدتّها نادت على جاراتّها ورفيقاتّها وهي تقول : افرحن معي فقد اشتّريت ثمانية ووصلني أيضاً الملك والآس الرابح ! لذا أرجو أن تعطوني الأوراق فقد « احترقتم» جميعاً .»

كان لماريك حظ جيد جداً في لعب الورق بالفعل . فبينما كان الآخرون يحاولون كسب بعضهم البعض ، كان هو يكسب الكاسبين «فيحترقون » الواحد بعد الآخر ، بينما ينتزع هو الربح اثر الآخر . وكان يقول لأولئك الخاسرين : « وفي الأماكن ستكون هناك زلازل هائلة ومحن المجاعة والأوبئة ، وستكون هناك معجزات من السماء . » وفي النهاية أحسوا بالملل وتوقفوا عن اللعب حين خسر خودونسكي راتبه عن نصف سنة مقدماً . وقد حطمه ذلك تماماً ، كما أن المتطوع طلب منه إيصالا حتّى يقوم الرقيب الأول فانييك بدفع مرتب خودونسكي إليه .

قال له شفيك مواسياً :

— لا تخف يا خودونسكي . إذا كان لك أي حظ فسوف تسقط في أول اشتباك ولن يحصل ماريك على مرتبك . هيا وقّع له .

وقد انزعج خودونسكي كثيراً من ذكر سقوطه في المعركة إلى حد أنه قال بحزم :

— لا أستطيع السقوط لأني عامل الهاتف ، وعمال الهاتف يمكثون عادة في مراكز محصنة ، كما أن الأسلاك الهاتف يجري تمديدها واختبارها بعد العمليات فحسب .

ولكن المتطوّع أفاد أن من رأيه أن عمال الهاتف هم ، على العكس من ذلك ، معرضون لأخطار عظيمة لأن العدو يركّز نيران مدفعيته عليهم . ليس هناك عامل هاتف آمن في ملجئه . فلو كان على مسافة عشرة أمتار من سطح الأرض لاستطاعت مدفعية العدو ايجاده رغم كل ذلك . إن عمال الهاتف يتساقطون كالذباب والدليل على ذلك أنه حين غادر بروك كانوا يفتتحون الدورة الثامنة والعشرين لعمال الهاتف .

حدّق خودونسكي في ذعر مما جعل شفيك يدلي بهذا التعليق الودي البهيج :

— لا يمكنك أن تفعل أي شيء حيال ذلك ، وهي كلها مسألة قذرة على أية حال .

فأجابه خودونسكي بدماثة :

— اخرسي يا خالة !

قال ماريك :

ـ سأبحث عن الحرف «خ» في مذكراتي عن تاريخ الكتيبة . . . خودونسكي ، خودونسكي ، هاهه ! ها نحن « عامل الهاتف خودونسكي دُفن بسبب انفجار لغم . هتف إلى القيادة من قبره : « أنا أحتضر وأهنىء كتيبتنا على انتصارها ! »

قال شفيك :

ـ هذا بكل تأكيد جيد جداً . أم هل تريد المزيد ؟ هل تتذكر عامل الهاتف ذاك الذي كان على السفينة « تايتانيك » ؟ (١) فبعد أن كانت السفينة قد غرقت ظل يهتف إلى المطبخ الذي غمرته المياه وهو يسأل عن موعد وجبة الغداء .

قال المتطوع :

ـ لا فرق عندي . إذا فستكون آخر كلمات خودونسكي المحتضر هي الكلمات التالية التي يقول على الهاتف : « بلغوا تحياتي إلى لوائنا الحديدي ! »



(١) وهي سفينة الركاب الضخمة التي غرقت في عام (١٩١٢) في شمال الأطلسي .
(المترجم)

الفصل الرابع

إلى الأمام سر !

حين وصلوا إلى «سانوك» تبين في العربة التي تحمل المطبخ الميداني الخاص بالسرية الحادية عشرة حيث كان « بالون » المنتفخ يضرط من السعادة ، إنهم كانوا على حق تماماً في ظنهم أن العشاء سيقدم لهم ومعه كمية من الخبز العسكري تعوض عن حصص كل تلك الأيام التي لم تستلم فيها الكتيبة خبزاً . وحين خرجوا من العربات وجدوا أن مقر أركان «اللواء الحديدي » هو في سانوك أيضاً ، وأن الكتيبة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين تنتمي إلى هذه القيادة وفق شهادة معموديتها . ورغم أن عقدة اتصال السكة الحديدية باتجاه «لفوف » وباتجاه الشمال نحو « موشيسكا» كانت سالمة لم تمس ، إلا أن الناس ذهلوا لأن قيادة القطاع الشرقي قد قامت بالترتيبات اللازمة حتى يقوم «اللواء الجندي » مع أركانه بتركيز كتائبه المتقدمة على مسافة (١٥٠) كم خلف الخطوط بينما كانت الجبهة تمتد من «برودي » إلى نهر «البوغ» ، وعلى امتداد النهر شمالا إلى « سوكال » .

توضح هذا السؤال الاستراتيجي الهام بطريقة بسيطة جداً حين ذهب النقيب ساغنر ليقدم تقريراً بوصول الكتيبة المتقدمة إلى قيادة اللواء في «سانوك » .

كان الضابط المناوب هو معاون اللواء النقيب «تايرله» .

قال النقيب تايرله :

— يدهشني جداً أيها النقيب ساغنر أنك لم تتلقّ أيةمعلومات محددة. إن طريق تقدمكم معروفة تماماً . طبعاً عليك أن تبلغنا مسبقاً بخط تقدمك . ووفقاً لتوجيهات القيادة العليا فانت هنا « قبل يومين من الموعد المحدد لك » .

احمر وجه النقيب ساغنر قليلا ، ولكن لم يخطر له أن يكرر كل تلك البرقيات المرسلة بالشيفرة والتي كان يستلمها طوال الرحلة .

قال النقيب تايرله :

— عليّ أن أقول أنني مندهش فعلا أيها النقيب أنك . . .

أجاب النقيب ساغنر :

— كنت أتوقع منك أن تعاملني على نحو أقل رسمية فأنا ضابط في مثل رتبتك .

قال النقيب تايرله :

— حسنا كما تريد أيها «العجوز» ، ولكن قل لي هل أنت ضابط عامل أم احتياط مدني ؟ أنت ضابط عامل ؟ حسنا ، هذه حكاية أخرى إذاً . . . لا يمكن للمرء أن يحزر كما تعرف . لقد مرّ بنا الكثير من الحمقى اللعينين : ملازمون أوائل احتياطيون . وحين تراجعنا من «ليمانوفا» و « كراسنيك» فقد كل أولئك الملازمون الاحتياطيون عقولهم لدى مشاهدتهم لأول دورية من جنود القوزاق . في القيادة لا نُعير مثل

هذه الطفيليات أية أهمية . كما أن نغلاً غبياً مرّ باختبار الذكاء العسكري بعد لأي يذهب الآن وينضم إلى سلك الضباط العاملين أو ينجح في امتحان الضباط وهو مدني لا يزال . وبالطبع ، سيبقى مدنياً أحمق لعيناً طوال الوقت . وحين تأتي الحرب لا يبرهن على أنه ملازم اطلاقاً ، بل مجرد غائط جبان .

بصق النقيب تايرله وربت على ظهر النقيب ساغنر بحميمية واستأنف قائلا :

— ستبقى هنا لمدة يومين تقريباً . سأريك كل ما ينبغي أن تراه . كما سنقيم حفلة رقص . لدينا هنا بعض المومسات الصغيرات الجميلات : « مومسات ملائكيات » . ولدينا أيضاً ابنة جنرال سحاقية . ولذا نرتدي جميعاً ملابس النساء وسترى ما تستطيع هي أن تفعله ! ولكنها خنزيرة خسيسة إلى حد لا يمكنك أن تتصوّره . ولكنها تعرف شيئاً أو شيئين أيها العجوز !إنها مومس لعينة ! ولكنك ستكتشف ذلك بنفسك !

ثم قطع كلامه فجأة وقال :

— اعذرني ولكن عليّ أن أذهب وأتقيأ . انها المرة الثالثة اليوم .

وحتى يبرهن على مدى جو المرح السائد في المكان فقد قال للنقيب حين عاد إن هذا بسبب الحفلة التي حضرها الليلة الماضية والتي اشتركت فيها وحده السلاح الهندسة .

وسرعان ما تعرف النقيب ساغنر على قائد هذه الوحدة ، والذي كان أيضاً برتبة نقيب فقد اقتحم رجل هائل الطول يرتدي البزة العسكرية المكتب فجأة . كان في حالة من الانهيار فلم يلحظ وجود النقيب ساغنر وقال النقيب تايرله بلهجة حميمية :

– ما الذي تفعله أيها الخنزير العجوز ؟ لا شك أنك أثرت اعجاب الكونتيسة على نحو رائع البارحة .

ثم جلس على كرسي وقال وهو يهدر ضاحكا ويضرب على ربلتي ساقيه بعصا :

– حين أتذكر كيف تقيأت في حجرها . . .

قال تايرله :

– أجل لقد كانت أمسيتنا رائعة البارحة .

وهنا فحسب قُدِّم النقيب ساغنر إلى الضابط حامل العصا وغادروا جميعاً مكتب القسم الإداري للواء ليمضوا إلى مقهى حديث كان سابقاً عبارة عن قبو لبيع الجعة .

حين مروا عبر المكتب أخذ النقيب تايرله العصا من يد قائد وحدة الهندسة العسكرية وضرب بها ضربة قوية على منضدة طويلة كان يجلس من حولها اثنا عشر كاتبا عسكرياً. كان هؤلاء هم الرجال الراغبون في وظائف أمينة خلف الخطوط . وكانوا يتمتعون بكروش كبيرة وبزّات اضافية.

قال النقيب تايرله وهو يحاول أن يستعرض عضلاته أمام النقيب ساغنر والنقيب الآخر مخاطباً هؤلاء الحواريين البدينين المتبطلين :

– لا تظنوا أني أحتفظ بكم هنا لتسمينكم فحسب . أيتها الخنازير اللعينة ، من الأفضل لكم أن تخفّفوا من الطعام والشراب وأن تزيدوا من حركتكم .

ثم قال تايرله لرفيقيه :

– والآن سأريكما حيلة تدريبية أخرى .

ثم ضرب على المنضدة مرة أخرى بالعصا وقال يسأل الاثني عشر حوارياً :

— متى ستطقّون أيها الخنازير ؟

فأجابه الجميع بصوت واحد :

— وفق أوامرك يا سيدي .

وهكذا خرج النقيب تايرله من المكتب وهو يضحك من شدة غبائه .

وحين جلسوا ثلاثتهم في المقهى أمر تايرله بزجاجة من البير جابينكا وطلب أن تقوم بعض الشابات ممّن هن غير مشغولات بالانضمام اليهم . وهكذا تبين أن المقهى لم يكن في الواقع سوى ماخور ، ولكن بما أنّه لم تكن هناك شابات غير مشغولات فان النقيب تايرله غضب أشد الغضب وشتم «القوادة» بأقذع الشتائم وصاح «من مع الآنسة ايلا ؟» وحين علم أن هناك ملازماً أول معها زادت حدة توبيخه لها .

كان الملازم الأول دوب هو شريك الآنسة ايلا . وكان هذا قد استدعى كل رجال وحدته بعد أن وصلت الكتيبة إلى مكان مبيتها في مدرسة ثانوية ، وحذّرهم في خطاب مطوّل من أن الروس خلال تراجعهم قد أقاموا مواخير فيها نساء مصابات بالأمراض التناسلية حتى تصاب القوات النمساوية بخسائر هائلة عن طريق هذه الحيلة . لذا حذّر رجاله من ارتياد مثل هذه الأماكن . ولأنهم كانوا في منطقة الجبهة فسوف يقوم هو بالتحقّق شخصياً بواسطة تفتيش هذه الدور من أن رجاله ينفذّون أوامره . وأي رجل يعتقل هناك سيحاكم أمام محكمة ميدانية .

وهكذا ذهب الملازم الأول دوب للتحقق أن أوامره تطاع ، ولهذا السبب اختار كنقطة انطلاق لرحلته تلك الأريكة التي في حجرة الآنسة إيلا في الطابق الأول مما يسمى بـ « مقهى المدينة » . وكان يستمتع بوقته تماماً على الأريكة .

في هذه الأثناء عاد النقيب ساغنر إلى كتيبته . لقد تشتت شمل شلة النقيب تايرله اذ أن البحث كان جارياً على قدم وساق عن هذا النقيب في مقر أركان اللواء إذ كان قائد اللواء يبحث عن معاونه منذ أكثر من ساعة .

كانت أوامر جديدة قد جاءت من قيادة الفرقة وكان عليهم أن أن يقرروا بشكل نهائي طريق تقدم الفوج الواحد والتسعين الذي وصل للتو . ووفقاً للاجراءات الجديدة تقرر أن تقوم الكتيبة المتقدمة للفوج الثاني بعد المئة بالتقدم على الطريق التي كانت مخصصة في الأصل للفوج الواحد والتسعين .

لقد سادت الفوضى والتشوش ، وهاهم الروس يتراجعون بسرعة كبيرة في شمالي شرق غاليسيا ، حتى أن بعض المفارز النمساوية اختلطت ببعضها إلى حد كبير ، كما قامت بعض وحدات الجيش الألماني بدق بعض الأسافين في هذه المفارز ، وهاهي الفوضى قد اكتملت بوصول كتائب متقدمة جديدة ومفارز عسكرية أخرى . وفي قطاعات الجبهة الواقعة في المؤخرة عمت الفوضى أيضاً كما هو الحال في سانوك هنا حيث وصلت على نحو غير متوقع القوات الاحتياطية للفرقة الهانوفرية الألمانية تحت قيادة عقيد ذي هيئة قبيحة إلى حد أن العميد قائد اللواء أصيب بالاضطراب الكامل . قدم عقيد القوات الاحتياطية التابعة للفرقة

الهانوفرية التعليمات الخاصة بقيادته والتي يتوجب على أساسها أن يبيتوا في المدرسة الثانوية التي كانت الكتيبة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين تحتلها في هذه الساعة بالذات . كما طلب اخلاء مبنى « مصرف كراكوف » لايواء ضباط قيادته حيث يقيم الآن ضباط قيادة اللواء .

اتصل قائد اللواء بالفرقة ووصف الوضع بدقة . وبعد ذلك هتف العقيد الهانوفري ذو العينين الشريرتين إلى الفرقة ، ونتيجة لهاتفه استلم اللواء الأمر التالي : « على اللواء إخلاء المدينة في الساعة السادسة مساء باتجاه تيرافا فولوسكا – ليسكوفييتس – ستاراسول – سامبور ، حيث سينتظر هناك أوامر لاحقة . وسوف ترافقه الكتيبة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين والتي ستقدم له الحماية .» وقد تم اتخاذ الاجراءات في اللواء وفقاً للخطة التالية : ستغادر الطليعة عند الخامسة والنصف باتجاه «تيرافا » محتفظة بمسافة قدرها ثلاثة كيلو مترات ونصف الكيلو متر بين الجناحين الشمالي والجنوبي . أما حرس المؤخرة فيغادر في السادسة والربع .

وهكذا عمت الفوضى في المدرسة الثانوية وكان الشخص الوحيد الغائب عن اجتماع الضباط هو الملازم الأول دوب. وقد أوكلت إلى شفيك مهمة ايجاده .

قال الملازم الأول لوكاش لشفيك :

– آمل أن تجده دون صعوبات لأن هناك دائماً أمراً ما يجري بينك وبينه .

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أني أرجو أن تعطوني أمراً خطياً منكم . وذلك لأن هناك بالفعل أمراً ما دائماً بيني وبينه .

وبينما كان الملازم الأول لوكاش يكتب على ورقة من دفتر مذكراته أمراً ينص على حضور الملازم الأول دوب فوراً إلى المدرسة من أجل اجتماع الضباط ، استأنف شفيك قائلا :

— ليس عليك أن تقلق أبداً ياسيدي وبكل تأكيد . سأجده لأن الجنود محظر عليهم دخول المواخير ، وقد ذهب دون شك إلى أحدها ليرى إن كان أحد جنود فصيلته يريد أن يقدم إلى المحكمة العسكرية الميدانية ، وهو ما يهدد به عادة . لقد أعلن بنفسه أمام رجال فصيلته أنه سيمرّ على كل المواخير ، والويل ثم الويل لهم لأنهم سيعرفون الآن الجانب السيىء منه . وبالمناسبة ، فأنا أعرف أين هو . إنه في ذلك المقهى المقابل لنا بالضبط فقد راقبه الجنود كافة ليروا أين سيتجّه أولاً .

كانت المؤسسة التي ذكرها شفيك والمسماة : : « مجمع قاعات التسلية ومقهى المدينة» مقسمة إلى جزئين، وكان كل من لا يرغب في المرور بالمقهى يستطيع أن يلتفّ نحو الخاف حيث كانت سيدة عجوز جالسة تتشمس . وكانت هذه السيدة تتكلم الألمانية والبولونية والهنغارية وكان تعليقها في العادة كما يلي : « تعال أيها الجندي ، يابنيّ ، لدينا شابات جميلات هنا . »

وحين يدخل الجندي الابن تقوده على امتداد الممر إلى قاعة استقبال وتنادي على احدى الشابات التي تأتي مهزولة في قميصها التحتاني . ثم تطلب النقود مقدّماً ، وهو ما تفعله عادة بينما يخلع الجندي حربته .

كان الضباط يدخلون عبر المقهى . وكان طريق هؤلاء السادة المهذّبين أكثر تعقيداً لأنه يمرّ بـ « حجرات مستقلة » في مؤخرة المقهى حيث كان هناك خيار من صنف آخر مخصّص للضباط فقط ، وحيث

القمصان التحتانية من القماش المخرّم ، وحيث يُقدّم النبيذ والليكور .
لم تكن « القوادة » تسمح بارتكاب أي شيء هنا ، إذ أنه يتوجب أن يتم كل شيء في الحجرات المستقلة في الطابق العلوي . وفي احدى تلك الحجرات كان الملازم الأول دوب في سرواله التحتاني يتقلّب على الأريكة ويستمتع بهذا الشكل من أشكال الفردوس المليء بالبق ، بينما كانت الآنسة إيلا تحكي له مأساة حياتها ، وهي بالطبع حكاية متخيّلة تماماً ، كما يحدث عادة في مثل هذه المواقف ، لقد حكت له أن أباها كان صاحب مصنع وكانت هي معلمة في مدرسة متوّسطة للبنات في بودابست ، وأنها تمارس الآن هذه المهنة بسبب قصة حب مروعة .

على منضدة صغيرة خلف الملازم الأول دوب وفي متناول يده كانت زجاجة من البيرجابينكا وبعض الكؤوس . إن حقيقة أن الزجاجة كانت فارغة وأن الآنسة ايلا والملازم الأول دوب ما عادا قادرين على السيطرة على كلامهما ، كل هذا دليل مادي محسوس على أن الملازم الأول دوب ما كان يستطيع تحمل الشراب.ومن خلال كلامه كان واضحاً أنه يخلط الحابل بالنابل ويظن الآنسة ايلا وصيفه «كونيرت » . كان يدعوها باسم كونيرت ويهدد هذا الوصيف الخيالي بطريقته المعتادة : « كونيرت ، كونيرت ، أيها الحيوان ، انتظر حتى تعرف الجانب السيىء مني . . . »

كان من المتوقع لشفيك أن يمرّ بكل الاجراءات المتّبعة مع الجنود الأبناء الذين يلتفّون إلى خلف المبنى . وعلى أية حال فقد انتزع نفسه بلطف من احدى الفتيات التي كانت لا ترتدي سوى قميصها التحتاني والتي جعلت صرخاتها « القوادة » البولونية تركض نحوهما . هذا وقد أنكرت بصفاقة أن يكون لديها زبون برتبة ملازم اول .

قال شفيك بود وهو يبتسم لها بعذوبة :

– لا تصرخي علي هكذا ياسيدتي ، أو سأضطر إلى لكمك . في براغ مدينتي ، ضُربتْ مرة احدى القوادات في شارع بلا تنرجسكا إلى حد أنها لم تعد تعرف أين هي . في ذلك الحين كان من ضربها ابن يبحث عن أبيه وكان يسمى « فوندراتشيك » ويعمل في صناعة الاطارات . وكان اسم تلك « القوادة » هو « كرجوفانوفا » . وحين أعادوها إلى رشدها وسألوها في مستوصف الاسعاف الأولي عن اسمها قالت أنه شيء يبدأ بحرف (خ) . هل لي أن أسألك عن اسمك يامدام ؟

ولْوَلَتْ الرئيسة المحترمـــة حين دفعها شفيك جانبا وتقدم برزانة وصعد الدرج الخشبي إلى الطابق العلوي .

في الطابق السفلي ظهر صاحب الماخور نفسه ، وهو نبيل بولوني أصابه الفقر بعد غنى ، وقد ركض هذا خلف شفيك وحاول أن يشده من سترته وهو يصرخ بالألمانية أن الجنود العاديين وضباط الصف غير مسموح لهم بالصعود إلى الطابق العلوي ، حيث أنه مخصص للسادة الضباط فقط وأن الطابق الأرضي هو المخصص للجنود .

وقد أعلمه شفيك أنه قدم إلى هنا لخير ومصلحة الجيش كله ، وأنه يبحث عن ملازم أول بعينه لا يستطيع الجيش أن يتقدم إلى ساحة المعركة بدونه ، وحين أصبح البولوني أكثر عدوانية رماه شفيك من على الدرج واستمر في صعوده إلى الطابق الأعلى ليفتّش المكان . وقد تحقق من أن كل الحجرات كانت فارغة باستثناء تلك التي كانت في نهاية الممر . وهنا قرع على الباب ثم ضغط على الأكرة وفتح الباب نصف فتحة . وكان ممكناً سماع صوت إيلا الحاد وهي تصرخ : « مشغولة» ، وبعد

ذلك مباشرة كان ممكناً سماع صوت الملازم الأول دوب العميق الذي كان يظن نفسه في حجرته في المعسكر ، وهو يقول « أدخل ! »

دخل شفيك وتقدم إلى الأريكة وسلم إلى الملازم الأول دوب الورقة التي انتزعت من دفتر المذكرات . ثم أعلن وهو ينظر شزراً إلى مختلف أجزاء البزة العسكرية الملقاة في زاوية السرير :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أن عليك أن ترتدي ملابسك وذلك وفقاً للتعليمات التي أسلمها اليك ، وأن تحضر فوراً إلى ثكنتنا في المدرسة الثانوية حيث لدينا اجتماع عسكري ضخم هناك !

حدّق الملازم الأول دوب ببؤبؤيه الصغرين إلى شفيك ولكنه قال في نفسه إنه ليس ثملا إلى درجة أنه لا يستطيع تمييز شفيك . وقد تخيّل فوراً أنهم كانوا يرسلون شفيك اليه ليمثل أمام لجنة التأديب ولذا قال له :

— سأتعامل معك فوراً ياشفيك . سترى . . . ماذا . . . سيحدث . . لك . . .

ثم صاح مخاطباً إيلا :

— ياكونيرت ، صب . . . لي . . . كأسا . . . آخر !

ثم احتسى بعض الشراب وقال وهو يمزّق ورقة التعليمات ويضحك :

— أهذا . . . اعتذار ؟ معنا . . . لا فائدة . . . من الاعتذارات نحن . . . في الجيش . . . وليس . . . في . . . المدرسة . ولذا فهم . . . قد امسكوا بك . . . في ماخور ؟ اقترب . . . مني . . . ياشفيك . . . اقترب . . . سألكمك . . . على . . . حنكك . . . بضع لكمات . في

. . . أي . . . عام . . . هزم . . . فيليب . . . المكدوني . . . الرومان؟
أنت لا . . . تعرف ذلك . . . أيها الحصان الفحل !

استأنف شفيك بعناد :

— ابلغكم بتواضع ياسيدي أن هذا الأمر صادر عن أعلى سلطة في اللواء . على السادة الضباط ارتداء ملابسهم والذهاب لحضور اجتماع الكتيبة . نحن مغادرون كما تعرف ياسيدي . والآن سيتم تحديد أي سرايا ستشكل حرس الطليعة أو حرس الجناح أو حرس المؤخرة . الآن سيجري اتخاذ قرار حول هذا الموضوع وأظن ياسيدي أنه سيكون لك دور في تقرير ذلك .

كان لهذا الخطاب الدبلوماسي بعض التأثير على الملازم الأول دوب مما جعله يصحو قليلا ثم بدأ يشعر الآن أنه ليس في الثكنة على أية حال . ولكنه سأل مع ذلك من باب الحيطة :

— أين أنا ؟

— لك الشرف أن تكون في ماخور ياسيدي . ولله في خلقه شؤون .

تنهد الملازم الأول دوب تنهيدة عميقة ثم نزل على الأريكة وبدأ يبحث عن بزته وقد ساعده شفيك على ذلك . وبعد أن ارتدى كامل ملابسه أخيراً خرجا معاً ، لكن شفيك عاد للحظة . ودون أن يعير « إيلا » أي انتباه ، والتي لم تعره أي اهتمام بدورها ؛ بل عادت بسبب الحب الذي بذلته دون جزاء إلى الفراش مباشرة ؛ شرب شفيك ما تبقى في الزجاجة من البيرجابينكا وخرج ثانية ولحق بالملازم الأول .

في الشارع عاد رأس الملازم الأول دوب إلى التخيل مرة أخرى

فقد كان الطقس شديد الحرارة . وقد هذر كثيراً بأحاديث لا رابط لها . فقد قال إن لديه في البيت طابع بريدي من « هليغولاند » (١) وأنه بعد أن نجح في امتحاناته المدرسية ذهب مع زملائه للعب البالياردو دون أن يرفعوا قبعاتهم تحية لمعلم الصف . وكان يضيف إلى كل جملة عبارة : « أظن أنك تفهمني » .

أجاب شفيك :

— طبعاً وبكل تأكيد . أنت تتكلم بالأحرى كسمكري يدعى بوكورني من بوديبوفيتسه . فكلما سأله الناس : « هل استحممت في هذا العام في نهر المالشه ؟ » كان يجيب : « لا لم أفعل ، ولكن سيكون هناك الكثير من الخوخ هذا العام. » وكلما سألوه : « هل أكلت أي فطر هذا العام ؟ » كان يجيب : « لا ، ولكن يقال إن سلطان مراكش الجديد شخص طيب جداً . »

توقف الملازم الأول دوب واستطاع أن يستجمع قواه ويقول :

— سلطان مراكش ؟ إنه شيء عفا عليه الزمان .

ثم مسح العرق عن جبينه ونظر إلى شفيك بعينين غائمتين وهمهم قائلا :

— لم يسبق لي أن عرقت هكذا حتى في الشتاء . هل توافقني الرأي ؟ هل تفهمني ؟

— نعم ياسيدي . حين كنا نرتاد حانة « كأس القربان » كان بين الروّاد أيضاً رجل عجوز من متقاعدي مجلس المقاطعة ، وكان هذا

---

(١) جزيرة ألمانية . (المترجم)

يؤكد الأمر نفسه إذ كان يقول دائماً إنه مندهش من الفرق في الحرارة بين الصيف والشتاء. وكان يعتقد أنه لأمر شديد الغرابة ألا يلاحظ الناس ذلك.

عند باب المدرسة الثانوية ترك شفيلك الملازم الأول دوب الذي ترنّح صاعداً الدرج نحو قاعة الاجتماع حيث كان الضباط مجتمعون وقد تقدم نحو النقيب ساغنر فوراً وأبلغه أنه ثمل تماماً . وقد جلس طوال الاجتماع ورأسه بين يديه وكان يقف بين الحين والآخر خلال المناقشة ويصرخ : « رأيكم صحيح أيها السادة ، ولكني ثمل تماماً . »

وحين تمت دراسة كل الاجراءات وكان على سرية الملازم الأول لوكاش التقدم كحرس طليعة للحماية ، انتفض الملازم الأول دوب فجأة ونهض وقال : « أتذكّر أيها السادة أستاذ صفنا في السنة الأولى من المدرسة الثانوية . هورا . هورا ، هورا ! »

وقد خطر للملازم الأول لوكاش أنه أفضل ما يمكن عمله الآن هو جعل كونيرت يمدّد الملازم الأول دوب على الأريكة في حجرة الفيزياء المجاورة حيث كان هناك خفير لحماية ما تبقى من مجموعة المعادن التي سرق نصفها . وكان اللواء يحذر الوحدات المتقدمة دائماً حتى تنتبه لهذه السرقات .

ويعود هذا الإجراء إلى ذلك الحين الذي باتت في كتيبة من الهونفيد في المدرسة وبدأ جنودها في «تنقيب» الحجرة . وقد أعجب جنود الهونفيد كثيراً بمجموعة المعادن ، بالبلورات والبيريتات ذات الألوان الزاهية ، فدسوها في حقائبهم .

وعلى أحد الصلبان البيضاء في المقبرة العسكرية هناك النقش التالي : « لا شلو غراغاني . » وهذا الرجل كان جنديا من الهونفيد سرق

مجموعة المدرسة من المعادن وشرب الكحول المُمَيَثْل من إناء كان تُحفظ فيه مختلف السحالي ، وهو ينام الآن نومته الأخيرة هناك .

خلال قضائها على الجنس البشري لم تتردد الحرب العالمية حتى في استعمال الكحول المُمَيَثْل المخصص لحفظ السحالي .

بعد أن انصرف الجميع طلب الملازم الأول لوكاش أن يمثل أمامه وصيف الملازم الأول دوب . وقد قام هذا باصطحاب ملازمه الأول الأول وتمديده على الأريكة .

أصبح الملازم الأول دوب فجأة كالطفل الصغير ، فقد أخذ يد كونيرت وبدأ ينظر إلى كفه وهو يقول انه يستطيع من خلاله معرفة اسم زوجته في المستقبل .

— ما اسمك ؟ أخرج من الجيب الصدري لسترتي دفتر ملاحظاتي وقلمي الرصاص . أنت اسمك كونيرت ، أليس كذلك حسنا ، اذن ، تعال إلى هنا خلال ربع ساعة وسأترك لك هنا قطعة من الورق وعليها اسم زوجتك في المستقبل .

وما إن قال هذا حتى بدأ يشخر ، ولكنه بدأ يسيقظ مجدداً ثم راح يخربش في دفتره ولكنه مزّق ما خربشه ورماه إلى الأرض . همهم وهو يضع أصبعه على شفتيه بايماءة مكتنفة بالأسرار :

— ليس الآن ، بل بعد ربع ساعة . والأفضل لك أن تبحث عن الورقة وعيناك معصوبتان . وقد كان كونيرت ثوراً حسن النية إلى حد أنه ظهر فعلاً بعد ربع ساعة وحين فتح الورقة قرأ من خلال الكتابة الهيروغليفية للملازم الأول دوب ما يلي : « سيكون اسم زوجتك في المستقبل هو : السيدة كونيرت » .

وحين عرض الورقة على شفيك بعد لحظات قال له هذا أن عليه أن أن يحتفظ بهذه الورقة وأن يحرص عليها . إن الوثائق من هذا النوع والصادرة عن السادة العسكريين يجب أن تحترم من قبل الجميع . وفي الحياة العسكرية لم يسبق أن راسل ضابط وصيفه وسماه بعبارة «السيد» .

* * *

حين اكتملت التحضيرات للرحيل وفقاً للاجراءات المطلوبة ، جعل العميد قائد اللواء ، الذي قام العقيد الهانوفري بطرده من مقر قيادته على نحو ذكي جداً ، الكتيبة كلها تجتمع على شكل مربع وألقى خطابا فيها . كان يحب القاء الخطب وحين خطب فيهم الآن راح يخلط الأمور بعضها ببعض ، وحين لم يعد لديه ما يقوله تذكر قضية البريد الميداني فقال بصوت هادر :

— يا رجالي ، الآن نقترب من جبهة العدو ، حيث لا تفصلنا عنها سوى مسيرة أيام قليلة . وحتى الآن لم تتح لكم الفرصة يارجالي لاعلام اعزائكم الذين خلفتموهم وراءكم بعناوينكم ، وحتى يستطيع أولئك البعيدون عنكم أن يعرفوا إلى أية جهة يرسلون لكم الرسائل، وحتى يمكنكم أن تستمتعوا برسائل أحبائكم الذين يفتقدونكم .

وقد تلعثم هنا تماماً إلى حد أنه لم يعد يستطيع أن يجد مخرجاً له فكرر مرات عديدة : « أعزاؤكم الذين خلفتموهم وراءكم — أقرباؤكم الأحباء — أعزاؤكم الذين يفتقدونكم . . . الخ . » حتى استطاع أخيراً أن يكسر الحلقة المفرغة بأن صاح :

— ولذلك لدينا بريد ميداني في الجبهة!

كانت بقية خطابه توحي بأن هؤلاء الناس في بزاتهم العسكرية يجب أن يتركوا أنفسهم يقتلون وهم في أشد حال من المتعة لأن البريد الميداني قد تأسس في الجبهة ، ولو أن أي رجل منهم قطعت ساقاه كلتاهما بقذيفة معادية فسيكون الموت أمراً جميلا له وهو يفكر أن رقم بريده العسكري هو (٧٢) وأن رسالة ما آتية من البيت تنتظره هناك ربما : رسالة من أعزائه البعيدين مع طرد يحوي قطعة من فخذ الخنزير المدخن ولحم الخنزير المقدد والبسكويت المصنوع في المنزل .

وبعد إلقاء خطبته وحين عزفت فرقة اللواء الموسيقية النشيد الوطني هتف الجنود ثلاث مرات بحياة الامبراطور ، وانطلقت هذه المجموعات المتنوعة من القطيع البشري المحكوم عليه بالذبح في مكان ما وراء نهر « بوغ » ، انطلقت متتابعة إلى مسيرتها وحدة اثر وحدة وفقاً للاجراءات المتخذة .

غادرت السرية الحادية عشرة في الخامسة والنصف نحو «تيرافا فولوسكا » . سار شفيك مجهداً في الخلف مع قيادة الكتيبة والاسعاف بينما كان الملازم الأول لوكاش يتفقد على جواده القافلة كلها ، فيذهب نحو المؤخرة بين الحين والآخر لينظر في حال جماعة الاسعاف ، حيث كانوا يحملون على عربة ، وتحت غطاء قماشي ، الملازم الأول دوب ، وذلك إلى بطولات جديدة في مستقبل مجهول . كما كان الملازم الأول لوكاش يقتل الوقت بالتحادث مع شفيك الذي كان يحمل حقيبة ظهره وبندقيته ويحكي لفانييك كم استمتعوا بالمسير في تلك المناورات التي جرت قرب فلكه «ميز يرجيتشي » منذ سنوات خلت .

— كانت لتلك المنطقة من هذا النوع نفسه من التضاريس التي

تراها هنا ، ولكننا لم نكن نسير بكامل معداتنا الميدانية ، لأنه في ذلك الحين لم نكن نعرف حتى ما تعنيه «المعلبات الاحتياطية» . فحين كنا نستلم أية معلبات كان جميع افراد فصيلتنا يأكلونها في المبيت التالي وكنا نضع بدلا عنها قطعة من الآجر في حقائب الظهر . وفي احدى القرى جاء مفتشون ورموا بكل قطع الآجر التي كانت في حقائب الظهر وقد كان هناك الكثير منها إلى حد أن أحد الرجال بنى منها منزلاً لعائلته .

بعد قليل سار شفيك بحيوية إلى القرب من جواد الملازم الأول لوكاش وتحدث اليه عن البريد الميداني :

ـ كانت تلك خطبة جميلة،وبالطبع فانه لمن اللطيف أن يصل إلى أولئك الذين في الجبهة رسائل حلوة من البيت ولكن حين كنت أخدم في الجيش منذ سنوات خلت في بوديبوفيتسه لم تصلني سوى رسالة واحدة إلى الثكنة ولا أزال احتفظ بها .

وهنا أخرج شفيك رسالة متسخة من دفتر جيبه المغطى بالبقع وقرأها بصوت مرتفع ، وهو يجاري في الوقت نفسه سرعة سير الجواد الذي كان يخب خببا لطيفاً في ذلك الحين :

« أيها النغل اللعين ، أيها المجرم والوغد القذر ! لقد جاء العريف «كرجيج» إلى براغ في اجازة . وقد رقصت معه في مطعم « أوكوتسانو» وحكى لي أنهم يقولون إنك ذهبت إلى الرقص في بوديبوفيتسه في مطعم « الضفدعة الخضراء » مع مومس غبية ، وأنك تخليت عني تماماً . ولمعلوماتك فاني أكتب هذه الرسالة في المرحاض على اللوح القريب من الحفرة . لقد انتهى كل شيء بيننا . صديقتك سابقاً «بوجينا» . ما الذي أردت اضافته ؟ أجل ، ذلك العريف كيف «يمارس » ، وهو

سيذيقك مرّ العذاب ، لأني طلبت منه ذلك . وما الذي أريد أيضاً اضافته ؟ أجل ، حين تعود إلى البيت في إجازة لن تجدني بين الأحياء .»

وهنا تابع شفيك كلامه وهو يخب خببا لطيفاً :

— وبالطبع حين عدت إلى البيت في إجازة كانت لا تزال بين الأحياء بل والأحياء جداً ! لقد وجدتها في « أوكوتسانو » أيضاً ، وكان جنديان من فوج أجنبي يساعدانها على ارتداء ملابسها ، وكان أحدهما « حيّاً » إلى درجة أنه كان يضع يده علنا تحت صدارها وكأنه — أبلغكم بتواضع ياسيدي — كان يريد أن يقطف زهرة براءتها ، كما تقول « فيينتسيسلافا لوجيتسكا » (١) ، أو كما قالت مرة فتاة صغيرة في حوالي السادسة عشرة من عمرها وهي تبكي بصوت مرتفع مخاطبة تلميذ مدرسة قرصها من كتفها في درس الرقص : «سيدي ، لقد فركت زهرة عذريتي » . وقد ضحك الجميع بالطبع فأخذتها أمها التي كانت تراقبها إلى الممرّ ووجهت إلى تلك المغفلة رفسة محترمة . على أية حال عليّ أن أقول ياسيدي إني وصلت إلى نتيجة مفادها أن فتيات الريف هن على أية حال ، أكثر اخلاصاً من فتيات المدن المبتذلات وأولئك المتواجدات في مدارس تعلّم الرقص . حين كنا منذ سنوات خلت في المعسكر في منيشيك اعتدت الذهاب للرقص في « ستاري كنين » وكنت أعاشر فتاة اسمها «كارلا فكلوفا » ، ولكنها لم تحببني كثيراً على ما أعتقد . وفي مساء يوم أحد حين اصطحبتها إلى البحيرة جلسنا على السد وكانت الشمس تغرب ، فسألتها إن كانت تحبني . أبلغكم بتواضع ياسيدي أن الجو كان معتدلا جداً وكانت

(١) مؤلفة روايات موجهة للشابات . (س . ب)

الطيور تشدو وكان أن أجابت بضحكة رهيبة : « أحبك بمقدار ما أحبّ قطعة من القش من مؤخرتي لانك أحمق إلى حد لا يحتمل . » ولقد كنت أحمق بالفعل ، أحمق إلى درجة أني اعتدت أني أتمشى معها ياسيدي كما أبلغكم بتواضع ، في الحقول بين الذرة المنتصبة حيث لا يوجد أحد ولكننا لم نجلس على الأرض ولو مرة واحدة . لقد ظلت أريها كل تلك النباتات الوافرة ، وبما أني كنت جحشاً إلى ذلك الحد فقد كان كل ما فعلته هو أن أقول لتلك الفتاة الريفية إن هذا هو الجاودار وان ذاك هو القمح وأن هناك في البعيد يوجد الشوفان .

وفجأة انطلق الغناء الجماعي لرجال السرية ممن كانوا في المقدمة ، كأنما ليؤكد ملاحظة شفيك عــن الشوفان . وقــد استمروا في انشاد تلك الأغنية التي أنشدتها الأفواج التشيكية حين سارت نحو سولفرينو وسفكت دمها هناك :

« وحين اسودّ الليل
قفز الشوفان من الكيس .
هاي ألف مرة
كل فتاة حرة ! »
وقد انضم اليهم الآخرون :
« حرة ، حرة ، حرة
ولم لا تكون ؟
ازرع قبلة محرقة
على هذا الخد أم على الآخر ؟

* * *

هاي ألف مرة

كل فتاة حرة ،

حرة ، حرة ، حرة ،

ولم لا تكون . . . ؟ »

بعد ذلك بدأ الألمان بانشاد هذه الأغنية بالألمانية .

وهذه أغنية قديمة جداً ينشدها الجنود عادة أثناء السير وذلك منذ أيام الحروب النابوليونية ربما . وهاهي الأغنية تدوي الآن على الطريق الترابية المؤدية إلى تيرافافولوسكا في السهل الغاليسي ، حيث كانت الحقول ، على كلا جانبي الطريق ، وحتى الهضاب الخضراء في الجنوب ، مداسة ومخرّبة تحت سنابل الخيل والأحذية العسكرية الثقيلة لآلاف وآلاف من الجنود .

قال شفيك وهو ينظر فيما حوله :

- في المناورات التي اشتركت بها قرب «بيسيك» ارتكبنا هذه الفوضى نفسها . كان معنا أرشيدوق امبراطوري ، وكان شخصاً عادلاً إلى حد أنه كان حين يعبر مع أركانه حقلاً من القمح لأسباب استراتيجية ، كان معاونه الذي يسير خلفه يسجل ويحسب بدقة كل الخسارة التي كانوا يسببونها . هذا ولم يسر فلاح اسمه «بيخا» بتلك الزيارة ورفض أن يتلقى تعويضاً عن هكتار من الأرض ديس تحت سنابك الخيل مبلغاً قدره ثمانية عشر كراوناً . لا يمكنك أن تصدق ما حدث ياسيدي ولكنه أراد أن يلتجىء إلى القضاء وكان أن حكم عليه بالحبس ثمانية عشر شهراً . ولكني أظن ياسيدي أنه كان يتوجب عليه

أن يكون ممتناً لقيام شخص من البيت الامبراطوري بزيارته في أرضه. إن فلاحاً آخر ، أعني فلاحاً ذا ضمير حي ، كان حرّياً به أن يجعل بناته يرتدين الثياب البيضاء كوصيفات العروس ويمسكن بباقات الورود في أيديهن ويقعن على أرضه في انتظار الضيف . ولكان على كل واحدة منهن أن ترحب بالسيد النبيل كما يحدث في الهند حيث يسمح تابعو الحاكم له أن يدوسهم بالفيل، وهو ما قرأت عنه مرة.

قال الملازم الأول لوكاش من على جواده :

ـ ما الذي تتحدث عنه ياشفيك ؟

ـ ابلغكم بتواضع ياسيدي أني أعني الفيل الذي يحمل على ظهره الحاكم الذي قرأت عنه .

قال الملازم الأول لوكاش وهو يبتعد على جواده نحو الأمام :

ـ لديك دائماً تفسير لكل شيء ياشفيك .

كان الطابور قد بدأ يتخلخل . فبعد الراحة في القطار كان المسير غير المعتاد بالعدّة الكاملة قد جعل أكتاف الجنود تلتهب وقد حاول كل واحد منهم أن يريح نفسه قدر الامكان . فقد كانوا ينقلون بنادقهم من كتف إلى آخر . وما عاد معظمهم يحمل بندقيته من حاملتها بل كان يضعها فوق كتفيه كالمذارة أو المِدمّة . وكان البعض يظن أنه سيكون أحسن حالا لوسار في الأخدود الموازي للطريق أو على المرج حيث الأرض أشد ليونة من الطريق الترابي .

سار معظم الجنود برؤوس مطرقة وهم يعانون من عطش شديد لأنه رغم أن الشمس قد سبق لها وغربت إلاّ أن الطقس كان شديد

الحرارة خانقاً حتّى لكأن النهار لا يزال في منتصفه ، كما لم يكن قد تبقى لدى أي منهم نقطة ماء في «مطرته» . كان هذا هو أول أيام المسير وكان هذا الوضع غير المعتاد ، والذي هو نوع من التمهيد لميثاق أعظم وأخطر ، قد جعلهم يشعرون بالضعف كلما تقدموا أكثر . لقد توقفوا الآن عن الغناء وبدؤوا يتحزّرون فيما بينهم عن المسافة التي لا تزال تبعدهم عن تيرافافولوسكا ، وهي مكان مبيتهم على الأرجح لتلك الليلة . كان بعضهم يجلس في الأخدود المحاذي للطريق ، وحتّى لا يسيء أحد فهم ذلك كانوا يفكون أربطة أحذيتهم ويتصرفون للوهلة الأولى كأنما قد ارتدوا لفافات الساق خطأً وأنهم يحاولون اعادة لفها حتّى لا تؤلمهم لدى استئنا ف المسير . وكان آخرون يقصرّون أو يطيلون حمالات بنادقهم أويفتحون حقائب ويفتشون بين أغراضهم محاولين اقناع أنفسهم بأنهم يفعلون ذلك لتوزيع الثقل على نحو أفضل لمنع نطاقات الحقيبة من أن تضغط على هذا الكتف أو ذاك . وحين يقترب منهم الملازم الأول لوكاش ، كانوا ينهضون الواحد في اثر الآخر ويقولون إن شيئاً ما كان يؤلمهم ، هذا إن لم يكن المرشحون والرقباء قد شاهدوا فرس الملازم الأول لوكاش من بعيد فنبهوهم سلفاً .

كان الملازم الأول لوكاش يأمرهم وهو يمرّ بهم ، وبطريقة ودية ، بالوقوف ويقول انه قد تبقى ثلاثة كيلو مترات للوصول إلى تيرافا فولوسكا وأنهم سيرتاحون هناك .

في هذه الأثناء استعاد الملازم الأول دوب وعيه بسبب الهزّ المتواصل لعربة الاسعا ف ذات العجلتين . لم يكن قد استفاق تماماً

بعد، ولكنه كان يستطيع أن ينهض ويطل من العربة لينادي على أعوان قائد السرية . كانوا يسيرون جميعاً بحرية لأنهم وضعوا حقائبهم في العربة بدءاً ببالون وانتهاء بخودونسكي . أما شفيك فكان الوحيد الذي يحمل حقيبته بشجاعة ويمسك ببندقيته من حمالتها على صدره على طريقة الجنود الفرسان ويدخن غليونه ويغني خلال المسير :

« حين سرنا نحو ياروميرج ،

صدقوا أيها الناس أولا تصدقوا

لقد وصلنا إلى المدينة وقت العشاء

وتناولناه فوراً .»

على مسافة أكثر من خمسمئة خطوة من الملازم الأول دوب كانت سحب الغبار تعلو الطريق الذي كانت تبدو عليه أشباح الجنود . وهكذا أطلّ الملازم الأول دوب ، الذي عادت اليه حماسته ، من العربة ، وبدأ يصرخ مخاطباً الغبار :

— يارجالي ، مهمتكم النبيلة ثقيلة جداً . أمامنا الكثير من المسيرات الشاقة . ستجربون جميعاً الحرمان والصعوبات من كل صنف ولون . وعلى أية حال فأنا واثق من أني أستطيع الاعتماد على شجاعتكم وثباتكم .

أعلن شفيك بشاعرية :

— أيها البراز !

— استأنف الملازم الأول دوب خطبته فقال :

— لا يوجد عائق يصدكم مهما كان قوياً . ومرة أخرى يارجالي

أكرر لكم أني لا أقود كم إلى نصر سهل . سيكون جوزة قاسية يصعب كسرها ، ولكنها ستنكسر لاشك ! أنتم الأبطال الذين كتب عنهم المؤرخون .

أعلن شفيك بشاعرية مرة أخرى :

— ضع أصبعك في حلقك !

وكأنما سمع الملازم الأول دوب هذا إذ أنه بدأ يستفرغ فجأة في غبار الطريق ورأسه مدلاة من العربة وبعد أن تقيأ وانتهى عاد ليخطب ثانية فقال :

— إلى الأمام أيها الجنود ، إلى الأمام ! هورا !

ثم سقط على حقيبة خودونسكي مرة أخرى ونام حتى تيرافا فولوسكا ، حيث أوقفوه أخيراً على قدميه بأمر من الملازم الأول لوكاش الذي كان قد تبادل معه حواراً طويلا وصعباً جدا ، وأخرجوه من العربة . ثم استفاق إلى حد أنه كان قادراً على التصريح بما يلي :

— من الناحية المنطقية لقد ارتكبت عملا أخرق ، ولكني سأعمل على التعويض عنه عندما نقابل العدو وجهاً لوجه .

لم يكن قد استعاد وعيه تماماً لأنه حين عاد إلى فصيلته قال للملازم الأول لوكاش :

— أنت لا تعرفني بعد ، ولكن انتظر حتى تعرفني . . . !

أجابه لوكاش :

— إذا أردت أن تعرف ما ارتكبته فاسأل شفيك .

وهكذا ذهب الملازم الأول دوب قبل عودته إلى فصيلته ليرى شفيك فوجده في صحبة كل من بالون وفانييك .

كان بالون يحكي لهم كيف أنه يحتفظ عادة في مطحنته في البيت بزجاجة من الجعة في البئر . وكانت جعته المبرّدة بهذه الطريقة تجعل الأسنان تصطك لشدة برودتها . وفي المطاحن الأخرى كانوا يشربون الجعة مساء حتى يستطيعوا ابتلاع جبن الأكواخ ، ولكنه بسبب شراهته ، التي عاقبه الله عليها ، كان يلتهم دائماً قطعة كبيرة من اللحم بعد ذلك . والآن هاهو الرب العادل يعاقبه بشرب الماء الفاتر العفن من آبار تيرافافولوسكا . وكوقاية لهم من الكوليرا كانوا يصبون في في الماء الحامض الليمونيكي الذي وُزّع على الجنود منذ لحظة فحسب حين وزّعت مياه البئر على السرايا . وقد عبرّ بالون عن رأيه في أن المقصودمن الحامض الليمونيكي هو تجويعهم.وقد كان صحيحاً بالفعل أنه استطاع الحصول على القليل من الطعام في سانوك وأن الملازم الأول قد ترك له مرة أخرى نصف حصته من لحم العجل التي جلبها له من مطعم اللواء ، ولكن الأمر كان رهيباً بالفعل لأنه بالون كان يظن أنهم حين يصلون إلى تيرافافولوسكا ويرتاحون في مبيتهم الليلي ، سيطبخون شيئاً ما أيضاً . كان مقتنعاً تماماً بذلك حين أحضر الطباخون الماء للقدور ، فذهب فوراً إلى المطابخ ليسأل عن العشاء . وكان الجواب الذي حصل عليه هو أنهم تلقوا أمرا بجلب الماء بالنسبة للوقت الحاضر وأنه في أية دقيقة أخرى قد يأتيهم أمر آخر يطلب منهم أن يسفحوه على الأرض .

في تلك اللحظة صحا الملازم الأول دوب وسأل دون ثقة بالنفس :

— هل تثرثرون ؟

أجاب شفيك عن الجميع :

— نعم ياسيدي . وثرثرتنا في أوج نشاطها . من الأفضل أن يكون هناك الكثير من الثرثرة . والآن نثرثر حول حامض الليمونيك . لا يمكن لأي جندي أن يستغني عن الثرثرة . فبهذه الطريقة يمكن أن ينسى متاعبه .

فطلب منه الملازم الأول دوب أن يقترب منه لأنه يريد أن يطرح عليه بعض الأسئلة . وحين أصبحا قريبين قال له بصوت غير واثق اطلاقاً :

— ألستم تثرثرون عني ؟

— لا ياسيدي ، أبداً ياسيدي ، بل كنا نثرثر حول الحامض الليمونيكي ولحم الخنزير المدخن .

— لقد قال لي الملازم الأول لوكاش أنّه يفترض أني قد ارتكبت خطأ ما وأنك تعرف كل شيء حول الموضوع ياشفيك .

قال شفيك بجدية كبيرة وبتركيز شديد :

— لم ترتكب شيئاً ياسيدي . بل كنت تزور منزلا ذا سمعة سيئة فحسب . ولكن من المحتمل أن ذلك كان مجرد خطأ . كان ذلك أشبه بما حدث لسمكري اسمه « بيمبر » من ساحة « كوزي » في القسم القديم من براغ . فكلما ذهب هذا ليشتري صفائح معدنية من المدينة كانوا يبحثون عنه باستمرار فيجدونه في ذلك النوع نفسه من المؤسسات ، أما في « أو شوحو » أو « أو دفورجاكو » ، كما وجدتك أنا بالضبط . في الطابق الأول يوجد مقهى وفي الطابق العلوي توجد مومسات كما في حالتنا هنا ، ربما كنت في ذلك المكان خطأ ياسيدي لأن الطقس

كان شديد الحرارة وحين لا يكون المرء معتاداً على الشرب في مثل ذلك الطقس الحار فانه يسكر من الروم العادي ، فكيف تكون الحال إذا كان يشرب البيرجابينكا ياسيدي ؟ وقد تلقيت أمراً أن أسلمك استدعاء لحضور الاجتماع الذي يسبق رحلينا وقد وجدتك مع تلك المومس في الطابق العلوى . وبسبب الحرّ والبيرجابينكا لم تعرفني حتى بل كنت تتمدد على الأريكة دون أية ملابس . لم تختلق شجاراً هناك ولم تقل حتى : « أنت لا تعرفني بعد . » ويمكن لمثل هذا أن يحدث مع أي شخص حين يكون الطقس حاراً . البعض يحبون ممارسة ذلك كأمر اعتيادي يومي ، بينما يصل البعض الآخر اليه بمحض الصدفة . لو أنك تعرف فحسب «فيبفودا » «العجوز ياسيدي ، وهو رئيس عمال ورشة للبناء في «فرشوفيتسه» . . . لقد قرر مرة أنه لن يشرب شيئاً يُسكره . وهكذا شرب آخر جرعة له « على الماشي » في البيت وانطلق في رحلة ليجد مشروبات غير كحولية . وقد دخل أوّلاً حانة تسمى «عند الموقف» فشرب فيها ربع ليتر من «الفرموت» وبدأ يستفسر من صاحب الحانة دون فضول عن أنواع المشروبات التي يتناولها زبائنه ممن لا يقربون الكحول أبداً . كان محقاً تماماً في اعتقاده أن في شرب الماء القراح ظلم حتى للممتنعين تماماً عن الكحول . وهنا أوضح له صاحب الحانة أن الممتنعين تماماً يشربون ماء الصودا والمياه المعدنية والحليب وأنواعاً مختلفة من الخمور الخالية من الكحول والحساء البارد الصافي والمشروبات الأخرى التي لا روح فيها . ومن بين هذه الأنواع الممنوعة من المشروبات راقت لصاحبنا فيبفودا فكرة النبيذ الخالي من الكحول . فسأل سؤالا آخر : هل هناك أيضاً مشروبات روحية دون كحول ؟ و قد شرب بعد ذلك ربع ليتر آخر من الفرموت وتحدث مع صاحب

الحانة كيف أن السكر لمرات عديدة خطيئة حقيقية ، فقال له هذا انّه يستطيع أن يتحمل كل شيء في هذا العالم عدا الرجل الذي يذهب ويسكر في حانة أخرى ولا يأتي اليه إلا ليصحو بزجاجة من ماء الصودا ويسبب في حدوث شجار أيضاً . قال صاحب الحانة : « اسكر في حانتي وأهلا وسهلا بك ، ولكني لن أتعرف عليك إذا فعلت ما يخالف ذلك». هذا وقد أنهى فيفودا العجوز شرب الفرموت وخرج ليستأنف رحلته حتى وصل — تصور ذلك ياسيدي — إلى حانة نبيذ في ساحة تشارلز اعتادا ارتيادها من حين إلى آخر . وقد سأل هناك ان كان لديهم نبيذ دون كحول ، فقيل اه : « آسفون ياسيد فيفودا ، ليس لدينا نبيذ دون كحول بل فرموت وشيري فقط . » وعلى نحو ما أو آخر أحس فيفودا العجوز بالخجل فشرب ربع ليتّر آخر من الفرموت وربع ليتّر من الشيري ، وبينما كان يجلس هناك قابل أحد الممتنعين كلياً عن شرب الكحول . وقد شرعا يتحدثان وشربا ربعاً آخر من الشيري ، وفي النهاية تبيّن أن السيد يعرف مكاناً يقدم فيه النبيذ دون روح قال : « المكان في شارع بولزانوفا ، وتصل إلى هناك بالنزول على الدرج ولديهم «غرامافون » هناك أيضاً . » ولقاء هذه المعلومات الباعثة على السرور كافأ فيفودا العجوز ذلك الرجل بأن طلب زجاجة كاملة من الفرموت ثم سارا كلاهما إلى ذلك المكان في شارع بولزانوفا ، وقد كان الوصول اليه وبالنزول على الدرج وكان لديهم هناك غرامافون بالفعل . وكان صحيحاً أيضاً أنهم ما كانوا يقدمون سوى خمور الفواكه فحسب ، ولم تكن هذه دون روح فحسب بل دون كحول أيضاً . في البداية طلب نصف ليتّر من نبيذ عنب الثعلب ثم نصف ليتّر من نبيذ الزبيب ، وبعد أن شربا نصف ليتّر آخر من نبيذ عنب الثعلب الخالي من الروح بدأ

يشعران بدبابيس وأبر تخزهما في سيقانهما بسبب كل ذلك الفرموت والشيري الذي سبق لهما واحتسياه . وهنا بدآ يصرخان بأنهما يريدان تصريحاً رسمياً بأن ما كانا يشربانه هو نبيذ خال من الروح ، فهما ممتنعان عن الكحول وإذا لم يحصلا على ذلك التصريح فسوف يحطمان كل شيء بما فيه الغرامافون . وأخيراً اضطرت الشرطة إلى سحبهما كليهما عبر المدرج نحو شارع بولزانوفا مرة أخرى ، وقد وضعا في عربة السكارى ثم في زنزانة العزل . وقد حكم عليهما كليهما بسبب السكر والأفعال المنافية للحشمة رغم أنهما كليهما من الممتنعين تماماً عن تناول الكحول .

صاح به الملازم الأول دوب الذي كان قد صحا تماماً بعد سماع هذا الحديث :

– ولماذا تقص عليّ هذه الحكاية ؟

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أنها ليست في محلّها تماماً . ولكني ظننت أنه طالما كنا نستمتع بتلك الثرثرة اللطيفة . . .

في تلك اللحظة خطر فجأة للملازم الأول دوب ، الذي كان قد صحا تماماً على وجه التقريب ، أن شفيك قد عاد إلى اهانته مرة أخرى ، لذا فقد صاح فيه :

– يوماً ما ستعرفني ! وماذا عن الطريقة التي تقف بها ؟

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أني أقف وقفة غير صحيحة . أبلغكم بتواضع ياسيدي أني نسيت أن ألصق كعبيّ ببعضهما البعض . سأفعل ذلك حالاً .

وهنا كان شفيك قد سبق له ووقف في أفضل وضع «أستعد» ممكن .

حاول الملازم الأول دوب أن يفكر فيما عليه أن يقوله بعد ذلك ، ولكنه اقتصر في النهاية على الملاحظة التالية :

— الأحرى بك أن تحترس فلا تجعلني أحدثك مرة أخرى .

ثم أضاف نسخة معدلة عن عبارته المأثورة :

— أنت لا تعرفني بعد ولكني أعرفك .

حين غادر الملازم الأول دوب شفيك فكر في نفسه وهو لا يزال تحت تأثير تلك الحالة البغيضة الناجمة عن مخلّفات الشراب : « ربما لو قلت له أني أعرفك منذ زمن بعيد أيها النغل ومن جانبك السيىء ، لكان من شأن ذلك أن يترك أثراً أكبر فيه . »

ثم طلب الملازم الأول دوب وصيفه كونيرت وأمره بالبحث عن ابريق ماء .

ولكي نُنصف كونيرت علينا أن نقول إنه أنفق وقتاً طويلاً وهو يطوف في كل أنحاء تيرافافولوسكا بحثا عن الابريق والماء ، حتى استطاع أخيراً سرقة ابريق من القسّ وملأه بالماء من بئر كانت ألواح خشبية مثبتة فوقها بمسامير بحيث تغطيها بالكامل . وقد اضطر طبعاً إلى أن ينتزع أحد تلك الألواح . وقد كانت هذه البئر مغلقة هكذا بالألواح لأنه كان يشك بأن ماءها ملوثة بجراثيم التيفوس .

وعلى أية حال فان الملازم الأول دوب شرب الابريق كله دون أن يصاب بأي أذى ، ومن شأن هذا أن يعزّز المثل القائل : « الخنزير الحقيقي يستطيع ابتلاع كل شيء . »

وكانوا على خطأ إذْ ظنوا أنهم سيمضون الليل في تيرافافولوسكا .

نادى الملازم الأول لوكاش على خودونسكي وفانييك وشفيك وبالون . وكانت أوامره في منتهى البساطة : كان عليهم أن يتركوا معداتهم عند عربة الاسعاف وينطلقوا نحو « مالي بولانيتس» مباشرة عبر طريق في الحقول ثم يسيرون على امتداد جدول باتجاه الجنوب الشرقي نحو « ليسكوفييتس» .

كان شفيك وفانييك وخودونسكي المجموعة المسؤولة عن ايجاد مكان لمبيت السرية ، إذا كان عليهم ايجاد مأوى تنام فيه السرية في الليل إذ ستحلق بهم بعد حوالي الساعة أو الساعة والنصف على الأكثر . أما بالنسبة إلى بالون فقد أُمر بأن يشوي أوزة في المنزل الذي كان الملازم الأول لوكاش سيقضي فيه ليلته . أما الثلاثة الآخرون فكان عليهم أن يراقبوه حتى لا يلتهم نصفها . وزيادة على ذلك كان على فانييك وشفيك شراء خنزير ضمن حدود كمية اللحم المخصصة للسرية . وفي الليل كان عليهم أن يطبخوا الغولاش . وكان يتوجب ايجاد مأوى للرجال بما يتناسب مع المستوى المطلوب : عليهم أن يتجنبوا الزرائب القذرة حتى يستطيع الرجال أن يستريحوا على نحو مناسب لأنه على السرية أن تنطلق من ليسكوفييتس في السادسة والنصف صباحاً نحو « كروشيينكو» باتجاه ستاراسول .

ما عادت الكتيبة تعوز المال الآن . فقد دفع مكتب تموين وامداد اللواء في سانوك اليها مقدماً كل المبالغ المخصصة لشراء الذبائح . كان في صندوق السرية الآن أكثر من مئة ألف كراون وقد تلقى فانييك أمراً بأنه حين يصلون إلى الموقع المحدد لهم ، أي الخنادق ، فسيكون

عليه تصفية الحسابات ودفع المبالغ المترتبة للرجال عن حصص الخبز والطعام التي لم توزع عليهم دون أي أخذ أو رد .

وبينما انطلق هؤلاء الأربعة في رحلتهم ظهر القس المحلي عند قيادة السرية ووزّع على الرجال ورقة عليها «انشودة اللورد» بكل اللغات لكل رجل حسب قوميته . كانت معه رزمة من تلك الأناشيد كانت قد تركتها هناك شخصية اكليريكية عسكرية ذات مقام رفيع سبق لها ومرت عبر غاليسيا المدمرة في سيارة بصحبة بعض المومسات . وكان على القس المحلي توزيعها على الوحدات التي تمر في مقاطعته .

« حيث يجري النهر عميقاً في الوادي

ترن رسالة الملائكة على الجرس .

سلاماً عليك يامريم ! سلاماً عليك يامريم !

*

برناردا العذراء اقتادها الرب

نحو الضفة عبر المرج الأخضر النّدي — سلاماً !

*

هناك رأت على الصخور في اشعاع من البركة الالهية

كائنا سامياً ذا وجه قدسي — سلاماً !

كانت تبدو جميلة في ثيابها البيضاء

مع زنار بلون الغيوم ، بسيط ولامع — سلاماً !

*

تمسك بسبحة في يديها الهادئتين ،
ملكتنا الرؤوم الأشد كرماً — سلاماً !

*

يطرأ تغيير على وجه برنارد ا .
انه مضاء بنور بركة الرب — سلاماً !

*

تركع وتصلي ، وترى العذراء ،
وتخاطبها بهذه الكلمات الحاملة للسلام — سلاماً !

*

ياابنتي ، لقد حبلت ، بلا دنس وعن حق ،
وسأكون الآن حاميتكم جميعاً — سلاماً !

*

يمر شعبي الورع في موكب ؛
يعبدني ويجد الخلاص — سلاماً !

*

في هذا الوادي سأبني قبة مرمرية
رمزاً لإنشائي لبيتي هنا — سلاماً !

*

هذه الينابيع المزبدة تناديك من الأعلى .

ستكون ضماناً وعربوناً لمحبّي — سلاماً!

*

فلتتمجدّ أيها الوادي ، يا أكثر الوديان رحمة،

ففيك ستقيم أم الله — سلاماً !

*

هناك في الصخرة كهفك .

لقد مَنَحتِنا الفردوس ياملكة الرحمة — سلاماً!

*

ومنذ هذا اليوم المجيد المضيء

سيأتي الرجال والنساء للصلاة هنا— سلاماً !

*

أيها العابدون ستأتون إلى هنا حشوداً .

تطلعوا إلينا وقوّموا أخطاءنا — سلاماً!

*

يانجمة الخلاص ، دلينا على الطريق

إلى عرش الرب ، حتى نصلي — سلاماً !

*

أيتها الأم المقدسة ، أحبينا

وارمي برحمتك على أولادك هاهنا !

في تيرافا فولوسكا كان الكثير من المراحيض ، وكانت الأوراق المطبوع عليها « نشيد اللورد » هذا متناثرة فيها .

كان « العريف ناختيغال » القادم في الأصل من مكان قرب « كاشبرسكه‌هوري » قد اشترى زجاجة من المشروبات الروحية من يهودي خائف . والآن هاهو يجمع بعض رفاقه من حوله ويشرعون في غناء «انشودة اللورد» وفق النص الألماني ولكن دون اللازمة «سلاماً !» وعلى لحن نشيد « الأمير يوجين » .

كانت الرحلة لعينة رهيبة حين حل الظلام وصل هؤلاء الأربعة ، الذين كان واجبهم ايجاد مبيت للسرية الحادية عشرة ، إلى أيكة صغيرة فوق جدول كان من المفروض أن يؤدّي إلى ليسكوفييتس .

وجد بالون نفسه للمرة الأولى في وضع كان يتجه فيه نحو المجهول ، ربما أن كل شيء بالنسبة اليه ، الظلمة وحقيقة أنهم كانوا يتقدمون بحثاً عن مبيت ليلي ، بدأ فجأة غامضاً على نحو استثنائي ، فقد أصيب بنوبة شك مخيفة بأن الأمور لم تكن على ما يرام .

قال بهدوء وهو يتقدم متعثراً على الدرب الذي يعلو الجدول :

— أيها الرجال ، لقد ضحوّا بنا . .

هدر به شفيك بصوت لا يكاد يسمع :

— ما الذي تعنيه ؟

قال بالون متوسلا بصوت هامس :

— أيها الرجال لا داعي للشجار ، ولكنني أشعر بذلك في عظامي . سيسمعنا العدو وسيبدأ فوراً باطلاق النار علينا . أوه ، أعرف ذلك .

لقد أرسلونا إلى الأمام ليعرفوا أن كان العدو هناك ، وحين يسمعون اطلاق النار سيعرفون على الفور أنه ليس من الممكن التقدم أكثر من من ذلك . أيها الرجال ، نحن الطليعة كما علّمني العريف « تيرما » .

قال شفيك :

– حسنا ، ابق في الطليعة إذاً ، سنحلق بك على نحو جميل وتستطيع أنت حمايتنا بجسدك حيث أنك ضخم كالمارد . وحين تصاب أعلمنا حتى يكون لدينا من الوقت ما يكفي للانبطاح أرضاً . لست بالجندي الجيد! انك تخشى من اطلاق النار عليك! ولكن على كل جندي حقيقي أن يستمتع بذلك إلى أقصى حد. عليه أن يعرف أنه كلما أطلق العدو النار كلما استهلك المزيد من الذخيرة . كل طلقة يطلقها العدو عليك تخفّض من قدراته القتالية . وهو سعيد أيضاً إذ يطلق عليك النار ، لأنه لن يكون مضطراً إلى حمل طلقاته معه وبذلك يصبح الركض أسهل عليه .

تنهدّ بالون بعمق وقال :

– ولكن لدّي مزرعة تنتظرني .

قال له شفيك ناصحاً :

– اللعنة على تلك المزرعة . الأجدر بك أن تضحي بحياتك في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية . ألم يعلّموك ذلك في الجيش ؟

قال بالون المغفل :

– لقد ذكروه فحسب . لقد أخذوني إلى ساحة التدريب وبع

لم أسمع شيئاً آخر عن الموضوع لأني أصبحت وصيفاً . . . لو أن صاحب الجلالة الامبراطورية كان اسخى في الطعام الذي يقدمه لنا . . .

— أنت خنزير لعين شره . لا يجب أن يُعطى الجندي أي طعام قبل الاشتباك ، لقد قال لنا ذلك منذ سنوات بعيدة في المدرسة العسكرية النقيب « أونترغريتس»:« أيها الأنغال اللعينون ، لا يجب أن تملؤوا بطونكم قبل الاشتباك . فالرجل الذي يملأ بطنه ويصاب بطلقة يقتل فوراً لأن كل الحساء والخبز العسكري سيتطاير من أحشائه بعد اصابة كتلك. ومن تصبه مثل تلك الطلقة سيصاب بالتهاب ويموت فوراً . ولكن أن لم يكن في معدته شيء فان الطلقة لن تؤذيه أبداً . ويكون ذلك أشبه بلعسة زنبور ، متعة خالصة ! »

قال بالون :

— ولكني أهضم بسرعة شديدة . لا شيء يتبقّى طويلا في معدتي. تصوّروا أيها الرجال أني قد ألتهم طبقاً كاملاً من الشيشبرك مع لحم الخنزير والملفوف وبعد نصف ساعة لا أبرّز إلاّ ما يعادل ملعقتين أو ثلاث من ملاعق الحساء . أما البقية فتضيع داخل أحشائي . يقول الناس أنهم حين يأكلون الفطر يخرج منهم كاملا كما دخل ، وأنك تستطيع أن تغسله وتطبخه مرة أخرى مع مرق حامض ، ولكن الأمر معي معكوس تماماً . فأنا أملأ بطني إلى آخر حد بالفطر بحيث لو أكل شخص آخر ما آكله عادة لطقّ ومات ، وحين أذهب لاحقاً إلى المرحاض فاني أضرط بعض العصيدة الصفراء شأن الأطفال الصغار . أما البقية فتضيع في أحشائي .

ثم استأنف بالون وهو يسرّ لشفيك :

— لن تصدّقني ربما ، ولكـــن حتى عظم السمك وبذور الخوخ تذوب في أحشائي . مرة عددتها عن عمد . فقد أكلت سبعين زلابية بالخوخ مع بذورها وحين خرجت إلى ما وراء البيوت فقد قلّبت برازي بعصا وفصلت البذور وعددتها . ومن بين تلك البذور السبعين ذاب في أحشائي أكثر من نصفها .

وهنا تنهد بالون تنهيدة حرّى واستأنف قائلا :

— لقد اعتادت زوجتي أن تصنع زلابية الخوخ من دقيق البطاطا، وتضيف إليه بعض خثارة اللبن ليصبح أدسم . وكانت تفضّل دائماً أن تنثر عليها بزور الخشخاش وليس الجبن بالأحرى ، ولكنني كنت أفضّل العكس إلى حد أني صفعتها على وجهها مرة بسبب ذلك . . . ياالهي ، لم أكن قادراً على إدراك نعمتي المنزلية ؟

توّقف بالون وتلمظّ بشفتيه وصفّق بلسانه وقال بحزن ورقة :

— والآن أتعرف أيها الصديق أني طالما أفتقدها الآن فاني أظن أن زوجتي كانت على حق وأنها أفضل مع بزور الخشخاش . لقد كنت أتصور آنذاك أن بزور الخشخاش تلتصق بأسنانك والآن أتمنى لو أنها تلتصق بالفعل . . . نعم ، لقد عانت زوجتي كثيراً معي . كم بكت حيـــن كنت ألـــح عليهـــا أن تضع المزيـــد مـــن المردقـــوش « في اليبرنيتسه » وكنت معتاداً على ضربهـــا . ومـــرة ضربتهـــا ضرباً مبرحاً ، تلك المسكينة ، وإلى حد أنها نامت في الفراش مدة يومين ، وكل ذلك بسبب أنها لم تذبح لي ديكاً رومياً لأجل العشاء وقالت إن ديكاً عادياً صغيراً يكفي .

بدأ بالون يبكي واستأنف قائلا :

— نعم أيهـــا الصديق ، لو أن لي ببعض البيترّنيتسه حتّى دون مردقوش ولو أن لي بديكة صغيرة الآن ! هل تحب مرق الشبْث ؟(١) كنا نتشاجر دائماً بسببه واليوم أنا مستعدّ أن أشربه كالقهوة .

رويداً رويداً ، بدأ بالون ينسى مخاوفه من خطر خيالي في جوف الليل البهيم ، بينما كانوا لا يزالون يتجهون نحو ليسكوفييتس ، فاستمر يحكي لشفيك وبانفعال عن الأشياء التي لم تكن تعجبه سابقاً والتي يود الآن لو يأكلها حتّى تدمع عيناه .

وراءه كان خودونسكي يمشي مع فانييك .

كان خودونسكي يحكي لفانييك أن الحرب العالمية في رأيه عبارة عن هراء لعين . وأسوأ ما فيها كان هو أن ينقطع سلك الهاتف في أي مكان فيضطر إلى النهوض ليلا لاصلاحه ، وكان أسوأ من ذلك حتّى هو أنّه لم تكن هناك أضواء كاشفة في الحرب سابقاً ، أما الآن ، وبينما تقوم باصلاح تلك الأسلاك اللعينة ، يميزك العدو فوراً بالأضواء الكاشفة ويركّز كل نيران مدفعيته عليك .

حين نزلوا إلى القرية التي كان عليهم أن يجدوا فيها أماكن لمبيت السرية ، كان الظلام مخيماً وكانت الكلاب كلها قد بدأت تنبح ، مما اضطرّ هذا عناصر البعثة إلى التوقف والتفكير فيما يتوجّب فعله مع تلك الوحوش .

همس بالون :

— ما رأيكم بالعودة من حيث أتينا ؟

---

(١) بقلة من التوابل . (المترجم)

قال شفيك :

– يابالون ، أوه يابالون ، لو كنا سنبلّغ ما قلتَه للقيادة لحكم عليك بالاعدام بتهمة الجبن .

كان عواء الكلاب يشتدّ كلما تقدموا أكثر ، وقد بدأت تعوى حتّى إلى الجنوب وراء نهر « روبا» وكذلك في «كروشيبيتكو » وقرى عديدة أخرى ، فقد راح شفيك يصرخ في هدوء الليل : « يكفي – يكفي – يكفي » كما اعتاد أن يصرخ على كلابه حين كان يتاجر بالكلاب .

ولكن الكلاب زادت من نباحها بحيث قال فانيك لشفيك :

– لاتصرخ بها ياشفيك ، والا أطلقت غاليسيا كلّها تنبح .

أجاب شفيك :

– حدث شيء مشابه معنا خلال المناورات التي أجريناها في منطقة تابور . فقد سرنا في الليل إلى احدى القرى وبدأت الكلاب تنبح بشدة . وكانت المنطقة كثيفة السكان فانتشر النباح من قرية إلى أخرى ، وراح يمتد وينتشر إلى حد أن الكلاب في القرية حيث عسكرنا ، والتي كانت قد توقفت عن النباح ، سمعت النباح القادم من البعيد ، ربما من «بيلهرجيموف» ، فبدأت تنبح ثانية ، وبعد هنيهة لم يكن هناك سوى النباح عبر كل منطقة تابور وبيلهرجيموف وبوديبوفيتسه وهومبوليتس وترجيبوني وييهلافا . كان نقيبنا رجلا عجوزاً شديد العصبية لا يستطيع احتمال نباح الكلاب ، كما لم يستطع النوم طوال الليل بل راح يذرع المكان جيئة وذهابا ويسأل الدوريات : « من ينبح ؟ ما ذاك الذي

ينبح ؟ » وكان الجنود يبلغونه بتواضع أن الكلاب هي التي تنبح وكان ذلك يثير غضبه إلى حد كبير بحيث أن أولئك الذين كانوا ضمن الدوريات في تلك الليلة عوقبوا بالبقاء الاجباري في الثكنات حين عدنا اليها بعد المناورات . بعد ذلك كان يختار دائماً «سُلْطةً كلبيّة» ويرسلها في الطليعة . وكانت مهمتها هي اعلام سكان القرية عن مكان بيتنا الليلي حتى لا يسمح لأي كلب بالنباح في الليل والا أطلقت عليه النار . وقد اشتركت في احدى تلك «السلطات الكلبيّة» ، وحين وصلنا إلى احدى القرى في منطقة «ميليفسكو» ، اختلطت علي الأمور فقلت للمختار إن أي صاحب كلب ينبح كلبه في الليل ستطلق عليه النار لاسباب استراتيجية . وقد أصيب المختار بالفزع وركب حصانه إلى رئاسة الأركان ليطلب الرحمة للقرية كلها . ولكنهم لم يسمحوا له بالدخول ، بل كاد الخفراء يطلقون النار عليه ، وهكذا عاد إلى القرية ، ولكن وقبل أن نصل إلى القرية كان كل فرد فيها بناء على نصيحة المختار قد ربط خرقاً حول أنوف الكلاب وبالتالي أصيب ثلاثة منها بالجنون .

وقد نزلوا أخيراً إلى القرية بعد أن دافعوا جميعاً عن المبدأ الذي طرحه شفيك بأن الكلاب في الليل تخشى من رؤوس اللفافات المشتعلة . ولسوء الحظ لم يكن أي منهم يدخن اللفافات ، وبالتالي لم تكن نصيحة شفيك ذات تأثير ايجابي . ولقد تبين على أية حال أن الكلاب كانت تنبح من شدة الفرح ، لأنها تذكرت بمحبة القوات التي سبق لها وعبرت من هنا وكانت تترك لها دائماً شيئاً تأكله .

فمن مسافة بعيدة اشتمّت الكلاب اقتراب المخلوقات التي تترك

خلفها دائماً العظام وجيف الجياد. وفجأة وكأنها قدمت من اللامكان، ظهرت أربعة كلاب ضخمة وقفزت نحو شفيك بطريقة ودية وقد انتصبت أذيالها .

وقد ربت شفيك ومرّ بيده على شعورها وتحدث اليها في المتعة وكأنها أولاده .

ـــ اذن وصلنا أخيراً إلى هنا . لقد جئنا اليكم لنذهب « باي باي » ونأكل « نَمْ نَمْ » . سنعطيكم عظاماً وبقايا لذيذة وفي الصباح التالي نتّجه نحو الأعداء .

في أكواخ القرية بدأت الانوار تضاء ، وحين بدؤوا يطرقون باب أحد الأكواخ ليسألوا عن منزل المختار ، سمعوا في الداخل زعيق امرأة وصوتها الحاد وهي تقول بلغة لم تكن بولونية ولا أوكراينية إن زوجها في الجيش وإن أطفالها مصابون بالجدري وإن الروس أخذوا كل ما تملكه وإن زوجها أمرها قبل أن يذهب إلى الجبهة بألاّ تفتح الباب لأحد في الليل . ولم يفتح الباب من قبل يد مجهولة إلا حين دعموا هجومهم على الباب بالتأكيد بأنهم جنود يبحثون عن مكان للمبيت . وحين دخلوا تبيّن أن هذا هو بيت المختار ، وقد حاول هذا عبثاً اقناع شفيك بأنّه لم يكن هو الذي قلّد صوت المرأة الزاعق . وقد برر ما حدث بأن قال إنه كان ينام في كومة القش وإنه إذا حدث وأيقظ شخص ما زوجته من النوم فانها لم تكن تعرف ما تقوله . أما بالنسبة لمبيت السرية كلها فالقرية صغيرة جداً كما قال ، وأنه لا يوجد مكان حتى لمبيت جندي واحد . لم يكن هناك مكان للنوم إطلاقاً . كما لم يكن هناك ما يمكن شراؤه أيضاً . فقد صادر الروس كل شيء . ولو تنازل

الأسياد الأفاضل بالقدوم معه إلى كروشيينكو لوجدوا هناك مزارع كبيرة وهي لا تبعد سوى مسيرة ثلاثة أرباع الساعة عن قريته. وهناك يتوفر الكثير من الأمكنة للنوم وسيكون في وسع كل جندي أن يتغطّى بفروة خروف وأن يحصل على ملء صحيفته من الحليب، فلديهم أبقار كثيرة هناك. كما أن الماء هناك جيد أيضاً. سينام السيد الضابط في القلعة أيضاً، أما هنا في ليسكوفييتس فلا يوجد سوى الفقر المدقع والحكّة والقمل. لقد كانت لديه هو بالذات خمس بقرات ولكن الروس صادروها كلها، ولذا فانه كلما اراد الحصول على حليب الأطفال المرضى يضطر إلى الذهاب إلى كروشيينكو.

وكأنما أرادت البقرات المصادقة على كلامه فخارت في الحظيرة، وكان ممكناً سماع صوت امرأة حاد يصرخ بالبقرات البائسات ويدعو عليها بالكوليرا.

وعلى أية حال، فان المختار لم ينزعج أبداً ممّا حدث بل استمر في ارتداء جزمته وهو يقول:

— البقرة الوحيدة هنا هي تلك التي تخص جاري المباشر «فويتشيك». انها تلك البقرة التي سمعتموها وهي تخور للتو، أيها الأسياد الأفاضل. وهي بقرة مريضة وبائسة. لقد أخذ الروس عجلها، ومنذ ذلك الحين لم تعد تدّر الحليب، ولكن صاحبها لايريد ذبحها. وهو يأمل أن السيدة العذراء من «تشيستوخوفا» ستعيد الأمور إلى نصابها.

وبينما كان يقول ذلك ارتدى معطفه المصنوع من فراء الخروف، ثم استأنف قائلا:

— فلنذهب إلى كروشيينكو يا سادتي الأفاضل. انها لا تبعد حتى

ثلاثة أرباع الساعة عن هنا . ما الذي أقوله أنا الآثم ؟ إنها ليست بعيدة ولا نصف ساعة حتّى . أعرف طريقاً عبر الجدول ثم عبر بستان شجر البتولا عبر السنديانة . . . القرية كبيرة ولديهم فود كا قوية جداً في الحانات هناك . فلنذهب يا سادتي الأفاضل ! لم التأخير ؟ يجب أن ينام السادة الأفاضل من فوجكم المجيد براحة وعناية . الجندي الملكي والامبراطورى الذي يقاتل الروس يستحق دون ريب سريراً نظيفاً ومكانا مريحاً للنوم . . . أما هنا ؟ هنا لا يوجد سوى البق والحكة والجدري والكوليرا . والبارحة في قريتنا اللعينة هذه اسودّ ثلاثة فلاحين من الكوليرا . . . لقد أنزل الرب الرحيم اللعنة على ليسكوفييتس . . . .

في هذه اللحظة لوّح شفيك بيده بكل عظمة وقال مقلّداً صوت المختار :

— اسمع يا « سادتي الأفاضل » ! لقد قرأت مرة في أحد الكتب عن الحروب السويدية أنه حين كانت تعطى الأوامر بايواء الجنود في احدى القرى ، كان المختار الذي يحاول تقديم الأعذار ويمتنع عن مد يد العون ينتهي مشنوقاً على أقرب شجرة . واليوم في سانوك حكى لي عريف بولوني أنه حين تصل مجموعة من الجنود للمبيت يكون على المختار استدعاء أعضاء المجلس البلدي ثم يذهب هؤلاء مع الجنود إلى كل كوخ ويقولون ببساطة : « فليذهب ثلاثة رجال إلى هنا ، وأربعة إلى هناك ، والضباط يبيتون في مقر القسيس ويكون كل شيء جاهزاً في نصف ساعة . »

ثم استأنف شفيك مخاطباً المختار بكل وقار :

— ياسيدي الفاضل ، قل لي أين هي أقرب شجراتك إليك .

لم يفهم المختار كلمة «شجرة» وهكذا شرح له شفيك أن الشجرة هي البتولا أو السنديانة أوشجرة الأجاص أو التفاح ، أو أي شيء له أغصان قوية . ولم يفهم المختار مرة أخرى ، ولكنه حين سمع بأسماء الفواكه ذهل لأن الكرز كان على وشك النضوج ولذا قال انه لا يعرف شيئاً عن الشجر ولكن توجد سنديانة أمام بيته .

قال شفيك وهو يشير بيده إلى عنقه بتلك الايماءة المتعارف عليها دولياً والتي تعني الشنق :

ـ حسنا ، سنشنقك أمام منزلك عليك أن تدرك أن هناك حرباً دائرة وأن لدينا أوامر بالنوم هنا وليس في كروشيينكو . لن تغير لنا خططنا الاستراتيجية أيها النغل . ستتأرجح كماحدث للمختار في ذلك الكتاب عن الحروب السويدية . . . لقد جرت حادثة مشابهة أيها السادة خلال المناورات التي جرت في « فلكه ميزير جيتشي » . . .

في تلك اللحظة قاطع فانييك شفيك قائلا :

ـ يمكنك أن تحكي لنا عن ذلك لاحقاً يا شفيك .

ثم التفت نحو المختار وقال :

ـ حسنا إذا . ارفع جاربيك وأرنا أمكنة للمبيت .

بدأ المختار يرتجف ثم تلعثم وهو يقول انه كان يبغي مصلحة السادة الأفاضل ، ولكن ان لم يكن هناك خيار فربما سيجد لهم شيئاً في القرية يرضيهم جميعاً . سيحضر قنديله فوراً .

حين خرج من الغرفة التي كانت مضاءة على نحو خافت جداً بواسطة مصباح يعمل بالكاز تحت صورة قديس كان يتلوى على الصورة كأبأس مُقعد ، صاح خودونسكي فجأة :

— أين ذهب بالون ؟

وعلى أية حال ، وقبل أن يتاح لهم النظر فيما حولهم، فتح الباب الباب الذي خلف المدفأة والذي يؤدي إلى مكان ما في الخارج بكل هدوء وانسلّ منه بالون وقال وهو ينشق وكأنه مصاب بزكام ثقيل :

— لقد كنت في حجرة حفظ اللحوم ووجدت شيئاً ما . لقد أكلت منه فالتصق كله بأسناني . هو ليس بالملح ولا بالحلو ، لابد أنه عجينة الخبز (١) .

أشعل شفيك مصباحه اليدوي ووجّهه على بالون وكان الجميع قادرين على اقناع أنفسهم بأنهم لم يروا بعد في حياتهم جندياً فيالجيش النمساوي في مثل تلك الحالة الرهيبة من القذارة . وبعد أن أصيبوا بالفزع لأنهم رأوا أن سترة بالون كانت منتفخةو كأنه في آخر شهور الحمل .

سأله شفيك مشفقاً وهو ينخس له بطنه المنتفخ :

— ما الذي حدث لك يابالون ؟

تلعثم بالون وهو يحاول التقاط أنفاسه من خلال العجين الذي لم يكن قادراً على التخلص منه لالتصاقه بأسنانه وبفمه :

— انه مخلل الخيار . ولكن عليكم بالحذر فهو مخلل بالملح وقد أكلت منه ثلاث خيارات بعجلة وجلبت لكم الباقي .

ثم بدأ بالون يخرج من تحت سترته الخيار المخلل ويوزّعه علىالآخرين.

---

(١) هنا يتلفظ بالون بالكلمات وهو غير قادر على فتح فمه جيدا ، لذا فان الكثير من الحروف لا تخرج من فمه على الشكل الصحيح . (المترجم)

كان المختار واقفاً عند الباب حاملا قنديله . وحين رأى المشهد رسم اشارة الصليب على نفسه وانتحب قائلاً :

— لقد سرقنا الروس والآن يسرقنا جنودنا أيضاً .

ثم خرج الجميع إلى القرية تصحبهم مجموعة من الكلاب التي كانت تلتصق بعناد ببالون وتقفز على جيب بنطاله حيث كان قد أخفى قطعة من لحم الخنزير المقدّد التي حصل عليها من غرفة حفظ اللحوم ولكنه لم يبلغ رفاق السلاح عنها بسبب شراهته .

سأل شفيك بالون :

— لماذا تلاحقك الكلاب ؟

فأجابه هذا بعد تأمل طويل :

— انها تشتم فيّ رجلا طيباً .

والذي لم يقله هو أنه كان يمسك بيده قطعة اللحم وهي في جيبه وأن أحد الكلاب كان يحاول نهشها باستمرار . . .

وحين تجوّلوا في القرية باحثين عن أماكن للمبيت اكتشفوا أن ليسكوفييتس عبارة عن قرية كبيرة استنزفتها الحرب تماماً . لم تكن قد عانت من أية حرائق ، هذا صحيح ، كما أنها بسبب معجزة ما لم تدخل ضمن نطاق عمليات أي من الجهتين المتحاربتين ، ولكن هاجر اليها من ناحية أخرى واستقر فيها سكان القرى المجاورة التي دمرت مثل : « خيروف » و «غرابوف» و « هولوبلا» .

في بعض الأكواخ كانت تجتمع أحياناً ثماني عائلات في مسكن واحد ، وهي تعيش في أسوأ حالات الفقر المدقع بعد كل تلك الخسائر

التي عانتها عبر الحرب الناهبة المفترسة التي شنت عليهم عبر فترة كاملة كأنها أمواج الطوفان التي تكتسح كل شيء .

كان على السرية أن تبيت في معمل صغير للتقطير امتدت اليه يد الخراب يقع في نهاية القرية ، وحيث كان ممكناً ايواء نصف السرية في غرفة التخمير . أما البقية فكان على كل عشرة منهم أن يناموا في المزارع التي يملكها النبلاء الأغنياء الذين رفضوا إيواء الدهماء ممن فقدوا بيوتهم وأراضيهم وتحولوا إلى شحاذين .

أما قيادة السرية مع كل الضباط وفانييك والوصيف وعامل الهاتف والاسعاف والطباخين وشفيك فقد باتوا في مقر القسيس الذي لم يقبل ايواء أية عائلة من تلك العائلات المعدمة رغم توفر الأمكنة اللازمة لديه .

كان رجلاً نحيلاً طويلاً يرتدي غفارة باهتة قذرة ، وكان لشدة بخله يكاد لا يأكل . كان أبوه قد رباه على كره الروس ، ولكنه تخلى عن حقده على الروس حين تراجع هؤلاء وجاء الجيش النمساوي والتهم كل أوزاته ودجاجاته ، بينما لم يمس الروس هذه الطيور حين بات عنده عدد من جنود القوزاق مشعثي الرؤوس والقادمين من وراء بحيرة بايكال. هذا وقد زادحقده على الجيش النمساوي-الهنغاري حين وصل الهنغاريون إلى قريته واستولوا على كل العسل الذي كان في خلايا النحل لديه . وهاهو ينظر الآن باشمئزاز إلى ضيوفه الفجائيين ، وقد استمتع بقدرته على المرور بهم وهزّ كتفيه والقول المرة تلو الأخرى « ليس لديّ أي شيء على الاطلاق . أنا شحاذ تماماً . لن تجدوا كسرة خبز هنا أيها السادة . »

كان أكثر الرجال حزناً هو بالون الذي كاد ينفجر باكياً بسبب هذا الفقر المدقع كله. كان في رأسه باستمرار فكرة غائمة تدور حول خنزير رضيع ذي لحم يطقطق في الفم وله رائحة الشهد . وطوال الوقت الذي قضاه نائماً في مطبخ القسيس كان شاب نحيل يعمل لدى القسيس كخادم وطباخ ، يتلصصّ عليه إذ كانت لديه أوامر مشددة من القسيس بأن يراقب بعناية المنزل كله حتى لا يُسرق منه شيء .

لم يستطع بالون أن يجد شيئاً في المطبخ سوى قطعة صغيرة من الورق كان عليها بعض بذور الكروياء كانت موضوعة في المملحة . وقد ابتلعها وكان أن أثارت نكهتها هلوساته اللذيذة حول خنزير رضيع .

في باحة معمل التقطير الصغير القابع خلف مقر القسيس كانت النيران تئزّ تحت قدور المطبخ الميداني . كان الماء قد بدأ يغلي ولكن ليس هناك ما يمكن وضعه فيه .

لقد بحث رقيب أول الامدادات والطباخ في أرجاء القرية كلها عن خنزير دون جدوى ، إذ كانوا يسمعون في كل مكان الاجابة نفسها : لقد التهم الروس كل شيء أو أخذوه معهم .

كما أيقظا يهوديا في حانة فراح يشد خصلات شعره الطويلة المجعدة ويعبر عن أسفه العميق بأنه لا يستطيع مساعدة السادة الجنود . وفي النهاية جعلهما يشتريان منه بقرة عجوزاً مثوية كانت عبارة عن هيكل عظمي حيّ هزيل ، مجرد جلد وعظام . وقد طلب سعراً مخيفاً كثمن لها ، ونتف لحيته وأقسم أنهما لن يستطيعا أن يجدا بقرة مثلها في كل غاليسيا والنمسا وألمانيا وأوربا بل والعالم قاطبة . وطوال الوقت

كان ينتحب ويبكي ويقسم بأغلظ الايمان أنها أسمن بقرة جاءت إلى العالم بأمر من الإله «يهوه» . كما أقسم بكل أجداده أن الناس تأتي راكبة من غولوشيسكا لتتفرج على بقرته وأنهم يتحدثون عنها في كل أنحاء المنطقة على أنها أعجوبة ، كما أنها لم تكن بقرة اطلاقاً بل جاموسة ذات لحم ريّان ليس له مثيل . ثم ركع أمامهم على الأرض وهو يحتضن ركبهما الواحد بعد الآخر ويبكي قائلا :

— اقتلوا اليهودى العجوز المسكين إذا أحببتم ولكن لا تذهبوا دون بقرته .

لقد أربكهم جميعاً إلى حد كبير بصراخه بحيث حملوا البقرة البائسة في النهاية إلى المطبخ الميداني ، رغم أن أي تاجر حيوانات ما كان ليشترى مثل تلك البقرة . ولكنه بعد ذلك ، وحين وضع المال في جيبه ، ذهب يبكي أمامهم ويشكو من أنهم قد خربوا له بيته وقطعوا رزقه وأنه قد أصبح شحاذاً تماماً ببيعه تلك البقرة بثمن بخس كذاك . وقد رجاهم أن يشنقوه لارتكابه في شيخوخته مثل تلك الحماقة التي جعلت أجداده يتقلّبون في قبورهم .

وبعد أن تمرغ في التراب أمامهم نفض عنه كل رثائه لنفسه وذهب إلى البيت وقال لزوجته في غرفتهما :

— يا «إلساي» ، يا « إلساكينتزي » ، هؤلاء الجنود حمقى . أما «ناتان» زوجك ، فهو ذكي جداً .

هذا وقد عانى الطباخون كثيراً مع تلك البقرة . فقد بدأ أنه ليس ممكناً سلخها . وخلال سلخهم لها تمزق جلدها في عدة مواضع وبدت عضلاتها تحته ملتوية كالحبل الجاف الثخين الذي تشد به السفينة إلى البر .

في هذه الأثناء جرّوا كيساً من البطاطا من مكان ما وبدؤوا يطبخون تلك الأعصاب والعظام التي لا أمل يرتجى منها ، بينما كان الطباخ في مطبخ صغير مجاور يحاول يائساً أن يصنع طعاماً للضباط من هيكل عظمي.

تركت هذه البقرة البائسة ، هذا إذا كانت هذه الظاهرة الطبيعية تستحق اسم بقرة أصلا ، انطباعاً بعدم القابلية للأكل على ذاكرة كل من كان هناك ، ومن المؤكد تقريباً أنه لو حدث قبل معركة سوكال أن ذكّر الضباط الجنود ببقرة ليسكوفييتس ، لكانت السرية الحادية عشرة سترمي بنفسها بحراب مشرعة على العدو وهي تصرخ صرخات الغضب المخيفة .

كانت البقرة عاراً رهيباً إلى حد أنه لم يكن ممكناً حتى صنع حساء لحم البقر منها ، إذ كانوا كلّما طبخوه يزداد التصاقاً بالعظام وتشربا بها . وقد أصبح شديد التحجر كبيروقراطي أنفق نصف قرن وهو يرعى كلأ الروتين الحكومي ولا يلتهم سوى الوثائق الرسمية .

أعلن شفيك الذي كان يعمل كساعي بريد ويحافظ على الاتصال الدائم بين القيادة والمطبخ لمعرفة موعد جاهزية الطعام ، أعلن أخيراً للملازم الأول لوكاش :

— ياسيدي ، إنها كالبورسلان . البقرة قاسية اللحم إلى حد أنك تستطيع أن تقطع به الزجاج . وحين تذوق بافليتشيك الطباخ اللحم مع بالون ، فقد كسر ثنيته الأمامية وفقد بالون ضرسه الخلفي .

تقدم بالون بوقار نحو الملازم الأول لوكاش وقدم له الضرس المكسور الذي كان ملفوفاً في « أغنية اللورد » وقال متلعثماً :

— أبلغكم بتواضع ياسيدي أني فعلت ما بوسعي حين جربنا الطعام المخصص للضباط لنرى إن كان ممكناً صنع شرائح من ذلك اللحم .

وبينما كان بالون يتكلّم برز خيال كئيب من كنبة قريبة من النافذة . وكان ذلك هو الملازم الأول دوب الذي جُلب على عربة الأسعاف في حالة من الانهيار الكامل .

قال بلهجة يائسة :

— أرجو الهدوء . أنا مريض !

ثم جلس مرة أخرى في الكنبة القديمة التي كان في كل شق منها آلاف بيوض البق .

قال بلهجة مأساوية :

— أنا منهك . أنا مريض ومتألم . أرجو ألا تتحدثوا عن الأسنان المكسورة في حضوري . عنواني هو : سميخوف ، كرالوفسكا ١٨ . إذا لم أعش لأرى نهار الغد أرجو أن تبلغوا أسرتي بذلك مع مراعاة مشاعرهم . لا تنسوا أن تكتبوا على شاهدة قبري أني كنت قبل الحرب معلّماً في مدرسة ثانوية امبراطورية وملكية .

ثم بدأ يشخر بلطف ولم يعد يستطيع سماع الشعر الذي اقتبسه شفيك من مرثاة للموتى :

« ياأنت الذي أنقذت روح «العذراء»

وقدت اللص إلى سجنه ،

اهدني إلى الجنة وأنقذ روحي .»

بعد ذلك أكد فانييك أن البقرة الرائعة ستطبخ لمدة ساعتين أخريين في مطبخ الضباط . لم يعد هناك مجال للشك في استحالة صنع شرائح منها وبدلا عن ذلك سيطبخ لهم الغولاش .

وقد تقرر أنه قبل اعطاء اشارة جاهزية الطعام يجب أن يسمح للرجال أن يناموا قليلا إذ أن العشاء لن يكون جاهزاً قبل الصباح على أية حال .

ثم أحضر فانييك كومة قش من مكان ما ووضعها تحته في غرفه طعام القسيس ولوى شاربيه بعصبية وقال بهدوء للملازم الأول لوكاش الذي كان يستريح فوق أريكة عتيقة :

— صدقني ياسيدي إذا قلت لك إنني لم أر خلال الحرب كلها مثل تلك البقرة . . .

في المطبخ كان خودوسكي جالساً عند عقب مشتعل لشمعة كنسية وهو يحضرّ مقدماً مجموعة من الرسائل إلى البيت حتّى لا يضطر إلى أن يزعج نفسه بكتابة أي منها وذلك حين يعرف على وجه التحديد رقم البريد الميداني . كتب :

« زوجتي الحبيبة الغالية ، بوجينكا العزيزة :

الوقت ليل وأنا أفكر بك باستمرار ياكنزي . أتخيلّك وأنت تفكرين بي وأنت تنظرين إلى السرير الفارغ إلى جوارك . عليك أن تسامحيني لو قفزت إلى ذهني مختلف أنواع الأفكار . أنت تعرفين جيداً أني أخدم في ميدان المعركة منذ بداية الحرب وأنه سبق لي وسمعت أشياء كثيرةومتنوعة من رفاقي الذين جُرحوا أو ذهبوا إلى البيت في

اجازة . حين عادوا إلى بيوتهم تمنوا لو أنهم كانوا في قبورهم ولم يعودوا ليجدوا وغدا حقيراً يعاشر زوجاتهم . من المؤلم لي جداً أن أضطر إلى كتابة مثل هذا الكلام اليك ياحبيبتي بوجينكا . ما كنت لأكتب مثل هذا الكلام ربما ، ولكنك تعرفين جيداً أنك قلت لي مرة إني لم أكن أول رجل عرفك معرفة وثيقة وإن السيد كراوس من جادة ميكولاشسكا قد عرفك قبلي . وحين أفكر هذه الليلة بالذات كيف أن هذا البائس القذر قد يحاول التقرب منك مستغلاً غيابي ، فاني مستعد ياحبيبتي بوجينكا أن أخنقه فوراً . لقد أبقيت هذا بيني وبين نفسي لفترة طويلة، ولكن حين أفكر في أنه قد يعود إلى ملاحقتك مرة أخرى ، يتحجر قلبي وعلي أن أحذرك من أنني لن أعود إلى العيش مع مومس راحت تمارس العهر كما تشاء وتلطخ لي سمعتي . سامحيني ياحبيبتي بوجينكا على مثل هذه الكلمات اللاذعة ، ولكن خذي حذرك .واحرصي على الا أسمع شيئاً سيئاً عنك . وإذا ما حدث ذلك فسأضطر إلى تقطيع أحشائكما أنت وهو معا لأني لن أتورع عن ارتكاب أي شيء حتى لو كلفني ذلك حياتي . أقبلك آلاف المرات . سلمي لي على بابا وماما .

المخلص

تونوش

ملاحظة : لا تنسي أني منحتك اسمي .»

ثم كتب رسائل أخرى يدخرها للمستقبل .

« عزيزتي بوجينكا :

حين تصلك هذه السطور ستعرفين أننا قد خضنا المعركة العظيمة التي حسمت الحرب لصالحنا . لقد أسقطنا ضمن أشياء أخرى عديدة

عشر طائرات معادية وجنرالاً له ثوءلول كبير على أنفه . وفي معمعان القتال حين كانت الشظايا تتطاير من فوق روؤسنا ، كنت أفكر بك ، ياعزيزتي بوجينكا ، وأقول : ماذا تفعل الآن ياترى وكيف هي حالها وما هي أخبار الوطن وغالباً ما أتذكر كيف ذهبنا مرة إلى حانة «القديس توماس» لشرب الجعة ، وكيف كنت تقودينني إلى المنزل وكيف آلمتك ذراعك في اليوم التالي من شدة ما بذلت من جهد . والآن هانحن نتقدّم من جديد ، لذا ليس لدي وقت لإنجاز رسالتي . آمل أن تكوني مخلصة لي لأنك تعرفين أني شيطان فيما يخص هذه الأمور . ولكن الوقت قد حان للمسير . أقبّلك آلاف المرات ياعزيزتي بوجينكا وعليك أن تأملي أن يسير كل شيء على ما يرام .

المحب تونوش»

بدأ رأس خودونسكي ينحني من النعاس ثم نام فوق الطاولة .

لم يستطع القسيس أن ينام فراح يذرع المقر جيئة وذهاباً . ثم فتح الباب المؤدي إلى المطبخ وأطفأ عقب الشمعة المشتعل إلى القرب من خودونسكي وذلك من قبيل الحرص .

في حجرة الطعام كان الملازم الأول دوب هو الوحيد المستغرق في النوم . أما فانييك الذي كان قد استلم في ديوان اللواء في سانوك ميزانية جديدة لاطعام الجنود ، فقد كان يدرسها بعناية ووجد أنه كلما كان الجيش يقترب من الجبهة كلما خفضّت تعيينات الطعام . بل أنه اضطر إلى الضحك لدى قراءته لفقرة من الأمر كانت تحظر استعمال الزعفران والزنجبيل لدى طبخ الحساء للجنود . كما كانت هناك حاشية

تذيل التعليمات وتفيد بأنه في المطابخ الميدانيّة ينبغي جمع العظام وارسالها إلى مستودعات الفرقة في القاعدة . وقد كانت هذه الحاشية غامضة بعض الشيء لأنه لم يكن ممكناً لأي شخص معرفة أية عظام كانوا يعنون : عظام البشر أم عظام القطعان الأخرى الذبيحة ؟

قال الملازم الأول لوكاش وهو يتثاءب من الملل :

– اسمع ياشفيك ، قبل أن نبدأ بالأكل ، هل لك أن تروي لنا قصة من قصص لك ؟

أجاب شفيك :

– ياالهي ، قبل حصولنا على أي طعام أستطيع أن أروي لك تاريخ الشعب التشيكي كله ياسيدي . ولكني أعرف قصة قصيرة جداً سأرويها لك بدلاً عن ذلك وهي تدور حول زوجة مدير مركز بريد من مقاطعة سيد لتشاني ، والذي احتلت مركز زوجها بعد وفاته . لقد فكّرت فيها فوراً حين سمعت ذلك الخطاب حول البريد الميداني رغم أنه لا علاقة لذلك بالبريد الميداني .

قال الملازم الأول لوكاش من الأريكة :

– ياشفيك ، لقد بدأت تتحدث عن التوافه مرّة أخرى .

– أنا كذلك كما أبلغكم بتواضع ياسيدي . والحكاية بالفعل تافهة جداً . أنا لا أعرف كيف يمكن لشيء تافه كهذا أن يخطر لي أو كيف يمكنني التحدث عن أمر كهذا. إما أنه غبائي الطبيعي أو أنها ذكريات شبابي . هناك أشخاص كما تعرف ياسيدي ، ذو طبائع مختلفة في كرتنا الأرضية هذه.وذلك الطباخ يوريدا كان على حق رغم

كل شيء حين سكر في «بروك» وسقط في الحفرة، وحين لم يستطع الخروج منها صاح : « لقد قُدِّر للانسان أن يعرف الحقيقة واختير لذلك ، كما قُدِّر له أن تحكم روحه الكون كله في تآلف وانسجام ، وأن يطور ويثقف نفسه باستمرار ويصعد تدريجياً نحو العوالم الأعلى والأعلى والأكوان الأكثر ذكاء ورقة . » وحين أردنا أن نخرجه من الحفرة راح يخرمش ويعض . لقد ظن أنه كان في البيت ولم يعد إلى وعيه إلاّ حين رميناه مرة أخرى في الحفرة فراح يرجونا أن نخرجه منها .

صاح الملازم الأول لوكاش يائساً :

ـ ولكن ما الذي حدث لمديرة مركز البريد تلك ؟

ـ كانت امرأة طيبة جداً ، ولكن علتها الوحيدة أنها كانت عاهرة بعض الشيء ياسيدي . كانت تقوم بكل واجباتها في مركز البريد . ولكن كانت لها علة واحدة وهي شكّها بأن الجميع كانوا يضطهدونها ويكرهونها . وهكذا كانت بعد انتهاء يوم العمل تبلغ عنهم السلطات وفقاً للظروف . وفي احدى المرات ذهبت في الصباح الباكر إلى الغابة لجني الفطر ولاحظت باهتمام أنها حين مرت بالمدرسة كان ناظر المدرسة قد سبق له ونهض من فراشه . لقد حيّاها وسألها إلى أين هي ذاهبة في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح . وحين قالت أنها ذاهبة لجني الفطر قال لها أنه سيلحق بها . هذا وقد استنتجت المرأة العجوز الحمقاء من هذا أن لديه نوايا غير شريفة ضدها . وبعد أن رأته لاحقاً وهو يخرج من بين الشجيرات أصيب بالذعر وهربت بعيداً ثم كتبت رسالة على الفور إلى مجلس المدرسة تتّهمه فيها بأنه حاول اغتصابها . هذا وقد استدعي الناظر إلى لجنة تأديب ، ولكن حتى لا تحدث فضيحة

فقد جاء مفتش المدرسة نفسه لينظر في القضية . هذا وقد تحدث مع رقيب الدرك وطلب منه أن يدلي برأيه فيما إذا كان ناظر المدرسة من النوع الذي يمكن أن يرتكب مثل هذا الأمر . وقد نظر رقيب الدرك في الملفات وأفاد بأنه غير قادر على ذلك ، فقد سبق له أن اتُّهم من قبل القسيس بأنه يطارد ابنة أخيه ، التي اعتاد القسيس أن ينام معها ، وقد حصل ناظر المدرسة على شهادة طبية من طبيب المنطقة تفيد بأنه عنّين منذ السادسة من العمر حين سقط بساقين مفتوحتين من الشرفة على عمود عربة القش . وهكذا ذهبت تلك العاهرة واشتكت على رقيب الدرك وطبيب المنطقة ومفتش المدرسة متهمة اياهم بتلقي الرشوة من قبل ناظر المدرسة . وقد اضطر هؤلاء جميعاً إلى الدفاع عن أنفسهم واقتيدت إلى المحكمة حيث تبين أنها مذنبة ، ولكنها استأنفت الحكم على أساس أنها تعاني من مرض عقلي. هذا وقد فحصها خبراء طبيون واصدروا شهادة رسمية تفيد أنه رغم كونها ضعيفة العقل إلا أنها تستطيع أن تحتل أي مركز في خدمة الدولة .

صاح الملازم الأول لوكاش :

– ياللمسيح ومريم ! أود أن أقول لك شيئاً ياشفيك، ولكني لاأريد أن أفسد عشائي .

فقال شفيك :

– لقد حذرتك ياسيدي بأني سأحكي لك أمراً تافهاً جداً .

ولكن الملازم الأول لوكاش لوح بيده وقال :

– لقد أسقطت لآلىء حكمة كثيرة ياشفيك .

قال شفيك بلهجة مقنعة :

— لا يحمل كل شخص الحكمة ياسيدي . على الأغبياء أن يوجدوا أيضاً ، لأنه لو كان الكل حكماء فسيكون هناك مقدار كبير من الوعي في هذا العالم بحيث أن الجميع سيجنون نتيجة لذلك . ولو عرف كل واحد مثلا ، كما أبلغكم بتواضع ياسيدي ، قوانين الطبيعة واستطاع حساب المسافات بين الأجرام السماوية ، لما كان سيشكل ازعاجاً لمن هم حوله كذلك الشخص الذي كان يدعى السيد تشابيك ، والذي اعتاد ارتياد حانة « كأس القربان » وكان كلما خرج من الحانة إلى الشارع ليلا ينظر إلى النجوم في السماء ، وحين يعود كان يقول لكن شخص في الحانة على حدة : « اليوم كان المشتري يلمع على نحو جميل . ليست لديك أدنى فكرة أيها النغل عما هو فوق رأسك . تتحدث عن المسافات ! أو كانوا سيطلقونك من مدفع بسرعة قذيفة أيها الوحش القذر ، لكان عليك أن تطير ملايين وملايين من السنين حين تصل إلى هناك . «وحين كان يقول ذلك كان فظاً وغليظاً بحيث كان يطير هو نفسه لاحقاً خارجاً من الحانة بسرعة الترام العادية ياسيدي ، أي حوالي عشرة كيلوا مترات بالساعة . أو خذ مثلا ياسيدي النمل . . .

نهض الملازم الأول لوكاش من على الأريكة وشبّك يديه معا في وضع الصلاة :

— أنا مندهش من نفسي لأني أعود فأتحدث اليك ياشفيك . وعلى أية حال فأنا أعرفك منذ زمن طويل ياشفيك . . .

أومأ شفيك برأسه مؤكداً وقال :

— إنها العادة ياسيدي . وهذا يعود إلى حقيقة أننا نعرف بعضنا البعض منذ فترة طويلة وأننا عشنا معاً الكثير من الحوادث . لقد عانينا الكثير معاً ولو صادفتنا المشاكل فان ذلك كان رائعاً بسبب الحظ .

ابلغكم بتواضع ياسيدي أنه القدر . ان ما يرسمه صاحب الجلالة الامبراطورية يرسمه على نحو جيد . لقد جمعنا معاً ولا أريد لنفسي أي شيء آخر سوى القدرة على مساعدتك أحيانـــاً . ألست جائعاً ياسيدي ؟

قال الملازم الأول لوكاش ، الذي تمدد في هذه الأثناء على الأريكة العتيقة مرة أخرى ، إن سؤال شفيك الأخير كان أفضل نهاية لهذا الحديث المفجع ، وإن عليه أن يذهب ويسأل عما حدث للطعام . وسيكون من الأفضل لو استطاع شفيك الخروج قليلا فيتركه لوحده لأن التفاهات التي كان يستمع اليها قد انهكته أكثر من ذلك المسير كله من سانوك إلى هنا . انه يريد أن ينام قليلا ولكنه لا يستطيع .

ــ هذا كله بسبب البق ياسيدي . هناك مثل قديم يقول أن القساوسة يلدون البق . ولن تجد في أي مكان مثل هذا العدد الوافر من البق الذي تجده في مقر القسيس . ففي مقر القسيس في « هورني ستودولكي » ألفّ القسيس الذي كان اسمه «زاما ستيل» كتاباً كاملا عن البق . وكانت هذه تزحف عليه حتّى وهو يتلو مواعظه .

ــ حسنا ياشفيك ، ما الذي قلته ؟ هل ستذهب إلى المطبخ أم لا ؟

خرج شفيك ولحق به بالون على رؤوس أصابعه من الزاوية كأنه الشبح . . .

وحين غادروا ليسكوفييتس في الصباح باتجاه ستاراسول وسامبور حملوا في المطبخ الميداني معهم البقرة البائسة التي لم تكن قد نضجت بعد . وقد تقرر أن يستمروا في طبخها على الطريق وأن يأكلوها عند الاستراحة في منتصف الطريق بين ليسكوفييتس وستاراسول .

وقد قدموا للجنود القهوة السوداء قبل المسير .

هذا وقد حُمل الملازم الأول دوب مرة أخرى على عربة اسعاف لأنه كان لا يزال يشعر أنه أسوأ حتى من البارحة . كان الرجل الذي يعاني من هذا أشد المعاناة هو وصيفه الذي كان عليه أن يجري باستمرار إلى جانب العربة ، بينما الملازم الأول دوب يصرخ فيه دون توقف بأنه حين يصلون إلى مكان تمركزهم سيعرف، كيف ينتقم منه . في كل لحظة كان يطلب الماء وحين يشربه كان يتقيأه مرة أخرى .

كان يصرخ من العربة :

— على من . . . على ماذا تضحك ؟ سألقنك درساً . لا تلعب معي ستعرفني لابدّ !

كان شفيك يرافق الملازم الأول لوكاش الراكب على حصانه ويمشي بحيوية وكأنه لا يكاد يستطيع مغالبة الانتظار لمحاربة الأعداء . وطوال الوقت كله كان يتكلم ويقول :

— هل لاحظت ياسيدي أن بعض أفراد شعبنا أشبه بالذباب ؟ إن ما يحملونه على ظهورهم لا يكاد يبلغ وزنه الثلاثين كيلو غراماً ، ومع ذلك فهم لا يستطيعون تحمل ذلك . عليك أن تلقى عليهم المحاضرات كما كان يفعل بنا الملازم الأول المرحوم بوخانيك . وكان هذا هو الرجل الذي أطلق على نفسه النار بسبب السلفة التي أخذها من والد صديقته وذلك لأجل انفاقها على التحضيرات للزواج منها ، وكان أن أنفقها على عاهرات أخريات . ثم حصل على سلفة أخرى من والد صديقة أخرى على أساس وعدها بالزواج ولكنه كان أكثر حرصاً هذه المرة ، فقد خسرها ببطء خلال لعب الورق

وليس على العاهرات . على أنه لم يستطع الصمود كثيراً واضطر إلى ايجاد صديقة ثالثة ليأخذ سلفة من أبيها . وقد اشترى بهذه الثالثة حصاناً عربياً أصيلاً وليس هجيناً . . .

ترجل الملازم الأول لوكاش عن حصانه ثم قال بلهجة الوعيد :

ـــ ياشفيك إذا بدأت تتحدث عن سلفة رابعة فسأرمي بك في الحفرة .

ثم قفز مرة أخرى إلى حصانه واستأنف شفيك يقول بجدية ووقار :

ـــ ابلغكم بتواضع ياسيدي أن السلفة الرابعة كانت مستحيلة فقد أطلق النار على نفسه بعد الثالثة .

قال الملازم الأول لوكاش :

ـــ أخيراً !

ثم استأنف شفيك الكلام فقال :

ـــ وليس علينا أن ننسى ما كنّا نتحدث عنه في الأصل ، أي ذلك النوع من المحاضرات التي اعتاد الملازم الأول بوخانيك إلقاءها علينا كلما كان الجنود ينهارون خلال السير ، والتي يجب ، في رأيي المتواضع ، أن تلقى على كل الجنود . كان يعطي الأمر بالاستراحة ثم يجعلنا نصطف من حوله كما الفراريج حول الدجاجة ويقول : «أيها الأنغال ، أنتم غير قادرين اطلاقاً على تقدير حقيقة أنكم تسيرون فوق هذه الكرة الأرضية ، لانكم حثالة جاهلة إلى حد أنكم تجعلون المرء يتقيأ حين يشاهدكم . كان الأحرى بكم أن تمشوا فوق الشمس ! إن الرجل الذي يزن ستين كيلو غراماً على كوكبنا البائس سيزن أكثر

من ألف وسبعمئة كيلو غرام هناك . وهذا من شأنه أن يقضي عليكم جميعاً . سيكون عليكم أن تسيروا حاملين في حقائب الظهر أكثر من ٢٨٠ كغ أي حوالي ثلاثة كنتالات، وسيكون وزن بندقيتكم لوحدها كنتالا ونصف كنتال . ستئنون وألسنتكم مدلاة كأنكم كلاب الصيد المنهكة . » كان معنا معلم مدرسة تعيس الحظ تجرأ فقال : « إذا سمحت لي ياسيدي فان الرجل الذي يزن ستين كيلو غراماً سيزن ثلاثة عشر كيلو غراماً فقط على القمر . وعلى القمر سنكون قادرين على السير على نحو أفضل لأن حقائبنا لن تزن سوى أربعة كيلو غرامات . على القمر لن نسير أبداً بل سنعوم في الهواء . » قال المرحوم الملازم الأول بوخانيك : « يكفي ، يكفي ! هذا كريه بالفعل . يبدو أنك في حاجة إلى لكمة على الفك أيها النغل القذر . يمكنك أن تكون سعيداً لأني سألكمك لكمة أرضية فحسب ، لأني لو كنت سألكمك لكمة قمرية على وزنك الخفيف لكنت ستطير حتى جبال الألب وتتحطم هناك . ولو كنت سألكمك لكمة شمسية ثقيلة لتحولت بزتك العسكرية إلى حساء البازلاء ولطار رأسك إلى مكان ما في أفريقيا . » وهكذا لُكِمَ «العارف بكل شيء » لكمة أرضية عادية ثم بدأ هذا يهذر وهو ينتحب واستأنفنا المسير . ولكن خلال المسير كله ظل ينتحب ويتكلم ياسيدي حول الكرامة الانسانية أو ماشابه، ويشكو من أنهم يعاملونه كمخلوق أعجم . وبعد ذلك أرسله الملازم الأول إلى لجنة التأديب فسجن مدة اربعة عشر يوماً . كما تقرر سجنه مدة ستة أسابيع أخرى ولكنه لم يقضها في السجن لأنه أصيب بفتق . فقد جعلوه يقفز على القضبان المتوازية في الثكنة ولم يستطع ذلك ومات كمتمارض في السجن .

قال الملازم الأول لوكاش :

ـــ هذا أمر غريب بالفعل ، لقد سبق لي وقلت لك أن من عادتك الانتقاص باستمرار من قدر الضباط .

أجاب شفيك بصدق :

ـــ لا ياسيدي . لقد أردت فحسب أن أحكي لك ياسيدي كيف كان العسكريون في الايام الخوالي يدفعون بأنفسهم إلى التهلكة . ذلك الرجل الذي تحدثت عنه كان أكثر ثقافة من الملازم الأول . لقد أراد بحديثه عن القمر أن ينتقص من قدره في عيون الجنود ونتيجةلذلك تلقىّ لكمة على فكه . وقد تنهدّ الجميع ارتياحاً . لم يكترث أي واحد منهم . بل كانوا على العكس من ذلك مسرورين لأن الملازم الأول حوّل الموضوع إلى نكتة لطيفة حول اللكمة الأرضية : هذا ما يمكنك أن تسميه « انقاذ الموقف » . على المرء أن تلتمع لديه بارقة فجائية وعندها تكون الأمور كلها على ما يرام . أمام «الدير الكرمليّ » في براغ ، ياسيدي ، كان هناك منذ سنوات خلت دكان لبيع الأرانب والطيور لصاحبه السيد « بينوم » . وقد بدأ هذا يصاحب ابنة مجلّد كتب يسمى « بيليك» . لم يوافق السيد بيليك على هذه العلاقة وأعلن على الملأ في الحانة أنه لو طلب السيد بينوم يد ابنته فسوف يرميه من على الدرج بطريقة لم يسبق للعالم أن عرفها من قبل . هذا وقد شرب السيد بينوم كمية محترمة من الشراب حتّى يستجمع شجاعته وذهب لمقابلة السيد بيليك رغم ذلك . وقد استقبله السيد بيليك في البهو بسكين كبيرة تستعمل لقطع الكتب بدت أشبهبساطور . وقد صرخ فيه وسأله عما يريد ، وفي تلك اللحظة ضرط السيد بيينوم ضرطة عالية إلى حد أن بندول ساعة الجدّ توّقف عن الحركة . وهنا انفجر السيد بيليك ضاحكا

وصافح السيد يينوم فوراً ، وقال له : « أهلاً ياعزيزي السيد يينوم ، تفضّل بالدخول ، تفضل بالجلوس ، هذا إذا لم تكن قد لوثت بنطالك ! كما ترى فأنا لست بالرجل السيء على أية حال . صحيح أني أردت أن أرميك خارجاً ولكني أرى الآن أنك رجل مهذب لطيف . أنت رجل نادر بالفعل ! أنا مجلّد كتب وقد قرأت العديد من الروايات والقصص ، ولكن لم يسبق لي أن قرأت في أي كتاب عن عريس يعرّف على نفسه بهذا الأسلوب . » وقد ضحك السيد بيليك إلى حد أن خاصرتيه بدأتا تؤلمانه وظل يقول بارتياح كبير إذ يشعر وكأنه يعرف الرجل الآخر منذ أن ولدا وأنهما لا شك أخوان . ثم عرض عليه سيجاراً وأرسل يطلب الجعة والمقانق ، ثم نادى على زوجته وقدمه لها وهو يشرح بالتفصيل أمر الضرطة . ولكنها اكتفت بأن بصقت وخرجت من الغرفة . وبعد ذلك نادى على ابنته وقال لها : « هذا السيد جاء يطلب يدك وحدث كذا وكذا » ، وقد انفجرت الابنة باكية على الفور وقالت إنها لا تريد أن تعرفه ولا تريد حتى أن تراه ، فكان أن اكتفيا بشرب الجعة كلها والتهام المقانق والافتراق . وفيما بعد جلب ذلك العار على السيد يينوم في الحانةالتي اعتادالسيدبيليك ارتيادها ، وفي النهاية لم يعد الناس في ذلك الحي من المدينة ينادونه سوى بـ « يينوم الضراّط » ، وكانوا يتحدثون في كل مكان عن محاولته « انقاذ الموقف » . ابلغكم بتواضع ياسيدي ان الوجود الانساني أمر معقد جداً بحيث أن حياة الفرد الواحد لا تعتبر أكثر من مجرد قمامة لو حاولنا المقارنة . قبل الحرب اعتاد رقيب شرطة يدعى السيد هوبيتشكا أن يرتاد حانة « كأس القربان » في «نابوييشتي» . كما كان هناك زبون دائم للحانة وهو محرّر صحفي يجمع القصص حول السيقان المكسورة

والناس المدهوسين أو المنتحرين ويبلغها إلى صحيفته . وكان رجلا مرحاً ولكنه كان يقضي من الوقت في مخافر الشرطة أكثر مما يقضيه في مكتب صحيفته . وفي أحد الأيام جعل رقيب الشرطة هوبيتشكا يسكر حتى الثمالة ثم تبادلا الملابس في المطبخ فارتدى رقيب الشرطة الملابس المدنية وأصبح المحرر رقيب شرطة . وكان كل ما فعله هو أن غطى الرقم الذي كان على مسدسه وانطلق في دورية في شوارع براغ . وفي شارع «رسلوفا» خلف سجن فنتسيسلاس سابقاً صادف رجلا عجوزاً يرتدي قبعة رسمية عالية ومعطفاً من الفراء ، وكان هذا يسير في منتصف الليل وقد تأبط ذراع سيدة عجوز في دثار من الفرو . كانا كلاهما يغذان السير في طريقهما إلى البيت دون أن يتبادلا كلمة واحد . وقد أسرع نحوهما وصاح في أذن الرجل : « لا تثر شجاراً وإلا سجنتك ! » وتصور ياسيدي الصدمة التي تلقاها هذان الزوجان ! وقد حاولا عبثاً أن يشرحا له أنه لابد على خطأ لأنهما كانا عائدين من حفلة عشاء عند المحافظ ، وكانا قد مضيا بعربتهما حتى « المسرح الوطني » ، والآن يريدان أن يستنشقا بعض الهواء النقي . وهما يعيشان في مكان قريب من حي «ناموراني » وقال أنه يعمل ككبير للمستشارين في مكتب المحافظ وأن السيدة هي زوجته . صاح به المحرر المتنكر في ثياب الشرطي « لن تستطيع خداعي ، عار عليك لو حاولت ، فأنت تقول انك كبير المستشارين في مكتب المحافظ ومع ذلك تتصرف كقاطع طريق مراهق . لقد كنت أراقب منذ فترة طويلة كيف كنت تقرع بعصاك على أبواب الحوانيت المغلقة وكيف كانت من تسميها «زوجتك» تساعدك في ذلك . » «و لكني لا أحمل أية عصا ، كما ترى . لا شك أنهما كانا شخصين آخرين قبلنا . » قال المحرر المتنكر : « كنت

أستطيع أن أقول إنك لا تحمل عصا لولا أني رأيتك بعينيّ هاتين وأنت تكسرها عند الزاوية الشارع على رأس امرأة عجوز تطوف عادة بالحانات تبيع البطاطا والكستناء المشوية . » لم تستطع السيدة حتّى أن تصرخ كما غضب كبير المستشارين إلى حد أنه بدأ يتحدث عن « الفظاظة الوقحة » ، وعندها اعتقله المحرر وسلّمه إلى أول دورية تابعة لمنطقة مخفر شرطة «شارع سالموفا» . وقد قال المحرر المتنكّر للدورية إن الزوجين يجب أن يُقتادا إلى مخفر الشرطة ، فهو يتبع مخفر الشرطة في «سفاتي يبندرجيخ» وهو ذاهب في مهمة رسمية إلى « فينوهرادى » وأنه أمسك بهما كليهما وهما يثيران الشغب ليلاً وقد أحدثا شجاراً . واضافة إلى ذلك فقد ارتكبا مخالفة توجيه الإهانة للشرطة . وسيقوم هو بإنهاء مهمته في مخفر الشرطة في سفاتي يبندرجيخ ويعود خلال ساعة إلى مخفر الشرطة في « شارع سالموفا» . وهكذا اقتيد الزوجان من قبل الدورية وحُبسا حتّى اليوم التالي وهما ينتظران رقيب الشرطة الذي عاد في هذه الأثناء بطرق ملتوية إلى حانة «كأس القربان » في « نابوييشتي » . وهناك أيقظ رقيب الشرطة هوبيتشكا وحكى له برقة كل ما حدث ، وأن تحقيقاً سيجري لابد في هذه القضية وأنه إذا لم يبق فمه مغلقاً . . .

بدا على الملازم الأول لوكاش وكأنه قد تعب من الحديث وقبل أن يلكز جواده ليعدو خببا ويسبق الطليعة قال لشفيك :

— إذا كنت ستثابر على هذا المنوال حتّى المساء فان حديثك سيصبح أكثر فأكثر فساداً . . .

صاح شفيك خلف الملازم الأول المبتعد :

— ياسيدي . ألا تريد أن تعرف كيف انتهت الحكاية ؟

حث الملازم الأول جواده ليجري بسرعة كبيرة .

تحسنّت حالة الملازم الأول دوب كثيراً إلى حد أنه خرج من عربة الاسعاف وجمع حوله أعوان قائد السرية وبدأ يعطي التعليمات وكأنه في حالة من التشويش الذهني . وقد ألقى فيهم خطاباً مطولا إلى حد هائل كان تحملّه أثقل عليهم من ذخيرتهم وبنادقهم .

كان الخطاب عبارة عن مزيج من حكايات عديدة ذات مغزى أخلاقي إذ شرع يقول :

— إن حب الجنود لضباطهم يجعل التضحيات التي لا تصدق ممكنة الحدوث . ولكن ليس هذا هو لب الموضوع . بل العكس هو الصحيح. فاذا كان هذا الحب ليس تلقائياً لدى الجندي فلابد من اكراهه عليه. في الحياة المدنية فان الحب الاجباري كحب بوّاب المدرسة مثلا للمعلمين ، يدوم طالما دامت القوة الخارجية التي تفرضه . وفي الجيش على أية حال ، فاننا نلاحظ العكس تماماً، لأن على الضابط ألا يسمح للجندي بأي استرخاء فيما يخص هذا الحب الذي يربطه بضابطه . وهذا الحب ليس حباً عادياً : انه في الواقع عبارة عن احترام وخوف وانضباط .

في هذه الأثناء كان شفيك يسير إلى جانبه وإلى يساره وبينما كان الملازم الأول دوب يتكلم كان شفيك يلتفت نحوه بوجهه في وضعية يميناً ره ا» .

في البداية لم يلحظ الملازم الأول دوب ذلك واستمر في كلامه :

– هذا النظام والالتزام بالطاعة ، والحب الاجباري للجندي تجاه ضابطه ، هو البلاغة الايجازية بعينها ، لأن العلاقة بين الجندي والضابط علاقة دقيقة : فالواحد منهما يطيع والآخر يأمر. منذ فترة طويلة كنا نقرأ في كتب العلوم العسكرية أن الايجاز العسكري والبلاغة العسكرية هما فضيلتان على كل جندي أن يتحلى بهما : فسواء شاء الجندي أم أبى عليه أن يحبّ ضابطه الذي يجب أن يكون بالنسبة اليه أعظم وأكمل تجسيد متبلّر للارادة الحازمة التي لا تعرف الخذلان .

وهنا فحسب لاحظ وجود شفيك ووضعية «يميناً ره!» المثبتة تجاهه . وقد انزعج من ذلك جداً لأنه أحس فجأة أنه يتلعثم فلا يستطيع الخروج من خندق حب الجندي لضابطه . وهكذا صاح بشفيك :

– لماذا تحدق فيّ بهذا البله ؟

– وفق أوامركم كما أبلغكم بتواضع ياسيدي . لقد تفضلت مرة وحذرتني من أن عليّ أن أتابع شفتيك بعيني هاتين حين تتحدث . وكما يكون على كل جندي أن ينفذ تعليمات ضابطه ويتذكرها من أجل المناسبات القادمة فعليّ أنا أن أفعل ذلك أيضاً .

صاح الملازم الأول دوب :

– انظر إلى الجهة الأخرى ، وليس باتجاهي بحق الله أيها النغل الأحمق . أنت تعرف أني لا أحب ذلك. لا أستطيع احتمال رؤيتك . سألقنك درساً . . .

لفت شفيك رأسه نحو اليسار واستمر في السير بتصلّب إلى جانب الملازم الأول دوب فصاح هذا الأخير :

– أين هما عيناك حين أخاطبك ؟

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أنني وفق أوامركم أقوم بتنفيذ وضعية «يساراً ره » .

تنهد الملازم الأول دوب قائلا :

– ياالهي ، ما هذا الصليب الذي عليّ أن أحمله ! انظر إلى الأمام وفكر فيما يلي بينك وبين نفسك : « أنا معتوه إلى درجة أنه إذا حدث شيء ما لي فلن يكون هناك من هو أسوأ حالا مني . » هل تستطيع تذكّر ذلك ؟

نظر شفيك إلى الأمام وقال :

– أبلغكم بتواضع ياسيدي وأسأل : هل يحق لي أن أجيب ؟

– اياك ثم أياك أن تتصرف على هذا النحو ! اياك أن تخاطبني على هذا النحو ! ما الذي تعنيه بما قلته ؟

– أبلغكم بتواضع ياسيدي أني لا أفكر سوى بأوامرك التي صدرت عنك في احدى المحطات حين وبختني وقلت إن عليّ ألا أجيب حين تنهي كلامك .

قال الملازم الأول دوب مسروراً :

– إذا ، فأنت خائف مني ، ولكنك لم تعرفني بعد . أنت لست الوحيد الذي يرتجف أمامي ، تذكر ذلك ! لقد استطعت ترويض أنغال آخرين غيرك . ولذا فانه من الأفضل لك أن تغلق هذين الشدقين وابق في الخلف هادئاً وابتعد عن ناظري .

وهكذا بقي شفيك في المؤخرة مع الاسعاف ، وركب براحة على عربتها ذات العجلتين حتى وصلوا إلى الاستراحة التالية ، حيث حصل الجميع أخيراً على ما كانوا ينتظرونه : الحساء واللحم من البقرة البائسة .

قال شفيك :

ــ لا شك أن هذه البقرة قد نُقِعَتْ في الخلّ مدة أسبوعين على الأقل ، وإن لم تكن البقرة كذلك ، فالرجل الذي اشتراها .

ومن اللواء وصل الساعي راكباً على حصان ومعه أمر جديد للسرية يفيد بأن طريق المسير قد تغيرت باتجاه « فلشتين ». يجب ألاّ يذهبوا إلى « فوياليشه » و « سامبور » إذ لم يكن ممكناً إيجاد مأوى للسرية هناك ففيهما الآن فوجان من « بوزنان » .

وسرعان ما قام الملازم الأول لوكاش باجراءات جديدة . لقد أمر كلا من فانييك وشفيك بالذهاب للبحث عن مكان لمبيت السرية في فلشتين .

حذّر الملازم الأول لوكاش شفيك قائلا :

ــ والآن لا تحاول أن ترتكب أي عمل مزعج على الطريق ياشفيك . وعلى أية حال ، فعليك أن تتصرّف على نحو محترم مع السكان المدنيين .

ــ ابلغكم بتواضع ياسيدي أني سأبذل قصاري جهدي رغم أني رأيت مناماً مزعجاً حين غفوت قليلا عند الصباح . لقد رأيت فيما يرى النائم حوض غسيل ينقط منه الماء طوال الليل في ردهة البيت الذي

أسكن فيه ، حتى طفح الماء ونفذ من سقف صاحب البيت . وقد قدم لي انذاراً في ذلك الصباح نفسه. لقد جرت حادثة مشابهة ياسيدي في الحياة الحقيقية : ففي «كارلين» خلف الجسر . . .

— كفاك قصصاً غبية ياشفيك وانظر في الخريطة لترى أين عليك الذهاب . هنا ترى هاتين القريتين . من هذه القرية عليك الذهاب باتجاه اليمين نحو الجدول ثم تسير على امتداد الجدول حتى تصل إلى أقرب قرية . ومن هناك ، في البقعة التي يصب فيها أول جدول ، وذلك على يدك اليمنى ، عليك أن تسير على امتداد الممر عبر الحقول حتى التل شمالا . ثم لا يمكناك أن تضل طريقك حتى تصل إلى «فاشتين» هل تستطيع تذكر ذلك ؟

انطلق شفيك مع فانيياك واتبع الطريق المرسوم .

كان النهار قد انتصف منذ قليل ، وكانت الأرض نتنفس بثقل بسبب الحرارة وفاحت رائحة عفنة من الحفر المطمورة على نحو سيء والتي تحوي جثث الجنود القتلى . وصل الرجلان إلى المنطقة حيث كان القتال دائراً خلال التقدم نحو « برزيميسل » وحيث كانت كتائب بأكملها قد حصدت بالمدافع الرشاشة . كان الدمار الذي سببته المدفعية واضحاً في الأيكات التي كانت ممتدة على طول الجدول . وفي الفراغات الواسعة والمنحدرات كانت هناك بعض الأجذال (جمع جذل وهو أصل الشجرة بعد قطعها) المشوّهة تبرز من الأرض بدلاً عن الأشجار وكان هذا القفر مليئاً بالخنادق .

قال شفيك ليكسر الصمت :

— يبدو هذا المكان مختلفاً قليلا عن المنطقة المحيطة ببراغ .

قال فانييك :

— في الوطن انتهى الحصاد الآن . نحن نبدأ به منطلقين من منطقة كرالوبي .

قال شفيك بعد فترة :

— سيكون الحصاد هنا جيداً بعد الحرب . لن يضطروا إلى شراء دقيق العظام . انه لمن مصلحة الفلاحين أن تكون حقولهم مغطاة بجثث فوج كامل . وبعبارة أخرى فانها وسيلة جيدة من وسائل الرزق . والشيء الوحيد الذي يقلقني هو أن على الفلاحين ألا يتركوا المجال لأحد أن يخدعهم ويجعلهم يبيعون عظام هؤلاء الجنود لتحويلها إلى فحم العظام في معامل تقطير السكر . في الثكنة في كارلين كان معنا ملازم يدعى « هولوب » . وكان هذا شخصاً متعلماً جداً بحيث أن كل فرد في السرية كان يظنه أحمق . وكما ترى ، وبسبب ثقافته فهو لم يكن يعرف أبداً كيف يشتم الجنود وينظر إلى الأمور كلها من وجهة النظر الأكاديمية . ومرة أبلغه الجنود أن الخبز العسكري الذي استلموه لم يكن صالحاً للأكل . لو كان ضابط آخر في محله لكان سينفعل لقاء مثل هذه الوقاحة ، والكنّه لم ينفعل . بـــل بقي هادئـــاً ، ولم يدع أحداً بالخنزير ولم يلكم أحداً على فكه . بل دعا رجاله إلى الاجتماع وقال لهم بلطف :

« أولا وقبل كل شيء يارجالي ، عليكم أن تدركوا أن الثكنة ليست دكاناً لبيع الأطعمة اللذيذة حيث يمكنكم أن تختاروا الأنقليس المخلل والسردين والسندويشات . على كل جندي أن يكون ذكياً بما فيه الكفاية بحيث يبتلع أي طعام يستلمه دون أن يتذمر فيما يخص نوعيته .

وعليه أن يكون ذا انضباط ذاتي بحيث لا يثير شغبا بسبب نوعية الطعام الذي يوضع أمامه . تصوروا فحسب أيها الرجال لو جرت الحرب . إن التراب الذي ستدفنون فيه لن يهتم أبداً بنوعية الخبز الذي التهمتموه قبل أن تموتوا . ستقوم أمنا الأرض بتحليلكم والتهامكم بما فيه حتى أحذيتكم . في هذا العالم ليس هناك ما هو مسموح باختفائه كلياً . منكم يارجالي سينمو قمح جديد لحصص من الخبز تعطى لجنود جدد ربما سيكونون مثلكم الآن لا يشعرون بالرضا ، ويأخذون بالشكوى وقد يصادفون شخصاً يرمي بهم في السجن وذلك لأن له الحق في ذلك . والآن يارجالي لقد شرحت لكم كل شيء على نحو جميل وأعتقد أنه ليس من الضروري أن أذكركم مرة أخرى أن من سيأتي ليشكو مرة أخرى سيشكر حظه السعيد لاحقاً حين يخرج إلى نور الرب . » كان الجنود يقولون واحدهم للآخر : « او أنه يشتمنا فحسب » ، ولم يكونوا يحبون اطلاقاً كل تلك الدماثة في كلام الملازم الأول . ولذا اختاروني مرة كممثل عن السرية وطلبوا مني أن أذهب لاقول له إنهم يحبونه جميعاً ولكن لا يكون الجيش جيشاً دون سباب . وهكذا ذهبت إلى منزله وطلبت منه أن يتخلى عن دماثته ، وقلت إن الجيش قاس كالمسامير وإن الجنود قد اعتادوا على أن يذكروا كل يوم بأنهم أنغال وخنازير . وإذا لم يحدث ذلك فانهم يفقدون احترامهم لضباطهم . في البداية دافع عن نفسه ، وتحدث عن الذكاء وقال أنه قد ولى ذلك الزمان الذي كانت فيه قضبان البتولا هي الحاكمة ، ولكنه قبل وجهة نظري في النهاية ، ولكمني على حنكي ثم رماني خارجاً من باب منزله كأنما يريد أن يدعم هيبته . وحين بلغت الآخرين بنتيجة المفاوضات سروا جميعاً ولكنه ذهب في اليوم التالي وخرب الأمر كله . لقد جاء إلي وقال على

سنسمع منهم جميعاً : « ياشفيك ، لقد ثار غضبي البارحة ، اليك بها الغيالدر . اذهب واشرب نخبي . على المرء أن يعرف كيف يعامل رجاله .»

نظر شفيك إلى مشاهد الريف من حوله ثم قال :

— اعتقد أننا نتّجه الجهة غير الصحيحة . لقد شرح الملازم الأول لنا الأمر على نحو جيد . علينا أن نتسلق التل ثم نتزل منه ونتجه إلى اليسار أولا ثم إلى اليمين ثم مرة أخرى نحو الأمام طوال الوقت . أم هل أننا فعلنا ذلك كله خلال الحديث ؟ أستطيع أن أرى هنا أمامي طريقين نحو « فلشتين» . وأقترح أن تأخذ هذا الطريق اليساري .

ولكن فانييك ، كما يحدث دائماً حين يجد شخصين نفسيهما على مفترق طرق ، بدأ يلحّ على أنه يتوجب عليهما الاتجاه يميناً .

قال شفيك :

— طريقي أكثر راحة من طريقك . سأسير على امتداد الجدول حيث تنمو أزهار « أذن الفأر » أو «لا تنسني » ، وسوف تبدّد وقتك كالأحمق في الأرض اليباب . سألتزم بما قاله الملازم الأول : لا يمكننا أن نضل طريقنا ، وإذا كان غير ممكن أن نضل طريقنا اذن فلماذا نتسلق أية تلال ؟ سأسير براحة عبر المروج ، وأضع زهرة صغيرة جميلة على قبعتي وأقطف باقة كاملة منها لأجل الملازم الأول . وعلى أية حال فاننا سنرى أيّنا كان على حق وآمل أن نفترق هنا كصديقين حميمين . هذا هو النوع من الريف الذي تؤدي فيه كل الطرقات إلى « فلشتين » .

قال فانييك :

— لا تكن مجنوناً ياشفيك . وفق الخريطة يجب أن تتجه يميناً كما أقول .

أجاب شفيك وهو ينزل إلى وادي الجدول :

— يمكن أن تكون على خطأ . لقد سار جزار خنازير يدعى «كرجينيك» من فينوهرادى مرة إلى بيته ليلا من «أومانتوغو» على «مالا ستّرانا» وحاول أن يجد طريقه مستعينا بخريطة لشوارع براغ ، وفي الصباح وصل إلى روزدييلوف قرب كلادونو . وهناك وجدوه متخشباً في الجاودار حيث سقط من الانهاك . إذا كنت مصراً على رأيك ولا تريد الاصغاء إلى نصيحتي ، أيها الرقيب الأول ، فعلينا أن نفترق وسوف نرى واحدنا الآخر مرة أخرى في المكان المقصود : «فلشتين». انظر إلى ساعتك حتى نعرف من منا سيصل إلى هناك أولاً . وإذا ما حصل أن أحاق بك أي خطر أطلق النار في الهواء حتى أعرف مكانك .

في فترة ما بعد الظهر وصل شفيك إلى بحيرة صغيرة حيث صادف أسيراً روسياً هارباً كان يستحم هناك . وحين رأى هذا شفيك هرب على الفور عارياً كما ولدته أمه .

كانت البزة الروسية ملقاة تحت شجرة الصفصاف وقد انتاب شفيك الفضول لمعرفة كيف ستبدو عليه البزة ، ولذا خلع ملابسه وارتدى البزة التي كان الأسير البائس الحظ يرتديها اذ هرب من قافلة سبق أن باتت في قرية خلف الغابة . لقد أراد شفيك أن يرى انعكاس صورته في الماء ولذا سار مسافة طويلة على طول امتداد سد البحيرة بحيث ألقت عليه القبض دورية من الدرك الميداني كانت تبحث عن الأسير الروسي

الهارب . وكان افراد الدورية هنغاريين . ورغم احتجاجاته الا أنهم جرّوه نحو مقر القيادة في «خيروف» حيث وضع ضمن قافلة الأسرى الروس الذين كانوا سيرسلون للعمل في اعادة بناء خط السكة الحديدية باتجاه برزيميسل .

لقد حدث كل شيء بسرعة فائقة بحيث أن شفيك لم يدرك حتّى اليوم التالي الوضع وكتب بقطعة من الفحم على الجدار الأبيض لغرفة الصف المدرسية الذي باتت فيها مفرزة الأسرى ما يلي :

« هنا نام يوسيف شفيك من براغ ، جندي ارتباط السرية الحادية عشرة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين ، والذي كان عضواً في مجموعة مبيت وأسر خطأً من قبل النمساويين قرب فلشتين . »



الكتاب الرابع

الهزيمة المجيدة تستمر



الفصل الأول

شفيك
في قافلة الأسرى الروس

وهكذا حسبوا شفيك الذي كان يرتدي معطفاً وقبعة روسيين أسيراً هارباً من قرية قرب فلشتين ، وحين راح يكتب صرخاته اليائسة بالفحم على الجدار ، لم يأبه به أحد ، وعند نقطة العبور في « كيروف »، ولدى توزيع فتات من خبز الذرة القاسي ، حاول أن يشرح كل شيء بالتفصيل لضابط عابر ، ولكن أحد الجنود الهنغاريين ممن كانوا يحرسون قافلة الأسرى نخزه بعقب بندقيته في كتفه وقال له بالهنغارية :

— عد إلى الصف أيها الخنزير الروسي .

كان هذا يتفق مع الطريقة التي كان الهنغاريون يعاملون بها الأسرى الروس اذ لم يكن هؤلاء قادرين على فهم لغتهم .

وهكذا عاد شفيك إلى الصف والتفت إلى أقرب أسير وقال :

— الرجل الذي هناك يؤدي واجبه ، ولكنه يعرض حياته لخطر كبير . ماذا لو كانت البندقية معبأة وكانت ماسكة الأمان محرّرة ؟ عندها فانه حين يضرب شخصاً ما على كتفه بها والسبطانة موجهة إليه ، فقد

تنفجر بكل سهولة وستنطلق الذخيرة نحو فمه ويموت خلال أداء الواجب . في أحد المقالع في « شومافا » سرق العمال أصابع ديناميت ليكون لديهم ذخيرة يكسرون أجذال الشجر في الشتاء . كانت لدى حارس المقلع أوامر بتفتيش كل عامل لدى خروجه من المقلع ، وكان يفعل ذلك بحيوية بالغة بحيث أنه أمسك بأول عامل مقلع رآه وضربه على جيوبه بعنف شديد ، فانفجرت أصابع الديناميت التي كانت في داخلها وطارا كلاهما إلى أعالي السماء وقد بدا أنه في آخر لحظاتهما كانت ذراعا كل واحد منهما تطوّقان عنق الآخر .

نظر الأسير الروسي إلى شفيك وبدا واضحاً أنه لم يفهم كلمة واحدة مما كان يقوله .

قال التتري :

— لا أفهم ، أنا تتري من القرم . الله أكبر .

ثم جلس على الأرض وطوى ساقيه وشبك ذراعيه على صدره وراح يصلي صلاة نصفها بالروسية ونصفها الآخر بالتترية :

— الله أكبر ، الله أكبر ، بسم الله الرحمن الرحيم ، جندي بسيط .

قال شفيك متعاطفاً :

— حسناً اذن ، أنت تتري ، أليس كذلك ؟ أنت زبون جيد إذاً . كيف تتوقع بلغتك المبهمة هذه أن تفهمني أو أفهمك ان كنت تترياً ؟ هاهه ، هل تعرف ياروسلاف من « شتيرنبيرك » (١) ؟ أنت لا تعرفه ،

---

١ — وفقا للأسطورة فان العذراء ظهرت في المنام لياروسلاف من شتير نبيرك قبل المعركة مع التتر تحت جبل هوستين في مورافيا عام (١٢٤٠) وقد هزم فيها التتر هزيمة منكرة . (س . ب .)

أليس كذلك أيها النغل التتري ؟ حسناً ، لقد جلدكم على مؤخراتكم تحت جبل «هوستين » . وبعدها أدرتم أيها الأنغال التتريون ظهوركم وهربتم إلى مورافيا . في كتبكم المدرسية لا تدرسون الأمور نفسها التي ندرسها نحن . هل تعرف « سيدة هوستين » ؟ طبعاً أنت لا تعرفها !حسناً، لقد كانت هناك هي أيضاً . الأحرى بك أن تكون على حذر أيها النغل التتري . سيقومون بتعميدكم جميعاً أنتم الأسرى .

ثم التفت شفيك إلى أسير آخر :

– هل أنت تتري أيضاً ؟

فهم الشخص المخاطب كلمة « تتري » فهز رأسه وقال بلغة نصف روسية :

– لست تترياً ، أنا شركسي ، شركسي المولد والنشأة . أنا أقطع الرؤوس !

كان من حظ شفيك أنه وجد نفسه في صحبة هؤلاء الممثلين المختلفين للشعوب الشرقية . فقد كانت القافلة تضم التتر والجيورجيين والأوسيتيين والشراكسة والموردفين والكلميك .

ولكن كان من سوء حظه أنه لم يستطع التفاهم مع أي منهم ، كما أنه اقتيد مع الآخرين إلى « دوبروميل » ، حيث كان يتوجب اصلاح خط السكة الحديدية المتجهة إلى برزيميسل نحو نيجانكوفيتسه .

في ديوان نقطة العبور في « دوبروميل » تم تسجيل الأسرى الواحد اثر الآخر . وكانت هذه عملية صعبة إذ لم يستطع أي واحد من الأسرى الثلاثمئة الذين اقتيدوا إلى دوبروميل أن يفهم كلمة واحدة من اللغة

الروسية التي كان ينطق بها الرقيب الأول الجالس إلى الطاولة . وكان هذا الرجل قد أفاد أنه يعرف الروسية ، فأُوكل إليه العمل كمترجم في غاليسيا الشرقية . منذ ثلاثة أسابيع كان قد طلب قاموساً ألمانياً — روسياً وكتاباً لتعليم المحادثة بالروسية ، ولكنه لم يكن قد استلمهما بعد ، ولذا بدلاً عن الروسية كان هذا المترجم يتكلم بالسلوفاكية « المكسّرة » ، إذ كان قد اكتسب بعض المعرفة السطحية بهذه اللغة حين كان يمثّل شركة نمساوية من فيينا في سلوفاكيا ويبيع صور القديس ستيفن وأجراناً للماء المقدس وسُبّحات .

وقد كان مذهولاً تماماً أمام هذه الشخصيات الغريبة إذ لم يستطع أن يجعلها تفهم لغته . وهكذا خرج وهدر بالألمانية مخاطباً مجموعة من الأسرى :

— من يعرف منكم الألمانية ؟

تقدم شفيك خارج المجموعة واندفع بوجه بشوش نحو الرقيب الأول الذي أمره بأن يتبعه إلى المكتب فوراً .

جلس الرقيب الأول أمام سجلاّته التي كانت عبارة عن أكوام من البيانات بأسماء الأسرى وأصولهم وجنسياتهم ، وجرى حوار ممتع بالألمانية :

قال لشفيك :

— أنت يهودي ، أليس كذلك ؟

هز شفيك رأسه .

استأنف الرقيب الأول المترجم مؤكداً :

— لا حاجة إلى إنكار ذلك . كل واحد منكم أيها الأسرى يعرف الألمانية يهودي ، وهذا أمر لا مجال للشك فيه . ما اسمك ؟ « شفيخ» ؟ ! اسمع ، لا تحاول انكار ذلك . في النمسا لا توجد مذابح منظّمة . من أين أنت ؟ هاهه ، من « براغا » ؟ أعرف ، أعرف . إنها إلى القرب من «وارسو » . منذ اسبوع واحد فحسب كان لديّ يهوديان هنا من «براغا » « قرب وارسو . وما هو رقم فوجك ؟ الواحد والتسعون ؟

أخذ الرقيب الأول لائحة التصنيفات وراح يبحث في صفحاتها :

— الفوج الواحد والتسعون قادم من « بريفان » في القفقاس . أما قاعدته فهي « تيفليس » .عيناك تجحظان ، أليس كذلك ، حين ترى أننا نعرف كل شيء ؟

لقد جحظت عينا شفيك فعلاً ولكن من دهشته ، واستمر الرقيب الأول يتصرف بجديه كبيرة وهو يعطي شفيك لفافته التي كان قد دخن نصفها :

— هذا الأمر يختلف عن رقصة « الماخوركا » (١) ، أليس كذلك ! أنا زعيم كبير هنا أيها الولد اليهودي . حين أقول كلمة واحدة يرتجف الجميع ويزحفون على أيديهم وركبهم . في جيشنا نوع من الانضباط يختلف تماماً عمّا لديكم . قيصركم نغل أما قيصرنا فرجل ذكي .والآن سأريك شيئاً حتى ترى ذلك النوع من الانضباط الذي لدينا .

ثم فتح الباب الذي يؤدي إلى الغرفة المجاورة وصاح :

— هانز لوفلر !

---

١ ـ يقصد رقصة المازوركا . (المترجم)

وجاء الجواب :

ــ حاضر !

وهنا دخل جندي مصاب بتضخم في الغدة الدرقية . كان هذا رجلاً من «ستيريا» على وجهه تعبير يدل على الغباء المنتحب . إنه يقول بكل الأعمال الشاقة في نقطة العبور .

أصدر الرقيب الأول أمره قائلاً :

ــ يا هانز لوفلر ، خذ غليوني وضعه في « شادوقلك » كما يفعل الكلب حين يحضر عصا واركض حول الطاولة على أطرافك الأربعه حتى أقول لك قف » . وبينما تفعل ذلك عليك أن تنبح دون أن يسقط الغليون من فمك . واذا حدث أن سقط سآمر بتقييدك .

وهكذا ركع الجندي المصاب بالتهاب الغدة الدرقية على أطرافه الأربعة وراح ينبح .

نظر الرقيب الأول بانتصار نحو شفيك وقال:

ــ ألم أقل لك أيها الولد اليهودي إن لدينا انضباطاً حقيقياً هنا ؟

ثم نظر الرقيب الأول باستمتاع إلى وجه الجندي الخالي من التعبير والقادم من كوخ فوق جبال الألب ، وصاح :

ــ قف ! اجلس منتصباً وتوسّل واجلب لي غليوني ! حسناً ، والآن عليك أن تصيح منتقلاً من الصوت العادي إلى الطبقة الأعلى .

وهكذا دوى المكتب بهدير : « هولاريو ، هولاريو . . . »

وحين انتهى الدور التمثيلي أخرج الرقيب الأول أربع لفافات تبغ

من درجه وأعطاها بعظمة إلى هانز . وقد بدأ شفيك يشرح له بعد ذلك بألمانيته المكسّرة أنه في أحد الأفواج كان لدى الضباط وصيف مطيع كهذا كان مستعداً أن يؤدي أية خدمة يريدها سيده ، ولكن حين سئل مرة إن كان مستعداً أن يأكل برازه بملعقة لو أمره سيده بذلك ، قال : «إذا أمرني ملازمي بذلك فسآكله وفقاً للأوامر ، شريطة ألاّ أجد شعرة فيه . فلو حدث ذلك سأشعر بالاشمئزاز الشديد وأتقيأ فوراً . »

ضحك الرقيب الأول وقال:

— أنتم اليهود تروون قصصاً جيدة ، ولكني مستعد أن أراهن على أن الانضباط في جيشكم ليس جيداً كما هو في جيشنا . ولكن اذا عدنا إلى صميم الموضوع فاني أعيّنك كمسؤول عن القافلة . ما أن يحلّ المساء حتى تكون قد سجلت لي أسماء كل الأسرى الآخرين . كما ستقوم باستلام تعيينات الطعام لهم. سنقسمهم إلى مجموعات من عشرة أشخاص وتكفل عدم هروب أي شخص منهم . واذا ما هرب أي واحد منهم أيها الولد اليهودي غسأطلق النار عليك .

قال شفيك :

— أود أن أتحدث اليك على انفراد أيها الرقيب الأول .

— لا تُماحكْ . لا أحب ذلك ، واذا ما حاولت ذلك سأرسلك إلى المعسكر . تبدو وكأنك قد تأقلمت بسرعة كبيرة هنا في النمسا . تريد أن تتحدث معي على انفراد ؟ . . . كلما كان المرء لطيفاً معكم أيهّا الأسرى كلما ساءت الأمور . . . والآن هيا ابتعد عن ناظري بسرعة ! إليك ببعض الأوراق وقلم رصاص . جهزّ اللائحة . . . ما الذي تريده أيضاً ؟

– أبلغكم بتواضع أيها الرقيب الأول . . .

– اخرج إلى الجحيم من هنا ! ألا ترى أني مشغول ؟

وهنا اكتسب وجه الرقيب الأول تعبير رجل منهمك في العمل تماماً .

ضرب شفيك التحية العسكرية وعاد إلى الأسرى وهو يفكر في نفسه بأن كل هذا الصبر في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية سيُثمر لا شكّ في يوم من الأيام .

كان تجهيز اللائحة عملية صعبة جداً . فقد كان من الصعب على الأسرى أن يفهموا أنه يريد منهم أسماءهم واستغرق ذلك زمناً طويلاً . كان شفيك قد مرّ بتجارب كثيرة في حياته ولكن تلك الأسماء التترية والجيورجية والموردفينية لم تعلق بذهنه .

فكر شفيك : «لن يصدق أحدٌ أبداً أنه يمكن للناس أن يحملوا أسماء كأسماء هؤلاء التتار : ملاّ علي ، عبد الرحمانوف ، بيك مراد الله علي ، جيرجي شيرديز ، دولت بالي نوردا غاليجيف وهكذا . وعلى أية حال لدينا في الوطن أسماء أفضل من ذلك بكثير . لنفكر في ذلك القسيس في جيفوهوشت الذي كان يدعى « فوبيبدا » (١٠) ثم عاد ليتجول بين صفوف الأسرى الذين راحوا يصرخون الواحد إثر الآخر بكنياتهم وأسمائهم : « دجيندرالي هانيمالي ، بابامولي ميرزاعلي ، الخ . . . »

قال شفيك لكل واحد منهم بابتسامة ودودة :

– احذروا وإلا عضضتُم ألسنتكم . أليس أفضل لكم بكثير لو

١ – تعني متسكع بالتشيكية . (س . ب)

كانت أسماؤكم مثل أسمائنا : بوهوسلاف ستيبانيك ، ياروسلاف ماتوشيك أو روجينا سفوبودوفا ؟ (١)

وبعد أن أنهى شفيك ، الذي بذل جهداً جباراً ، تنظيم لائحة بكل أولئك «البابا مولي» « والحاجي ماجي » . . . الخ ، قرر أن يحاول مرة أخرى ويشرح للرقيب الأول المترجم أنه ضحية خطأ فادح . وعلى أية حال ، وكما حدث في السابق مراراً خلال الرحلة ، فان مطالبته بالعدالة وهم يقودونه مع الأسرى كانت دون طائل .

لقد سبق للرقيب الأول المترجم وأفرط في الشراب وفقد قدرته على المحاكمة العقلية .

كان قد نشر أمامه صحيفة ألمانية وفتحها على صفحات الاعلان وهو يغنّي كلمات الاعلان مع موسيقى « مارش رادتسكي » : «للمبادلة : غرامافون مقابل عربة أطفال — أشتري قطعاً مكسّرة من ألواح الزجاج البيضاء والخضراء — اذا كان هناك من يرغب في تعلم مسك الدفاتر فعليه أن يدرس المحاسبة » . . . الخ .

لم تكن بعض الاعلانات تناسب لحن المارش ، ولكن الرقيب الأول كان يبذل قصارى جهده للتغلب على هذا والضرب على الطاولة بيده وعلى الأرض بقدمه . كان طرفا شاربيه اللزجين من شرب الكونتوشوفكا بارزين من كلا خديه وكأن شخصاً قد ألصق فرشاة جافة مصمّغة عليهما . لاحظت عيناه المنتفختان وجودَ شفيك ، هذا صحيح ، ولكن لم يصدر عنه أي رد فعل على هذا الاكتشاف باستثناء أنه توقّف عن ضرب

---

١ — أسماء كتاب تشيكيين معاصرين لهاشيك . (س.ب)

الطاولة بقبضته و الأرض بقدمه . وعلى لحن « لا أعرف ما الذي يجب أن تعنيه » (١) راح يغني ويقرع اعلاناً آخر بأصابعه على الكرسي :

«كارولينا دريغر ، قابلة ، تعرض خدماتها باحترام للسيدات المحترمات في كل حالات الطوارىء » .

ثم بدأ يغني بصوت أخفض فأخفض حتى توقف نهائياً عن الغناء وراح يحدق دون حراك في صفحة الاعلانات في الجريدة . وقد اغتنم شفيك هذه الفرصة ليتحدث عن محنته ، ولكن جمله بالألمانية «المكسّرة» لم تكن مناسبة لذلك .

وقد بدأ يقول انه كان على حق تماماً على أية حال حين قال انه كان يتوجب عليهما السير على امتداد الجدول حتى « فلشتين » ، ولم يكن الذنب ذنبه ان كان أسيراً روسياً قد هرب من الأسر وذهب ليسبح في البحيرة . كان هو ، أي شفيك ، قد اضطر للسير على امتداد البحيرة . وكان من واجبه أن يفعل ذلك كعضو في مجموعة تبحث عن مكان للمبيت الليلي ولاضطراره إلى طرق أقرب درب إلى « فلشتين » . لقد هرب الروسي حالما رآه وترك بزته بكاملها بين الشجيرات . كان شفيك قد سمع أن بزّات الأعداء القتلى يمكن استعمالها في الجبهة لأغراض التجسس ،وهكذا حاول من باب التجربة أن يرتدي تلك البزة المهجورة ليرى كيف يكون شعوره وهو يرتدي بزة معادية .

وبعد أن حاول أن يشرح خطأه الصغير ، أدرك شفيك أن جهوده كانت دون طائل ، اذ أنه قبل أن يصل إلى الجزء المتعلق بالبحيرة كان

---

١ ـ بداية أغنية « لوريلاى » الشهيرة . (س.ب)

الرقيب الأول يغط في نوم عميق . اقترب منه شفيك ولمسه بحميمية على كتفه ممّا أدى إلى سقوطه على الأرض حيث استأنف النوم بسلام .

قال شفيك وهو يضرب التحية ويغادر المكتب :

— عذراً أيها الرقيب الأول .

في الصباح الباكر غيّرت قيادة الانشاءات العسكرية خططها وقررت ارسال مجموعة الأسرى التي كان شفيك ضمنها إلى برزيميسل مباشرة لتجديد خط السكة من برزيميسل إلى لوباتشوف .

وهكذا عاد كل شيء إلى ما كان عليه واستأنف شفيك رحلته الطويلة بين الأسرى الروس . وقد اقتادهم رجال الحرس الهنغاريون جميعاً بسرعة كبيرة .

على مرج احدى القرى حيث توقفوا للاستراحة مرت بهم مفرزة من قافلة تموين . كان أحد الضباط يقف أمام مجموعة من العربات وينظر إلى الأسرى . قفز شفيك من بين صفوف الأسرى وتوقف أمام الضابط وخاطبه بالألمانية : « سيدي ، أبلغكم بتواضع . . . » ، ولكنه لم يستطع أن يتلفّظ بأية كلمة أخرى حيث أن جنديين هنغاريين ضرباه بقبضاتهما فوراً على ظهره ورميا به بين بقية الأسرى .

رمى له الضابط بعقب لفافة تبغ التقطها أسير آخر بسرعة وأكمل تدخينها . ثم شرح الضابط للعريف الذي كان واقفاً إلى القرب منه أن في روسيا مجموعات كثيرة من المغتربين الألمان وأن على هؤلاء أن يحاربوا أيضاً .

لاحقاً ، وطوال الرحلة إلى برزيميسل لم تتح لشفيك فرصة أخرى

للشكوى من أنه كان في الواقع جندي ارتباط السرية الحادية عشرة من الفوج الواحد والتسعين. ولم يستطع أن يفعل ذلك إلا في برزيميسل حيث اقتيدوا عند المساء إلى قلعة في المنطقة الداخلية والتي كانت مدمرة تماماً باستثناء اسطبلات جياد المدفعية .

في داخل الاسطبلات كانت أكوام القش مليئة بالقمل إلى حد أنه كان يتحرك فوق السيقان القصيرة وكأنه ليس قملاً بل نملاً يحمل المواد لبناء عشه .

منح كل واحد من المساجين بقايا طعام مطبوخ من الهندباء البرية فحسب وكسرة من خبز الذرة الجاف .

ثم قام الرائد « فولف » الذي كان مسؤولاً عن كل الأسرى العاملين في إعادة بناء القلعة في برزيميسل وما يحيط بها ، باستلام زمام الأمور ، وكان هذا رجلاً ينفذ الأمور على نحو كامل ودقيق ، وقد اصطحب مجموعة كاملة من المترجمين الذين راحوا يختارون من بين الأسرى خبراء في البناء وفقاً لقدراتهم وخبراتهم السابقة .

كانت لدى الرائد « فولف » الفكرة الراسخة بأن الأسرى الروس يحاولون كتم معرفتهم بالقراءة والكتابة ، فقد كان يحدث أنه حين يسأل أحدهم عبر مترجم : « هل تستطيع بناء سكة حديدية ؟ » يكون الجواب المقولب هو : « لا أعرف أي شيء عن أي شيء . لم يسبق لي أن سمعت بشيء كهذا . لقد عشت دائماً حياة شريفة محترمة . »

وحين اصطفوا جميعاً أمامه وأمام معاونيه سألهم بالألمانية أن كان أي منهم يفهم هذه اللغة .

تقدم شفيك نحو الأمام بكل تصميم ووقف أمام الرائد وضرب التحية وقال إنه يفهم الألمانية .

بدا على الرائد «فولف » السعادة وسأل شفيك فوراً إن كان مهندساً.

أجاب شفيك :

ـ أبلغكم بتواضع يا سيدي أني لست مهندساً بل جندي ارتباط السرية الحادية عشرة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين . وقد أُسرتُ من قبل قواتنا . لقد حدث الأمر كما يلي يا سيدي . . .

هدر الرائد فولف :

ـ ما الذي سمعتك تقوله ؟

ـ أبلغكم بتواضع يا سيدي أن ما حدث كان . . .

استأنف الرائد فولف الصراخ :

ـ أنت تشيكي . وقد ارتديت بزة روسية .

ـ أبلغكم بتواضع يا سيدي أني فعلت ذلك . هذا صحيح تماماً . أنا سعيد بالفعل يا سيدي أنك فهمت وضعي حالاً . ربما يكون جنود سريتنا الآن يقاتلون الأعداء في مكان ما من الجبهة ولا يليق بي أن أضيّع الوقت في الانتظار هنا فترة الحرب كلها . اسمح لي أن أشرح لك الأمر على النحو المناسب يا سيدي مرة أخرى .

قال الرائد فولف :

ـ هذا يكفي !

ثم نادى على جنديين وأمرهما باقتياد الرجل فوراً إلى المحرس .

ثم لحق هو نفسه بهم ببطء وهو يومىء بعنف خلال حديثه مع الضابط المرافق له . وفي كل واحدة من جمله كان هناك شيء ما حول « الكلاب التشيكيين» ، ولكنه كان ممكناً في الوقت نفسه أن نستنتج من كلامه مع الضابط الآخر أن هذا يشعر بأن الرائد كان مسروراً بسبب أن قوة ملاحظته هي التي أدّت إلى اكتشاف واحد من أولئك الزبائن المشبوهين ، والذين كان قادة المفارز العسكرية يستلمون منذ أشهر تقارير سرية عن نشاطاتهم الخيانية خارج البلاد . فقد تأكد أن بعض الهاربين من الخدمة من عناصر الأفواج التشيكية ، والذين نكثوا بقسمهم ، كانوا ينضمون إلى صفوف الجيش الروسي وهم يعملون الآن مع العدو ويقدمون له كل خدمات التجسّس المفيدة .

لم تكن وزارة الداخلية النمساوية على معرفة بعد ان كان هناك تنظيم عسكري يضم هؤلاء الجنود التشيكيين الفارين أم لا . لم تكن هناك أية معلومات محددة عن التنظيمات الثورية في الخارج ، ولم يستلم قادة الكتائب على خط سوكال — ميلبياتين — بوبنوف إلاّ في شهر آب (أغسطس) الماضي تقريراً يفيد بأن البروفسور النمساوي السابق «ماساريك » (١) قد هرب إلى الخارج حيث كان يقوم بشنّ حملات دعائية ضد النمسا . كان جحش غبي من قيادة الفرقة قد أرفق بالتقرير الأمر التالي : « اذا وقع في الأسر يتوجب احضاره فوراً إلى قيادة الفرقة ! »

وأنا ألفت انتباه الرئيس ماساريك إلى ما حدث آنذاك حتى يعرف على أية حال أية أشراك نصبت له بين سوكال وميلبياتيم وبوبنوف . (٢)

---

١ — توماس غوريغ ماساريك : (١٨٥٠ — ١٨٣٧) مؤسس الجمهورية التشيكوسلوفاكية وأول رئيس لها ، وقد أعيد انتخابه لهذا المنصب مرات عدة وبقي رئيسا من عام (١٩١٩) وحتى عام (١٩٣٧) . (المترجم)

٢ — هذه « الرسالة الشخصية » من هاشيك الى الرئيس ماساريك حذفت من الطبعات الحديثة لرواية « الجندي الطيب شفيك » . (س.ب.) .

في ذلك الحين لم يكن الرائد فولف على علم اطلاقاً بما كان يدبر ضد النمسا من قبل أولئك الفارين الذين سئلوا حين اجتمعوا لاحقاً في كييف أو في مكان آخر : « ما الذي تفعلونه هنا ؟ » فأجاب كل واحد منهم بابتهاج : « لقد خنت صاحب الجلاله الامبراطورية » .

لم يكن يعلم إلاّ من خلال تقارير سرية كتلك المذكورة أعلاه بوجود مثل هؤلاء الفارين والجواسيس الذين كان أحدهم ذاهباً الآن إلى المحرس بعد أن وقع بكل سهولة في الفخ الذي نصبه له شخصياً . وكان هذا الرائد شخصاً تافهاً بالأحرى اذ راح يتصور في ذهنه الثناء الذي سيكال له من رؤسائه والوسام الذي سيستلمه لقاء يقظته وبصيرته وذكائه .

وما أن وصلوا إلى المحرس حتى كان على قناعة من أنه حين طرح السؤال : « من منكم يعرف بالألمانية ؟ » كان قد فعل ذلك عن قصد ، لأنه حين استعرض الأسرى بدا له هذا الشخص فوراً على أنه مشبوه .

أومأ الضابط المرافق له برأسه موافقاً وقال أن عليهم أن يبلغوا عن عملية القبض إلى قيادة الحامية لاتخاذ الاجراءات اللاحقة وتقديم المتهم إلى محكمة ميدانية أعلى لأنه لم يكن من المناسب تنفيذ ما يقترحه الرائد، أي استجوابه في المحرس ثم شنقه فوراً خلف المبنى مباشرة . سيشنق بالطبع ، ولكن وفق الاجراءات القانونية المناسبة ، كما تنص عليه أنظمة المحكمة الميدانية ، حتى يمكن التأكد قبل شنقه من ارتباطاته مع المجرمين الآخرين وذلك بواسطة الاستجواب الدقيق المحكم . ومن يدري ما الذي ستؤول اليه هذه القضية على أية حال ؟

إلاّ أن الرائد فولف كان قد أصيب بنوبة من العناد . لقد كان

مدفوعاً بوحشية كامنة فأعلن أنه بعد الاستجواب الدقيق سيشنق الجاسوس الهارب فوراً وعلى مسؤوليته الشخصية . وكان هذا أمراً يمكن تنفيذه لأن له أصدقاء في مراكز عليا ولا يهمه أي شيء . يجب أن تعالج مسألة هذا الرجل وكأنهم في الجبهة . لو كانوا قد أمسكوا به خلف ميدان المعركة مباشرة لكانوا قد استجوبوه وشنقوه فوراً دون هرج أو مرج . وزيادة على ذلك فان النقيب يعرف تماماً أنه في منطقة العمليات يحق لأي ضابط قائد من رتبة نقيب فصاعداً ، أن يشنق أي شخص مشبوه .

كان الرائد فولف مخطئاً بعض الشيء حين تحدث عن حق الضباط في شنق الناس .

ففي غاليسيا الشرقية كانت هذه الأحقية تمنح مع الاقتراب من الجبهة إلى رتب أخفض فأخفض ، حتى وصل الأمر إلى حد أن عريفاً يعمل كقائد لدورية حراسة قد أمر بشنق صبي في الثانية عشرة من عمره لأنه أثار شكوكه بسلقه قشور البطاطا في كوخ متداع في قرية مهجورة ومنهوبة .

هذا وقد ثار جدل عنيف بين الرائد والنقيب :

صاح النقيب مستثاراً :

— لا يحق لك فعل ذلك . سيشنق على أساس حكم تصدره المحكمة الميدانية .

همهس الرائد فولف مستهجناً :

— سيشنق دون حكم اطلاقاً .

سمع شفيك الذي كان مقتاداً أمامهم المحادثة كلهافقال لمرافقيه :

— يقول الأول « ستة » ويقول الثاني « نصف دزينة » .لقد تناقشنا على نحو مشابه في حانة « نازافاديلتسه » في « ليبيني » حين لم نستطع أن نقرّر إن كان علينا لدى ظهور صانع قبعات اسمه « فاشاك » عند باب الحانة ، والذي كان يشكل ازعاجاً خلال الموسيقى والرقص ، أن نرميه خارجاً على الفور أو نفعل ذلك وهو يحتسي الجعة وبعد أن يدفع ثمنها ويشربها كلها ، أو أن نطرده بعد أن يرقص الرقصة الأولى . وقد اقترح صاحب الحانة ألا نطرده حتى ينتصف الاستعراض وذلك حتى يطالبه بتسديد الفاتورة كاملة . عندئذ سيضطر إلى الدفع ويغادر المكان فوراً . وهل تعرفان ما الذي فعله ذلك النغل ؟ لم يحضر اطلاقاً . فما رأيكما في ذلك ؟

فأجابه الجنديان كلاهما ، وكانا من احدى مناطق التيرول ، بصوت واحد :

— لا نعرف التشيكية .

سألهما شفيك بهدوء بالألمانية :

— هل تفهمان الألمانية ؟

فأجابا كلاهما :

— يافول ! (نعم)

فقال :

— حسناً . أنتما محظوظان . على الأقل لن تضيعا بين بني قومكما.

وخلال هذه المحادثات الودّية وصلوا جميعاً إلى المحرس حيث

استأنف الرائد فولف جداله مع النقيب حول مصير شفيك ، بينما جلس شفيك بتواضع على مقعد في الخلف .

وأخيراً، اتخذ الرائد فولف موقفاً جديداً من رأي النقيب، مقتضاه أنه لا يتوجب شنق الرجل إلاّ بعد الاجراءات التي تتطلّب وقتاً أطول والتي تسمى بعذوبة : « الاجراءات القانونية » .

ولو سألا شفيك عن الموضوع لقال : « آسف جداً يا سيدي لأن رتبتك أعلى من رتبة النقيب ، ولكنه على حق . فكل عسل عجول لا يؤدي إلا إلى الندامة . مرة في محكمة اقليمية في براغ جنّ جنون أحد القضاة ، ومرت فترة طويلة دون أن يلحظ أحد ذلك ، حتى ثار جنونه مرة خلال إحدى الدعاوي . كان شاب يدعى « زناميناتشيك » قد قابل في الشارع قسيساً يدعى «هورتيك» ، وكان هذا قد لكم ابنه على أذنيه خلال درس الديانة ، فقال زناميناتشيك للقسيس : « أيها النغل اللعين ، أيها الحثالة القذرة ، أيها المسعور دينياً ، أيها الخنزير الوسخ ،أيها الماعز الكنسي ، أيها الخارج على تعاليم المسيح ، أيها المنافق الدجّال المرتدي للغفّارة ! » وهكذا أقام القسيس دعوى على زناميناتشيك . وكان ذلك القاضي المجنون رجلاً شديد التدين له ثلاث أخوات يعملن جميعاً كطباخات في بيت القسيس ، وكان هو عرّاباً لكل أطفالهن . وهكذا ثارت ثورته إلى حد أنه فقد كل المنطق فجأة وهدر مخاطباً المتهم : «باسم صاحب الجلالة الامبراطورية والملك أنت محكوم عليك بالموت شنقاً . وليس هناك أي استئناف للحكم . » ثم نادى على السجان وقال له : « يا سيد هوراتشيك ، خذ هذا السيد خارجاً واشنقه هناك ، أنت تعرف أين ، في ذلك المكان الذي ينظفون فيه السجاد ، وبعد ذلك عد

إلى هنا وستحصل على بقشيش ! » وبالطبع ظل السيد زناميناتشيك والسجان واقفين في مكانهما ، ولكن القاضي ضرب الأرض بقدمه وصرخ بهما : « هل ستطيعان أمري أم لا ؟ » وقد أصيب السجان بالخوف الشديدوإلى حد أنه بدأ يدفع بالسيد زناميناتشيك خارجاً ، ولولا المحامي الذي تدخّل وطلب سيارة الاسعاف ما كنت أعرف ما الذي كان سيحدث للسيد زيناميناتشيك . وحتّى خلال وضع القاضي في سيارة الاسعاف كان لا يزال يصرخ : « اذا كنت لا تستطيع أن تجد حبلاً فاشنقه بشرشف السرير . وسوف نعيد إليك ثمنه مع البيان نصف السنوي . . . »

وهكذا اضطر شفيك إلى توقيع تقرير نظّمه الرائد فولف يفيد بأنه كجندي في الجيش النمساوي غيّر بزته الرسمية ، رغم معرفته الكاملة بكل النتائج ودون اكراه ، وارتدى البزة العسكرية الروسية ، وقد تم إلقاء القبض عليه خلف خطوط الجبهة من قبل الدرك الميداني حين تراجعت القوات الروسية. وبعد ذلك أرسل مخفوراً إلى قيادةالحامية.

كان هذا كله حقيقة مقدسة ، ولم يستطع شفيك ، كونه رجلاً شريفاً ، أن يعترض عليه . ولدى تنظيم التقرير حاول عدة مرات أن يدعمه بأن يضيف اليه بياناً من شأنه أن يفسر الموقف على نحو أكثر دقة ، ولكن الرائد كان جاهزاً على الفور بالأمر التالي :

— أغلق شدقيك . نحن لا نسألك عن رأيك في الموضوع . القضية واضحة تماماً .

فما كان من شفيك سوى أن ضرب التحية وقال :

— أبلغكم بتواضع يا سيدي أني أغلق شدقيّ والقضية واضحة تماماً .

وبعد ذلك أُحضر إلى قيادة الحامية ، وقد اقتيد إلى جحر كان يستعمل سابقاً كمستودع للأرز وكمثوى للفئران . كانت حبات الأرز لا تزال متناثرة على الأرض ، ولم تكن الفئران خائفة اطلاقاً من شفيك وراحت تتراكض بمرح في أرجاء المكان وهي تلتقط حبات الأرز. كان شفيك قد ذهب وأحضر حشية من القش ، وحين نظر فيما حوله في الظلام، وجد أن عائلة كاملة من الفئران قد انتقلت اليها على الفور. لم يكن هناك أدنى شك في أنها كانت تحاول أن تقيم عشاً هناك في خرائب أمجاد حشية القش النمساوية الغضة . بدأ شفيك يقرع على الباب المقفل، فحضر عريف كان بولوني الأصل وطلب منه شفيك أن يتم نقله إلى مكان آخر فقد ينام فوق الفئران التي في الحشية ويسبب دماراً للملك من أملاك التاج ، فكل شيء في المستودعات العسكرية يعتبر من أملاك التاج.

فهم البولوني شيئاً مما قاله شفيك فهدد شفيك بقبضته وهو واقف أمام الباب المغلق . ثم ذكر شيئاً ما حول « حفرة البراز » ومضى بعيداً وهو يهمهم بغضب متحدثاً عن الكوليرا ، وكأن شفيك قد أهانه نوعاً ما .

أمضى شفيك ليلة هادئة لأن الفئران لم تطلب منه الكثير وكان لها برنامجها الخاص لتلك الليلة ، وقد احتفلت به في الغرفة المجاورة التي خزنت فيها المعاطف والقبعات العسكرية التي راحت الفئران تقرضها بثقة كبيرة واحساس كامل بالأمان ، فلم يتذكر مكتب الامدادات إلا بعد عام من ذلك أن عليه أن يحضر قططاً من أملاك التاج إلى المستودعات العسكرية دون أن يكون لها حق المعاش التقاعدي ، وقد ورد ذلك في سجلات الادارة تحت عنوان : « قطط المستودعات العسكرية

الامبراطورية والملكية » . كانت مرتبة القط في الواقع احياء لعرف قديم ألغي بعد حرب عام (١٨٦٦) .

ففي فترة سابقة ، خلال حكم «ماريا تيريزا » كانت القطط تستخدم في المستودعات العسكرية في زمن الحرب حين كان السادة المسؤولون عن الادارة يضعون اللوم كله على الفئران البائسة لاخفاء تلاعبهم بالمخزون من البزّات العسكرية .

ولكن في حالات كثيرة كانت القطط الامبراطورية لا تنجح في تنفيذ واجباتها ، وهكذا حدث مرة في عهد الامبراطور ليوبولد أن تم شنق ست قطط عينت للعمل في المستودعات العسكرية في «بوهورجيليتس» بعد أن أصدرت عليها الحكم محكمة ميدانية . وأستطيع أن أتخيّل أنه في تلك المناسبة كل كان أولئك الذين لهم علاقة بالمستودعات العسكرية يضحكون باعتداد في أكمامهم . . .

* * *

مع قهوة شفيك الصباحية الباكرة ، دفعوا إلى الجحر برجل يرتدي قبعة ومعطفاً روسيين .

كان الرجل ينطق التشيكية بلكنه بولونية كان هذا واحداً من الأوغاد الذين يعملون في مجال مكافحة الجاسوسية مع قيادة الفيلق الذي كان مقر قيادته في برزيميسل ، وعضواً في الشرطة العسكرية السرية . ودون أية تمهيدات مهذبة قبل استجواب شفيك راح يقول بكل بساطة :

ــ لقد أوقعت نفسي في ورطة كبيرة بسبب اهمالي ، فقد خدمت في الفوج الثامن والعشرين وهربت فوراً للالتحاق بالروس . ثم تحامقت

إلى درجة أني سمحت لهم بالقبض علي . وقد تطوعت للاشتراك في دورية متقدمة للروس . . . خدمت في الفرقة السادسة التي مقرها في كييف . في أي فوج روسي خدمت أيها العجوز ؟ لدى احساس بأننا التقينا في مكان ما في روسيا . لقد عرفت الكثير من التشيكيين في كييف ، وقد ذهبوا معي إلى الجبهة ، وذلك حين هربنا لنلتحق بالروس لا أستطيع أن أتذكر أسماءهم الآن أو الأماكن التي جاؤوا منها . ربما تستطيع أن تتذكّر واحداً من الأشخاص الذين كنت على اتصال بهم في ذلك الحين ، أليس كذلك ؟ أود كثيراً لو أعرف من كان هناك من فوجنا الثامن والعشرين .

وبدلاً عن الاجابة وضع شفيك يده بقلق على جبين زائره ثم جسّ له نبضه واقتاده أخيراً إلى نافذة صغيرة وطلب منه أن يمدّ لسانه . لم يبدِ الوغد أي مقاومة لهذه التصرفات متخيلاً أنها مسألة اشارات تجسّسية . ثم بدأ شفيك يقرع على الباب ، وحين جاء الحارس ليسأله عن سبب إثارته للضجة ، طلب منه بالتشيكية والألمانية أن يحضر الطبيب حالاً لأن الرجل الذي أدخلوه إلى زنزانته يعاني من الهلوسة .

لم يكن ذلك مجدياً حيث لم يحضر أحد ليرى الرجل ، وبقي هناك جالساً بهدوء يهذر حول «كييف» وكيف أنه رأى شفيك هناك يسير مع الجنود الروس .

قال شفيك :

ـ لا شك أنك كنت تشرب الماء من المستنقعات ، كما حدث لشاب اسمه « تينيتسكي » عرفته منذ زمن طويل . كان شاباً عاقلاً تماماً ، ولكنه ذهب مرة في رحلة فجائية ووصل حتى ايطاليا . وبعد

ذلك ماعاد يتحدث عن أي شيء آخر سوى ايطالياوكان يقول ان فيها الكثير من ماء المستنقعات ، ولكنه لم ير أي شيء يستحق المشاهدة فيها . وهكذا أصيب هو أيضاً بالحمّى من ماء المستنقعات . كانت الحمى تنتابه أربع مرات في العام : في عيد كل القديسين وعيد القديس يوسيف وعيد القديسين بطرس وبولس وعيد صعود العذراء . وحين كانت تأتيه هذه النوبات كان يظن أنه يعرف أشخاصاً كانوا غريبين عنه ومجهولين تماماً بالنسبة إليه ، كما يحدث معك . في إحدى الحافلات كان يخاطب شخصاً ما ويقول إنه يعرفه وإنهما تقابلا في المحطة في فيينا . كان يظن أن كل من يقابلهم في الشارع أشخاص سبق لهل ورآهم إمّا في المحطة في ميلانو أو أنه جلس معهم في قبو « راتهاوس » في « ستيير » وشرب معهم كأساً من النبيذ . واذا انتابت الحمى المستنقعية هذا الرجل وهو يجلس في حانة ، فانه يدعي معرفة كل الحاضرين . لقد رآهم كلهم على إحدى البواخر حين أبحر مرة إلى البندقية . وكان هناك علاج واحد لتلك الحمّى ، وكان ذلك هو العلاج الذي كان ممرّض جديد يمارسه في «كاترجينكي » . وكان على هذا أيضاً الا هتمام بمريض عقلي لم يكن يفعل شيئاً طوال النهار عدا الجلوس في إحدى الزوايا والعدّ : « واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة » . ثم يعود من البداية ليقول : «واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة » . كان بروفسوراً. وقد كاد ذلك الممرّض يجنّ غضباً حين اكتشف أن ذلك المجنون لا يستطيع تجاوز الرقم ستة . وقد حاول معه بكل لطف في البداية حتى يجعله يقول : « سبعة ، ثمانية تسعة عشرة . » ولكن عبثاً ! لم يكن البروفسور يلحظ وجوده أبداً ، بل يتابع جلوسه في الز اوية وهو يعدّ : «واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة . » ثم يبدأ من جديد :

«واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ستة ! » وقد فقد الممرض صوابه فجأة وانقض على مريضه وحين وصل إلى الرقم ستة ضربه على فكّه وقال : « والآن وصلنا إلى سبعة ، وإليك ثمانية وتسعة وعشرة . » وقد تلقى ذلك المريض من اللكمات بعدد ما هناك من أرقام . وفجأة وضع البروفسور يديه على رأسه وسأل أين هو . وحين قيل له إنه كان في مستشفى المجانين تذكر فوراً كل شيء وكيف وصل إلى المستشفى وذلك كله بسبب مذنّب قدّر أنه سيظهر خلال عام في الثامن عشر من تموز (يوليو) في الساعة السادسة صباحاً ، ولكنهم أثبتوا له أن هذا المذنّب قد أحرق نفسه منذ ملايين عديدة من السنين . كنت أعرف ذلك الممرض ، وحين شفي البروفسور تماماً وأطلق سراحه ، جاء بذلك الممرض ليعمل خادماً عنده . وكان العمل الوحيد المطلوب منه هو أن يكيل للبروفسور أربع لكمات على الفك كل صباح . وكان ينفذّ واجباته بكل حس بالمسؤولية وبدقة كاملة .

استمر المرتزق من ادارة مكافحة الجاسوسية يقول دون كلل :

— أعرف كل أصدقائك في كييف . أو لم يكن معك شخص بدين جداً وآخر نحيل جداً ؟ لا أستطيع تذكر اسميهما أو أي فوج كانا ينتميان اليه . . .

قال له شفيك مواسياً :

— لا تقلق ، يمكن أن يحدث هذا لأي شخص فلا يعود قادراً على أن يتذكر كل الرجال البدينين والنحيلين وما هي أسماؤهم . وبالطبع فان النحيلين أصعب على التذكر لأنهم كثر في هذا العالم . إذاً فهم يشكلون الأغلبية كما يقول المثل .

قال الوغد الامبراطوري والملكي :

ـــ أيها الصديق العجوز ، أنت لا تثق بي . ولكن علينا في النهاية أن نواجه المصير نفسه .

قال شفيك برباطة جأش :

ـــ ونحن جنود لهذا الأمر بالذات . لقد حملتنا أمهاتنا لهذا الغرض بالذات : حتى يمكن أن نتحول إلى لحم مفروم حين نرتدي البزة العسكرية . ونحن نفعل ذلك بكل سعادة لأننا نعرف أن عظامنا لن تتعفن عبثاً . سنسقط في سبيل صاحب الجلالة الامبراطورية وعائلته الملكية ، والذين ربحنا من أجلهم اقليم الهرسك . من عظامنا سيُصنع فحم العظام المستعمل في معامل تكرير السكر . لقد حكى لنا الملازم الأول «زيمر» حول هذا الموضوع منذ سنوات بعيدة ـــ قال : « أنتم يا مجموعة من الخنازير ، يا خنازير متوحشة ، ياقروداً كسولة عديمة الفائدة ! ها أنتم تلوون سيقانكم وكأنها لا تساوي شيئاً .اذا سقطتم في الحرب فسيصنعون نصف كيلو من فحم العظام من كل ساق واحدة ، ومن كل رجل منكم سيصنعون أكثر من كيلو غرامين بما فيه الساقان والذراعان ، وفي معامل تكرير السكر سيصفّون السكر من خلالكم أيها الحمقى اللعينون . ليست لديكم أية فكرة عن مدى الفائدة التي سيجنيها أولادكم منكم بعد موتكم . سيشرب أبناؤكم القهوة مع السكر المصفى خلال عظام سيقانكم أيها الأغبياء المنبوذون من الرب . » لقد جعلني ذلك أفكر قليلاً ثم سألني عما كنت أفكر فيه فقلت له : « أبلغكم بتواضع يا سيدي أني كنت أفكر في أن لحم العظام المصنوع من عظامكم أيها السادة الضباط لابد أن يكون أغلى ثمناً من ذاك المصنوع من عظامنا نحن الجنود العاديين . » وقد نلت مقابل ذلك ثلاثة أيام في الحبس الانفرادي .

قرع رفيق شفيك الباب وتجادل مع الحارس الذي نادى على الضابط

وبعد فترة وصل ضابط صف برتبة مساعد ليخرجه ، وبقي شفيك وحيداً .

وبينما كان ذلك الحيوان الزاحف يغادر المكان أشار إلى شفيك وقال بصوت مرتفع للمساعد :

— هذا صديقي القديم من كييف .

وخلال أربعة وعشرين ساعة كاملة بقي شفيك في عزلة تامة باستثناء تلك اللحظات التي كانوا يجلبون له فيها شيئاً يأكله .

وخلال الليل وصل شفيك إلى قناعة بأن المعطف الروسي أدفأ وأسمك من المعطف النمساوي وأنه ليس بالأمر المزعج جداً أن تأتي فأرة في الليل وتتشمم اذن الرجل النائم . لقد بدا ذلك لشفيك أشبه بالهمسة الرقيقة التي أوقظ منها في نور الفجر الرمادي حين أتوا لاصطحابه .

وحتى هذا اليوم لا يستطيع شفيك أن يدرك أي نوع من المحاكم هي المحكمة التي اقتيد اليها في ذلك الصباح الكئيب . لاشك وأنها كانت محكمة ميدانية . فقد كانت تضم أحد الجنرالات فضلاً عن عقيد ورائد وملازمين : ملازم أول وملازم ثان ، ورقيب أول وجندي مشاة كان لا يفعل شيئاً باستثناء اشعال لفافات الحاضرين .

لم توجه أسئلة كثيرة إلى شفيك .

كان الرائد هو الذي أظهر المزيد من الاهتمام وتحدث بالتشيكية.

نبح مخاطباً شفيك :

— أنت مذنب بخيانة صاحب الجلالة الامبراطورية .

صاح شفيك :

— الخيانة ؟ يا للمسيح ومريم ! متى ؟ أنا أخون صاحب الجلالة الامبراطورية . ملكنا الجليل الذي عانيت من أجله الكثير ؟

قال ألرائد :

— توقف عن التلفظ بهذه السخافات .

— أبلغكم بتواضع يا سيدي أن خيانة صاحب الجلالة الامبراطورية ليست سخافة . لقد أقسمنا نحن الجنود يمين الولاء لصاحب الجلالة ، وكما يغنون في المسرح : « لقد حافظت على قسمي باخلاص . » (١)

قال الرائد :

— كل شيء مدوّن هنا . هاهي البراهين على ادانتك وعلى الحقيقة .

ثم أشار إلى رزمة هائلة من الأوراق .

كان الرجل الذي أدخل إلى زنزانة شفيك هو من قدم المادة الرئيسية .

سأله الرائد :

— إذاً ، أنت لا تزال ترفض الاعتراف ؟ ولكنك على أية حال أكدت بنفسك أنك غيرت بزتك طوعاً وارتديت بزة روسية رغم معرفتك بأنك جندي في الجيش النمساوي . أسألك للمرة الأخيرة هل فعلت ذلك مكرها ؟

١ — اقتباس من « داليبور » وهي اوبرا من تاليف « بيدرجيخ سميتانا » . (س.ب.)

– لقد فعلته دون أي اكراه .

– طوعاً ؟

– طوعاً . .

– دون أي ضغط ؟

– دون أي ضغط .

– هل تعرف أنك قد ضيعت نفسك ؟

– أعرف ، فلا شك أنهم يبحثون عني الآن في الفوج الواحد والتسعين . ولكن هل تسمح لي يا سيدي بملاحظة صغيرة عن كيفية ارتداء الناس للملابس الآخرين طوعاً . في أحد أيام شهر تموز (يوليو) من عام (١٩٠٨) كان مجلّد الكتب بوجيتيخ من شارع « برجيتشنا» في براغ يستحم عند « زبراسلاف » في القناة القديمة في « بيرونكا » . وقد ترك هذا ملابسه فوق بعض شجيرات الصفصاف وكان مستمتعاً تماماً بالسباحة في الماء حين وصل سيد آخر وانضم اليه . ثم بدآ يتحادثان ويمرحان معاً ويرش الواحد منهما الآخر بالماء أو يغطس له رأسه في الماء حتى حل المساء . ثم خرج السيد الغريب من الماء قائلاً إنه مضطر للخروج للذهاب لتناول العشاء . بقي السيد بوجيتيخ في الماء فترة أخرى ثم خرج إلى شجيرات الصفصاف حيث وضع ملابسه . وقد وجد مكانها أسمالاً لمتشرد وقطعة من الورق كتب عليها :

«لقد فكرت في الموضوع فترة طويلة : هل عليّ أن أفعل ذلك أم لا ؟ فقد استمتعنا كثيراً خلال وجودنا في الماء معاً . ولذا أمسكت بزهرة مارغريت ورحت أنزع تويجاتها واحدة واحدة : هل أفعل أم لا ؟ كانت

آخر تويجة أن « أفعل » ، وهكذا أخذت ملابسك وتركت لك ملابسي . لا تخش من ارتدائها . لقد سبق لي وقضيت على القمل الذي فيها منذ اسبوع في مخفر الدرك في « دوبرجيش » . في المرة التالية كن أكثر حذراً حين تستحم مع شخص آخر . في الماء يبدو كل رجل عار كأنه عضو في البرلمان وقد يكون أحد القتلة لم تكن تعرف مع من تستحم . ولكن كان الحمام جيداً على أية حال . والآن عند اقتراب المساء يكون في أحسن حالاته . اغطس مرة أخرى حتى تستطيع العودة إلى وعيك . »

لم يستطع السيد بوجيتيخ أن يفعل أي شيء سوى الانتظار حتى يحل الظلام . ثم ارتدى ملابس المتشرد وانطلق باتجاه براغ . وقد تجنب الطريق العام وراح يسير في دروب عبر الحقول حيث وقع في يد دورية درك من « خوخله » . وقد ألقت الدورية القبض عليه كمتشرد وأخذوه في صباح اليوم التالي إلى المحكمة المحلية في زبراسلاف لأن أي شخص كان سيشهد بأنه كان السيد بوجيتيخ مجلد الكتب من شارع برجيتشنا رقم (١٦) ، براغ .

فهم الكاتب الذي لم يكن يعرف التشيكية جيداً أن المتهم كان يعطي عنوانشريكه في الجرم فسأله مرة أخرى بالألمانية :

ـ سأعيد عليك : براغ رقم ١٦ ، السيد يوسيف بوزيتيخ ، أليس هذا صحيحاً ؟

أجاب شفيك :

ـ لا أعرف أن كان لا يزال يعيش هناك ، ولكنه كان يسكن هناك في عام (١٩٠٨) . كان يجلد الكتب على نحو جيد جداً ، ولكن ذلك كان يستغرق منه وقتاً طويلاً ، فقد كان عليه أن يقرأها أولاً ثم

يجلّدها وفقاً لمحتوياتها . فاذا غلّف الكتاب باللون الأسود فهذا يعني أن لا حاجة لقراءة مثل هذا الكتاب ، وعندها تعرفون فوراً أن الرواية تنتهي نهاية سيئة . هل تريدون المزيد من التفاصيل ، حسناً ، لقد اعتاد ، بالمناسبة ، الجلوس في كل يوم في حانة « أوفليكو » حيث يقص على الناس محتويات الكتب التي أرسلت له تواً لتجليدها.

مضى الرائد نحو الكاتب وتبادل معه الهمسات . ثم شطب هذا الأخير في دفتره عنوان المتآمر المزعوم الجديد : « بوزيتيخ » .

وبعد ذلك استؤنفت اجراءات المحاكمة وفق أسلوب المحاكمات الميدانية الموجزة التي يرئسها الجنرال « فينك فون فينكنشتاين » .

فكما يكون لدى بعض الناس هواية جمع علب الكبريت، فان هواية هذا الجنرال الخاصة كانت اجراءات محاكمات ميدانية موجزة رغم مخالفتها في معظم الحالات للأنظمة العسكرية .

اعتاد هذا الجنرال أن يقول إنه لم يكن في حاجة إلى ممثل النيابة العسكرية وانه سيعقد المحكمة وخلال ثلاث ساعات يكون النغل متأرجحاً . وطالما أنه في الجبهة كانت هناك دائماً محاكمات ميدانية موجزة .

وكما يمارس بعض الناس وبانتظام لعب الشطرنج أو البلياردو أو المارياش كل يوم ، كان هذا الجنرال الممتاز يحب عقد المحاكمات الميدانية الموجزة كل يوم . كان يترأسها ويقوم بكشّ المتهم واماتته بكل وقار واستمتاع .

ولو أراد أي شخص أن يكون عاطفياً لكان يستطيع أن يكتب أن هذا

الرجل يحمل على عاتقه العشرات العديدة من الأنفس وخاصة في «المشرق » ، حيث حارب دعاية انتشار « روسيا العظمى » ، كما أفاد هو ، بين السكان من الأصل « الروثيني » في غاليسيا . ومن جهة نظرة ، على أية حال ،فاننا لا نستطيع أن نقول إن حياة أي شخص كانت تثقل على ضميره .

الضمير ، بكل بساطة غير موجود بالنسبة اليه فلو حكم في نهاية محكمته الميدانية الموجزة على معلم مدرسة أو معلمة مدرسة ، أو أسقف أورثوذوكسي أو عائلة بكاملها بالشنق ، كان يعود إلى مقره كما يعود لاعب المارياش الجيد إلى بيته من الحانة قانعاً راضياً ويروح يستذكر كيف قالوا : « «فليك» وكيف أجاب « رى» ، وكيف قالوا : « سوبره» وأجاب « توتي » وكيف قالوا : « بوتي » وكيف ربح كل شيء وكان معه مئة وسبعة . (١) كان يعتبر الشنق أمراً بسيطاً وطبيعياً ، نوعاً من الخبز اليومي ، وخلال اصداره الأحكام كان غالباً ما ينسى صاحب الجلالة الامبراطورية بل ويحذف من كلامه عبارة : « باسم صاحب الجلالة أنت محكوم عليك بالموت شنقاً » ، اذ كان يقول بكل بساطة : «أحكم عليك » .

وأحياناً كان يرى الجانب المضحك في الشنق ، وقد كتب مرة إلى زوجته في فيينا يقول :

---

١ ـ هناك عدة تصريحات متنوعة ممكنة في لعبة المار ياش . وأحد هذه التصريحات هي: مئة وسبعة الذي يعني أن على اللاعب ان يكسب (١٠٠) نقطة وان يلعب آخر دورة بورقة السبعة الرابحة . وحين يصرح اللاعب بذلك يمكن لبقية اللاعبين ان يضاعفوا الرهان مرتين او اكثر . واذا قال لاعب آخر « فليك » فهو يعني أنه يريد ان يضاعف مرتين . واذا قال ثالث « رى » فهذا يعني المضاعفة اربع مرات . أما « سوبره » فتعني ثمانية أضعاف و «توتي» ستة عشر و « بوتي » اثنان وثلاثون .
(س.ب.)

«. . . يا حبيبتي ، لا يمكنك أن تتخيلي مثلاً مقدار الضحك الذي ضحكته مؤخراً حين حكمت منذ أيام قليلة على معلم مدرسة بتهمة التجسس . لديّ رجل ذو خبرة يقوم بعمليّات الشنق ، وخبرته كبيرة في هذا المجال . إنه برتبة رقيب أول ويمارس الشنق كنوع من الرياضة. كنت في خيمتي حين جاء هذا الرقيب الأول ليراني بعد اصدار الحكم وسألني عن المكان الذي يتوجّب فيه أن يشنق المعلم . ولقد أمرته أن يفعل ذلك على أقرب شجرة . والآن تخيلي مدى روح الفكاهة في ذلك الوضع . فقد كنا في وسط سهب لا يمكن فيه مشاهدة سوى الأعشاب على امتداد البصر وفي كلى الاتجاهات ، ولم تكن هناك شجرة واحدة على مسافة أميال كثيرة . ولكن الأوامر هي الأوامر ، وقد اصطحب الرقيب الأول المعلم مخفوراً وانطلق يبحث عن شجرة .

« لم يعد حتى المساء وكان المعلم لا يزال معه . لقد جاء يراني وسألني مرة أخرى « على أي شيء أشنق النغل ؟ » وقد شتمته وقلت له إنه يعرف أوامري : على أقرب شجرة. فقال إنه سيحاول في صباح اليوم التالي. وفي صباح اليوم التالي جاء إلي شاحب الوجه وقال ان المعلم قد اختفى في ساعات الصباح الأولى. وقد وجدت الأمر مضحكاً إلى حد أني سامحت كل أولئك الذين كانوا مسؤولين عن حراسته بل وتفتّقت بديهتي عن نكته مفادها أن المعلم قد ذهب دون شك ليبحث هو بنفسه عن شجرة . وهكذا ترين يا حبيبتي اننا لا نشعر بالملل هنا بأي حال من الأحوال ويمكنك أن تبلغي « ويلي » الصغير أن بابا يرسل اليه قبلة وأنه سرعان ما سيرسل له روسياً حيّاً حتى يركبه كمهر . وهذا يذكرني يا حبيبتي بحادثة أخرى مضحكة . لقد شنقنا مؤخراً يهودياً بتهمة التجسّس . وقد حدث أن مرّ ذلك الوغد في طريقنا خلال رحلتنا ، ورغم أنه لم يكن له من عمل هناك

إلا أنه ادعى أنه يبيع لفافات التبغ . وهكذا شنقناه ، ولكن لثوان قليلة فقط إذ انقطع الحبل وسقط على الأرض . ولكنه سرعان ما استعاد وعيه وصاح بي : « يا صاحب السعادة سأذهب إلى البيت . فقد شنقتني ، ووفقاً للقانون لا يمكنك شنقي مرتين بسبب جريمة واحدة . » وقد انفجرت ضاحكاً وتركته يذهب في حال سبيله . نحن نستمتع بوقتنا هنا إلى حد كبير يا حبيبتي . . . »

حين عُيِّن الجنرال فينك قائداً لقلعة الحامية في برزيميسل هنا ، لم تعد تتاح له فرص مشابهة لاقامة عروض سيركية كهذه ، ولذلك كان سعيداً جداً بوقوع قضية شفيك بين يديه .

وهكذا وقف شفيك أمام هذا النمر الذي كان جالساً عند رأس الطاولة وهو يدخن اللفافة اثر الأخرى . ثم أمر بترجمة اعتراف شفيك له وأومأ برأسه موافقاً وهو يستمع اليها .

اقترح الرائد أنه بما أن المتهم قد أوضح في افادته أنه ينتمي إلى السرية الحادية عشرة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين فعليهم أن يبرقوا إلى اللواء للحصول على المعلومات التي تفيد بمكان وجود الفوج الآن .

ولكن الجنرال عارض ذلك وقال ان من شأنه تأخير الصفة العاجلة للاجراءات كما أنه يقضي على هدف مؤسسة المحكمة الميدانية الموجزة نهائياً . وعلى أية حال فان بين أيديهم اعترافاً كاملاً من جهة المتهم يفيد بأنه ارتدى البزة الروسية ، كما لديهم زيادة على ذلك دليل يتمثل في اعتراف المتهم بأنه كان في « كييف » . ولذا اقترح أن ترفع الجلسة للتداول حتى يتمكنوا من اصدار الحكم وتنفيذه فوراً .

ولكن الرائد ألح على ضرورة معرفة شخصية المتهم ، حيث أن

للمسألة ككل أهمية سياسية استثنائية ، وعلى أنهم لو فعلوا ذلك فقد يستطيعون تقفي آثار اتصالات أخرى بين المتهم ورفاقه السابقين من وحدته ذاتها .

كان الرائد حالما رومانتيكياً ، فقد قال أيضاً انه لم يكن كافياً ادانة الرجل بل إن البحث عن خيوط ضروري أيضاً . ان اصدار الحكم نفسه يجب أن يكون نتيجة لبحث محدّد يتضمن خيوطاً وخيوطاً أخرى. . . علق الرائد في تلك الخيوط ولكن الجميع فهموه وأومؤوا برؤوسهم موافقين ، بمن فيهم الجنرال الذي أُغرم بفكرة الخيوط إلى حد أنه تخيّل أنه يستطيع أن يشنق محاكمات ميدانية موجزة جديدة عليها . وهكذا ما عاد يحتجّ على فكرة التحقق لدى أركان اللواء من انتماء شفيك للفوج الواحد والتسعين ، ومعرفة متى وفي أية عملية من عمليات السرية الحادية انضم شفيك إلى الجانب الروسي .

وخلال فترة هذه المناقشة كلها كان شفيك في الدهليز تحت حراسة جنديين شهرا حربيتهما . وقد استدعي لاحقاً أمام المحكمة مرة أخرى وسألته هيئة المحكمة مرة أخرى عن الفوج الذي ينتمي اليه فعلاً . ثم نقلوه إلى سجن الحامية .

حين عاد الجنرال فينك إلى مكان اقامته بعد المحاكمة الميدانية الموجزة الفاشلة تمدد على الأريكة وراح يفكر في طريقة لتسريع اجراءات القضية كلها .

كان على قناعة تامة بأن الاجابة ستصل سريعاً ، ولكن الاجراءات لم تكن تتمتّع بتلك السرعة التي كانت تميّز محاكماته الميدانية السابقة ، لأن عليهم لاحقاً أن يجلبوا للرجل المحكوم قسيساً يقدم له السلوان

الروحاني ، وهذا من شأنه أن يؤخر عملية الاعدام ساعتين أخريين دون ضرورة .

فكر الجنرال فينك في نفسه قائلاً : « لا يهم . نستطيع أن نقدم له السلوان الروحاني مقدّماً ، قبل الحكم وقبل الحصول على المعلومات من اللواء . سيُشنَق على أية حال .

استدعى الجنرال فينك القسيس مارتينيتس .

كان هذا القسيس رجلاً بائساً من اتباع مذهب « السؤال والجواب» من إحدى قرى مورافيا ، ولكنه كان تحت امرة أحد الخوارنة الشرسين ففضّل الالتحاق بالجيش . كان رجلاً شديد الإيمان يتذكر والألم يحزّ قلبه خوريّه الذي اعتاد أن يتجرّع السيلفوفيتسه كما تتجرع السمكة الماء ، وكيف حدث مرة في إحدى الليالي أن أصر على وضع فتاة غجرية متشردة في سرير القسيس بعد أن وجدها قرب القرية حين كان خارجاً وهو يترنح من إحدى حانات النبيذ .

لقد تصور مارتينيتس هذا أنه بقيامه بواجب تقديم السلوان الروحاني للجرحى والمحتضرين في ساحة المعركة سيكون قادراً على افتداء حتّى خطايا خوريّه الفاسد الذي طالما أيقظه بعد عودته ليلاً إلى البيت وقال له:

ـ يان ، يان ، يا ولدي العزيز ! إن فتاة عامرة الصدر هي متعة حياتي .

ولكن آماله لم تتحقق . فقد راحوا يتقاذفونه من موقع حامية إلى آخر ، حيث لم يكن لديه ما يفعله سوى وعظ الجنود مرة كل أسبوعين قبل إقامة القداس في كنيسة الحامية ومقاومة الاغراء الذي يمثله نادي الضباط

حيث كانت تجري محادثات اذا ما قورنت بها فتيات خوريّه الموارفي العامرات الصدور لبدت هذه كصلاة صغيرة بريئة أمام ملاك حارس.

وفي الوقت الحاضر كان يُستدعى عادة من قبل الجنرال فنيك خلال العمليات الرئيسية على ساحة المعركة حين يجري الاحتفال بأحد انتصارات الجيش النمساوي ، فقد كان الجنرال فينك يستمتع بالقداسات الميدانية الاحتفالية بقدر استمتاعه بالمحاكمات الميدانية الموجزة .

كان فينك الوغد وطنياً نمساوياً متحمساً إلى حد أنه كان يرفض أن يصلي في سبيل انتصار جيوش الرايخ الألماني أو الأتراك . وحين كان الألمان يكسبون نصراً ما على الفرنسيين أو البريطانيين في أي مكان ، كان يوصي بتجاهل ذلك عند مذبح الكنيسة .

ولكن كانت كل مناوشة تافهة تنتهي بالنصر ، بين دورية نمساوية استطلاعية ودورية روسية متقدمة ، وتقوم القيادة بنفخها كفقاعة صابون محولة اياها إلى هزيمة نكراء لفيلق روسي كامل ، مثل هذه المناسبة كانت توفّر للجنرال فينك فرصة اجراء الاحتفالات الدينية بحيث تولّد لدى مارتينيتس البائس الانطباع بأنّ الجنرال فينك لم يكن قائد القلعة فحسب بل الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية في برزيميسل.

كان الجنرال فينك يقرر شكل الصلوات في مثل تلك القداسات وكان يفضل دائماً شيئاً مثل صلاة « عيد الجسد » مع « الثمانيات ».

وحين كانت النشوة المرضية للمضيف تنتهي أثناء القداس فقد كان من عادته أن يعدو بسرعة في ميدان الاستعراض حتى المذبح المنصوب هناك ويصيح ثلاث مرات : « هورا ، هورا ، هورا ! »

لم يكن مارتينيتس ، وهو الشخص الورع الشريف ، ومن

القلة القليلةالتي لا زالت تؤمن بالرب ، يحبّ الذهاب لمقابلة الجنرال فينك .

فبعد أن يعرض عليه قائد الحامية كل التعليمات يقوم بصب كأس من شراب قوي له ويقص له بعد ذلك آخر الحكايات التي يكون قد قرأها في أسخف الكتيبات التي كانت تنشر خصيصاً لتوزّع على القوات من قبل صحيفة « لوستيغه بلتر » الألمانية .

كانت لدى الجنرال مجموعة كاملة من هذه الكتيبات ذات العناوين مثل : « مرح في جراب المؤونة للعيون والآذان » ، « حكايات هندنبورغ » « هند نبورغ معكوساً بمرح » ، « الجراب الثاني المليء بالمرح » ، ، محمّلاً من قبل فيليكس شلمبر » ، « من مدفعنا الغولاشي » ، « شظايا لذيذة من الخنادق » ، أو النفايات التالية : « تحت النسر المزدوج » و «فينر شنيتسل من المطبخ الميداني الامبراطوري والملكي ، مدفأً من قبل آرتورلوكيش » . بل كان يغني له أحياناً بعض الأغاني من مجموعته الخاصة من الأغاني العسكرية المرحة : « النصر لابد لنا ! » ، بينما يستمر طوال الوقت في صب الشراب القوي ويجبر مارتينيتس على تجرعه وعلى المواء معه . ثم يعود بعد ذلك ليحكي له نكات بذيئة فيتذكر مارتينيتس بقلب مثقل بالهموم خوريّه الذي لم يكن في أي حال من الأحوال أقل بذاءة من الجنرال فينك .

وقد لاحظ مارتينيتس ، ويا للهول ، أن هذا الجنرال يغرق أكثر فأكثر في البذاءة وانحلال الخلق مع كل زيارة .

وقد بدأ الرجل البائس يستمتع الآن بالمشروبات التي كان يحتسيها مع الجنرال ، وكما بدأت تروق له حواراته مع الجنرال وقد كانت

هذه العملية بطيئة وانما أكيدة . لقد بدأ يستمتع بالأفكار الفاسقة وذلك بسبب مفعول الكونتوشوفكا والبيرجابينكا ونسيج العناكب على زجاجات النبيذ المعتّق التي كان الجنرال فينك يقدمها له ، فقد بدأ ينسى تدريجياً الرب ، وأصبحت النساء في قصص الجنرال يتراقصن أمام عينيه بين سطور كتاب صلواته اليومية . كان كرهه لزياراته للجنرال قد بدأ يزول تدريجياً .

كان الجنرال قد أولع بمارتينيتس الذي ظهر له في البداية أشبه بالقديس « أغناطيوس » قديس « لويولا » ، ولكنّه كيّف نفسه لاحقاً وفق جوّ الجنرال .

وفي أحد الأيام دعا الجنرال ممرّضتين من المستشفى الميداني . لم تكونا تعملان في الواقع هناك ، وانما أدخلتا على سجلات المستشفى حتى تقبضا راتباً على هذا الأساس ، وكانتا تكسبان دخلاً اضافياً من ممارسة الدعارة من الدرجة الأولى ، كما جرت عليه العادة في تلك الأزمنة العصيبة. لقد استدعى مارتينيتس ، الذي كان قد سبق له ووقع بين مخالب الشيطان على نحو لا فرار منه ، بحيث استمتع بعد نصف ساعة فحسب بهاتين السيدتين الواحدة تاو الأخرى ، وقد أصيب بحالة من النزوة الشهوانية شديدة إلى حد جعلته يريل على الوسادة التي كانت على الأريكة فبلّلها . وقد لام نفسه لاحقاً ولفترة طويلة على ارتكاب كل ذلك الفجور ، رغم أنه لم يستطع أن يكفّر عن ذلك حتى عندما ركع خطأً لدى عودته في تلك الليلة في المتنزه أمام تمثال باني المدينة ومحافظها ، النصير السخي للأدب والفن السيد غرابوفسكي ، والذي كانت مدينة «برزيميسل » تدين له بالكثير في ثمانينات القرن الماضي .

لم يقاطع كلماته المتوهجة من التقوى سوى الوقع الثقيل لأقدام الدورية العسكرية : «لا تطلق حكمك على خادمك أيها الرب فليس هناك انسان يحق له التبرير أمامك اذا لم تسامحه على كل خطاياه . أتوسل اليك أن تخفف عني عقابي . ألتمس عونك وأضع روحي بين يديك يا رب . »

ومنذ ذلك الحين أصبح يحاول كلما استدعاه الجنرال فينك أن يقوم بمحاولات متنوعة لإنكار كل الملذات الأرضية والاعتذار بأنه يعاني من توعّك في المعدة ، وقد اعتبر هذا الكذب ضرورياً حتى ينقذ روحه من عذاب جهنم ، فقد كان يعرف جيداً أن النظام العسكري يتطلب منه أن ينفذ أمر الجنرال حين يأمره هذا بتناول المشروب ، وذلك احتراماً لأمر الضابط الآمر .

أحياناً لم ينجح طبعاً في ذلك ، خاصة حين كان الجنرال ينظّم بعد القداسات الميدانية المجيدة ولائم هائلة أعظم مجداً ، وذلك على نفقة ميزانية الحامية . وقد استطاع المحاسبون لاحقاً تدبير الأمر كلّه بطريقة ما حتى يستطيعوا هم أيضاً أن ينالوا حصتهم كذلك.وبعد هذه المناسبات كان القسيس يتخيل دائماً أنه مدان أخلاقياً أمام الرب وأنه قد مُسخ إلى كتلة هلامية رجراجة .

ثم كان يهيم على وجهه وكأنه في حالة من الذهول . ولكنه لم يفقد الايمان بالرب.وفي تلك الحالة من الاضطراب والتشوش التي كان فيها كان يتساءل بجدية ان لم يكن عليه أن يجلد نفسه يومياً وبانتظام .

وفي مثل هذا المزاج تماماً حضر اليوم لمقابلة الجنرال الذي استدعاه .

استقبله الجنرال ووجهه يطفح بالسعادة وقال له بابتهاج :

ــ هل سمعت بمحكمتي الميدانية الموجزة ؟ سنشنق أحد مواطنيك .

لدى سماعه عبارة « مواطنيك » نظر مارتينيتس بألم . كان قد سبق نه وعارض عدة مرات الافتراض بأنه تشيكي وشرح مرات كثيرة أن أبرشيتهم في مورافيا تضم مجموعتين سكانيتين : واحدة تشيكية والأخرى ألمانية ، وأنه غالباً ما كان يضطر إلى أن يعظ أسبوعاً في التشيكيين وأسبوعاً آخر في الألمان . ولأنه لم يكن في المنطقة التشيكية أية مدرسة تشيكية بل مدرسة ألمانية فحسب ، فقد كان مضطراً إلى تعليم الألمانية في كلا المنطقتين وبالتالي لم يكن هو تشيكياً . هذا المنطق استفزّ مرة ضابطاً برتبه رائد كان جالساً إلى الطاولة فقال ان ذلك القسيس المورافي دكّان يحوي مزيجاً من مواد البقالة .

قال الجنرال :

ــ آسف ، لقد نسيت . إنه ليس واحداً من مواطنيك إنه تشيكي ، هارب وخائن عمل مع الروس ولسوف يشنق . في هذه الأثناء ، ومن أجل الشكليات لا غير ، نقوم بالتحقّق من هويته . ولكن هذا لا يهم كثيراً . سيشنق فورحصولنا على الجواب برقياً .

أجلس الجنرال القسيس إلى جانبه على الأريكة مستأنفاً كلامه بمرح :

ــ حين أقيم محكمة ميدانية موجزة يجب أن يكون كل شيء مناسباً لطبيعة الايجاز هذه. هذا هو مبدئي. حين كنت في بداية الحرب قريبا من « لفوف » استطعت شنق أحد الأنغال خلال ثلاث دقائق بعد اصدار الحكم . كان يهودياً بالطبع ، ولكننا شنقنا مرة شخصاً روثينياً بعد خمس دقائق فحسب من المداولة في أمره .

ابتسم الجنرال بمودة ثم استأنف قائلاً :

— لم يكن أي منهما في حاجة إلى سلوان روحاني ، فقد كان اليهودي حاخاما والروثيني قساً أورثوذكسياً . أما القضية التي بين أيدينا اليوم فمختلفة تماماً . هنا لدينا كاثوليكي وسوف يُشنق . ولقد خطر لي أن أقدم له السلوان الروحاني سلفاً حتى لا نضطر إلى تأخير اجراءات الشنق لاحقاً ، أي حتى لا نضع عوائق أمام القضية .

قرع الجنرال الجرس وأصدر الأمر التالي إلى خادمه :

— أحضر مدفعين من مدفعية البارحة !

وبعد لحظة كان هذا يملأ كأس القسيس بالنبيذ ويقول بود :

— امنح نفسك بعض السلوان قبل أن تمنح السلوان الروحاني لغيرك . . .

في هذه اللحظة المخيفة سمع صوت شفيك وهو يغني جالساً خلف النافذة ذات القضبان على حشيته المصنوعة من القش :

«نحن الشباب الذين أحدثوا الجلبة ،

نكسب قلوب كل المومسات ،

نقبض الراتب ثم نمرح !

هاي ، ترالالام ! واحد اثنان ثلاثة ! »

* * *



الفصل الثاني

سلوان روحاني

بالمعنى الحرفي للكلمة لم يدخل القسيس مارتينيتس إلى زنزانة شفيك سيراً على الأقدام بل طار إلى داخلها كما تطير راقصة الباليه على الخشبه. لقد جعله الحنين السماوي وزجاجة من نبيذ « غومبولدسكيرخن » المعتّق خفيفاً كالريشة في هذه اللحظة المؤثرة ، فقد تخيل أنه في هذا القبر وهذه اللحظة المقدّسة كان يقترب من الرب أكثر فأكثر ، ذلك حين كان يقترب في الواقع من شفيك .

أغلق الباب خلفه وتركوه وحيداً مع شفيك . قال القسيس بحماسه لشفيك الذي كان جالساً فوق السرير المصنوع من الألواح الخشبية :

– يا ولدي العزيز ، أنا القسيس مارتينيتس .

خلال طريقه إلى شفيك بدت له هذه الطريقة في مخاطبة شفيك مناسبة جداً ومؤثّره أبوياً .

نهض شفيك من على سريره وصافح القسيس بحيوية وقال :

– يسعدني جداً لقاؤك . أنا شفيك، جندي ارتباط السرية الحادية

عشرة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين . لقد نقلوا مؤخراً نواة فوجنا إلى « بروك أن دير لايتا » ، لذا أرجو أن ترتاح إلى جانبي أيها الموقر ، وان تحكي لي عن سبب زجك في السجن معي . انك تتمتع برتبة ضابط ولذا فأنت مخوّل بحقوق الاعتقال المطبقة على ضباط الحامية . لا يجب أن توضع هنا وبكل تأكيد لأن هذا السرير مليء بالبق . وقد يحدث أحياناً أن لا يعرف الناس كيف يزجون بالسجناء في المكان المناسب ، لأن هناك فوضى في الديوان أو بسبب الصدفة المحضة . كنت جالساً في احدى المرات يا سيدي في سجن الفوج في بوديبوفيتسه حين أحضروا طالبا ضابطا تحت الاختبار إلى زنزانتي . إن شخصاً في مثل رتبته أشبه بالقسيس ، فهو ليس سمكاً ولا طائراً ولا حتّى سمكة من نوع الرنة الأحمر . كان يصرخ في الجنود كضابط ، ولكن ما أن يحدث أي شيء حتّى يسجنوه مع الجنود العاديين . كان هؤلاء الموضوعون تحت الاختبار هجناء إلى حد أنهم لم يقبلوا حتّى ضمن مطعم ضباط الصف يا سيدي . ولم يكن لهم الحق في تناول الطعام مع الجنود أيضاً ، فقد كانوا أعلى رتبة بكثير من هؤلاء ، كما أن مطعم الضباط لم يكن مناسباً لهم . كان لدينا خمسة منهم وقد عاش هؤلاء في البداية على الجبن الذي كانوا يشترونة من الندوة لأنه لم تكن تصلهم حصص الطعام المقرّرة . ثم عرف الملازم الأول « فورم » بأمرهم ومنعهم من الذهاب إلى هناك حيث لم يكن يليق بشرف الطالب الضابط تحت الاختبار أن يتعامل مع ندوة الجنود . اذا ما الذي كان بوسعهم أن يفعلوه ؟ لم يكن مسموحاً لهم دخول ندوة الضباط أيضاً وبالتالي كان عليهم أن يكونوا معلقين في الهواء ، وأن يتحملوا عذاباً نفسياً رهيباً لعدة أيام حتّى أن أحدهم رمى بنفسه في نهر « مالشه» ، وفرّ آخر من

الفوج وكتب لاحقاً إلى الثكنة يقول انه الآن وزير الحربية في مراكش وبعد ذلك بقي أربعة منهم حيث أن ذاك الذي رمى بنفسه إلى نهر «مالشه» قد أنقذ حيّاً إذ نسي لشدة هيجانه قبل أن يرمي بنفسه في الماء أنه يعرف السباحة وأنه مرّ باختبار السباحة بامتياز . وقد وُضع في المستشفى فلم يعرفوا ما يفعلونه به هناك ، هل يغطونه ببطانية ضابط أم ببطانية جندي عادي ؟ ولكنهم احتالوا على الموضوع فلم يغطوه بأية بطانية بل بشرشف مبلول ، فراح يتوسل بعد نصف ساعة أن يعيدوه إلى الثكنة . وكان ذلك هو الرجل الذي حبسوه معي وهو مبلل تماماً ! لقد مكث هناك أربعة أيام وكان سعيداً جداً لأنه نال حصةمنالطعام أخيراً . صحيح أنه كان طعام مساجين ولكنه كان واثقاً على الأقل من الحصول عليه . وفي اليوم الخامس أخرجوه من السجن وبعد نصف ساعة عاد ليأخذ قبعته وبكى من الفرح . قال لي : « لقد اتخذوا قراراً بشأننا أخيراً . اعتباراً من اليوم سيجري حبسنا نحن الطلاب الضباط تحت الاختبار في المحرس مع الضباط وسوف تدفع إلى مطعم الضباط مبلغاً اضافياً ، شأن الضباط ، لقاء طعامنا . وسوف يسمح لنا بالدخول بعد أن ينهي الضباط طعامهم . وسوف ننام مع الجنود ونحصل على قهوتنا مع الجنود وعلى حصتنا من التبغ أيضاً .

كان مارتينيتس قد صحا الآن بما فيه الكفاية حتى يقاطع شفيك ، وقال كلاماً لا علاقة له البتة بما كان شفيك يحكيه له :

— نعم ، نعم ، يا ولدي العزيز ، هناك أمور بين السماء والأرض تجعلنا نفكّر بقلب متوهّج وبثقة في الرحمة المطلقة للرب . لقد جئت يا ولدي العزيز لأقدّم لك السلوان الروحاني .

وهنا توقف فقد بدا الموقف كله غير ملائم نوعاً ما . في الطرق كان قد ألّف مشروعاً كاملاً لخطاب كان يريد بواسطته أن يجعل الرجل اليائس يتأمل في حياته ويدرك أنه سيُغفر له في السماء اذا ما تاب وأبدى ندماً صادقاً .

كان يتساءل الآن في نفسه كيف سيستأنف الكلام ، ولكن شفيلك سبقه ليسأله ان كانت معه لفافة تبغ .

لم يكن مارتينيتس قد تعلم التدخين بعد ، وكان هذا هو الشيء الوحيد المتبقي من أسلوبه السابق في الحياة . وقد حاول مرة أو مرتين خلال جلساته مع الجنرال فينك وحين أفرط في الشراب أن يجرب تدخين السيجار ، ولكنه تقيأ فوراً وأحسّ بأن ملاكه الحارس كان يداعبه في حلقه محذّراً .

أجاب بوقار غير عادي :

ــ لا أدخن يا ولدي العزيز .

قال شفيك :

ــ يدهشني هذا . لقد عرفت قساوسة كثيرين وكانوا يدخّنون كمعمل التقطير الكائن في « زليخوف ».لا أستطيع أن أتخيّل في الواقع قسيساً لا يدخن ولا يشرب الكحول . لا أعرف سوى واحد لم يكن يدخن فقد كان يفضّل مضغ التبغ على تدخينه ، وحين كان يعظ في الناس كان يبصقه فيلوّث به المنبر كله . من أين أنت أيها الموقّر ؟

أجاب الموقر الامبراطوري والملكي مارتينيتس بلهجة كئيبة :

ــ من « نوفي ييتشين » .

ــ اذن لابد أنك تعرف امرأة اسمها «روجينا غاودرسوفا» . فمنذ عامين كانت تعمل في مطعم للنبيذ في شارع « بلاتنيرجسكا» في براغ ورفعت فجأة دعوى « أبوة » على ثمانية عشر رجلاً لأنها ولدت توأمين. كان لأحد هذين التوأمين عين زرقاء وأخرى بنية وكان للآخر عين رمادية وأخرى سوداء . وهكذا افترضت أن أربعة رجال لهم عيون بهذه الألوان قد زاروا مطعم النبيذ وتعاملوا معها وتورطوا بالتالي . ثم كان لأحد التوأمين ساق عرجاء وذلك كأحد مستشاري مجلس المدينة وهو من زبائن المحل ، كما كان للتوأم الآخر ستة أصابع في قدمه وهذا هو حال نائب في البرلمان . كان زبوناً يومياً للمطعم أيضاً . وتخيل يا سيدي أن ثمانية عسر زبوناً اعتادوا ارتياد ذلك المطعم ، وأنه كان لهذين التوأمين علامات خلقية مميزة مأخوذة من كل أولئك الزبائن الثمانية عشر الذين كانت تعاشرهم المرأة إما في البيت أو في أحد الفنادق. وقد قررت المحكمة في النهاية أنه مع وجود هذا الصف الطويل من الرجال فلا شك أن الأب مجهول، فكان أن وضعت اللوم أخيراً على صاحب المطعم الذي تعمل عنده وقاضته ، ولكنه أثبت أنه عنين منذ عشرين عاماً نتيجة لعملية أجريت له بسبب التهاب في أطرافه السفلية. وبعد ذلك أرسلت مخفورة إلى عندكم يا سيدي ، إلى « نوفي بيتشين ». ومن ذلك يمكنك أن ترى جيداً أن كل من يناضل في سبيل السلطة يصاب بالفشل عادة . كان عليها أن تضع اللوم على رجل واحد فحسب وألا تقول في المحكمة إن أحد التوأمين ابن للنائب والآخر ابن لمستشار مجلس المدينة أو فلاناً من الناس. يمكنك دائماً أن تحسب بالضبط ميعاد مولد طفل ما ، ففي ذلك اليوم وذلك التاريخ كنتَ معها في الفندق وفي ذلك اليوم وذلك التاريخ وُلد الطفل . هذا بالطبع ان كانت الولادة

طبيعية يا سيدي . في «فنادق الترانزيت » تلك يمكنك أن تحصل دوماً على شاهد بمبلغ لا يتجاوز العشرة كراونات ، وهو إما نادل أو خادم للغرف ، وهذا مستعد أن يقسم على أنه كان معها تلك الليلة وأنه حين كان ينزل معها على الدرج قالت له : « وماذا لو حدث شيء ما ؟ » وأنه أجابها قائلاً : « لا تخافي يا قطتي الغبية ، سأعتني بالطفل . »

فكّر القسيس للحظة ثم بدا له الآن أن تقديمه السلوان الروحاني مسألة صعبة رغم أنه كان قد فكّر سلفاً فيما سيقوله لولده العزيز وكيف سيقوله . كان عازماً على التحدّث عن الرحمة الالهية السامية في يوم الحساب ، حين يخرج كل مجرمي الجيش من قبورهم وحول رقابهم الحبال ، ولكن بسبب توبتهم سيعاملون برحمة كذلك السارق في «العهد الجديد » .

كان قد حضّر سلواناً روحانياً جميلاً جداً وكان في ثلاثة أجزاء . ففي البداية سيشرح أن الموت شنقاً مسألة سهلة اذا كان المشنوق في حالة من التفاهم مع الرب . ان القوانين العسكرية تعاقب منتهكي القانون بسبب خيانتهم لصاحب الجلالة الامبراطوزية ، الذي هو أب لكل المحاربين . ولذا فان على المرء أن يعتبر أدنى مخالفة يرتكبها أي محارب عملاً يتعلق بقتل الأب وعملاً فيه انعدام التوقير للأب . وبعد ذلك كان يعتزم أن يتوسع في شرح نظريته فيقول ان صاحب الجلالة الامبراطورية هو امبراطور بموافقة الرب وأنّه عيّنه لادارة الشؤون الدنيوية كما عيّن البابا لإدارة الشؤون الروحانية . اذاً ، خيانه الامبراطور هي خيانة للرب نفسه . وعلى المجرم العسكري ألاّ يتوقع الحبل فحسب بل العقاب الأبدي والهلاك الأزلي أيضاً . واذا لم يكن ممكناً على أية حال ، بسبب

متطلبات الانضباط العسكري الغاء العقوبة ، فلابد من شنق المجرم، إلاّ أنه لم يفت بعد أمر العقوبة الأخرى في دار الأبدية . يمكن للمرء أن يحسّن وضعه بحركة ممتازة : بالتوبة .

تصوّر القسيس هذا المشهد المؤثر كشيء قد يساعده في السماء عن طريق محو آثار نشاطاته وتصرفاته في شقة الجنرال فينك في برزيميسل.

وكبداية كان سيصرخ بالرجل المحكوم : « تب يا ولدي . فلنركع معاً . كرّر من بعدي يا ولدي . »

ثم ستلوّي هذه الزنزانة المليئة بالقمل والعفنة الرائحة بالصلاة : «أيها الرب ، يا من تتميّز بالرحمة والغفران ، أتوسل إليك أن ترحم روح هذا المحارب ، الذي قدرت له أن يغادر هذا العالم محكوماً عليه بالشنق من قبل محكمة ميدانية موجزة في برزيميسل . امنح جندي المشاة هذا هذا النجاة من عذاب جهنم والمشاركة في المتع الأبدية اذا ما تاب توبة نصوحاً . »

— لو سمحت لي أيها الموقّر ، فاني أراك جالساً مثل الخنزير العالق في الطين منذ خمس دقائق وكأنك فقدت قدرتك على النطق . يمكن لأي امرء أن يدرك أنك تدخل السجن لأول مرة .

قال القسيس ببطء ووقار :

— لقد جئت لأقدم لك السلوان الروحاني .

— يحيّرني يا سيدي استمرارك في العزف على هذا السلوان الروحاني. أنا آسف جدا يا سيدي ولكني لا أشعر بما يكفي من القوة لأكون قادراً على أن أوفر لك أي سلوان روحاني اطلاقاً . أنت لست أول أو آخر

قسيس يدخل وراء القضبان . وزيادة على ذلك ، واذا أردت الحقيقة.
يا سيدي فاني لا أتمتع بالبلاغة التي تؤهلني لتقديم السلوان الروحاني
لأي شخص في مثل هذا الوضع الصعب . لقد حاولت ذلك مرة ،
ولكني فشلت . والآن هيا واجلس هنا إلى قربي بلطف وسأحكي لك
عما حدث لي . حين كنت أسكن في شارع اوباتوفيتسكا كان
لي صديق يدعى « فاوستين » ، وهو شخص يعمل بواباً في فندق . كان
رجلاً فاضلاً كما كان خلوقاً ومجداً في عمله ويعرف كل فتاة من فتيات
الشوارع . وكنت تستطيع أن تلجأ اليه يا سيدي في أي وقت من أوقات
مناوبته الليلية وتقول له : « يا سيد فاوستين ، أريد فتاة . » وكان
سيسألك فوراً وبكل ضمير نظيف ان كنت تريدها شقراء أم سمراء ،
قصيرة أم طويلة ، نحيلة أم بدينة ، ألمانية ، تشيكية ، يهودية ، متزوجة ،
مطلقة ، أرملة ، ذكية أم غير ذكية . .

احتضن شفيك القسيس بحميمية واستأنف حديثه وهو يلف ذراعه
من حول خصره :

— فلنقل مثلاً يا سيدي انك قلت له : « أريد شقراء ذات سيقان
طويلة على أن تكون أرملة وغير ذكية . » . حسناً ، خلال عشر دقائق
ستكون هذه معك في الفراش ومعها شهادة ميلادها أيضاً .

بدأ القسيس يشعر بالحرارة في كل أنحاء جسده بينما استمر شفيك في
الحديث وهو يحضن القسيس كأنه أمه . :

— ما كنت لتستطيع يا سيدي أن تحرز مدى ما كان يتمتع به السيد
فاوستين من حس أخلاقي ومن شرف . لم يكن يتقاضى ولو كرويتزرا
واحداً كبقشيش من أولئك النسوة اللواتي كان يساوم عليهن ويسلمهن
إلى الغرف . ولو حدث أن نسيت احدى هؤلاء النساء العادة وحاولت

أن تدسّ له شيئاً في يده لكنت رأيت مدى الغضب الذي كان ينتابه وكيف كان يصرخ بها : « أيتها المومس القذرة ، حين تبيعين جسدك وترتكبين الخطيئة المميتة لا تتخيلي أن كرويتزراتك العشرة سيكون لها أي فرق عندي . لست قوّاداً أيتها العاهرة الوقحة ، بل أفعل هذا بسبب شفقتي عليكن ، وحتى لا تضطر الواحدة منكن حين تهبط إلى الدرك الأسفل إلى أن تعرض عارها على المارة علناً ، فيتم القاء القبض عليها ليلاً في مكان ما من قبل دورية ، فتقضي ثلاثة أيام وهي تنظّف أرضيّة مقر قيادة الشرطة . هنا على الأقل تشعرين بالدفء وليس هناك من يرى مدى انحطاطك . » ولكنه كان يعوّض ذلك على نفقة الزبائن حيث كان يرفض المال كقواد وكانت له تعرفته الخاصة : العينان الزرقاوان ثمنهما عشرة كرويتزرات ، السوداوان خمسة عشر . وكان ينظم لائحة تفصيلية بالحساب على قطعة من الورق يقدمها إلى الزبون ، وكانت أسعاره معقولة جداً لقاء عمله كوكيل . فلقاء المرأة غير الذكية كان يتلقى سعراً إضافياً قدره عشرة كرويتزرات لأنه كان يحمل وجهة نظر مفادها أن المرأة المبتذلة من هذا النوع تقدم للزبون متعة أكبر من المرأة المثقفة . حسناً ، لقد حدث مرة وكان المساء وشيكاً أن جاء السيد فاوستين لمقابلتي في شارع أوباتوفيتسكا . كان في حالة شديدة من الهياج وقد خرج عن طوره ، وكأنما قد سحب منذ لحظة من تحت الحاجز الواقي على حافلة ترام وسرقوا له ساعته خلال العملية . في البداية لم يقل شيئاً ، ثم أخرج من جيبه زجاجة روم وتجرع منها بشراهة ثم قدمها إلي وقال : « اشرب . » ثم لم نقل شيئاً حتى شربنا الزجاجة كلها ، وعندها قال فجأة : « أيها العجوز ، أرجو أن تقدم لي خدمة . افتح الشباك الذي يطل على الشارع . سأجلس على الحافة ، ثم تمسك بي من ساقي وترميني

من الطابق الثالث . لم أعد في حاجة إلى أي شيء في هذه الحياة . لدي الآن سلوان روحاني حيث أن لدي صديق حقيقي يستطيع أن يودعني وأنا أغادر هذه الدنيا . لا أستطيع الاستمرار بالعيش فيها . فرغم أني شريف فقد اتهمت بأني أحصل على المال كقواد في الحي اليهودي . وعلى أية حال ، فان فندقنا فندق من الدرجة الأولى . ان جميع خادمات الغرف وزوجتي لديهن سجلات عند الشرطة ولسن مدينات للطبيب بكرويتزر واحد لقاء زياراته . ان كان لديك أي مودّة تجاهي فارم بي من الطابق الثالث وامنحني هذا السلوان الأخير . » وقد طلبت منه أن يجلس على حافة الشباك ثم رميته إلى الشارع . . . لا يصيبنك الجزع أيها الموقر .

وقف شفيك على السرير ثم جر القسيس اليه وقال :

— انظر أيها الموقر ، لقد أمسكت به هكذا ، ثم نزلنا ! .

رفع شفيك القسيس ثم أسقطه على الأرض مرة أخرى ، وبينما راح القسيس المروّع يحاول الوقوف مرة أخرى استأنف شفيك الكلام فقال :

— وهكذا ترى يا سيدي أنه لم يحدث لك شيء ولا للسيد فاوستين أيضاً ، ورغم أن المسافة كانت أعلى من هنا بثلاث مرات . لقد كان السيد فاوستين ثملاً تماماً ونسي أني أسكن في الطابق الأرضي في شارع أوباتوفيتسكا وليس في الطابق الثالث كما كان عليه الأمر في العام السابق ، وذلك حين كنت أسكن في شارع « كرجيمينكوفا » وكان من عادته في أن يزورني هناك أيضاً .

ومن على الأرض راح القسيس ينظر نحو شفيك منزعجاً ، وكان هذا يقف على السرير ويلوّح بذراعيه .

وقد خطر للقسيس فجأة أنه يتعامل مع رجل مجنون فقال متلعثماً :

ـــ أجل يا ولدي ، لم تكن أعلى حتّى بثلاث مرات .

ثم بدأ يتراجع إلى الخلف ببطء وظهره نحو الباب حتّى وصل اليه فراح يخبط عليه ويزعق على نحو مرعب ممّا جعل الحارس يفتح له الباب فوراً .

هذا وقد رأى شفيك من خلال النافذة ذات القضبان كيف كان القسيس يقطع الساحة مسرعاً يرافقه أحد الحراس ، وهو يومىء بيديه بحيوية .

فكر شفيك : « ربما سيأخذونه الآن إلى جناح المرضى العقليين » ، ثم قفز عن السرير وراح يمشي ويغني :

«لن ألبس أبداً الخاتم الذي أهديتني اياه .

لو رلامي ، لم لا ! ؟

حين أعود إلى فوجي

سأحشو به بندقيتي . . . »

بعد دقائق قليلة تم إبلاغ فينك بقدوم القسيس .

وكان الجنرال يستضيف في هذه الأثناء أيضاً كثيراً من الضيوف بينهم سيدتان لطيفتان راحتا تلعبان دوراً أساسياً ، هذا اذا ما استثنينا ذكر الدور الذي كان يلعبه النبيذ والليكور .

كان يجتمع هنا كل الضباط الذين شكلوا هيئة المحكمة الميدانية الموجزة ، باستثناء جندي المشاة الذي كان قد أشعل لهم لفافاتهم في الصباح .

دخل القسيس إلى الاجتماع وهويطير كشبح في حكاية فولكلورية ، فقد كان شاحباً متوتراً وجليلاً كرجل أدرك أنه قد صفع على وجهه دون ذنب اقترفه .

جذبه الجنرال فينك ، الذي كان يعامله مؤخراً على نحو جد حميمي ، وأجلسه إلى جانبه على الأريكة وسأله بصوت ثمل :

– ما حكايتك أيها السلوان الروحاني العجوز ؟

وفي هذا الوقت نفسه رمت إحدى السيدتين المرحتين لفافة تبغ إلى القسيس وقال له الجنرال فينك وهو يصبّ له بعض النبيذ في قدح كبير أخضر :

– اشرب أيها السلوان الروحاني العجوز .

وبما أنه لم يبدأ بالشرب فوراً بدأ الجنرال يصب المزيد من النبيذ ولولا أن القسيس راح يشرب بكل بسالة لكان قد أفسد ثيابه كلها.

في هذا الحين بدأت التساؤلات تطرح عليه حول كيفية تصرف المحكوم لدى تقديم السلوان الروحاني اليه ، فوقف القسيس وقال بلهجة مأساوية :

– لقد جُنّ تماماً .

قال الجنرال وهو يقهقه بصوت مرتفع :

– لابد وأنه كان سلواناً روحانياً لامعاً .

وهنا أصيب الجميع بنوبة ضحك مخيفة في حين بدأت السيدتان بالقاء اللفافات إلى القسيس مرة أخرى .

في نهاية المائدة كان الرائد ينام وهو في كرسيه . كان قد أفرط في الشراب وها هو يستيقظ من سباته ويصبّ الليكور في كأسين زجاجيتين، ثم يشق طريقه بين الكراسي نحو القسيس ويجبر خادم الرب المشوش الفكر على شرب نخب « الأخوة » . (١) وبعد ذلك عاد متدحرجاً إلى مكانه واستأنف سنات نومه الأربعين .

وبنخب «الأخوة» هذا سقط القسيس نهائياً في مخالب الشيطان الذي مدّ له ذراعيه من كل الزجاجات التي كانت على الطاولة ، ومن نظرات وابتسامات السيدتين المرحتين اللتين وضعتا سيقانهما على المائدة المقابلة له بحيث راح « بعلزبول » (٢) يحدق فيه من تحت أهداب الثياب الحريرية .

وحتى آخر لحظة لم يفقد القسيس قناعته بأن روحه كانت في خطر وأنه شهيد .

وقد عبّر عن ذلك في تأملاته التي وجهها نحو وصيفي الجنرال اللذين حملاه إلى الغرفة المجاورة ومدداه على الأريكة :

— مشهد حزين انما مثير للخيال يتفتح أمام عينيك ، وذلك عندما تستذكر بذهن صاف خال من التحيّز الكثير ممن عانوا وأصبحوا ضحايا لايمانهم والذين يعرفون باسم الشهداء . في حالتي هذه يمكنكم أن تلاحظوا كيف يمكن لرجل أن يشعر أنه متسام فوق كل آلامه ، حين تقطن العدالة والفضيلة في قلبه ، ويكسب هو النصر المجيد على آلامه المخيفة مسلّحاً بهذين السلاحين .

---

١ — شرب نخب « الاخوة » كان تمهيدا شكليا لاستعمال الضمير المخاطب المفرد في مخاطبة شخص أو منادانه باسمه الاول . (س.ب)

٢ — رئيس الشياطين . (المترجم)

ثم أدار وجهه إلى الجدار ونام فوراً .

ولكن نومه كان مضطرباً جداً .

وقد حلم أن الوقت نهار وأنه ينفذ واجبات القسيس ، وفي المساء كان يعمل كبواب في فندق بدلاً عن فاوستين الذي ألقاه شفيك من نافذة الطابق الثالث .

كانت الشكاوى تتوالى على الجنرال من كل الأطراف بأنّه جلب لأحد الزبائن فتاة سمراء بدلاً عن شقراء ، وأنه بدلاً عن سيدة مطلقة ذكية جلب أرملة دون ذكاء .

استيقظ في الصباح وهو يتعرق كخنزير ويشعر بالغثيان وقد خطر له الآن أن خوريّه في مورافيا عبارة عن ملاك بالمقارنة معه شخصياً.



الفصـــل الثـــالث

شفيك يعود للاتحاد بسريته المتقدمة

كان الرائد الذي عمل كممثل للنيابة العامة في محاكمة شفيك في صباح اليوم السابق هو ذلك الشخص نفسه الذي شرب نخب « الأخوة» مع القسيس ثم غفا .

هناك أمر واحد أكيـــد : لم يدر أحـــد في أي ساعـــة وفي أية حالة غادر الرائد بيت الجنرال في تلك الليلة. فقد كان الجميع في حالة لم يلحظ أحد معها غيابه . كان الجنرال في حالة لم يعد معها يدرك من كان المتكلم بين الحاضرين . كان قد سبق للرائد أن رحل منذ أكثر من ساعتين حين قال الجنرال وهو يبرم شاربيه ويبتسم بغباء :

— كلامك صحيح أيها الرائد .

في الصباح لم يكن ممكناً معرفة مكان الرائد . كان معطفه الخارجي معلقاً في البهو وسيفه على المشجب ولكن قبعته كانت مفقودة . وقد ظن الجميع أنه ربما ذهب لينام في احدى دورات المياه في المنزل ، ففتشوا

هذه الدورات كلها دون أن يجدوه ، ولكنهم وجدوا بدلاً عنه في الطابق الثاني ملازماً أول كان بين ضيوف الجنرال وكان مستغرقاً في النوم في وضع الركوع وفمه في ثقب دورة المياه حيث كان النعاس قد غلبه وهو يتقيأ .

بدا وكأن الرائد قد اختفى عن وجه الأرض .

ولكن لن نظر أي منهم خلال النافذة ذات القضبان حيث كان شفيك محجوزاً لرأوا تحت المعطف الخارجي الروسي الخاص بشفيك شخصين نائمين على سرير واحد وزوجين من الجزمات يطلان من تحته.

كانت الجزمة ذات المهماز تخص الرائد أما تلك التي دون مهماز فهي لشفيك .

كانا ينامان كلاهما على نحو دافيء ومريح كأنهما قطان صغيران. هذا وقد وضع شفيك ذراعه تحت رأس الرائد وكان الرائد يعانق شفيك من خصره ويلتصق به التماساً للدفء كما يلتصق الجرو بأمه .

لم يكن هناك سر في المسألة ، فقد كان الرائد واعياً بواجباته ، وهذه هي المسألة كلها .

لاشك أنه سبق لك وجربت مجالسة ومشاربة شخص ما طوال الليل وحتى الصباح اليوم التالي ، وفجأة يضع نديمك يديه على رأسه ويقفز صائحاً : « يا للمسيح ومريم ، كان يتوجب علي أن أكون في المكتب الساعة الثامنة . » وهذا هو ما يدعى بنوبة « الوعي بالواجب » التي تمر كنتيجة ثانوية للضمير المثقل . والشخص الذي تنتابه مثل هذه النوبة النبيلة لا يمكنك أن تمنعه من تنفيذ قناعته المقدّسة بوجوب ذهابه

إلى المكتب والتعويض عما فقده هناك . وهؤلاء هم الأشباح حاسرة الرؤوس التي يراها بوابو المكاتب في الممرات فينامون على الأرائك في جحورهم ويغطون رؤوسهم حتى يناموا وينسوها .

وكان هذا النوع من النوبات هو الذي اعترى الرائد .

فحين استيقظ من غفوته على الكرسي خطر له فجأة أن عليه أن يستجوب شفيك فوراً . نشأت هذه النوبة من نوبات الوعي بالواجب الرسمي على نحو سريع وفجائي وقد تم تنفيذها فوراً وعلى نحو حاسم بحيث لم يلحظ أحد اختفاء الرائد .

ولكن وجود الرائد كان ملحوظاً في المحرس الخاص بالسجن العسكري . فقد دخل إلى هناك كالقذيفة .

كان الرقيب الأول المناوب ينام على الطاولة ومن حوله ينام بقية الجنود في أوضاع مختلفة .

وقد أطلق الرائد الذي كان يضع قبعته على جانب واحد من رأسه سيلاً من السباب بحيث قطع الجميع تثاؤباتهم من منتصفها واكتست وجوههم بتكشيرات مفزعة . لم يكن أولئك المحدقون بكل ذلك اليأس والغرابة مجموعة من الجنود بل مجموعة من القرود المكشرة .

ضرب الرائد الطاولة بقبضته وصرخ في الرقيب الأول :

ــ أيها التغل الكسول ، لقد قلت لك ألف مرة أن رجالك مجموعة من القذارات الخنزيرية .

ثم التفت نحو الجنود جاحظي العيون وصرخ قائلاً :

— أيها الجنود ! هناك حماقة تحدّق من عيونكم حتى وأنتم نائمون ، وحين تستيقظون أيها الأنغال يبدو عليكم وكأن كل واحد منكم قد ابتلع شاحنة من الديناميت .

وبعد ذلك أدلى بموعظة طويلة مكثفة عن واجبات كل الجنود خلال الحراسة وأن عليهم أن يفتحوا فوراً زنزانة شفيك حيث يريد استجواب المتهم مجدّداً .

وهكذا وصل الرائد إلى زنزانة شفيك ليلاً .

وقد وصل إلى هناك حين كان كل شيء في داخله في طور النضوج اذا جاز التعبير .وكان انفجاره النهائي اصداره أمراً بتسليم مفاتيح السجن اليه .

وقد رفض الرقيب الأول ذلك في آخر محاولة يائسة له لاستذكار واجباته . وقد ترك هذا انطباعاً هائلاً فورياً على الرائد .

صاح وهو في الساحة :

— أيتها المجموعة من القذارات الخنزيرية ، لو أعطيتموني المفاتيح لكنت سأريكم ما سيحدث .

قال الرقيب الأول :

— أبلغكم بتواضع يا سيدي أني مضطر إلى أن أقفل بالمفتاح عليكم وأنتم في الزنزانة وأن أضع حارساً لأضمن سلامتكم الشخصية . وحين تودون الخروج يا سيدي ، أرجو أن تطرقوا على الباب .

قال الرائد :

ـ أيها المغفل اللعين ! أيها السعدان ! أيها الجمل ! هل تتصور أني أخاف من أي أسير وأن عليك وضع حارس لحمايتي حين أستجوبه ؟ ياللجحيم ! اقفل عليّ الباب واغرب عن وجهي .

في الفتحة التي فوق الباب وفي المصباح المغطى بالقضبان كان فتيل قصير يصدر نوراً ضعيفاً يكفي بالكاد لتمكين الرائد من رؤية شفيك الذي انتظر بصبر وهو مستيقظ وواقف في حالة استعداد عسكرية قرب السرير ما الذي سينجم عن هذه الزيارة .

تذكّر شفيك أن أفضل ما يمكن له عمله هو تقديم تقرير للرائد فصاح بحيوية :

ـ أبلغكم بتواضع يا سيدي : سجين واحد ولا شيءآخر .

نسي الرائد فجأة السبب في دخوله إلى هناك فقال :

ـ استرح ! وأين وضعت ذلك السجين ؟

قال شفيك بفخر :

ـ أبلغكم بتواضع أنه أنا يا سيدي .

تجاهل الرائد هذه الاجابة على أية حال ، فقد كان نبيذ الجنرال وليكوره يحدثان في دماغه آخر تفاعلات الكحول ، فتثاءب على نحو رهيب إلى حد أنه لو فعلها أي مدني لالتوى حنكه . أما بالنسبة إلى الرائد فان هذا التثاؤب قد نقل أفكاره إلى تلك الأعماق من ذهنه حيث يحتفظ البشر عادة بفنّ الغناء . وبدون أية رسميات سقط على سرير شفيك وراح يشخر بصوت خنزير ذبيح يلفظ أنفاسه الأخيرة ويغني بالألمانية :

«يا شجرة التنوب ، يا شجرة التنوب ،

كم هي جميلة أوراقك ! » (١)

وقد كرر ذلك مرات عديدة وهو يقاطع الغناء كل مرة بصرخات مبهمة . ثم تكور على نفسه كما يفعل الدّب الصغير ، وبدأ يشخر فوراً .

قال شفيك وهو يوقظه :

ــ يا سيدي ، أبلغكم بتواضع أن القمل سيغزوكم .

ولكن ذلك لم يجد فتيلاً . كان الرائد في حالة انقطاع كاملة عن العالم .

نظر اليه شفيك برقة وقال :

ــ حسناً اذن ، وداعاً أيها السكيّر .

ثم غطاه بمعطفه . وفيما بعد تسلل إلى جانبه حيث وجدوهما على هذه الحال في صباح اليوم التالي وهما متعانقان على ذلك النحو .

في حوالي التاسعة حين وصل البحث عن الرائد إلى أوجه ، نهض شفيك وظن أنه من اللائق إيقاظ الرائد . وقد هزّه عده مرات بقوة ثم نزع عنه المعطف الروسي الذي غطاه به ، حتّى جلس الرائد على السرير ونظر بفتور إلى شفيك محاولاً أن يعرف منه حل لغز وجوده هنا.

ــ أبلغكم بتواضع يا سيدي أنهم جاؤوا عدة مرات من المحرس إلى هنا ليتأكدوا من أنك لا تزال على قيد الحياة . وهكذا سمحت لنفسي

١ ــ اغنية المانية فولكلورية شهيرة . (س.ب)

أن أوقظك لأ نّي لا أعرف موعد استيقاظك في العادة ولا أريدك أيضاً أن تنام زيادة عن العادة . كان هناك مرة صانع براميل في معمل للجعة في «أوهرجينييفيس » ينام دائماً حتّى السادسة صباحاً ، واذا ما حدث ونام ربع ساعة زيادة أي حتّى السادسة والربع كان لا يستيقظ حتّى الظهر وقد استمر على هذا المنوال حتّى طردوه من عمله . وبعد ذلك غضب وشتم الكنيسة وعضواً من الأسرة الحاكمة .

تكلّم الرائد بلغة تشيكية « مكسّرة » وبلمسة من اليأس ، فقد كان يعاني من آثار الشراب البغيضة إلى حد كبير ولم يستطع أن يجد جواباً على السؤال المتعلق بوجوده في هذا المكان ، والمتعلق بقدوم الناس من المحرس إلى هنا ولماذا يهذر هذا الشخص الواقف أمامه بكل هذا الهراء الذي لم يكن مفهوماً بالنسبة اليه . لقد بدا الأمر كله شاذاً إلى حد مرعب. وقد تذكر أنه سبق له وكان مرة في الليل هنا ولكن لأي سبب يا ترى؟

سأل بلهجة يشوبها الشك :

— لقد كنت هنا من قبل في الليل ، أليس كذلك ؟

أجاب شفيك :

— وفقاً للتعليمات يا سيدي وكما فهمت من كلماتك يا سيدي ، فاني أبلغكم بتواضع أنكم جئتم إلى هنا لاستجوابي .

ثم اتضح الأمر كله فجأة للرائد فنظر إلى نفسه ثم إلى الخلف وكأنه يبحث عن شيء ما .

قال شفيك :

— أرجو ألاّ تقلق حول أي شيء يا سيدي . لقد استفقت كما

كنت حين دخلت إلى هنا . لقد وصلت إلى هنا دون معطف خارجي ودون سيف ولكن بالقبعة . قبعتك موجودة هناك . أنت ترى يا سيدي أني اضطررت إلى أخذها من يدك لأنك أردت أن تضعها تحت رأسك . ان قبعة الاستعراض الخاصة بالضباط يا سيدي أشبه بالقبعة الرسمية التي يعتمرها الرجال في الحفلات الرسمية . عرفت شخصاً واحداً كان ينام على قبعة رسمية ، ألا وهو السيد « كارديراز » في لوديينيتسه . كان هذا يمدّد نفسه على مقعد في إحدى الحانات ويضع قبعته الرسمية تحت رأسه. وقد اعتاد أن يغني في الجنازات ، كما ترى ، ويذهب إلى كل جنازة بالقبعة الرسمية . كان يضع قبعته الرسمية بلطف تحت رأسه ويضع في ذهنه أنه لا يتوجب عليه أن يكسرها . ثم ينام طوال الليل بطريقة ما أو بأخرى محتفظاً بكامل ثقل جسده بعيداً عنها ، وبذلك لا يصيبها بأي ضرر ؛ بل كان يستفيد أيضاً من هذه العملية ، إذ أنه كان حين يتقلّب من جانب إلى آخر يفركها بشعره حتى يكويها تماماً .

استمرّ الرائد الذي كان لا يزال الآن يحاول إدراك الأسباب والدوافع ، بالنظر بفتور إلى شفيك، ولم يستطع سوى أن يكرر قائلاً بلغته « المكسّرة »

— أيها المخبّل ، لا ؟ أنا الآن هنا . أريد الذهاب .

ثم نهض وذهب إلى الباب وراح يطرق على الباب بعنف .

وقبل أن يأتوا ليفتحوا الباب كان لديه ما يكفي من الوقت ليقول لشفيك :

— إذا لم تأت البرقية بتثبيت هويتك فسوف تُشنق!

قال شفيك :

– شكراً جزيلاً يا سيدي . أعرف يا سيدي أنك تهتمّ كثيراً بأمري ، واذا ماصدف يا سيدي وعلقت بك قملة يا سيدي على هذا السرير ، فيمكنك أن تفحصها ان كانت صغيرة ولها ردفان صغيران حمراوان فهي ذكر . واذا كانت وحيدة وليس لها رفيق طويل رمادي معها وكانت ذات خطوط حمراء على بطنها فالأمر على ما يرام في هذه الحالة ، وإلا لكان عندك زوج منها.وهذه الأنغال تتكاثر على نحو مخيف، أسوأ من الأرانب حتّى .

قال الرائد باكتئاب وهم يفتحون له الباب :

– كفى !

في المحرس لم يقم الرائد بأية ثورات أخرى ، بل أمرهم بلهجة قاسية أن يحضروا له عربة دروشكي ، وخلال تذبذباتها فوق الحصى البائس المرصوفة به شوارع برزيميسل كان في ذهنه فكرة واحدة وهي أن المتهم رغم كونه غبياً من الدرجة الأولى إلا أنه نغل بريء على أية حال . وفيما يخصّه هو بالذات فلم يعد أمامه أي شيء يفعله عدا اطلاق النار على نفسه حالما يصل إلى البيت أو يرسل في طلب معطفه وسيفه من شقة الجنرال ويستحمّ في أحد حمامات البلدة ويتوقف عند قبو الخمور المسمى « فولغروبر» بعد ذلك ، فيصحّح شهيته للطعام ويحجز بالهاتف تذكرة للمسرحية المسائية في مسرح المدينة .

وقبل أن يصل إلى شقته قرر أن ينفذ القرار الثاني .

ولكن كان في انتظاره في الشقة مفاجأة صغيرة . وقد وصل في اللحظة الحاسمة .

ففي الممرّ كان يقف الجنرال فينك الذي كان يمسك بوصيف الرائد من قبّته ويعامله بخشونة شديدة ويهدر فيه :

— أين وضعت رائدك أيها الخنزير ؟ انطق أيها الحيوان !

ولكن الحيوان لم ينطق ، فقد كان وجهه قد ازرق بسبب امساك الجنرال له من خناقه .

وحين دخل الرائد على هذا المشهد ، رأى وصيفه تعيس الحظ يحمل تحت ذراعه معطفه وسيفه اللذين كانا قد احضرهما من مدخل منزل الجنرال .

بدأ المشهد يروق للرائد كثيراً وهكذا وقف في البوابة المفتوحةوراح ينظر إلى وصيفه المخلص وهو يعاني ويتألم ، فقد كان هذا الوصيف يتمتع بمزية ثمينة هي كونه قد كسب كره الرائد اه بسبب الاختلاسات الصغيرة المتنوعة التي كان يمارسها .

أطلق الجنرال سراح الوصيف الذي ازرقّ وجهه وذلك للحظة واحدة، وحتى يتمكن من اخراج برقية من جيبه . ثم بدأ يضرب الوصيف على فمه وشفتيه بالبرقية ثم صرخ به :

— أين وضعت رائدك أيها الخنزير ، أين وضعت رائدك « النائب العام » ، أيها النغل؟ يجب أن تسلم له هذه البرقية التي تخص مسألة رسمية.

صاح الرائد « ديرفوتا» من الباب معلناً قدومه ، فقد ذكرته كلمات «الرائد » و « نائب عام » و « برقية » بواجباته مرة أخرى .

صاح الجنرال فينك :

— آه ! ها أنت تعود اذن ، أليس كذلك ؟

كان في صوته الكثير من الخبث وإلى حد أن الرائد لم يجب عليه بل وقف هناك محتاراً .

أمره الجنرال بأن يلحق به إلى غرفة الجلوس وحين جلس معاً إلى المكتب رمى له بالبرقية التي صفع بها الوصيف وقال له بلهجة مأساوية:

– اقرأها ! هذا هو عملك.

وبينما راح الرائد يقرأ البرقية نهض الجنرال من كرسيه وراح يذرع الغرفة بسرعة جيئة وذهاباً ، وفي طريقه كان يوقع المقاعد والكراسي ويصيح :

– ولكني سأشنقه على أية حال .

وكان نص البرقية كما يلي :

«جندي المشاة يوسيف شفيك ، جندي ارتباط السرية الحادية عشرة المتقدمة ، ضاع في السادس عشر من هذا الشهر على طريق كيروف – فلشتين خلال مهمة رسمية للبحث عن مكان للمبيت . أرسلوا جندي المشاة شفيك إلى رئاسة أركان اللواء في « فوياليتشه» دون إبطاء.»

فتح الرائد درج مكتبه ، وأخرج منه خريطة وفكّر في أن « فلشتين» تبعد أربعين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من برزيميسل لذا فانه لأمر غامض تماماً كيف استطاع جندي المشاة شفيك أن يعبر وهو يرتدي بزة روسية مسافة تزيد عن (١٥٠) كم بعيداً عن الجبهة ، حيث أن المواقع المتقدمة تمتد على طول خط سوكال – تورزه – كوزلوف.

وحين أعلم الرائد الجنرال بهذا وأراه على الخريطة المكان الذي ضاع فيه شفيك منذ أيام قليلة وفقاً لنصّ البرقية ، خار الجنرال كثور لأنه أحسّ أن آماله في عقد محكمة ميدانية موجزة قد تبخّرت . ذهب إلى الهاتف واتصل بالمحرس وأمر باحضار الأسير شفيك فوراً إلى شقة الرائد.

وقبل تنفيذ الأمر عبّر الجنرال وهو يرشق الشتائم الرهيبة عن ضيقه مرات عديدة : كان عليه أن يشنقه على مسؤوليته دون المزيد من التحقيقات .

عارض الرائد وجهة النظر هذه وقال مامعناه ان القانون والعدالة يجب أن يسيرا يداً بيد . وقد تحدث بفصاحة وبنبرات رنانة حول العدالة والمحاكم والجرائم القضائية وكل ما استطاع التفكير فيه ، فقد كان يعاني بعد تلك الليلة من آثار الشراب على نحو هائل وأحس بدافع لتخفيفها بواسطة الكلام .

وحين أحضروا شفيك أخيراً طلب منه الرائد تفسيراً عما حدث بالقرب من « فلشتين » والحقائق المتعلقة بالبزة الروسية .

وقد شرح شفيك هذا وعزّزه ببعض الأمثلة من تاريخه الخاص بالمعاناة الانسانية . وحين سأله الرائد لاحقاً عن السبب في عدم الادلاء بهذا خلال استجوابه أمام المحكمة ، أجاب شفيك بأنه لم يحدث أن سأله أي شخص عن كيفية ارتدائه للبزة الروسية وأن كل الاسئلة كانت كما يلي : « هل تقر بأنك ارتديت طوعاً ودون أي ضغط بزة الأعداء ؟ » وبما أن هذا كان صحيحاً فهو لم يجب سوى بما يلي : « طبعاً ، نعم ، بالتأكيد ، كان الأمر على هذا الحال ، دون شك » . ولذا ، فانه رفض بكل سخط التهم التي وجهت اليه في المحكمة والتي مفادها أنه قد خان صاحب الجلالة الامبراطورية .

قال الجنرال للرائد :

— هذا الشخص مغفّل تماماً . لا يمكن سوى لأحمق لعين كهذا أن يرتدي بزة روسية تركت على سد بحيرة من قبل شخص لا يعلم من هو سوى الله ثم يساق مع مجموعة من الأسرى الروس .

قال شفيك :

– أبلغكم بتواضع يا سيدي أنكم على حق . ألاحظ فعلاً أني أتصرف أحياناً على نحو يدل على العته ، خاصة مع حلول المساء حين . . .

قال الرائد لشفيك :

– اخرس أيها الثور .

ثم التفت إلى الجنرال وسأله عما سيفعل به.

قال الجنرال :

– فليشنقه لواؤه .

بعد ساعة أخذ الحرس شفيك إلى المحطة وذلك حتى يتم ارساله إلى أركا ن اللواء في « فوياليتشه» .

هذا وقد خلف شفيك وراءه في السجن ذكرى صغيرة فقد حفر على الجدار بقطعة من الخشب لائحة على ثلاثة أعمدة تتضمن كل أنواع الحساء والمرق والأطباق الرئيسية التي تناولها في الحياة المدنية . وكان ذلك نوعاً من الاحتجاج ضد حقيقة أنهم لم يقدموا له ما يأكله طوال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة .

هذا وقد رافقت شفيك الوثيقة التالية إلى قيادة اللواء :

«وفقاً للتعليمات الواردة في البرقية رقم ٤٦٩ ، فان جندي المشاة يوسيف شفيك ، وهو فار من السرية الحادية عشرة المتقدمة ، قد أرسل إلى أركان اللواء للقيام بالاجراءات اللازمة . »

وكان الحرس المرافق المؤلف من أربعة جنود كانوا مزيجاً من الجنسيات.

فقد كان منهم البولوني والهنغاري والألماني والتشيكي . وكان الأخير وهو برتبة عريف قائداً للحرس ، وقد حاول أن يستعرض أهميته أمام السجين الذي كان من مواطنيه بأن جعله يشعر بتفوقه المخيف عليه . فحين عبر شفيك مثلاً عن الرغبة في أن يبول وهم في المحطة ، كان العريف يقول له بكل صلافة بأنه يستطيع ذلك حين يصل إلى قيادة اللواء .

قال شفيك :

— حسناً جداً . عليك أن تدون هذا لي خطياً ، حتى اذا ما انفجرت مثانتي سيكون ممكناً معرفة المسؤول . هناك قانون يتعلق بهذا الأمر أيها العريف .

وقد خاف العريف ، وكان في الأصل راعي بقر بسيطاً ، من كلمة مثانة ، وهكذا قاد الحرس شفيك على نحو احتفالي نحو دورة المياه في المحطة . وخلال الرحلة كلها كان العريف يعطي انطباعاً بأنه شخص قاس وكان يبدو عليه الغرور إلى حد أن المرء كان سيظن أنه سيحصل على رتبة قائد فيلق على الأقل في اليوم التالي .

وبينما كانوا يجلسون في القطار على خط برزيميسل — كيروف ، قال شفيك له :

— أيها العريف ، كلما نظرت اليك تذكّرت باستمرار عريفاً اسمه «بوزيا» كان يؤدّي الخدمة العسكرية في « ترينتو » . ففي أول يوم تم ترفيعه فيه إلى رتبة عريف بدأ حجمه ينمو . في البداية انتفخت وجنتاه ثم تورم بطنه بحيث أن بنطاله الذي من ممتلكات التاج لم يعد يتسع له . ولكن كان أسوأ ما في الأمر أن أذنيه بدأتا تطولان . وهكذا

أرسل إلى العيادة وفحصه طبيب الفوج وأفاد أن هذا هو ما يحدث عادة للعرفاء . ففي البداية ينتفخون ، ولدى بعض العرفاء تمر هذه المرحلة بسرعة ، ولكن هذه الحالة بالذات كانت خطيرة حتّى أن الرجل كاد ينفجر ، فالتورم ينتشر من نجمته وحتّى سرته . ولانقاذه يتوجب نزع نجمته وعندها يعود إلى حجمه الطبيعي مرة أخرى .

ومنذ تلك اللحظة حاول شفيك عبثاً أن يقيم حواراً مع العريف وراح يشرح له بطريقة ودية لماذا يشاع أن العريف مصيبة لسريته .

لم يجب العريف اطلاقاً بل راح يطلق التهديدات الغامضة حول من سيضحك أخيراً لدى وصولهما إلى اللواء . وباختصار فان مواطن شفيك لم يثبت أنه من طينة طيبة ، وحين سأله شفيك عن المنطقة التي ينتمي اليها أجاب بأن هذا ليس من شأنه .

جرب شفيك كل الوسائل معه . وقال له ان هذه ليست هي المرة الأولى التي يقاد فيها مخفوراً وانه يستمتع دائماً بوقته مع كل من يرافقونه في مثل هذه المناسبات

بقي العريف صامتاً ولكن شفيك استأنف قائلاً :

— حسناً ، والآن ، اعتقد أيها العريف أن كارثة ما في هذا العالم قد حلّت بك فأفقدتك القدرة على النطق . لقد عرفت الكثير من العرفاء العابسين ولكني لم أر أبداً مصيبة لعينة مثلك أيها العريف ، أرجو أن تعذرني ولا تغضب مني لأني أقول ما أقول ، ولكني لم أر مثلك بعد . قل لي بصراحة ما الذي يزعجك فربما أستطيع اسداء النصيحة اليك لأن الجندي المخفور يكون دائماً أكثر خبرة ممن يخفرونه . أو هل تعرف ما أود أن أسألك إياه أيها العريف ؟ مارأيك لو تقص علينا حكاية حتّى

تمر الرحلة على نحو ألطف ؟ هل تستطيع أن تحكي لنا عن تلك البعقة التي جئت منها ، هل فيها بحيرات أو آثار قلعة قديمة ؟ أو مارأيك أن تحكي لنا أسطورة عنها .

صاح العريف :

– لقد نلت كفايتي من هذا كله .

قال شفيك :

– أنت إذاً شخص سعيد . كثيرون من الناس لا ينالون كفايتهم أبداً .

ثم لف العريف نفسه بصمت كامل بعد أن قال كلمته الأخيرة :

– في اللواء سيشرحون الأمر كله لك ولن أزعج نفسي بأمرك بعد ذلك .

كان جو الحرس المرافق خالياً من المرح ، فقد كان الهنغاري يحادث الألماني بأسلوب عجيب ، فهو لم يكن يعرف من الألمانية سوى عبارتين : «نعم » و «ماذا » . وحين كان الألماني يشرح له شيئاً ما ، كان الهنغاري يومىء برأسه ويقول : « نعم » . وحين يتوقف الألماني عن الكلام يقول الهنغاري : « ماذا ؟ » فيبدأ الألماني بالكلام مرة أخرى . أما البولوني فكان يتصرف كأرستقراطي : حيث لم يكن يكترث بأحد بل راح يسلي نفسه بنفسه عن طريق النفّ على الأرض مستعملاً لهذا الغرض وبكل مهارة أصابع يده اليمنى . وبعد ذلك كان يمسح عقب بندقيته بيده ثم يفرك بأسلوب مهذب جداً عقب بندقيته المتسخ على بنطاله ، وهو يهمهم طوال الوقت : « ياأم الله المقدّسة ».

قال له شفيك :

— لست ماهراً جداً في عملك هذا ، ففي « نابوييتشي » كان يعيش في أحد الأقبية ماسح ممّرات يسمّى « ماخاتشيك» . وقد اعتاد هذا أن ينف على الشباك ثم يمسحه على نحو ماهر جداً بحيث يصنع من ذلك صورة لـ « ليبوشه» وهي تتنبّأ بمجد براغ . (١) وكانت زوجته تعطيه لقاء كل صورة كهذه مكافأة شرفية بحيث أن فمه أصبح أشبه بباب مخزن الحبوب . ولكنه ما كان ليرعوي واستمر يمارس هذه الهواية ليزيد في اتقانه اياها . كانت تلك هي متعته الوحيدة .

لم يجب البولوني. كما أن الحرس كلهم صمتوا في النهاية كأنهم في جنازة وقد غرقوا في تأملات دينية تتعلق بالمرحوم الفقيد .

وبمثل هذه الحالة من الوجوم وصلوا إلى قيادة اللواء في « فوياليتشه».

في هذه الأثناء كانت قد طرأت تغييرات هائلة على قيادة اللواء ، فقد أصبح العقيد « غيربيش » هو القائد الجديد للواء . وكان هذا سيداً ذا مواهب عسكرية عظيمة نزلت على عظامه على شكل داء النقرس . ولكن كان له أصدقاء ذوو نفوذ في الوزارة تدبروا له الأمر فلم يحل على التقاعد بل أصبح يستلم مناصب من مختلف قيادات الوحدات العسكرية الكبرى ، ويتلقى رواتب أكبر مع مختلف المكافآت الحربية . وهو يبقى في المنصب الواحد حتّى يصاب بنوبة من النقرس تجعله يرتكب عملاً شديد الحماقة ، وعندها ينقل إلى مكان آخر ودائماً إلى منصب أعلى . على الغداء كان من عادته ألاّ يتحدث إلى الضباط عن أي شيء باستثناء

١ ـ ليبوشه : وهي المتنبئة الاسطورية وكانت اول من حكم التشيكيين ، كما انهـا موضوع الاوبرا التي ألفها « سميتانا » بهذا الاسم نفسه . (س.ب)

أصبع قدمه المتورم والذي كان يتورم أحياناً إلى حد هائل يجعله يرتدي جزمة كبيرة خاصة .

وأثناء وجبات الطعام كان يحلو له دائماً أن يحكي للجميع كيف ينزّ اصبع قدمه ويتعرّق باستمرار ، بحيث أنه يبقيه دائماً ملفوفاً بالقطن ، وأن هذه الافرازات كانت لها رائحة حساء ذيل الثور الفاسد .

ولهذا السبب كان كلما نقل إلى مكان جديد يودعه الضباط بكل حرارة . وفيما عدا ذلك كان هذا العقيد شخصاً شديد المرح ، ويتصرّف مع الضباط الأقل رتبة بكل ود ، ويحكي لهم عن أطايب الطعام والشراب التي كان يتناولها قبل اصابته بالنقرس .

وحين جلبوا شفيك إلى قيادة اللواء ، وأخذوه وفقاً لأوامر الضابط المناوب مع الوثائق المطلوبة إلى العقيد غيبريش ، كان الملازم الأول دوب جالساً في المكتب هناك .

خلال الأيام القليلة الماضية التي انقضت على المسيرة من سانوك إلى سامبور ، كان الملازم الأول دوب قد مرّ بمغامرة أخرى جديدة . فبعد فلشتين التقت السرية الحادية عشرة المتقدمة بقافلة من الجياد كانت تقاد إلى فوج الفرسان في « سادوفا فيشينا » .

حتى الملازم الأول نفسه لا يعرف كيف حدث أنه أراد أن يستعرض مهارته في الفروسية أمام الملازم لوكاش ، فقفز إلى ظهر أحد الجياد الذي اختفى به في وادي أحد الأنهار الصغيرة ، حيث وجدوه لاحقاً مزروعاً بقوة في أحد المستنقعات الصغيرة وعلى نحو ما كان ليقدر عليه حتى أمهر بستاني . وحين سحبوه من المستنقع بواسطة الحبال لم يتذمر

الملازم الأول دوب اطلاقاً ، بل راح يئن بصوت خفيض كأن ساعته قد أزفت . وحين مروا بقيادة اللواء أخذوه إلى هناك ووضعوه في مستشفى عسكري صغير .

بعد أيام قليلة استعاد صحته بحيث أن الطبيب قال إنهم سيدهنون له ظهره وبطنه ثلاث مرات أخرى بصبغة اليود وبعد ذلك يمكنه العودة إلى وحدته .

وهاهو جالس الآن في مكتب العقيد غيبريش ويثرثر معه حول مختلف الأمراض والعلل .

وحين رأى شفيك صاح بصوت مرتفع ، لأنه كان يدري بأمر اختفائه الغامض على الطريق نحو فلشتين ، وهو يقول :

ــ اذنفها أنت قد عدت من جديد ! الكثيرون يرحلون كوحوش ويعودون وحوشاً أكبر بكثير . وأنت واحد من هؤلاء على ما أعتقد.

وحتى تكتمل الأمور سيكون من المناسب أن نضيف أن الملازم الأول دوب ، ونتيجة لمغامراته على ظهر الجواد ، أضحى يعاني من ارتجاج خفيف في الدماغ ، ولذا لا يجب أن نستغرب اذا ماعرفنا أنّه حين اقترب من شفيك فقد دعا إلى الرب أن يكافح شفيك وصاح به شعرا :

«يا أبي انظر ، أرجوك . المدافع تدخن وتدوي . والرصاص يئزّ وهو يمر بي أزيزاً رهيباً . يا رب المعارك ، ياأبي ، ساعدني على هذا الوغد ! . . . أين كنت طوال هذا الوقت أيها النغل ؟ وما هذه البزة التي ترتديها ؟ »

ولابد من أن نسجل هنا أن العقيد المصاب بالنقرس كان يدير كل الأمور بديمقراطية في مكتبه ، هذا ، اذا كان لا يعاني من نوبة من نوبات النقرس . كان الضباط وضباط الصف من كل الرتب يأتون لزيارته والاستماع إلى آرائه حول اصبع قدمه المتورم و « نكهته » الأشبه بنكهة حساء ذيل الثور الفاسد .

خلال الفترات التي لم يكن فيها العقيد غيبريش يعاني من نوبات النقرس كان مكتبه مليئاً على الدوام بمختلف الرتب ، لأنه يكون في مثل هذه الظروف الاستثنائية شديدة الثرثرة والمرح وسعيداً بوجود من يستمع اليه ومن يستطيع أن يحكي له نكات بذيئة . كان هذا كله يمنحه إحساساً بالسعادة ويمنح الآخرين احساساً بالرضى لأنهم مضطرون للضحك على نكاته القديمة التي كانت شائعة منذ أيام الجنرال « لاودون » (١). كان من المريح جداً أن يكون المرء تحت إمرة العقيد غيبريش حين يكون في مثل هذه الحالة ، فالجميع يفعلون ما يريدونه ، وكلما زار العقيد أية قيادة كان الجميع يعرفون أنهم سيعبثون ويلهون كما يحلو لهم :

لذا كان في مكتب العقيد الآن ، بالإضافة إلى شفيك الذي أحضر اليه ، جمهرة من الضباط من مختلف الرتب والذين كانوا ينتظرون ليروا ، بينما راح العقيد يتفحص الأوراق الموجهة إلى قيادة اللواء والتي ألفها الرائد في برزيميسل .

ولكن الملازم الأول دوب استأنف حواره مع شفيك بأسلوبه الفاتن المعتاد :

---

١ ـ وهو الجنرال النمساوي الشهير في القرن الثامن عشر والذي هزم فريدريك الاكبر فاصبح موضوعا للكثير من الأناشيد العسكرية . (س.ب)

– أنت لا تعرفني بعد، ولكنك حين تعرفني ستموت من الرعب.

ذهل العقيد تماماً حين قرأ الوثيقة التي كتبها الرائد في برويميسل لأن هذا كان قد أملاها وهو لا يزال تحت تأثير التسمم الكحولي الخفيف.

كان العقيد غيبريش في مزاج جيد على أية حال ، لأن آلامه المزعجة كانت قد خفّت البارحةواليوم وأصبح اصبع قدمه هادئاً كالحمل.

سأل شفيك بلهجة ودّية إلى حد أن ذلك كان أشبه بطعنة خنجر دخلت إلى قلب الملازم الأول دوب فجعله يجيب عن شفيك .

كان سؤال العقيد هو :

– حسناً ما الذي فعلته بالضبط ؟

فقال الملازم الأول دوب نيابه عن شفيك :

– هذا الرجل يا سيدي يتظاهر بالغباء وذلك حتى يخفي نذالته تحت قناع من الحماقة . لا أعرف محتويات تلك الوثيقة التي أرسلت معه ، ولكنني أفترض على أية حال أن هذا الوغد قد ارتكب مرة أخرى جريمة ما إنما على مستوى أكبر من السابق . اذا سمحت لي يا سيدي بالاطلاع على محتويات الوثيقة فسيمكنني بكل تأكيد أن أعطيك بعض المؤشرات حول الطريقة التي يتوجب معالجة الموضوع بها .

ثم التفت نحو شفيك وقال له بالتشيكية :

– أنت تمصّ دمي ، أليس كذلك ! ؟

أكد له شفيك بكل وقار :

– نعم يا سيدي .

استأنف الملازم الأول دوب بالألمانية الآن :

ـ إذنفأنت ترى من أي‌نوع هو يا سيدي.لا يمكنك أن تسأله أي سؤال . لا يمكنك أن تحادثه اطلاقاً . لابد أن يضرب المنجل الحجر في يوم من الأيام وسيعاقب بطريقة تكون فيها العبرة لغيره . اسمح لي يا سيدي . . .

استغرق الملازم الأول دوب في قراءة الوثيقة التي ألّفها الرائد في برزيميسل وحين أنهى قراءتها صاح بانتصار :

ـ الآن « آمين » عليك ياشفيك . ما الذي فعلته ببزتك التي هي من أملاك التاج ؟

ـ لقد تركتها على سدّ البحيرة حين كنت أجرب ارتداء هذه الأسمال لأرى كيف يشعر الجندي الروسي وهو يرتديها . الأمر مجرد سوء تفاهم ليس إلاّ .

ثم بدأ شفيك يروي للملازم الأول دوب كل المشاكل التي لحقت به بسبب سوء التفاهم هذا، وحين أنهى كلامه هدر الملازم الأول دوب به قائلاً :

ـ الآن فحسب ستعرفني حقاً. هل تعرف ما الذي تعنيه خسارتك لأحد ممتلكات التاج أيها الوغد ، ما معنى أن تفقد بزتك العسكرية في وقت الحرب ؟

أجاب شفيك :

ـ أبلغكم بتواضع يا سيدي أنه حين يفقد بزته فانه يستلم واحدة أخرى بدلاً عنها .

صاح الملازم الأول دوب :

– يا للمسيح ومريم ، أنت أيها الكلب ، أيها السحليّة ، إلى متى ستلعب دور الغبي معي ؟ هل تريد أن تقبع في السجن مئة عام أخرى بعد الحرب ؟

وفجأة كشّر العقيد غيبريش الذي كان لا يزال حتى هذه اللحظة جالساً بهدوء واستكانة إلى مكتبه ، كشّر فجأة بطريقة مرعبة ، لأن اضبعه الذي كان حتى ذلك الوقت شديد الهدوء ، قد تحول فجأة بنوبة .ن نوبات النقرس من حمل وديع إلى نمر هائج ، إلى تيّار كهربائي قدرته ستئمة فولت ، إلى عضو ينهرس ببطء تحت مطرقة متحولاً إلى كُسارة . وقد لوّح بيده فحسب ثم زمجر بصوت مخيف ، بصوت رجل يُشوى على سفود :

– اخرجوا جميعاً ! اعطوني مسدساً !

وقد ميّز الجميع فوراً الأعراض وهكذا اندفعوا خارجين بمن فيهم شفيك الذي أخرجه الحرس إلى الممر . لم يبق في الداخل سوى الملازم الأول دوب . وقد بدت له هذه اللحظة مناسبة تماماً لتصفية حساباته مع شفيك ولذا قال للعقيد المكشّر :

– اسمح لي أن أقول لك يا سيدي أن هذا الرجل . . .

ماءَ العقيدُ ثم رماه بدواة ، فما كان من الملازم الأول دوب الذي أصيب بالفزع سوى أن ضرب التحية وقال :

– طبعاً يا سيدي .

ثم اختفى عبر الباب .

بعد ذلك دوى العواء والزمجرة من مكتب العقيد ولفترة طويلة حتى توقفت أخيراً العويل الموجع . لقد عاد اصبع قدم العقيد وتحول من جديد إلى حمل وديع . كانت نوبة النقرس قد انتهت . قرع العقيد الجرس وطلب احضار شفيك أمامه .

سأل العقيد شفيك وكأن حملاً سقط عن ظهره :

ـ حسناً ، ما حكايتك ؟

كان قد أصبح الآن حراً وسعيداً وكأنه يتقلب على الرمل على شاطىء البحر . ابتسم شفيك بود للعقيد وروى له « أوذيسته» كلها ، كيف كان جندي ارتباط السرية الحادية عشرة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين وكيف لم يكن يعتقد بامكانية قدرتهم على الاستمرار بدونه.

ابتسم العقيد ثم أصدر الأوامر التالية :

ـ عبئوا لشفيك رخصة قطار من «لفوف » إلى « زولتانسه » حيث من المتوقع أن تصل سريته المتقدمة غداً إلى هناك ، وسلموه بزة جديدة من المستودع وستة كراونات و (٨٢) هلرا لقاء الطعام على الطريق .

وحين غادر شفيك قيادة اللواء لاحقاً وهو يرتدي بزة عسكرية نمساوية جديدة ليذهب إلى المحطة ، كان الملازم الأول دوب يتسكع في مقر رئاسة أركان اللواء ولم يدهش أبداً حين تقدم منه شفيك بطريقة عسكرية تماماً وقدم له وثائقه وسأله بتوق ان كان يريد منه أن يحمل أية رسالة إلى الملازم الأول لوكاش .

لم يستطع الملازم الأول دوب أن يتلفظ بأية كلمة سوى : «انصراف ! » وحين تابع بعينيه شفيك وهو يبتعد عنه همهم بصوت خفيض : « ستعرفني دون شك ، يا للمسيح ومريم ، ستعرفني حتماً . . . »

في محطة زولتانسه . تجمعت كتيبة النقيب ساغنر كلها باستثناء حرس مؤخرة السرية الرابعة عشرة الذين ضاعوا في مكان ما حين التفّوا من حول « لفوف » .

حين وصل إلى البلدة الريفية الصغيرة وجد شفيك نفسه في بيئة مختلفة تماماً لأنه كان ممكناً من الهرج والمرج السائدين فيها ملاحظة أنها لم تكن بعيدة جداً عن الجبهة حيث يذبح الناس بعضهم البعض . كانت المدفعية وقوافل التموين قد عسكرت في كل مكان ، وكان الجنود من أفواج مختلفة يخرجون من كل منزل . وكنخبة من بين هؤلاء جميعاً كان ألمان الرايخ يتجولون في أنحاء البلدة ويهبون النمساويين ، بكل أرستقراطية ، لفافات التبغ من مؤونتهم الوافرة . وفي المطابخ الميدانية الخاصة بألمان الرايخ والواقفة في الساحة كانت هناك براميل كاملةمن الجعة يسكب منها الألمان لجنودهم الذين راحوا يستلمون حصصهم من هذه المادة لأجل وجبتي الغداء والعشاء . أما الجنود النمساويون المهملون المنتفخة بطونهم من الوجبات التي هي عبارة عن خليط قذر من الهندباء البرية الحلوة فكانوا يتحلّقون من حولهم كالقطط النهمة .

كانت مجموعات من اليهود بضفائر مهدلة وقفطانات طويلة يشيرون إلى سحب الدخان في الغرب ويومئون بأيديهم . وفي كل مكان كان هناك صراخ بأنه على امتداد نهر « البوغ » كانت قرى «أوتبسيشكوف» و«بوسلك» و« دير يفياني » تحترق .

كان ممكناً سماع هدير المدافع بوضوح . وكان هناك صياح بأن الروس يقومون بقصف « كاميونكا ستروميموفا » من « غرابوف »، وأن القتال كان يدور على امتداد نهر « البوغ » كله وأن الجنود كانوا

يمنعون اللاجئين الذين يرغبون بالعودة إلى بيوتهم عبر نهر « البوغ » من عبور النهر .

كان الاضطراب والفوضى يعمان البلدة ولم يكن هناك من يعرف بالتأكيد ان كان الروس قد شرعوا بشن هجوم جديد وأوقفوا تراجعهم المتواصل على امتداد الجبهة كلها .

في كل لحظة كانت دوريات درك الجبهة تجلب إلى مقر القيادة الرئيسي في البلدة روحاً يهودية خائفة متهمة بنشر أخبار كاذبة ومزيفة. وهناك كانوا يضربون هؤلاء اليهود البائسين حتى يغطي الدم أجسادهم ثم يطلقون سراحهم فيعودون إلى بيوتهم بمؤخرات مهترئة.

وصل شفيك إلى هذه البلدة الريفية ضمن هذه الفوضى وبدأ يبحث عن سريته. كان قد أوشك على التشاجر مع قائد حرس العبور في المحطة. وحين جاء إلى الطاولة حيث تقدم المعلومات الجنود الباحثين عن وحداتهم، صاح به أحد العرفاء من الطاولة قائلاً : « ألا تريدني أن أذهب وأفتش لك عن وحدتك بنفسي ؟ » فقال له شفيك إنه يريد فقط أن يعرف مكان مبيت السرية الحادية عشرة المتقدمة من الفوج الواحد والتسعين ، وأكد شفيك على أنه جندي ارتباطها .

ولسوء حظه كان هناك على الطاولة المجاورة ضابط صف برتبة مساعد ، وقد قفز هذا كالنمر وصرخ في شفيك :

– أيها الخنزير اللعين ، أنت جندي ارتباط ولا تعرف موقع سريتك المتقدمة ؟

وقبل أن يستطيع شفيك الاجابة ، كان قد اختفى في المكتب وخرج

بعد لحظة ومعه ملازم أول بدين كانت تبدو عليه وجاهه تليق بصاحب معمل مقانق ..

كانت قيادات العبور أشبه بمكان لجمع الجنود المتشردين الذين يمكن أن يقضوا فترة الحرب كلها وهم يبحثون عن وحداتهم وينتقلون من قيادة عبوز إلى أخرى . وكانوا سيفضلون الانتظار ضمن تلك الصفوف الطويلة الواقفة أمام تلك الطاولات في قيادات العبور التي كانت قد علقت عليها لوحة تقول : « دفع تعويضات الإطعام » .

وحين دخل الملازم الأول صاح المساعد : « انتباه ! » فسأل الملازم الأول شفيك :

– أين هي أوراقك ؟

وحين أراه شفيك الأوراق واقتنع الملازم الأول بصحة الطريق التي اتبعها شفيك من قيادة لوائه إلى سريته في زولتانتسه، أعادها إلى شفيك وقال بلهجة المتفضل للعريف الجالس إلى الطاولة .

– أعطه المعلومات التي يريدها .

ثم أغلق على نفسه باب المكتب المجاور مرة أخرى .

بعد اغلاق الباب أمسك المساعد بشفيك من كتفه وقاده نحو الباب وأعطاه المعلومات التالية :

– أغرب عن وجهي أيها النغل العفن !

وهكذا وجد شفيك نفسه مرة أخرى في خضم تلك الفوضى وبدا يبحث عن شخص من الكتيبة يعرفه . وقد سار لفترة طويلة في الشوارع حتى اضطر في النهاية إلى المراهنة على ورقة واحدة .

أوقف عقيداً وسأله بألمانيته « المكسّرة » ان كان يعرف أين تبيت كتيبته وسريته .

قال العقيد :

— يمكنك أن تخاطبني بالتشيكية فأنا تشيكي أيضاً . ان كتيبتك تبيت إلى القرب من هنا في قرية « كليمونتوف » خلف السكة الحديدية . وهي غير مسموح لها بالنزول إلى البلدة لأن شخصاً من إحدى سراياكم تقاتل مع البافاريين في ساحة البلدة يوم وصول الكتيبة بالذات .

وهكذا انطلق شفيك نحو كليمونتوف .

وقد نادى عليه العقيد ثم دس يده في جيبه وأعطاه خمسة كراونات ليشتري بها لفافات تبغ . ثم ودّعه على نحو ودي وابتعد عنه وهو يقول في نفسه : « ياله من شاب لطيف » .

استمر شفيك في رحلته نحو القرية ، وبينما راح يفكّر في العقيد استنتج أنه منذ اثنتي عشرة سنة عرف في « ترينتو » عقيداً اسمه «هابرماير» وكان ذا سلوك لطيف مشابه مع الجنود ، ولكن تبيّن لاحقاً أنه كان مصاباً بالشذوذ الجنسي ، لأنه حاول في الحمامات القريبة من نهر «أديجه» أن يغتصب طالباً ضابطاً قيد الاختبار مستعملاً « أنظمة الخدمة » كنوع من الابتزاز .

سار شفيك ببطء وقد غرق في تلك الأفكار الكئيبة حتى وصل إلى القرية المجاورة ووجد بسهولة قيادة كتيبته لأنه رغم أن القرية كانت واسعة جداً ، فلم يكن فيها سوى مبنى واحد لائق ، ألا وهو مبنى المدرسة الكبير والذي كانت الادارة المحلية الغاليسية قد بنته في هذه المنطقة

الأوكرانية الصرفة كجزء من حملة واسعة لجعل المجموعة السكانية أكثر بولونية .

كانت المدرسة قد مرت بعدة مراحل خلال الحرب ، فقد كان عدد مختلف من القيادات الروسية والنمساوية قد نزل فيها ، كما تحولت هذه المدرسة السابقة إلى مستشفى للعمليات الجراحية حين كانت تجري تلك المعارك الكبرى التي قررت مصير « لفوف » ، أي كانوا يقطعون فيها السيقان والأذرعة ويثقبون الأدمغة هناك .

خلف مبنى المدرسة في الحديقة كانت هناك حفرة هائلة قمعية الشكل سببها انفجار قذيفة ذات عيار ثقيل . وفي زاوية الحديقة كانت تنتصب شجرة أجاص ضخمة جداً يتدلى منها حبل مقطوع . فمنذ فترة ليست بالبعيدة شُنق هنا قس القرية ، وهو من طائفة الروم الكاثوليك بسبب اتهام مدير المدرسة البولونية له بأنه عضو في مجموعة « الروس القدماء» وأنه أقام خلال الاحتلال الروسي قداساً في الكنيسة احتفالاً بانتصار جيوش القيصر الروسي الأرثوذكسي . ولم يكن ذلك صحيحاً في الواقع لأن المتهم لم يكن في القرية في ذلك الحين ، بل كان يُعالج من حصى المرارة في منتجع « بوخينا زامورووفانا » الصغير للمياه المعدنية والذي لم تكن الحرب قد مسّته بسوء .

لقد لعبت عناصر مختلفة دورها في شنق قسّ الروم الكاثوليك : الروح القومية والنزاع الديني ودجاجة واحدة . فقبل الحرب بفترة قصيرة كان القس التعيش الحظ قد قتل في حديقته إحدى دجاجات مدير المدرسة حين راحت تنقر بذور البطيخ التي كان قد بذرها للتو .

وبعد موته بقي مقرّ القس فارغاً ويقال ان كل فرد من سكان القرية أخذ منه شيئاً للذكرى .

بل أن أحد الفلاحين البولونيين قد أخذ إلى بيته البيانو العتيق واستعمل اللوحَ العلوي منه لاصلاح باب حظيرة خنازيره . كما قام الجنود بتحطيب بعض أثاثه كما كانت العادة ، وكان من حسن الحظ أن الموقد في المطبخ لم يكن مخرباً . كان الموقد كبيراً وله طبّاخ ممتاز ، لأن قس الروم الكاثوليك ذاك لم يكن مختلفاً عن زملائه الكاثوليك في استمتاعه بأطايب الطعام . وهكذا فقد كان يحب وضع الكثير من الأواني والمقالي على الطبّاخ وداخل الموقد .

وهكذا أصبح تقليداً أن تستعمل كل وحدات الجيش التي مرت في تلك القرية هذا المطبخ لطبخ وجبات ضباطها . أما في الطابق العلوي ، وكان عبارة عن غرفة كبيرة واحدة فقد تحوّل إلى نادٍ للضباط . وكانت المناضد والكراسي قد جمعت لهذا الغرض من بيوت القرية .

في ذلك اليوم بالذات كان ضباط الكتيبة يقيمون وليمة . فقد تعاونوا على شراء خنزير وهاهو يورايدا يجهّز لهم وليمة من لحم الخنزير وقد أحاط به مختلف المتسكّعين ممن يعملون في خدمة الضباط ،وعلى رأسهم رقيب أول الامدادات . وقد نصح هذا يورايدا مشيراً إلى طريقة تقطيع لحم الرأس بحيث تبقى له قطعة من الخطم .

أما أكثر العيون جحوظاً فكانتا عيني بالون الذي لا يشبع .

كانت تبدو عليه سيماء الشهوة والتوق التي تبدو على آكلي لحم البشر دون ريب وهم يراقبون مبشّراً وهو يشوى والدهن يجري منه وينشر عبقاً لذيذاً حين يُقلى على النار . كان إحساس بالون أشبه باحساس الكلب الذي يجرّ عربة الحليب حين يمر غلام من دكان المأكولات الشهية يحمل على رأسه سلّة فيها قطع من اللحم مدخّنة حديثاً . وهاهو

خيط من المقانق المدخّنة يتدلّى من السلّة على ظهره ويود الكلب لو يقفز ويلتهمها لولا السيور الجلدية الّتي تعيق حركته والكمّامة الكريهة على فمه .

كانت المرحلة الأولى من « البيترنيتسه » هي تحضير لحم المقانق ، وهاهو اللحم قابع على لوح الخبز : كتلة ضخمة من اللحم تفوح منها رائحة الفلفل والدهن والكبد .

هذا وقد بدا يورايدا بكميه المرفوعين رزيناً إلى حد أنه كان يصلح كموديل للوحة تمثل عملية خلق الله للعالم من الهيولى الأولى .

لم يستطع بالون مغالبة نفسه فبدأ يبكي . ثم تحوّل بكاؤه إلى عويل تمطع نياط القلب .

سأله يورايدا :

ـــ ما الذي يجعلك تخور كالثور ؟

أجاب بالون وهو يبكي :

ـــ هذا يذكّرني ببيتي . كم مرة كنت في مثل هذا الوضع في بيتي ولم أفكر في ارسال سلّة من الطعام حتّى إلى أفضل جيراني . لقد رغبت دائماً في التهام كل شيء لوحدي ؛ وهذا ما كنت أفعله . ومرة ملأت بطني كثيراً بالبيترنيتسه ومقانق الدم ورأس الخنزير و « مقادمه » بحيث ظنّ الجميع أني سأنفجر ، وقد جعلوني أعدو في أنحاء فناء الدار والسوط يفرقع ورائي وذلك كما يفعلون بالبقرة بعد أكلها للبرسيم . يا سيد يورايدا ، أرجو أن تسمح لي بأن أغرف قليلاً من لحم المقانق هذا ، وبعد ذلك لا يهمّني حتّى لو أوثقوني بالحبال وإلاّ لن أستطيع تحمّل هذه المعاناة .

نهض بالون من على المقعد وتحرك نحو الطاولة وهو يترنّح كالسكران . ثم مدّ يده باتجاه كومة اللحم .

ثم حصل عراك شديد . ولم يستطع كل الحاضرين إلاّ بجهد جهيد أن يمنعوه من إلقاء نفسه على لحم المقانق . ومع ذلك ، وبينما كانوا يجرّونه إلى خارج المطبخ لم يستطيعوا التحكّم به تماماً ، فكان أن انتزع شيئاً من الإناء الذي وضعت فيه المصارين المعدّة لملئها بلحم المقانق وذلك خلال محاولته اليائسة للحصول على ما يريد .

كان يورايدا غاضباً إلى حد أنه ألقى بكامل رزمة عصي المقانق باتجاه بالون الهارب وصاح :

— اذهب واحش بطنك بعصي المقانق حتّى تنفجر أيها النغل .

خلال ذلك الوقت كان ضباط الكتيبة قد سبق لهم وتجمعوا في الطابق العلوي وراحوا ينتظرون بوقار الأعجوبة التي كانت قيد الولادة في المطبخ . وفي هذه الأثناء ، وبسبب الافتقار إلى المشروبات الكحولية فقد كانوا يشربون نوعاً من المشروب الروحي الخام المصنوع من القمح والذي أعطي اللون الأصفر باضافة عصير قشر البصل اليه ، وكان التاجر اليهودي قد ادّعى أنه ألذّ كونياك فرنسي أصيل ورثه عن أبيه ، الذي ورثه بدوره عن جده .

قال النقيب ساغنر :

— أيها النغل ، اذا تابعت القول بأن أبا جدّك قد اشتراه من الفرنسيين خلال تراجعهم من موسكو ، فسوف أزج بك في السجن حتّى يصبح أصغر أفراد عائلتك كبيرهم .

وبينما راحوا يشتمون التاجر اليهودي بعد كل رشفة يرتشفونها ، كان شفيك قد سبق له وجلس في ديوان الكتيبة ، حيث لم يكن هناك من أحد سوى ماريك الذي كان يستغل هذه الإقامة في زولتانتسه ليكتب مجموعة من حكايات المعارك المنتصرة التي ستجري في المستقبل دون شك .

في هذه الأثناء كان يدوّن بعض الملاحظات الأولية وحين دخل شفيك كان قد كتب للتو ما يلي : « اذا كنا نستطيع بذهننا أن نتخيّل هؤلاء الأبطال الذين ساهموا في المعارك في قرية « ن » ، حيث كانت تحارب إلى جانب كتيبتنا كتيبة من الفوج « ن » وكتيبة أخرى من الفوج « ن »، فسنجد أن كتيبتنا « النونيّة » قد أظهرت قدرات استراتيجية لامعة وساهمت على نحو لا ينكر في انتصار الفرقة «النونيّة». وكان الغرض من ذلك كله تعزيز موقعنا في القطاع « ن » على نحو نهائي .

قال شفيك للمتطوع :

— لقد عدت مرة أخرى كما ترى .

قال ماريك وقد تأثر إلى حد كبير :

— اسمح لي أن أتشممك . هم ! لاشك أن رائحتك عفنة بسبب وجودك في الزنزانة ».

قال شفيك :

— كالعادة ، لم تكن سوى مسألة سوء تفاهم بسيط . وما الذي تفعله أنت ؟

أجاب ماريك :

— كما ترى ، فاني أقوم برماية تقريبية على المدافعين الأبطال عن النمسا ، ولكن الأمور لا تسير سيراً حسناً والنتيجة هي هذر محض . أنا أؤكد هنا على الحرف « ن » الذي اكتسب كمالاً استثنائياً في الحاضر والمستقبل واضافة إلى مواهبي السابقة فان النقيب ساغنر قد اكتشف لديّ موهبة كبيرة في الرياضيات . ان عليّ الآن مراقبة حسابات الكتيبة ووصلت إلى نتيجة مفادها أن الكتيبة مدينة وهي لا تفعل شيئاً عدا انتظار ذلك الوقت الذي تستطيع فيه الوصول إلى حل مع دائنيها الروس لأن معظم السرقة تحدث بعد هزيمة أو نصر . وعلى أية حال ، فانه لا فرق هناك في الواقع . وحتى لو أبدنا جميعاً فان وثائق نصرنا ستكون باقية هنا ، لأني بوصفي مؤرخاً للكتيبة يشرفني أن أستطيع أن أكتب ما يلي :

« ومن جديد انقلب الحظ على العدو في تلك اللحظة التي كان يظن فيها أن النصر أصبح طوع يديه . ان غارة من قبل جنودنا وهجوماً بالحراب مسألة دقائق . فالعدو سيهرب يائساً ويرمي جنوده بأنفسهم في خنادقهم . ثم نطعنهم بالحراب دون شفقة حتى يتخلّوا عن خنادقهم في حالة من الفوضى مخلفين وراءهم الأسرى من الجرحى والسالمين. كانت تلك واحدة من أمجد اللحظات . » وكل من سيبقى حياً بعد هذا سيكتب رسالة إلى بيته عن طريق البريد الميداني قائلاً : « لقد تلقّوا الضربة في أقفيتهم مباشرة يا زوجتي العزيزة . أنا بخير . هل فَطمْتِ طفلنا الصغير أم ليس بعد ؟ أرجو ألا تعلميه أن ينادي الغرباء بكلمة «بابا» لأن سيكون صعباً علي تحمل ذلك . » وبعد ذلك تقوم الرقابة بشطب عبارة «لقد تلقوا الضربة في أقفيتهم مباشرة» لأنه لا أحد يعرف

من الذي تلقى الضربة ويمكن أن تكون هذه العبارة عرضة للتفسيرات المختلفة بسبب عدم وضوحها .

قال شفيك :

ـ الأمر الوحيد الهام هو التحدث على نحو لا لبس فيه . حين كان المبشّرون في كنيسة القديس اغناطيوس في براغ عام (١٩١٢) ، كان هناك واعظ قال من المنبر انه لن يقابل على الأرجح أي شخص مرة أخرى في الجنة . وكان حاضراً في تلك الصلاة المسائية سمكري اسمه «كوليشيك» ، وقد قال هذا بعد الصلاة في إحدى الحانات ان المبشر كان دون شك مشغول الفكر اذا راح يصرّح في الكنيسة علناً أنه لن يقابل أي شخص في الجنة . لماذا يسمحون لمثل هؤلاء الناس أن يصعدوا إلى المنبر ؟ على الناس أن يتحدثوا دائماً بوضوح وجلاء وليس بالأحاجي. في « أوبربيشكو » كان يعيش منذ سنوات خلت مسؤول عن قبو للخمور ، وحين كان يسكر ويذهب إلى البيت بعد العمل ، كان من عادته أن يتوقف في مقهى ليلي ويشرب الانخاب مع الغرباء . وكان يقول دائماً لدى كل نخب : « نحن سوف . . . عليكم ، وأنتم سوف . . . علينا ... » ، وبسبب ذلك لُكِمَ مرة على فكّه لكمه هائلة من قبل سيد محترم من « بيهلافا » بحيث وجد صاحب المقهى وهو يمسح الأرض أسناناً كثيرة مما جعله ينادى على ابنته التي كانت في الصف الخامس من المدرسة الابتدائية ويسألها عن عدد الأسنان التي تكون عادة في فم الرجل الراشد . ولما لم تستطع اجابته ضربها فأسقط لها سنين من أسنانها ، ووصلته رسالة في اليوم الثالث من مسؤول قبو الخمور اعتذر له فيها عمّا سببه من ازعاج وقال انه لم يكن يريد أن يقول شيئاً منافياً للآداب ولكن الحضور لم يفهموه لأنه أراد أن يقول ما يلي : « نحن سوف

نسلم عليكم ، وأنتم سوف تسلمون علينا . » ان على من يتحدث بغموض أن يفكر جيداً قبل أن يفتح فمه . ان الرجل المستقيم الذي يسمي الأمور بمسمياتها نادراً ما ينال لكمة على الفك . ولكن لو حدث ونال مثل هذه اللكمة مرات عديدة ، فسيتعلم الحذر والسكوت حين يكون في صحبة آخرين . صحيح أن الناس سيظنون أن شخصاً كهذا يخفي حيلة ما ، وانه غالباً ما يُضرب أيضاً ، ولكن تمهله وسيطرته على نفسه تجلب عليه الضرب أيضاً . وعلى أية حال ، فان عليه أن يدرك أنه لوحده وأن هناك الكثيرين ضده اذ يشعرون أنه يتوجب عليه أن ينال الضعفين في المقابل . ان رجلاً كهذا يجب أن يكون متواضعاً وصبوراً . في «نوسله» كان يعيش شخص اسمه السيد «هاوبر » ، وقد طعن مرة في يوم من أيام الأحد وهو في الطريق في « كوندراتيتسه » بسكين خطأ ، وكان يعود من رحلة إلى مطحنة « بارتونييك » . وقد عاد إلى البيت والسكين مغروزة في ظهره ، وحين خلعت عنه زوجته معطفه سحبت السكين من ظهره . وفي عصر ذلك اليوم نفسه كانت تستعملها لتقطيع اللحم للغولاش ، فقد كانت مصنوعة من فولاذ « سولينغن » وذات حد مرهف جميل ، بينما كانت سكاكينهم في المنزل ذات حد كالمنشار ومثلمة . وبعد ذلك أرادت أن يكون لديها مجموعة كاملة من تلك السكاكين في المنزل فظلت ترسله كل يوم أحد في رحلة إلى « كوندراتيتسه » ، ولكنه كان متواضعاً إلى حد أنه لم يكن يبتعد أكثر من مقهى « أوبونزيتو» في « نوسله » حيث كان يعرف أنه خلال جلوسه في المطبخ كان «بانزت » العجوز سيطرده قبل أن يمدّ اليه أحد يده .

قال المتطوع له :

— لم تتغير اطلاقاً .

قال شفيك:

— لم أتغير . لم تتح لي الفرصة لذلك . لقد أرادوا أن يعلموني ، ولكن ذلك لم يكن أسوأ ما في الأمر . فأنا لم أستلم أي راتب منذ الثاني عشر من هذا الشهر .

— ولن تحصل عليه هنا على أية حال ، لأننا ذاهبون إلى «سوكال» وسيتم اصدار الرواتب بعد المعركة فحسب . علينا أن نقتصد . واذا ماانتهى القتال خلال اسبوعين سيكونون قد وفروا ٢٤ كراوناً و٧٢ هلرا عن كل جندي يسقط في المعركة .

— وماهي الأخبار الأخرى هنا ؟

— أولاً ضاع حرس مؤخرتنا ثم ان الضباط يقيمون وليمة على خنزير في مقر القس ، والجنود قد انتشروا في أنحاء القرية ويرتكبون الآن كل أنواع التصرفات اللاأخلاقية مع سكان البلدة من الاناث . في هذا الصباح أوثقوا جندياً من سريتك لأنه صعد إلى العليّة مطارداً امرأة في السبعين من عمرها . والجندي بريء لأنه لم يُذكر في الأمر اليومي الحد الأقصى لأعمار النساء المسموح بمطاردتهن .

قال شفيك :

— الرجل بريء حقاً ، لأنه عندما تتسلق امرأة عجوز السلم لا يستطيع المرء رؤية وجهها . لقد حدثت معنا قصة مشابهة خلال المناورات قرب « تابور » . كانت إحدى فصائلنا قد نزلت في حانة وراحت احدى النساء تمسح الأرض في البهو حين اقترب منها جندي يدعى « خراموستا » وضربها على . . . ماذا أقول ؟ على تنورتها التحتانية.

كانت تنورتها منتفخة تماماً وحين ضربها عليها لم تحتج . فضربها مرة أخرى ثم ثالثة ولم تحتج أيضاً ، وكأن الأمر لم يكن يهمها اطلاقاً. وهكذا قرر أن يبدأ بالعمل ولكنها استمرت في مسح الأرض بهدوء. وبعد ذلك التفتت اليه ونظرت في عينيه وقالت : « هل سُمِح لك بذلك أيها الجندي ؟ » ، كانت المرأة فوق السبعين وقد روت هذه الحكاية لكل القرية . . . والآن أود أن أسألك ان كنت قد سجنت مرة أخرى خلال غيابي أنت أيضاً ؟

قال ماريك بلهجة الاعتذار :

– لم تكن هناك فرصة لذلك ، ولكن فيما يخصك عليّ أن أبلغك أن الكتيبة أصدرت مذكرة توقيف في حقك .

قال شفيك :

– لا يهم . إنهم على حق في فعل ذلك . كان على الكتيبة أن تفعل ذلك ، كما كان من واجبها أن تصدر مذكرة توقيف في حقّي ، لأنه ليس هناك من يعرف أين كنت غائباً هذه الفترة الطويلة . لم تتسرّع الكتيبة في ذلك . . . حسناً ، هل قلت لي إن كل الضباط موجودون في مقر القس يحتفلون بوليمة على خنزير ؟ اذن علي أن أذهب إلى هناك وأقدم نفسي حتى يعرفوا أني قد عدت . أنا واثق أن الملازم الأول لوكاش كان قلقاً جداً عليّ.

انطلق شفيك نحو مقر القس بخطوة عسكرية ثابتة وهو يغني :

«والآن انظري إليّ يا كنزي ، انظري إلي !

ياكنزي انظري إليّ !

انظري كيف حولتّوني إلى سيد مهذب . . .

سيد مهذب . . . »

بعد ذلك دخل شفيك إلى مقر القس وصعد الدرج إلى الغرفة العلوية من حيث كانت تصدر أصوات الضباط .

كان الضباط يتحدثون عن كل شيء يجري فوق ظهر البسيطة وكانوا سيتحدثون عن اللواء والفوضى التي في قيادته . بل أن مساعد اللواء صبّ الزيت على النار فقال :

ـ لقد أرسلنا برقية البارحة بسبب ذلك الشخص المسمى شفيك . شفيك . . .

صاح شفيك من الباب نصف المفتوح :

ـ حاضر !

ثم كرر وهو داخل :

ـ حاضر ! أبلغكم بتواضع يا سيدي أني جندي المشاة شفيك ، جندي ارتباط السرية الحادية عشرة المتقدمة .

وما أن رأى وجهي النقيب ساغنر والملازم الأول لوكاش المصابين بالذهول ، اللذين كان ممكناً أن يقرأ فيهما يأس أبكم ، حتى انطلق يقول دون أن ينتظر أية أسئلة :

ـ أبلغكم بتواضع أنهم أرادوا أن يعدموني لأني خنت صاحب الجلالة الامبراطورية .

قال الملازم الأول لوكاش يائساً :

— كرمى للمسيح ، ما الذي تتحدث عنه ؟

كان وجهه شاحباً كالموتى .

— أبلغكم بتواضع يا سيدي أن المسألة كانت كما يلي . . .

ثم بدأ شفيك يصف بالتفصيل ما حدث له بالفعل .

نظروا إليه بعيون محدقة وبينما كان يروي قصته بكل التفاصيل الممكنة دون أن ينسى حتى زهور « لا تنسني » التي كانت متفتحة على سد البحيرة حيث أصابه سوء الحظ . وحين ذكر لاحقاً أسماء التتر الذين تعرّف عليهم خلال رحلته ، من أمثال « علي ملا بالي بلك » ، والتي أضاف اليها سلسلة كامله من الأسماء التي اخترعها هو بنفسه مثل «فاليفولافاليفيك» و « مالليمولا ماليميك » ، لم يستطع الملازم الأول إلاّ أن يقول :

— سأرفسك على مؤخرتك أيها البغل . استمر ولكن اختصر وتكلم في صميم الموضوع .

ثم استأنف شفيك الكلام بالاتساق المعهود ، وحين وصل إلى المحكمة الميدانية الموجزة والجنرال والرائد ، ذكر أن الجنرال كان يغمز بعينه اليسرى وأن عيني الرائد كانتا زرقاوين .

ثم أضاف لاحقاً على القافية :

— وكانا يتفحصانني مرتين مرتين .

رمى الملازم الأول زيمرمان قائد السرية الثانية عشرة شفيك بكأس كان قد شرب منه المشروب الروحي القوي الذي اشتري من اليهودي.

ولكن شفيك استمر دون اكتراث في شرح عملية تلقيه للسلوان الروحاني لاحقاً وكيف أن الرائد نام معانقاً إياه حتى الصباح. ثم روى كيف دافع عن نفسه جيداً في اللواء حيث تم ارساله بعد أن بلّغت عنه الكتيبة بأنه مفقود وطلبت عودته . ثم سلّم شفيك الوثائق إلى النقيب ساغنر ليثبت أن ساحته تبرّئت من كل الشكوك وذلك من قبل أعلى سلطة في اللواء ، وأضاف :

– أبلغكم بتواضع يا سيدي أني أسمح لنفسي بابلاغكم أن الملازم الأول دوب في اللواء الآن ومصاب بارتجاج في الدماغ ، وقد طلب مني أن أذكره لكم . هل لي أن أحصل على راتبي وتعويض التبغ من فضلكم ؟

تبادل النقيب ساغنر والملازم الأول لوكاش نظرات متسائلة ولكن الباب فُتح في تلك اللحظة وتم ادخال حساء لحم الخنزير الساخن الذي يخرج منه البخار في وعاء أشبه بالحوض .

كانت تلك هي بداية كل تلك المتع التي كانوا ينتظرونها منذ فترة طويلة .

قال النقيب ساغنر لشفيك وكان في مزاج طيّب بسبب الوجبة اللذيذة التي كان مقدماً على تناولها :

– أيها النغل اللعين ، لقد أنقذتك وليمة لحم الخنزير !

أضاف الملازم الأول لوكاش :

– يا شفيك ، اذا حدث أي أمر آخر فسيكون يومك مشؤوماً حقاً.

قال شفيك وهو يؤدي التحية :

أبلغكم بتواضع يا سيدي أنه سيكون يوماً مشؤوماً بالفعل وحين يكون المرء في الجيش فان عليه أن يكون واعياً ومدركاً ! . .

هدر به النقيب ساغنر

انصرف . . !

وانصرف شفيك ونزل إلى المطبخ . وهناك كان بالون المحطم قد عاد وراح يسأل ان كان يستطيع أن يخدم ملازمه الأول لوكاش خلال تقديم الوليمة

وصل شفيك في تلك اللحظة نفسها التي كان يورايدا يتجادل فيها مع بالون .

وخلال الجدال استعمل يورايدا بعض العبارات غير المفهومة.

قال لبالون :

ـ أنت « هودولوس فوراكس » .. ستظل تحشو بطنك حتى يتصبب منك العرق ، واذا كنت سأدعك تأخذ البيترنيتسه إلى الطابق العلوي لكنت ستمارس ما يمارسه « تعزبول » معها على الدرج .

كان للمطبخ مظهر آخر الآن . فقد كان رقيبا الامدادات التابعان للكتيبة والسرية يقضمان الطعام وفقاً للرتب ولخطة يورايدا الموضوعة بعناية . ومن حوض غسيل قذر كان كتبة الكتيبة وعمال هاتف السرية وواحد أو اثنان من ضباط الصف يلتهمون بشره حساء لحم الخنزير الذي كان قد تم تخفيفه بالماء المغلي حتى يحصل الجميع على لقمة أو اثنتين .

قال فانييك لشفيك وهو يقضم قدم الخنزير .

— منذ لحظة كان ماريك هنا وقال إنك قد عدت وعليك بزة جديدة . وهذا يعني أنك قد وضعتني في ورطة حقيقية . وقد راح يخيفني قائلاً إننا لن نستطيع تصحيح حساباتنا مع اللواء بسبب هذه البزة . لقد وجدت بزتك القديمة على سد البحيرة وأبلغنا اللواء عبر ديوان الكتيبة بذلك . لقد بلغت أنك قد غرقت خلال الاستحمام . لم يكن عليك أن تعود الينا وتسبب كل هذه المشاكل بسبب بزتيك. ليست لديك أدنى فكرة عما فعلته للكتيبة . كل جزء من بزتك هذه قد دخل في دفاترنا . إنها مسجلة على أنها زائدة في لائحة البزات الخاصة بالسرية . إذاً ، فلدى السرية الآن بزة كاملة زائدة عن الحاجة . ولقد بلّغت ذلك إلى الكتيبة . والآن سيصل بلاغ من اللواء بأنه لديك بزّة جديدة هنا . ولأن الكتيبة ستبيّن في سجلات إمداداتها أنّ هناك بزّة كاملة زائدة عن الحاجة . . . أستطيع أن أتصوّر أن هذا سيعني ما يلي: ستأتي إلينا لجنة تفتيش بسبب ذلك . بسبب شيء تافه كهذا ستأتي هيئة الامداد والتموين للتفتيش علينا . واذا ماضاع ألف زوج من الأحذية ما كان هناك من يكترث بذلك . . .

استأنف فانييك بمأساوية وهو يمص النخاع من العظمة التي وقعت في يده ويخرج البقية بعود ثقاب كان يستعمله بدلاً عن نكاشة الأسنان:

— بسبب شيء تافه كهذا ستأتي لجنة تفتيش بكل تأكيد . حين كنت في الجبال الكارباتية حدث تفتيش هناك بسبب أمر لم يتم تنفيذه يقضي بخلع أحذية الجنود المتجمدين دون أن يصيب الأحذية أي ضرر . وقد حاولوا أن يخلعوها عن هؤلاء ولكن الحذاء كان يتفتق قبل أن

يخلع من أقدام الجنود المتجمّدين ، وكان أحدهم قد خرّب حذاءه حتى قبل أن يموت . وهكذا حصل الأذى . فقد وصل ضابط برتبة عقيد من هيئة الامداد والتموين ولو لم يحدث أن أصيب في رأسه لحظة وصوله برصاصة روسية وسقط إلى الوادي لما كنت سأعرف ما كان سيحدث لنا .

سأله شفيك باهتمام :

— هل خلعوا له حذاءه هو أيضاً ؟

قال فانييك متأملاً :

— لقد فعلوا ذلك ، ولكن لم يعرف أحد من فعل ذلك ، لذلك لم نستطع ادخال حذاء العقيد في سجلاتنا .

عاد يورايدا من الطابق العلوي وسقطت أول نظرة له على بالون المغلوب على أمره جالساً إلى القرب من الموقد وهو يحدّق في بطنه المهزول بيأس مخيف .

قال الطباخ متعاطفاً :

— لاشك وأنك تنتمي إلى طائفة « الهيسيشاست» . فهم ينفقون أيامهم أيضاً وهم ينظرون إلى سررهم حتى يتصوّروا أن هناك هالة تلتمع من حولها . وبعد ذلك يفترضون أنهم وصلوا إلى الدرجة الثالثة من الكمال .

مدّ يورايدا يده إلى الفرن وأخرج منه قطعة صغيرة من مقانق الدم.

قال بود :

— والآن ضع هذا في بلعومك وكُلْ حتى تنفجر . اخنق نفسك أيها الجشع النهم .

وهنا جرت الدموع من عيني بالون .

قال بحزن وهو يبتلع قطعة المقانق الصغيرة :

— في البيت حين كنّا نذبح الذبيحة كنت آكل أولاً قطعة كبيرة من رأس الخنزير المسلوق ، خطمه بالكامل وقلبه وأذنه وجزءاً من كبده وكليتيه وطحاله وشريحة من أضلاعه ولسانه ، وبعد ذلك . . .

ثم أضاف بصوت خفيض وكأنه يروي حكاية أسطورية :

— وبعد ذلك يأتي دور البيترنيتسه ، ست قطع ، عشر قطع ، ثم مقانق الدم المحشية باللحم والشعير المبرغل أو فتات الخبز ، حتى أنك لا تعرف من أين تبدأ القضم ، تلك التي فيها فتات الخبز أم تلك التي فيها الشعير المبرغل . كان كل شيء يذوب على لسانك ، وكل شيء يفوح برائحة طيبة ، وهكذا كنت تستمر في الأكل والأكل .

ثم استأنف منتحباً :

— لذا أظن أن الرصاص لن يقربني بل الجوع هو الذي سيقتلني ، ولن أتذوق في حياتي مرة أخرى مثل مقانق الدم المشوية تلك التي عرفتها في بيتي . أما لحم الخنزير المسلوق والمحفوظ في الخل فلم أكن أحبه كثيراً لأنه يرتجّ كالهلام فلا تلتذّ له بطعم . أما زوجتي فكانت على العكس مني تهوى لحم الخنزير المخلّل وما كنت أسمح لها أن تضع حتى قطعة من اذن خنزير مع ذلك المخلل لأني كنت أحب التهام كل شيء بنفسي وبالطريقة التي أفضلها . لم أكن أعطي تلك المأكولات

اللذيذة حقها ولا العيش الهنيّ حقه ، بل أني رفضت مرة أن أدع حماي العجوز يلمس خنزيره . فقد ذبحتُه والتهمتُه لوحدي بوحدي وكنت جشعاً إلى حد أني لم أرسل له ولا « سبتاً» واحداً منه ، وقد تنبّأ لي بعد ذلك بأني حين أموت فسيكون ذلك جوعاً .

قال شفيك الذي لم تعد تخرج من فمه سوى القوافي في هذه الأيام:

— وهكذا أرى حالتك كماً ونوعاً !

كان يورايدا قد سبق له وتغلّب الآن على نوبة العطف التي انتابته تجاه بالون ، لأنالأخير كان قد تسلّل بخفة نحو الموقد وأخرج من جيبه قطعة خبز وحاول أن يغطسها كلها في المرق الذي كان يتجمع حول الكتلة الكبيرة من لحم الخنزير الذي يشوى في المشواة الكبيرة .

ضربه يورايد على يده فسقطت قطعة خبز بالون في المرق كما يقفز السابح من لوح القفز إلى النهر .

وقبل أن تتاح لبالون فرصة اختطاف الطعام اللذيذ من المشواة كان يورايدا قد قبض عليه وطرده من الباب .

وراح بالون المحطّم يرى من خلال النافذة كيف أخرج يورايدا بشوكة قطعة الخبز التي أصبحت بنيّة اللون من المرق ، وأعطاها إلى شفيك ووضع عليها قطعة من اللحم اقتطعها من قمة اللحم المشوي وهو يقول :

— كل يا صديقي العزيز القديم المتواضع .

انتحب بالون خلف النافذة قائلاً :

— أيتها الأم المقدسة . يا أم الله ! لقد ذهب خبزي أدراج الرياح.

ثم انطلق وهو يؤرجح ذراعيه الطويلتين ليبحث عن طعام شهي في القرية .

وبينما راح شفيك يأكل هدية يورايدا السخيّة قال بفم مليء :

— يسعدني حقاً أني قد عدت مره أخرى لأكون بين جماعتي . كنت سأصاب بخيبة أمل كبيرة لو لم تتح لي الفرصة لأعود وأقدم للسرية خدماتي الفعّالة .

ثم مسح عن ذقنه حبات المرق والدهن التي كانت تتساقط من قطعة الخبز وقال :

— لا أستطيع بالفعل أن أتصوّر ما الذي كنتم ستفعلونه بدوني لو كنت قد حُبست في مكان ما واستمرت الحرب بضعة سنين أخرى ؟

سأله فانييك باهتمام :

— كم ستدوم الحرب يا شفيك ؟

أجاب شفيك :

— خمسة عشر عاماً ، وهذا واضح لأنه كانت هناك مرة حرب الثلاثين عاماً ، والآن نحن أكثر ذكاء بمرّتين مما كانوا عليه سابقاً ، لذا يتوجب تقسيم الثلاثين على اثنين ، أي خمسة عشر عاماً .

قال يورايدا :

— لقد حكى لنا وصيف نقيبنا أنه سمع أننا ما أن نحتل حدود غاليسيا حتى نتوقف عندها . وبعد ذلك سيبدأ الروس بالتماس السلم .

قال شفيك مؤكداً :

– في مثل تلك الحالة لن يكون في الأمر ما يستحق حرباً على الاطلاق . حين تكون هناك حرب دائرة فلتكن حرباً حقيقية . لن نسمع بالسلام على الأرجح حتى نصل إلى موسكو أو بتروغراد . (١) وعلى أية حال ، فحين تكون هناك حرب عالمية دائرة فسوف لا يكون من اللائق الجلوس على مؤخراتنا قرب الحدود . فلنأخذ مثلاً السويديين خلال حرب الثلاثين عاماً . لقد قطعوا كل تلك المسافات حتى وصلوا إلى « نيميتسكي برود » و « ليبنيتسه » ، حيث قاموا بانتهاكات جعلت الناس فيهما يتحدثون بالسويدية حتى يومنا هذا في الحانات ، بعد أن ينتصف الليل ، بحيث لا يفهمون بعضهم البعض . أو خذ مثلاً البروسيين : لم يكونوا بالضبط جيراننا المباشرين ومع ذلك فقد استطاعوا في ليبنيتسه أن يتركوا وراءهم مجموعات من البروسيين . بل أنهم وصلوا حتى «بيدوخوف » وأمريكا ثم عادوا من جديد .

قال يورايدا الذي كان في هذا اليوم قد فقد توازنه بسبب وليمة لحم الخنزير ، وكان ذهنه مشوشاً :

– وزيادة على ذلك ، فالناس كلهم منحدرون من سمك الشبوط . خذوا مثلاً نظرية داروين في الارتقاء أيها الشباب . . .

وقد قاطع له تأملاته الدخول الفجائي لماريك الذي صاح :

– فليأخذ الشيطان هذا الأخير ، فقد وصل منذ لحظة الملازم الأول دوب في سيارة إلى قيادة الكتيبة وقد جلب معه المرشح بيغلر بسرواله الذي برز فيه .

---

١ – يقصد عاصمة روسيا القيصرية في ذلك الحين أو سانت بيترسبورغ . (المترجم)

استأنف ماريك قائلاً :

– المسألة رهيبة معه ، فحين خرجا من السيارة اندفع هو نحو الديوان . أنتم تعرفون جيداً كيف أني حين خرجت من هنا قلت لكم أني سأغفو قليلاً . حسناً ، لقد تمدّدت على مقعد في الديوان وبدأت أغفو بسعادة حين انقض عليّ فجأة . صاح المرشح بيغلر : « انتباه ! » ثم جعلني « دوب » أنهض ثم انقض علي قائلاً : « أنت مندهش أليس كذلك لأني أمسكت بك في الديوان وأنت تقصر في أداء واجباتك ؟ النوم مسموح به بعد وصول آخر بريد فحسب . » وأضاف بيغلر على ذلك : « الفقرة ١٦ ، البند التاسع من أنظمة الثكنات » . ثم ضرب دوب الطاولة بقبضته وصاح : « ربما أردت أن تحاول التخلص مني نهائياً بطردي من الكتيبة . لا تتخيل أني أصبت بارتجاج في الدماغ ، فجمجمتي تتحمّل أي شيء . » وفي هذه الأثناء فحص المرشح بيغلر الأوراق التي كانت على الطاولة وقرأ بصوت مرتفع لنفسه واحدة من الوثائق : « أمر موجّه إلى الفرقة رقم ٢٨٠ » . وقد ظن دوب أن بيغلر كان يسخر منه بسبب عبارته الأخيرة حول أن جمجمته تستطيع احتمال كل شيء ، فبدأ يقرعه على سلوكه الوقح غير اللائق تجاه الضباط الأعلى رتبة وهو يصطحبه الآن إلى النقيب ليشتكي عليه.

بعد لحظة وصلا إلى المطبخ ، حيث كان عليهما المرور به قبل الصعود إلى الطابق العلوي حيث كان جميع الضباط جالسين وحيث كان الملازم الأول « مالي » البدين ، بعد أن استمتعوا باللحم المشوي ، يغني لحناً من أوبرا « ترافياتا » ويتجشأ أيضاً بسبب الملفوف والوايمة العامرة.

وحين دخل الملازم الأول دوب إلى المطبخ صاح شفيك :

ـ انتباه ! قفوا جميعاً !

اقترب دوب من شفيك إلى حد أنه صاح في وجهه مباشرة : « والآن سيصالك الانتقام ! الآن آمين عليك ! سأحنطك كنصب تذكاري للفوج الواحد والتسعين ! . »

قال شفيك محيياً :

ـ كما تأمر يا سيدي . أبلغكم بتواضع يا سيدي أني قرأت مرة أنه حدثت معركة هائلة سقط فيها الملك السويدي مع حصانه المخلص . وقد أرسلت كلا الجثتين إلى السويد وهما تقفان محنطتين الآن في متحف ستوكهولم .

صاح الملازم الأول دوب :

ـ ومن أين لك هذه المعرفة أيها الحيوان ؟

ـ أبلغكم بتواضع يا سيدي أني عرفتها من أخي معلم المدرسة .

التفت الملازم الأول دوب ثم بصق ودفع بالمرشح بيغلر أمامه على الدرج وهو يقوده نحو القاعة الكبيرة . ولكنه لم يستطع حين وصل إلى الباب سوى أن يلتفت وينظر إلى شفيك . وبالقسوة المطلقة التي كانت تميز الامبراطور الروماني الذي يقرر مصير مصارع جريح في سيرك، فقد أشار بابهام يده اليمنى اشارة خاصة وصاح بشفيك :

ـ الابهام نحو الأسفل .

فصاح به شفيك ملاحقاً اياه بصوته :

ـ أبلغكم بتواضع يا سيدي أنه سبق لي ووضعته نحو الأسفل !

كان المرشح بيغلر في حالة من الضعف والوهن . فخلال الفترة الماضية مرّ بعدد متنوع من مشافي الكوليرا واعتاد على كل الممارسات التي طبقت عليه كشخص يشتبه بأنه مصاب بالكوليرا . ونتيجة لذلك بدأ يبرّز باستمرار ولا ارادياً في بنطاله . وحين وصل أخيراً في أحد تلك المشافي إلى يدي خبير لم يستطع أن يجد في برازه عصيات الكوليرا ، ربط هذا الخبير مصارينه بحمض التنّيك كما يربط الاسكافي الحذاء المثقوب بالحياطة ، ثم أرسله إلى أقرب محطة عبور . ورغم أن بيغلر كان ضعيفاً جداً إلا أن الخبير أعلن أنه صالح للخدمة . فقد كان رجلاً طيب القلب .

وحين قال له المرشح بيغلر إنه يشعر بوهن شديد قال هذا مبتسماً :

— سيكون بامكانك أن تحمل وسام الشجاعة الذهبي . وعلى أية حال فأنت قد تطوّعت للخدمة في الجبهة . أليس كذلك ؟

وهكذا انطلق المرشح بيغلر ليحاول كسب الميدالية الذهبية .

لم تعد مصارينه التي تمسّت كالفولاذ تخرج سائلاً رقيقاً ينزّ إلى بنطاله ، ولكنه لا يزال يعاني من اسهال متواصل ، اذ أن رحلته من آخر محطة عبور وحتى وصوله إلى قيادة اللواء حيث قابل الملازم الأول دوب ، كانت عبارة عن رحلة زارفيها كل دورات المياه الممكنة . وقد فاته القطار مرات عديده لأنه كان يجلس في دورة مياه المحطة لفترة طويلة بحيث كان القطار ينطلق بدونه . وقد فشل عدة مرات في تغيير القطار لأنه كان جالساً في دورة مياه القطار .

ولكنه رغماً عن ذلك كله وفي تحدٍّ لكل دورات المياه تلك التي كانت تعيق رحلته اقترب المرشح بيغلر شيئاً فشيئاً من قيادة اللواء .

كان على الملازم الأول دوب أن يتبقّى بضعة أيام أخرى قيد المعالجة في قيادة اللواء ، ولكنه في ذلك اليوم نفسه الذي انطلق فيه شفيك نحو الكتيبة عاد الطبيب فغيّر رأيه فيما يخصّ الملازم الأول دوب ، وذلك حين علم أنه في فترة بعد الظهر ستمر سيارة اسعاف باتجاه كتيبة الفوج الواحد والتسعين .

كان سعيداً جداً بالتخلص من الملازم الأوّل دوب الذي كان يدعم دائماً تأكيداته بهذه الكلمات : « لقد تحدثت مع ممثل الحكومة المركزية في المقاطعه حول هذا قبل الحرب » .

فكر الطبيب في نفسه : « يمكنك أن تقبّل مؤخرتي بممثل حكومتك المركزية ذاك . » وقد كان ممتناً جداً للحظّ السعيد الذي جلب سيارات اسعاف متجهة إلى « كاميونكا سترومیلوفا » عبر « زولتانتسه » .

لم يكن شفيك قد رأى المرشح بيغلر في قيادة اللواء، لأن هذا كان جالساً مدة ساعتين في إحدى دورات المياه المخصصة لضباط اللواء . بل يمكن للمرء أن يكون جريئاً إلى حد أن يدّعي أن المرشح بيلغر لم يضيّع وقته سدى في تلك الدورات ، فقد كان يراجع بينه وبين نفسه كل تلك المعارك المجيدة للجيوش النمساوية — الهنغارية البطلة ، من «معركة فوردلينغن» في السادس من أيلول (سبتمبر) عام (١٦٣٤) وحتى « معركة سارايیفو » في التاسع عشر من آب (أغسطس) من عام (١٨٨٨) .

وبعد أن كان يسحب السلسلة المرتبطة بـ « السيفون » عدداً لا يحصى من المرات وينلدفع الماء هادراً ، كان يغلق عينيه ويسمع هدير المعارك وهجوم الفرسان وقصف المدفعية .

لم يكن لقاء الملازم الأول دوب بالمرشح بيلغر باعثاً على السرور جداً بل لابد وأنه ترك نوعاً من الجفاء الذي طبع علاقاتهما المستقبلية خلال الخدمة وخارجها .

وقد حدث أنه بينما كان الملازم الأول دوب يحاول عبثاً أن يدخل دورة المياه للمرة الرابعة ، راح يضرب يائساً : « «من هناك ؟ »

فجاءه الجواب :

— المرشح بيلغر ، السرية الحادية عشرة المتقدمة ، الكتيبة « ن » . الفوج الواحد والتسعون .

فأعلن المنافس عن اسمه أمام الباب قائلاً :

— هنا الملازم الأول دوب من السرية نفسها .

— سأخرج خلال لحظة يا سيدي .

— أنا في الانتظار !

نظر الملازم الأول دوب متبرّماً إلى ساعته . لا يمكن لاحد أن يصدّق مقدار الطاقة والعناد المطلوبين حتى يتحمّل المرء فترة خمسة عشر دقيقة أخرى في مثل ذلك الوضع أمام الباب ، وبعد خمس دقائق أخرى ، ثم خمس أخرى أيضاً ، وبعد القرع على الباب ورفسه ، كان يستلم الجواب نفسه : « سأخرج خلال لحظة يا سيدي . »

اشتد انفعال الملازم الأول ، خاصة وأنه بعد أن سمع خشخشة الورق وأحس باقتراب الفرج ، انتظر سبع دقائق أخرى دون أن يفتح الباب .

وزيادة على ذلك فان المرشح بيغلر كان شديد الحرص على التهذيب بحيث لم يجذب سلسلة « السيفون » .

وهكذا بدأ الملازم الأول دوب المحموم يفكر في الشكوى إلى قائد اللواء الذي قد يأمر بكسر الباب واخراج المرشّح بيغلر من دورة المياه . كما خطر له أنه ربما يكون هذا التصرف دليلاً على العصيان من قبل المرشح .

ولم يدرك الملازم الأول دوب إلاّ بعد مرور خمس دقائق أخرى أنه لم يعد يستطيع فعل أي شيء ضمن دورة المياه وأن الحاجة قد ولّت بعيداً . ولكنه ظلّ مع ذلك واقفاً أمام باب دورة المياة بدافع ما ، واستمرّ يرفس الباب الذي كان يأتيه من خلفه الجواب نفسه دائماً : « سأخرج خلال لحظة يا سيدي . »

وأخيراً كان ممكناً سماع بيغلر وهو يشدّ سلسلة « السيفون » وبعد وقت قصير التقيا وجهاً لوجه .

ضاح به الملازم الأول دوب :

— يا مرشح بيغلر ، لا تظن أني هنا للغرض نفسه الذي جئت لأجله إلى هنا . لقد جئت إلى هنا لأنك لم تقدّم لي نفسك حين وصلت إلى قيادة اللواء . هل أنت جاهل بالأنظمة ؟ هل تعرف لمن عليك اعطاء الأفضلية؟

فتّش المرشح بيغلر في ذاكرته لفترة ليرى ان كان قد ارتكب ماهو مخالف للانضباط والتعليمات الخاصة بالعلاقة بين الضباط ذوي الرتب المختلفة .

وقد كان في ذهنه هوة عميقة فيما يخص هذا الموضوع .

ففي المدرسة الحربية لم يحاضر أحد فيهم حول كيفية تصرف ضابط أدنى رتبة تجاه آخر أعلى رتبة في مثل هذا الموقف . ففي مثل هذه الظروف هل يتوجب عليه أن يتوقف عن تفريغ أحشائه في منتصف العملية ويخرج من باب دورة المياه وهو يمسك ببنطاله بيد ويحيي بالأخرى ؟

صاح به الملازم الأول دوب بتحد :

ـ هل لك أن تجيب من فضلك يا مرشح بيغلر ؟

ثم تذكر بيغلر جواباً بسيطاً جداً حل كل الخلاف :

ـ يا سيدي ، لم أعلم بعد وصولي إلى قيادة اللواء انك هنا ، وبعد أن أكملت شؤوني ذهبت فوراً إلى دورة المياه حيث بقيت فيها حتى وصولك .

ثم أضاف بصوت رزين :

ـ المرشح بيغلر يقدم نفسه للملازم الأول دوب .

قال الملازم الأول بحدة :

ـ أنت تعرف أن هذا ليس مجرد أمر تافه . ففي رأيي يا مرشح بيغلر ، كان عليك حال وصولك إلى قيادة اللواء أن تسأل في الديوان ان كان هناك بالصدفة أي ضابط من كتيبتك أو سريتك . وسنقرر على أية حال في أمر سلوكك هذا في الكتيبة . أنا ذاهب إلى هناك بالسيارة وسوف ترافقني . « ولكن » ؟ لا أريد أن أسمع أية « لكن » منك ، أرجوك !

وقد احتج المرشح بيغلر بأنه حصل من ديوان قيادة اللواء على أمر بالذهاب بالقطار وأن هذه الوسيلة أكثر ملاءمة له بسبب تلبّك أحشائه. وأي طفل يعرف أن السيارات ليست مجهّزة لمثل هذه الطوارىء . وقبل أن تقطع مسافة الـ١٨٠ كم ستكون قد فعلتها في بنطالك .

والسماء وحدها تعرف ما حدث ، ولكنهما بعدأن انطلقا بالسيارة فان اهتزازات السيارة لم تؤثر مبدئياً على بيغلر .

كان الملازم الأول دوب في يأس كامل بسبب عدم قدرته على تنفيذ خطته الانتقامية .

وحين انطلقا بالسيارة فكر في نفسه : « انتظر فحسب يا مرشح بيغلر ؟ فحين تشعر بالحاجة إلى ذلك لا تتخيّل أني سأوقف السيارة لأجلك . »

وبهذا المعنى وفيما يخص المدى المسموح به اسرعة السيارة التي كانت تلتهم الكيلومترات التهاماً ، بدأ دوب حواراً ممتعاً مع بيغلر . السيارات العسكرية ذات الطرق المبرمجة الثابتة لا يجب أن تنفق البنزين هدراً ولا تستطيع أن تتوقف في أي مكان .

وقد اعترض المرشح بيغلر على ذلك ومن وجهة نظر صحيحة فقال إن السيارة تتوقف في أي مكان حيث أنها لا تستعمل البنزين في حال الوقوف اذ أن السائق يطفىء المحرك .

استأنف الملازم الأول دوب بعناد :

— ولكنها يجب أن تصل إلى هدفها في الوقت المحدد لها ، أي لا يجب أن تتوقف في أي مكان على الطريق .

لم يجب المرشح بيغلر على هذا .

وهكذا راحت السيارة تسابق الريح لمدة ربع ساعة حتى أحس الملازم الأول دوب فجأة أن أحشاءه قد انتفخت وأنه من المرغوب فيه ايقاف السيارة والخروج منها والذهاب إلى حفرة ما وانزال بنطاله ونشدان الفرج .

وقد سيطر على نفسه سيط ة الأبطال حتى وصلوا إلى الكيلو متر رقم ١٢٦ ، حين جذب السائق من معطفه وصاح في أذنه :

— قف !

قال الملازم الأول دوب بلطف وهو يقفز بسرعة إلى خارج السيارة باتجاه الحفرة .

— يا مرشح بيغلر ، هاهي فرصتك أنت أيضاً .

أجاب المرشح بيغلر :

— لا ، شكراً . لا أحبّ إيقاف السيارة دون ضرورة .

ولكن المرشح بيغلر الذي كان قد طفح الكيل معه هو أيضاً ، قال في نفسه وهو لا يكاد يقوى على التنفس إنه لأفضل له أن يوسخ بنطاله على أن يفوّت فرصة الضحك على الملازم الأول دوب .

وقبل أن يصلوا إلى زولتانتسه كان دوب قدأوقف السيارة مرتين وبعد آخرتوقف قال لبيغلر بعناد :

— لدي للغداء بيغوس مطبوخ بالطريقة البولندية . (١) وحين

---

١ – غولاش يصنع عادة فيمدينة « تشيفيد » من لحم الخنزير المدهن والكرنب المخمر. (س.ب)

نصل إلى الكتيبة سأقدم الشكوى برقياً إلى قيادة اللواء فقد كان الغولاش سيئاً ولحم الخنزير غير صالح للأكل . ان وقاحة هؤلاء الطباخين تفوق كل الحدود . ان على أي شخص لا يعرفني أن يعرفني عاجلاً .

أجاب بيغلر :

— لقد نشر الفيلدمارشال « فوستيتس — رينبك » ، وهو من صفوة سلاح الفرسان الاحتياطي مقالة أسماها : « ماهو الضار للمعدة في الحرب » ، وقد نصح فيها بأنه لا يتوجب تناول لحم الخنزير خلال أزمات الحرب ولحظاتها العصيبة . كل افراط في الطعام خلال المسير مؤذ للمعدة.

لم يجب الملازم الأول دوب اطلاقاً ، بل فكر في نفسه قائلاً : «سرعان ماسوف أتعامل مع سعة معرفتك هذه أيها النغل . » ثم أعاد التفكير في الموضوع ورد على بيغلر بسؤال غبي :

— وهل تظن اذن أيها المرشح بيغلر أن ضابطاً أعلى منك رتبة وعليك أن تنظر إلى نفسك على أنك أدنى رتبة منه ، يأكل على نحو مفرط ؟ أو لم تكن راغباً في أن تقول يا مرشح بيغلر إني قد أفرطت في الأكل ؟ أنا ممتن لك على هذه الفظاظة . كن على ثقة من إني سأسوي أموري معك . أنت لا تعرفني بعد ، ولكنك حين تعرفني لن تنسى الملازم الأول دوب أبداً .

وبينما كان يقول هذه الكلمة الأخيرة كاد يعض على لسانه ،لأنهم طاوروا فجأة فوق حفرة في الطريق.

لم يجب المرشح بيغلر ، مما أثار ذلك بدوره الملازم الأول دوب الذي قال بفظاظة :

– اسمع يا مرشح بيغلر . أعتقد أنك تعلـّمت أن تجيب على أسئلة الضباط الأعلى منك رتبة .

قال المرشح بيغلر :

– طبعاً ، هناك مثل هذه الفقرة في النظام . ولكنه من الضروري طبعاً أن نقوم أولاً بتحليل علاقتنا المتبادلة . فعلى ما أعرف لم يتم حتى الآن تعييني في أي مكان والذا لا يوجد هناك ما يدل على أني خاضع لك مباشرة يا سيدي . والشيء الأهم طبعاً هو أنه ضمن دائرة الضباط فان أي أسئلة تطرح من قبل الضباط الأعلى رتبة يجب أن يُرد عليها عندما تتعلق هذه بمسائل الواجب . وبما أننا جالسان هنا في سيارة فنحن لا نمثل أي عنصر قتالي لأية وحدة عسكرية . والذا لا توجد أية علاقة رسمية بيننا . نحن كلانا متجهان إلى وحدتنا ، ولن يكون ردّي عليك يا سيدي رداً رسمياً اذا أجبت على سؤالك المتعلق بكوني عنيت أنك أفرطت في الطعام أم لا يا سيدي .

هدر الملازم الأول دوب :

– هل أنهيت كلامك يا . . . ؟

أجاب المرشح بيغلر بثقة :

– نعم ، ولا تنس يا سيدي أنه يتوجب على محكمة الشرف الخاصة بالضباط أن تحكم على ماجرى بيننا .

كاد الملازم الأول دوب أن يفقد صوابه لشدة الغضب والثورة . وكان حين يغضب ينطق بكلام سخيف وأحمق يفوق ما ينطق به وهو هادىء .

وهكذا همهم قائلاً :

ـ سيكون على محكمة ميدانية أن تفصل في هذا الأمر .

وقد انتهز المرشح بيغلر هذه الفرصة ليوجه له الضربة القاضية فقال بأكثر اللهجات حميمية :

ـ أنت تمزح أيها العجوز .

طلب الملازم الأول دوب من السائق التوقف ، ثم هذر قائلاً :

ـ على أحدنا أن يستأنف السير مشياً على الأقدام .

أجاب المرشح بيغلر بهدوء :

ـ سأذهب بالسيارة ، أما فيما يخصك أيها العجوز فبامكانك أن تفعل ما تريده .

زعق الملازم الأول دوب بالسائق وكأنه في نوبة من الحمى :

ـ استأنف السير .

ثم لفّ نفسه في صمت جليل أشبه بصمت يوليوس قيصر حين اقترب منه المتآمرون وهم يحملون الخناجر لطعنه .

وهكذا وصلا إلى زولتانتسه حيث التحقا بالكتيبة .

* * *

بينما كان الملازم الأول دوب والمرشح بيغلر لازال يتجادلان على الدرج ان كان من حق مرشح لم يتم تعيينه في أي مكان بعد أن يستلم حصة من البيترنيتسه الخاصة بضباط السرايا كان الجميع قد

ملؤوا بطونهم في المطبخ ، وكانوا قد تمددوا على المقاعد العريضة وراحوا يتحدثون عن كل المواضيع الممكنة وينفخون دخان غلايينهم .

قال يورايدا :

ــ حسناً ، اليوم قمت باكتشاف رائع ، وأعتقد أنه سيحقق ثورة كاملة في عالم الطبخ أنت تعرف جيداً يافانييك أني لم أستطع أن أجد أي سمسق (١) لليبترنيتسه في أي مكان في هذه القرية اللعينة .

قال فانييك الذي تذكر أنه صيدلاني وباللاتينية :

ــ «هربا ماجورانااي » .

فاستانف يورايدا :

ــ لم يسبق أن درس أي شخص كيف يمكن خلال الطوارىء أن يقوم العقل البشري باستخدام مختلف الوسائل ، وكيف تظهر آفاق جديدة أمامه ، وكيف يبدأ باكتشاف كل أنواع الأشياء الممكنة ، والتي لم تكن البشرية تحلم بها من قبل . . . حسناً ، لقد حاولت البحث عن السمسق في كل البيوت هنا ، ولقد درت وبحثت وشرحت للسكان عن دواعي استعماله وكيف هو شكله .

أعلن شفيك من مقعده :

ــ كان يتوجب عليك أن تصف لهم الرائحة أيضاً . كان عليك أن تقول ان للسمسق رائحة أشبه بتلك الرائحة التي تشمها من دواة حبر وأنت في واد من زهور الأكاسيا المتفتحة . على تلة « بوهداليتس » قرب براغ . . .

---

١ ــ السمسق : نبات عطري من فصيلة الياسمين . (المترجم)

قال ماريك مقاطعاً اياه بتوسّل :

– أرجوك ، دع يورايدا يكمل حديثه .

استأنف يورايدا قائلاً :

– في إحدى المزارع صادفت جندياً عجوزاً متقاعداً من أيام احتلال البوسنة والهرسك . لقد خدم مع « الأوهلان » في « برادوبيتسه» ولازال يتذكر التشيكية . وقد بدأ يجادلني ويقول إنهم في بوهيميا يضعون البابونج في البيترنيتسه وليس السمسق ، وأقول لكم الصدق : ماكنت أعرف بما أستطيع أن أفعله لأنه بين مختلف أنواع البهارات التي توضع في البيترنيتسه فان أي شخص عاقل وغير مغرض سيختار السمسق أولاً . وقد كان عليّ أن أجد فوراً بديلاً له ، بديلاً يمنحه مذاقاً طيباً . ثم وجدت في مزرعة شيئاً معلقاً تحت صورة قديس ، وكان ذاك اكليل زفاف من الآس . كان الزوجان عروسين جديدين وكانت أغصان الآس على الأكليل لا تزال طرية تماماً . وهكذا وضعت الآس في البيترنيتسه . وبالطبع كان علي أن أبخر اكليل الزفاف ثلاث مرات بالماء المغلي حتى تطرى الأوراق وتفقد رائحتها ومذاقها اللاذعين جداً. وحين أخذت من الزوجين اكليل الزفاف ذاك من أجل وضع الآس في البيترنيتسه سبّب ذاك الكثير من أوجاع القلب . وحين افترقنا كانا على قناعة بأني سأُقتل بأول رصاصة تالية بسبب انتهاكي للمقدّسات . ولكنكم أكلتم حساء لحم الخنزير الذي طبخته ولم يدرك أي منكم أن له رائحة الآس بدلاً عن السمسق .

تدخل شفيك قائلاً :

– في « ييندجرينوف هرادتس » ومنذ سنوات كان لدى أحد

جزاري الخنازير ويسمى « يوسيف لينيك » علبتان على رف دكانه. في احداهما كان مزيج من كل التوابل وكان يضعه مع الييترنيتسه ومقانق الدم . وفي العلبة الأخرى كان لديه مسحوق قتل الحشرات ، فقد اكتشف عدة مرات أن زبائنه قد تناولوا البق أو الخنافس ضمن مقانقه. وقد اعتاد أن يقول أنه فيما يخص البق فانه له مذاق اللوز المرّ الذي يضعونه مع الكعك المحلّى ، ولكن الخنافس في المقانق المدخنة لها رائحة الكتب المتهدمة العتيقة العفنة . ولذلك كان حريصاً جداً على النظافة في دكانه ويرش مسحوق الحشرات في كل أرجائه . وهكذا أخذ علبة مسحوق قتل الحشرات ثم رش منه على لحم المقانق الذي يصنع منه مقانق الدم: ومنذ ذلك الحين كانت الناس في «بيندجريخوف هرادتس» لا تذهب إلا إلى « لينيك » من أجل الحصول على مقانق الدم . وقد اقتحموا دكانه مرة ولكنه كان ماكراً إلى حد أنه أدرك أن مسحوق قتل الحشرات هو السبب فيما حصل، ومنذ ذلك الحين كان يطلب صناديق بكاملها من هذا المسحوق ويدفع ثمنها نقداً وعداً عند التسليم ، بعد أن طلب من الشركة التي كانت توردها له أن تكتب على الصناديق : « توابل هندية » . كان ذلك هو سره وقد ذهب معه إلى القبر . أما أكثر الأمور اثارة فكان أن كل تلك العائلات التي كانت تشتري مقانق الدم تلك تخلصت من الخنافس والبق . ومنذ ذلك الحين أصبحت « بيندجريخوف هرادتس » واحدة من أنظف المدن في كل بوهيميا .

سأله ماريك الذي أراد أن يشارك في الحديث :

– هل انتهيت ؟

أجاب شفيك :

— حسناً ، لقد انتهيت حكايتي هذه بالذات ولكن لدى حكاية مشابهة لها جرت في جبال البسكيدي ، ولكني سأحكيها لكم حين يبدأ القتال .

بدأ ماريك الكلام فقال :

— فن الطبخ أمر لا يحسن تقييمه إلا وقت الحرب وعلى الجبهة. اسمحوا لي أن أطرح مقارنة صغيرة ، ففي وقت السلم قرأنا وسمعنا عما يسمى الحساء المثلج ، أي الحساء الذي يضاف اليه الثلج والذي يلاقي اقبالاً هائلاً في شمال ألمانيا والدنمارك والسويد . وكما ترى فان الحرب قد دارت وفي الجبال الكارباثية في هذا الشتاء تناول الرجال الكثير من الحساء المثلج حتى أنهم ما عادوا يكترثون حتى بلمسه رغم أنه لذيذ إلى حد كبير .

اعترض فانييك قائلاً :

— يمكنك أن تأكل الغولاش المجمد ، ولكن ليس لفترة طويلة، اسبوعاً على الأكثر . ولهذا السبب سلّمت سريتنا التاسعة مواقعها .

قال شفيك برزانة غير عادية:

— في وقت السلم تكون كل الخدمة العسكرية متركّزة في المطبخ والأطباق المتنوعة . في بوديبوفيتسه كان لدينا ملازم أول يدعى «زاكريبيس» وكان من عادته التسكع في مطبخ الضباط ، وكلما ارتكب جندي خطأ ما، كان يجعله يقف في وضع الاستعداد ويصيح به : «أيها النغل ، افعل ذلك مرة أخرى وسأجعل من فمك شريحة . ثم سأسحقك محولاً إياك إلى هريس البطاطا وأجعلك تأكله . ستخرج منك الأحشاء والأرز وستبدو كأرنب بري مشحّم في مشواة. لذا فانه لأجدر بك

أن تحاول تحسين نفسك اذا كنت لا تريد أن يفكر الناس بأني قد حوّلتك إلى لحم مفروم مخلوط بالملفوف . »

كما جرت تفسيرات ومناقشات ممتعة أخرى حول استعمال لائحة الطعام قبل الحرب لتثقيف المحاربين ولكنها قوطعت بصراخ هائل صادر عن الطابق العلوي حيث كانت الوليمة الرائعة على وشك الانتهاء .

ومن بين الجوقة من الأصوات المختلطة رنت صرخات المرشح بيغلر :

— حتى في وقت السلم يكون على الجندي أن يعرف ما الذي ستتطلبه منه الحرب ، وفي وقت الحرب عليه أن ينسى ماتعلمه على ساحة الاستعراض .

ثم سمع صوت الملازم الأول دوب الأشبه بالشخير وهو يقول :

— أصر على أن يدوّن أن هذه هي المرة الثالثة التي أهان فيها .

كانت أحداث عظيمة تجري في الطابق العلوي .

حين دخل الملازم الأول دوب ، الذي نعرف جيداً النوايا الخيانية التي كان يحملها تجاه المرشح بيغلر فيما يخص قائد الكتيبة ، استقبل بالقهقهة من قبل الضباط . كان المشروب الروحي الذي اشتري من اليهودي يترك أثراً رائعاً على الجميع .

وهكذا راحوا الواحد بعد الآخر يصيحون وهم يشيرون إلى مهارة الملازم الأول دوب في الفروسية :

«لا تصلح الأمور دون سائس خيل! الفرس اللعوب ! كم أنفقت من الوقت مع رعاة البقر في الغرب الأمريكي أيها العجوز ؟ المدرسة العليا ! »

صب له النقيب ساغنر وبسرعة كأساً من المشروب الروحي اللعين وجلس الملازم الأول دوب الغاضب الى المائدة . حرك كرسياً عتيقاً مكسوراً ووضعه إلى القرب من الملازم الأول لوكاش الذي رحّب به بهذه الكلمات الودودة :

ـ لقد التهمنا كل شيء أيها العجوز !

لقد تم تجاهل المرشح بيغلر ، الفارس الحزين ، رغم حقيقة أنه تقدم وفق الأنظمة من النقيب ساغنر وأعلن عن قدومه له وللضباط الآخرين الجالسين حول المائدة ورغم أنهم شاهدوه وعرفوه جميعاً إلا أنه ظل يكرر مرات متتالية :

ـ المرشح بيغلر قد وصل إلى قيادة الكتيبة .

تناول بيغلر كأساً مليئة وجلس بتواضع قرب النافذة وانتظر اللحظة المناسبة لاستعراض معرفته بالكتب المدرسية .

وحين أحس الملازم الأول دوب بأن الشراب الملفّق قد بدأ يصعد إلى رأسه ، نقر المائدة باصبعه وقام مخاطباً النقيب ساغنر فجأة ـ :

ـ كان من عادتنا ، ممثل الحكومة المركزية في المنطقة وأنا أن نقول دائماً : « الوطنية والاخلاص الواجب والانتصار على الذات ، هذه هي الأسلحة التي لها قيمة في زمن الحرب . » وهذا ما أتذكره الآن على وجه الخصوص حيث أن قواتنا على وشك أن تعبر الحدود خلال زمن قصير .



« هنا وصل ياروسلاف هاشيك في املائه لرواية « الجندي الطيب شفيك وما جرى له في الحرب العالمية » . كان مريضاً جداً وقد أسكته الموت نهائياً في الثالث من كانون الثاني (يناير) من عام (١٩٢٣) .

لقد منعه الموت من اكمال رواية تعتبر وحدة من أشهر مانشر بعد الحرب العالمية الأولى من روايات ، ومن بين أكثر الكتب شيوعاً بين القراء في العالم »

الفهرس

صــدر عــن وزارة الثقافــة

مــن سلسلــة روايــات عالميــة

حتــى الآن الروايــات التاليــة

١ ـ المبــارزة	الكسنــدر كوبريــن	ترجمة : يوسف حلاق
٢ ـ مولــك	الكسنــدر كوبريــن	ترجمة : يوسف حلاق
٣ ـ ابــن لص	روخــاس سيولبيــدا	ترجمة : رفعت عطفه
٤ ـ الغــاب	ابتــون سينكلــر	ترجمة : عبد الكريم ناصيف
٥ ـ حبــة قمــح	جيمــس انغوجــي	ترجمة : عبد الكريم محفوض
٦ ـ بيدرو بارامو	خــوان رولفــو	ترجمة : صالح علماني
٧ ـ انــت جريــح	ايــرونال اوز	ترجمة : فاضل جتكر
٨ ـ لا تقتل عصفوراً ساخراً	هاربــر لــي	ترجمة : توفيق الاسدي
٩ ـ نقــود لماريــا	فالنتــين رسبوتــين	ترجمة : يوسف حلاق
١٠ ـ عنــف	فستــوس ايايــي	ترجمة : هاني الراهب
١١ ـ اطفال منتصف الليل	سلمــان رشــدي	ترجمة : عبد الكريم ناصيف
١٢ ـ ابلومــوف	ايفان الكساندروفيتش غونتشاروف	ترجمة : يوسف سلمان
١٣ ـ واينسبرغ ، اوهايو	شيروود اندرسن	ترجمة : اسامة منزلجي
١٤ ـ المعلم ومرغريتــا	ميخائيــل بولغاكوف	ترجمة : يوسف حلاق
١٥ ـ ترنيمة عيــد الميــلاد	تشــارلز ديكنــز	ترجمة : محمود منقذ الهاشمي
١٦ ـ الحصــن	اسماعيل كاداره	ترجمة : عبد اللطيف الارناؤوط

٤٠٠٠ ط١ / ١٢ / ١٩٨٦

الروايـة العالميـة

هذه هي الرواية الثالثة عشرة من سلسلة روايات عالمية التي لاقت رواجا كبيرا حيث وصلت نسخها الى اقطار الوطن العربي . ولا عجب ، فالرواية تلعب في القرن العشرين الدور الذي كانت تلعبه الملحمة في العصور القديمة ، نقصد انها خير تعبير فني – وايضا فكري – عن طبيعة المرحلة .

وسلسلتنا كشكل ، مع تكامله ، لوحة عن هذه المرحلة تتسم بالاحاطة والعمق .

من الروايات العالمية القادمة في هذه السلسلة :

ويطول اليوم اكثر من قرن	جنكيز ايتماتوف	ترجمة : عاطف ابو جمرة
صورة سيدة	هنري جمس	ترجمة : هاني الراهب
بينما ارقد محتضرة	وليم فوكنر	ترجمة : توفيق الاسدي
جودت بك واولاده	اورهان باموك	ترجمة : فاضل جتكر
تحت انظار غربية	جوزيف كونراد	ترجمة : توفيق الاسدي
ما العمل	تشير شينفسكي	ترجمة : يوسف سلمان
اللعبـة	تريفانوف	ترجمة : نزار عيون السود
ليل جليدي	باجن	ترجمة : هيفاء طعمة

سعـر النسخة
٣٥ ل.س

الطبع وفرز الألوان ـ مطابع وزارة الثقافة
دمشق ـ ١٩٨٦